مؤلفات ثروت أباظة

٥

- طائر في العنـ
- أحلام في الظ
- النهر لا يحتر
- طارق من السماء

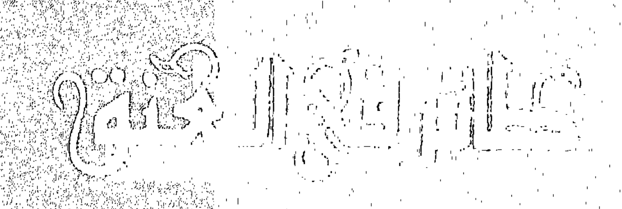
مؤلفات
ثروت أباظة
٥

طائر فى العنق
أحلام فى الظهيرة
النهر لا يحترق
طارق من السماء



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧



١

هذه هى المرة الأولى التى أمسك فيها بالقلم وأنــا لا أدرى الى أين سأرمى به ولا الى أين سيرمى هو بى ... أهى رواية طويلة ... أهى قصة قصيرة ... أهى شىء بين هذه وتلك أم هى شىء جديد بالنسبة لى أنــا ــ ولك أن تسألنى وما لك لا تفعل ــ ولمــاذا لا تصبر على قلمك وتنتظر حتى تعرف الى أى الوديان أنت متخذ ســمتك ، ومستقبل وجهتك ... ولى على سؤالك اجابة .

لقد خرجنا من فترة سياسية قلبت الموازين الاجتماعيــة كلها ، وانقلب معها ما استقر عليــه مألوف الناس ، وما تعارفوا عليــه فى مضطرب حياتهم .

وقد وقف بنا هــذا الاضطراب على أبواب حيــاة جديــدة أصبحنا نرى فيها ما تعتبره بعض الأجيال عجبا وما تعتبره أجيــال آخرون أمرا طبيعيا لا يدعو الى دهشة أو تعجب .

وقد شاء لى تزاحم الحيــاة حولى أن أرى الكثــير . وشاء لى قدرى أن أكون من أهل الرواية والقصــة . فليس عجيبا اذن أمرى اذا أنــا أمسكت بالقلم ورحت أفكر به فيما رأيتــه حولى من زحمة

الحياة ، وليس عجيبا من أمرى ولا من أمرك أن أقدم اليك ما انتهى اليه حديثى الى قلمى أو حديث قلمى الى • قد يكون بعض النـاس قد شاهد ما شاهدت وسيجد هؤلاء أن ما خبره من الحياة لم ينفرد وحده بخبره • وقد يكون بعض آخرون قد سـمع ولم يختبر ونقل اليه الأمر ولم يره ، أو قـد يكون بعض ثالث بمعزل عن مضطرب الحياة وزحمتها فلا هو رأى ما رأيت ولا هو حتى سمع عنه •

وأيا ما يكون الأمر فقراءة الشىء غير مشاهـدته وغير الاستماع اليه لأن القارىء حين يقرؤه يجده نابضا بنبض الكاتب ورؤيتـه • فلست حكاء أروى لك الخبر دون أن أنفذ الى العميق العميق من أغواره ثم أنـا ألف حوله وأدور فأرى ما يحيط به من كل جـانب فأنت لن تقرأ حديثا هامدا لا حياة فيه ولا حركة • فليست القصة أو الرواية مجرد مجموعـة من الأحداث أو من ملامح الشخصـيات أو تطور التآلف بين الحدث والشخص ، وانما القصة أو الرواية هى رؤية فنان وهى حيـاة كاملة ولعلها الحياة الوحيدة فى الحيـاة التى نعرف سرها • فسر الحياة لا يعلمه الا الله •

وما أنـا بسبيلى الى تقديمه اليك الآن لا أدرى ــ كمـا قلت لك ــ كيف أنـا سائر به أو كيف سيسير هو بى فهذا الذى أكتبـه لم أضع خطوطه العريضة وانما أنا مسلم أمرى الى ذكرياتى وتفكيرى وقلمى وهذه الذكريات فيها كثير تهادى الى من أفواه ناس عن ناس وأنـا أعرف الحاكى والمحكى عنه • وهذه الذكريات فيها ما عرفته عن مشاهدة أو ما عرفته من مشاركة ويتمازج هذا جميعه فى نفسى وعلى سن قلمى فاذا أنـا لا أدرى كيف يمكن أن تؤدى البداية فيه الى النهايـة •

***



عدلى صديقى الذى أعرفه متمسك بالأخلاق الرفيعة تمسكا لا يقبل معه التنازل عن شىء من صغائر الأمور • ولكنه أمام مشكلة عمه واقف كالحجر لا يستطيع أن يحقق ما تقاضيه به المثل ولا يستطيع أن يسكت ، أو أن نفسه تأبى عليه الهدوء أو قبول السكوت منه • وأقصى ما استطاع أن يبلغه من نفسه ومن جهده أن يدعى الجهل بكل ما يقال حول عمه •

وهو يدرك أنه بذلك الذى صنعه انما يخادع نفسه فى حين تأبى نفسه أن تنخدع فهو واياها فى صراع أى صراع ولكن مالنا نبدأ بالحديث عنه ولا نبدأ بالحديث عن عمه هذا •

هو من مواليد السنوات الأولى من هذا القرن • وهو الأخ الأصغر لوالد صديقى الحائر • وأخوه يكبره بسنوات ليست قليلة وقد مات عنهما أبوهما فواز الوسيمى والأخ الأكبر حلمى فى مدرسة الحقوق فلم تكن فى ذلك الحين تحمل اسم الكلية فما كانت الجامعة قد نشأت بعد •

وكان الأخ الأصغر حفنى متجمدا فى الابتدائية لا يريد عنهـا حولا ولا منصرفا .

وكان التعليم فى ذلك الحين قد بدأ يأخذ مكانه الرفيع من الحياة المصرية ، وكان حرص حفنى على البقاء فى الشهادة الابتدائية ينغص على أخيه حياته فهو ينظر فى هلع كلما استشرف المستقبل له ورآه فيه ضائعا كهباءة لا معنى لها ولا وجود ولا ثقل .

وكان الأخ الأكبر شـأن جيله جميعـا من المشتغلين بالقضـية الوطنيـة الا أنه أبى أن يقف موقف المعلق أو السـائر حيث تسير الجموع فقد كان صاحب قلم وصاحب مواهب خطابية فأمره بين جيله منفرد تفرد صاحب الموهبة بين عامة الناس .

وقد كانت القضية المصرية تمثل عند حلمى الحيـاة جميعا فهو ملهوب العاطفة كاره للانجليز ولكل شيء ينتمى اليهم . وقد كانت المدارس الثانوية فى ذلك الحين والتى كانت تسمى التجهيزية فيهـا قسم يدرس علومه جميعا باللغة الانجليزية وآخر يدرس علومه باللغة الفرنسية . فاختار هو الدراسـة باللغة الفرنسية امعانا منه فى كره الانجليز على الرغم من الحـاح اخوانـه الذين كانوا يريدونـه أن يدرس الانجليزية ليعرف لغة أعدائه فقد يحتاج الى مجادلتهم . وكان جواب حلمى القاطع : عليهم هم أن يكلمونى بلغتى فان لم فليتكلموا بالفرنسية أما أنـا فلن أجعلهم يرغموننى على تعلم لغتهم . وحين نال حلمى شهادة التجهيزية كان يتقن اللسان الفرنسى اتقانا نادرا فقد كان ذا موهبـة فى اللغة وأحب الفرنسية فكان الى جانب العلوم التى يتعلمها بالفرنسية كالجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء والحسـاب يقرأ فى الأدب الفرنسى بنهم شديد .

وهكذا كان الأمر ميسورا بالنسبة اليه فى الرجوع الى المراجـع

الفرنسية كما كان ميسورا له تلقى المحاضرات عن الأساتذة الفرنسيين ، ولم يكن عددهم قليلا فى هــذه الأيام • وعلى أية حال فقد أحس حلمى نفسه ســعيدا كل سعادة انه أســتطاع فى تعليمــه أن يقاطع الانجليز والانجليزية مقاطعة تامة وحين تخرج حلمى لم يصبح له عمل الا حرب الانجليز حيثما هيأت له الفرصــة حربا وان لم تهيئها اصطنعها هو اصطناعا •

كان حلمى مشغولا فى الحياة العامة بحرب الانجليز ومشغولا فى حياته الخاصــة بحرب الجهل الفاضح الذى يرزح فيه أخوه الذى يرفض كل الرفض أن يمسك كتابا أو يفكر فى امتحــان أو مستقبل يعتمد على علم •

يدأ حلمى عمله فى وزارة الداخليــة وأصر حفنى أن يتمســك بوظيفته التى يحبها ولا يفكر فى تركها • طالب بالشهادة الابتدائية • وبلغ حفنى مشارف الشباب وأصبح فى البواكير الأولى من الحياة • وكان طويل القامة جميل القســمات بصــورة لا يستطيع الانسان أن يتجاهلها • وهب الله له حب الناس ويسر الصــداقات فكل الذين زاملوه وكل أصــدقائهم الذين عرفوهم به أحبوه حبا شديدا • وقد كان يستطيع أن يجعل كل شخص منهم يعتقد أنه صــديقه الأوحــد أو الأول على الأقل • وكان كل أصدقائه يثقون بهذه الفكرة ثقــة لا تقبل المناقشــة أو التفكير • وهكذا أصبح لحفنى أصــدقاء فى المدارس التجهيزية طبعــا ومع الســنين أصبح أغلب اصــدقائه فى المدارس العليا ومن باب أولى كان له أصــدقاء كثيرون فى المدرســة الحربية ومدرسة البوليس • ولعل هؤلاء كانوا أشــد أصدقائه قربا اليه فما كان يذهب الى هاتين المدرستين الا الذين يريدون أن يتعجلوا الخروج الى الحيــاة فهم فى هــذا مع حفنى على وفاق أى وفــاق •

فما كانت هاتان المدرستان تحتمان أن يكون الملتحق بهما من حملة البكالوريا •

ويا طالما ألح حلمي على حفني أن ينال الابتدائية لعله يستطيع أن يلتحق بواحدة من هاتين المدرستين .. ولكن من أين . انه يستطيع أن يصادق أي انسان أو أي شيء الا أن يصادق الكتاب حتى وان كانت صداقة مغرضة منافقة تتقطع أواصرها اذا نال منها بغيته . عداوة موهوبة ومكتسبة ، وهكذا أصبح من الطبيعي أن يكون له أصدقاء في المدرسة الحربية أو في مدرسة البوليس ولكنه لم يستطع قط أن يخطو الى داخل واحدة منها تلميذا منتظما .

لم يستطع عمل حلمي في وزارة الداخلية أن يجعله معقولا بعض الشيء في كرهه للانجليز . فكان يكتب مقالات بتوقيع مستعار « مصري صميم » في الصحف اليومية ، وكانت السلطات البريطانية تحاول التعرف على صاحب هذا التوقيع فتصاب بالفشل الشديد فقد كان رؤساء التحرير يدعون دائما أن المقالات تأتي اليهم في البريد وأنهم ينشرونها دون أن يعرفوا اسم صاحبها . وكانوا يعلمون طبعا أن العقاب نازل بهم لنشرهم هذه المقالات ولكنهم كانوا يشعرون بالسعادة وهم يستقبلون هذا العقاب .

واستطاع حلمي عن طريق وظيفته ومقالاته أن يتعرف على رؤساء تحرير هذه الصحف . وكان حفني قد كف عن محاولته في الحصول على الابتدائية فلم يجد حلمي بدا آخر الأمر من أن يرجو صديقه فايز وهبي رئيس تحرير مجلة الفن أن يعين حفني عنده ناقدا فنيا . فالنقد لا يحتاج الى مؤهل وحفني يستطيع أن يتعرف على العاملين في المسرح وغير المسرح من ملاهي الليل .

ولم يكن حلمي يعلم أن حفني وطيد الصلة فعلا بالممثلين والمخرجين ، فقد كانت الحياة التي تجمع حلمي وحفني في بيت واحد تباعد بينهما بعد ذلك في كل شيء ، فحلمي لا يعرف عن حفني الا أنه موظف بوزارة الداخلية وحفني لا يعرف عن حلمي الا أنه خائب .

وحين تجمع بينهما المـائدة فحديث مقتضب ، فكل منهما يحيا حيـاة غير التى يحياها الآخر فان لم يكن هنـاك خبر ذو شـأن فى السياسة أو جديد يقال عن الأرض التى يملكانها والتى يشرف عليها حلمى لا يكون بينهما حديث على مائدة الغداء وهى المـائدة الوحيدة التى يمكن أن تجمع بينهما فى وجبات اليوم •

على أن مائدة الغداء هـذه نفسها قليلا ما كانت تجمع بينهما فكثيرا ما كان يتغذى كلاهما خـارج البيت أو يتغذى أحدهما على الأقل فى الخارج مع صديق له •

وعلى مائدة الغداء قال حلمى :

ــ حفنى تستطيع أن تذهب غدا الى الأستاذ فايز وهبى •

ــ صاحب مجلة الفن ؟

ــ أتعرفـه •

ــ أعرف المجلة •

ــ من أين تعرفها ؟ !

ــ أكان لابد أن أحصـل على الابتدائية حتى أعرف مجـلة الفن •

ــ كنت أحسب أن ليس لك صلة بأى قراءة •

ــ ولا حتى مجلة الفن •

ــ حسنا ••• هل تستطيع أن تكتب شيئا عن المسارح والغناء والتمثيل وما الى ذلك •

ــ طبعا ••• أنـا لى أصدقاء كثيرون بينهم •

ــ كيف ؟

ـ طول المعاشرة للمدرسة جعل لى أصدقاء فى كل مكان •

ـ حتى بين أهل الفن •

ـ خصوصا بين أهل الفن •

ـ لك حق فكلهم •••

ـ لا تكمل ••• أعرف ما ستقول •

ـ أنت تعرف أنى أقدر الفنون •

ـ ولكن هذا لن يمنعك أن تقول أن كلهم خائب مثلى •

ـ أنـا لم أقل •

ـ قلت ولكنك لم تنطق •

ـ يا خسارة يا حفنى •

ـ نعم لك حق •

ـ وفهمت هذه أيضا •

ـ ان لم أفهم أخى الذى فى مكان أبى فمن أفهم ؟

ـ لو كنت أكملت تعليمـك لاخترقت كل الصفوف لتصبح النابغة الأول فى أى ميدان تختاره •

ـ وهل يدرى أحد ياسى حلمى أين يكمن نجاحه ؟

ـ لك حق ••• فعلا لك حق ••• ان شاء الله توفق فى عملك الجديـد •

ـ بفضلك ••• ان شاء الله •

ولعلك قرأت كلمـة ياسى حلمى وأنت بين مصـدق ومكذب فما هـكذا ينادى الأخ أخاه الأكبر فان حرفى سى اللذين يشـلان

أختصارا لكلمة سيدى لم يعودا يتخذان نفس القيمة فى زمانى وزمانك الا فى بعض البلاد العربية غير مصر . ولكن هذين الحرفين فى ذلك الزمان كانا عنوان احترام شديد وتوقير .. وكان الأخ الأصغر ينادى بهما الأخ الأكبر اذا كان فارق السن بعيدا كما كان أى شاب فى أسرة ينادى من هم أكبر منه بأسمائهم مسبوقة بهذين الحرفين . ومادمت قد أخذت نفسى أن أقص عليك ما كان من شأن هذين الأخوين فحتم على أن أقص أيضا ما يعرض له الحديث من عادات العصر الذى نشآ فيه . فان لم أفعل وجدت نفسك متعجبا حينا ورافضا أيضا وأنا حريص أن أمنع عنك التعجب وأشد حرصا ألا ترفض .

***

وبدأ حفنى مستقبلا جديدا كأنما الوسط الفنى لم يخلق الا ليعيش فيه حفنى ، أو كأن حفنى لم يخلق الا ليعيش فى هذا الوسط .

اندماج فيه كأنه مولود على خشبة مسرح . وحاول بعض المخرجين أن يستغل جمال وجهه ولكن انعدام الموهبة تماما عنده وربما أيضا خشيته من أخيه كانت حائلا بينه وبين أن يكون ممثلا . فقد يقبل حلمى أن ينقد أخوه الفن ولكنه لا يسمح أبدا أن يصبح أخوه فنانا .

لم يكن المسرح فى ذلك الحين هو ذلك الفن الرفيع الذى نعرفه اليوم .. ولم يكن مستقلا كل الاستقلال عن مواخير الليل وكباريهات الرقص وبائعات الجنس .

وهكذا راح حفنى يتنقل بين أولئك النسوة فى زهو الشباب ... وعلى موائد المواخير عرف حفنى مصر كلها . كبراءها وشبابها ... عظماءها والمتسلقين حول عظمائها .. وعرف الناس من كل النحل

والمهن ••• عرف الأطباء والمحامين والكتاب والمهندسين وكبار الموظفين وصغارهم وضباط البوليس وضباط الجيش وما أكثر ضباط الجيش الذين عرفهم هناك •

وعرف أيضا ••• عرف القمار •

وعلى هذه المائدة يجتمع عالم آخر غير عالم الناس ••• وتعيش بجانب الحياة حياة أخرى •

وعرف الزجاجة ولم يحبها ولكنه كان يشرب ليجارى الجلسة •

وفى جلسة من هذه الجلسات سأله صديق جديد لم يكن رآه قبل ذلك اليوم :

ـ اسمك حفنى الوسيمى ؟

ـ نعم

ـ ترى هل لك صلة بالأستاذ حلمى الوسيمى

ـ أخى

ـ غير معقول

ـ لماذا

ـ لا •• لاشىء

ـ الا أنه جاد

ـ ماذا تقصد بجاد ؟

ـ يعنى ••• ليس مثلى

ـ على كل حال ليست دهشتى لهذا

ـ فلماذا ؟

ـ لأنه صديق قريب لى جدا وكثيرا ما نذهب الى المسارح وكثيرا ما نجلس معا فى بار اللواء وفى صولت .

ـ فلماذا لم تأت به الى هنا ؟

ـ الى هنا ... مستحيل الظاهر أنك لا تعرف أخاك

ـ هو فى مكان أبى ولكن المؤكد أن الذى أعرفه عنه أكثر مما يعرفه الآخرون حتى ولو كانوا أصدقاءه .

ـ الحقيقة أننى لم أعرف أن له أخا الا الآن ... هل أنت متأكد أنك أخوه ؟

ـ أنا متأكد ان والدتى مثل أعلى فى الشرف .

وضحك الجميع وخجل محاوره بعض الشىء وغمغم .

ـ أنا آسف ... العفو ... طبعا أنا لا ... المهم ... المهم أن هناك حقيقة عن أخيك المؤكد أنك لا تعرفها .

ـ الحقيقة أن سعادتك أكثرت من الشرب وجعلتنا نشغل الاخوان بما لا يعنيهم .

ـ الحقيقة أننى أريد أن أعلن عن بطولة أخيك التى لا تعرفها

ـ هل أنت مصمم ؟

ـ هل تقرأ وهل تقرأون المقالات الموقعة باسم مصرى صميم ؟

واختلطت أصوات التأييد وأصوات الاعجاب .

ـ أتعرفون من يكتبها ؟

وتضافرت « لا » على الشفاه ... ونظر الصديق السكران الى حفنى .

ـ أتعرف أنت ؟

ـ ومن أين أعرف ؟

ـ ألم أقل لك أنك لا تعرف شيئا عن أخيك ••• حلمى الوسيمى هو مصرى صميم ••

***

قبض على حلمى وألقى به فى السجن وفتش بيته فى القاهرة وفى قريته الرمايحة •

ولكن الغريب أن الاحتلال لم يكن يلقى الناس فى السجون دون أن يوجه لهم تهمة معينة أو يعنى على الأقل بتلفيق تهمة بذاتها يستر بها وجهه أمام العالم •

وهكذا لم يكن غريبا ألا يطول المقام بحلمى فى السجن • ولكنه حين خرج وجد نفسه مترددا فى مواصلة العمل بوزارة الداخلية ولكن السلطات المحتلة كانت على قدر من الذكاء فلم تشأ أن تنصاه ليصبح بطلا قوميا ولم تشأ أيضا أن تنقله من الداخلية حتى يظل تحت عينها • وكان يعلم أن بقاءه تحت عيونهم سيقف حائلا بينه وبين نشاطه الآخر الذى كان أكثر خطورة من المقالات •

ولم يشأ حلمى أن يستقيل ليظل قريبا من الادارة المصرية ••• ترك بضعة أيام تمر ثم ذهب الى مقهى الكلوب المصرى حيث تصحب المراقبة وتحرى ألا يجلس مع شخص واحد بمفرده بل عمد الى جماعة كان بينهم صفوت الأشمونى الذى يريد أن يكلمه • ولم يطلب الى صفوت أن ينتحى به جانبا وانما جلس الى جواره بين الجالسين وراح ينظر الى النرد الذى يتحلق حوله الآخرون • وقال صفوت :

ـ أرسلنا اليك لتبتعد عنا فترة

ـ لم يأت لى أحد

ـ يحسن أن تبتعد

ـ سأسافر الى الرمايحة فترة

ـ خيرا تفعل

ـ سأحضر أول اجتماع

ـ موعدنا كما هو لم يتغير

ـ وهو كذلك

***

لم تمنع عنه الأجازة حين طلبها . وذهب الى الرمايحة وراح يكتب المنشورات من هناك . ولم يكن غريبا أن يرى المرشدون والمخبرون فلاحا يرتدى طاقية معممة يذهب الى الكلوب المصرى . ولم يكن غريبا أيضا أن يجلس بجانب الأفندية وتنتقل المناشير فى ذكاء شديد من عبسى أحد خفراء بلدة الرمايحة الى وحيد زنكى الذى أخذ مكان صفوت فى الكلوب .

وما هى الا ليلة حتى تكون هذه المنشورات قد طبعت ووزعت فى القطر المصرى كله من أقصاه الى أقصاه موقعا عليها بتوقيع مصر .. وهل كان يكتبها الا مصر .

ولكن حفنى كان لا شأن له مطلقا بهذا الذى يصنعه أخوه وانما هو يغمر حياته فى متع كثيرة فلا يترك لحظة من حياته لا يملؤها المرح والبهجة .

***

انتهت أجازة حلمى وعاد الى القاهرة يشم فى أرجائها عبير ثورة يكاد يراها ويوشك يهتف بها ولا يطول به الانتظار .

يخترق يوم ١٣ نوفمبر حجب الغيب ، وأستار التوقع ، وسدل الحدس والتخمين ويتم ذلك اللقاء الذى بدأت به مصر حياتها السياسية فى العصر الحديث •

ومثل ريح عاصفة ، طيبة ، عاتية ولكن حنون ، مزمجرة ولكنها موسيقى التاريخ •• يصبح سعد وفهمى وشعراوى أنشودة أمل وبداية حياة لمصر وللعالم العربى ثم لكل الدول التى لا تغيب عنها شمس الامبراطورية الكريهة •

وتتواكب الأحداث ويقبض على عمالقة الثورة فيسيرون الى المنفى وكأنهم الى الاحتفال باستقلال مصر يسيرون • وتصبح مصر نارا مثل نار الحقيقة التى ألقى اليها ابراهيم عليه الصلاة والسلام ••• ولكن النار الحديثة كانت تقتل المحتل مع ذلك حين هى على الوطنيين برد وسلام • كما أمرها الله أن تكون على أبى الأنبياء •• ثم هى تنقلهم من فانية الى باقية ومن أسماء لا قيمة لها على صفحات الحياة الى خلود يظل أبد الدهر والى ما بعد الأبد مضيئا على جباه الحرية •

وفى مدرسة الحقوق يضرب الطلبة عن تلقى العلوم ويخرج اليهم عميد الكلية الانجليزى •

ــ عليكم أن تنتظموا فى دراستكم وتتركوا السياسة فان آباءكم قد أرسلوكم الى هنا لتتعلموا •

ومن بين الصفوف يخرج طالب شامخ الطول مثل مصر • فى صوته ثورة الأحرار ، وحكمة الفلاح •

ــ ان آباءنا هم هؤلاء الذين قبضتم عليهم ونحن نؤمن بالقضية التى يبذلون حريتهم فى سبيلها وحياتهم اذا احتاجت القضية الى حياتهم • وهيهات لنا أن ندرس هنا الحقوق ، وحقوق آبائنا ووطننا مضاعة •• تحيا الثورة •

وتندلع الى بروج السماء هـذه الأيام المجيدة المطهرة بدمـاء الشهداء والنابضة بروح جديدة وهبها الله للشعب ..

وكان اسم هذه الروح الجديدة المنورة بضياء السماء هو مصر . وتنعقد الاجتماعات السرية وتتخذ القرارات . ويقسم الشباب نفسه بين خطباء ظاهرين وبين جنود فى الخفاء يقتلون فيصبح الاحتـلال فى مصر على فراش من رصاص ومتفجرات .

وفى بعض الأحيان كان المجتمعون يقرون قتل من يرون أن فى وجوده خطرا على القضـية المصرية حتى وان كان مصريا . فليست المصرية مولدا وانما هى عقيدة تنبت مع الولادة وتسمق شجرتها فى النفس حتى تصبح هى النفس كلها . فاذا كانت البذرة خبيثة وماتت فى ركام المنفعة واختنقت فى حمأة الخيانة فصاحبها اذن ليس مصريا .

كان هؤلاء قلة نادرة بل كانوا أقل من القلة النادرة وكان الحكم عليهم فى جمعيات الثورة السرية لابد أن يكون اجتماعيا ، لذلك فلم تقتل هذه الجمعيات من المصريين الا فردا أو اثنين .

حاول الانجليز أن يصوبوا سهامهم الى العقائد الدينية ، وصاحوا بالعالم انهم يريدون أنّ يحافظوا على الأقليات باحتلالهم لمصر .

وأدرك أقبـاط مصر الدور المهـين الذى يريـد الانجليز أن يستعلموهم فيه . فاذا هم ينتفضـون مصريين . وحين تنهار حجـة القوى يصبح السلاح هو حجتـه فاذا الدماء المراقـة تلقح الثورة بالعنفوان فتزداد على الأيام روعة وشموخا .

وبعد فما أظنك تنتظر منى أن أروى لك أحداث الثورة الكبرى فى مصر فأنت لاشك تعرفها .. وتعرف كيف أصبح الشـعب فيهـا كلا واحدا . واختلط المثقف بالجاهل والقادر بالمعسر والفلاح بصاحب الأرض والعامل بصاحب المصنع وسقطت كل الفوارق .فتعانق الصليب

والهلال وأصبح كل فرد فى الشعب المصرى لا يعرف أن له مصلحة خاصة وانما مصلحة الوطن العامة هى هى ذاتها المصلحة الخاصة عند الجميع •

حلمى فى ثبج الأحداث وفى بؤرة العاصفة • فهو فى الجمعيات السرية وهو يقوم بدوره الذى يختارونه له فيوما تراه خطيبا فى صحن الأزهر الخالد الشامخ ويوما لا تراه لأنه يلبس الخفاء ويتعقب جماعة من الانجليز يقضى عليهم بالسلاح الذى تتفق الجمعية على استعماله • فالرأى جميع والجميع رأى وعمل •

قلة قليلة وقفت من الأحداث على حوافيها تعلق ولا تشترك فالثورة عندها موضوع حديث لا حياة أمة • والأمة عندها شخص غريب يوحى بالحواديت والأخبار المسلية • فيستوى الأمر عندها أن يكون هذا الشخص مصر ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم أو أى دولة أخرى لا صلة لهم بها ولا سبب كان •

كان حفنى من هؤلاء • فقد كانت أهمية الثورة عنده أن الأحاديث حول مائدة القمار أصبحت أكثر جمالا ورونقا وانفعالا أصبح فيه سحر الحدث لاموات التعليق • الخبر يلقى ليشمل أمة بأسرها وكانت الأخبار قبل ذلك تلقى فلا تكاد تجد سامعا ومن أى سلة كانت تخرج الأخبار قبل الثورة غير سلة التفاهة • فهذا زوجته تزور أمها وهذا يريد لابنته عريسا فيومىء ولا يصرخ ويشير ولا يبوح • وذلك يريد لابنه عروسا فيقول ويرفع صوته • أليس غضنفرا رئبالا أنجب ولدا بحاله ويريد له عروسا • كانت أخبارا تولد موءودة تموت قبل أن تتم خبرا أو تجد تعليقا •

أما اليوم فالخبر أسطورة • والكلمة تاريخ • واللحظة خلود وهم يلعبون القمار ويلتذون فى نفس الوقت بجسامة الأحداث وبهذه

الخلجات العالية الضجيج التى يصنعهـا الخبر العظيم حتى فى نفس هؤلاء الذين يعيشون من الحياة على هامش الحياة .

وتمضى الأيام ويعود سعد ورفاقه من المنفى وتبدأ المفاوضات . وحلمى ورفاقه سائرون الطريق بقوة الثائر وذكاء السـياسى . وقد استقر الرأى عندهم أن يكون عملهم هو تأييد المفاوضين بالطريقـة التى يراها المفاوضون ، وكان عبد الرحمن فهمى فى مصر ذلك الزعيم العملاق الذى رفض أن يتقاضى ثمن الزعامة هتافا واعجابا وانمـا تقاضاه راحة ضمير وعملا خطيرا خفيا وراء الأستار فى سـبيل مصر كان ذلك السياسى الزاهد فى المجد الشخصى والمتعبد فى محراب مجد الوطن هو الصلة بين المفاوضات وبين الجماعة التى يعمل فيها حلمى .

فالعمل اذن كان متئدا متزنا لا نزق ولا رعونة . وكان أعضاء الجمعية يتزاورون فلم يكن معقولا أن يصطنعوا لأنفسهم مكانا ثابتا يلتقون فيه .

وقد يزور الصـديق منهم صديقه على غير موعد . وقد يزور الغنى فقيرا فلم يكن المـال بذى شأن فى علائقهم . فمنهم من كان قادرا على أن يستأجر أكثر من خـادم ، ومنهم من لا يستطيع أن يستأجر الا خادما واحدا أو خادمة . فقد كان وجود الخادم فى المنزل ضرورة لا غنى عنها . والا فمن يشترى من الأسواق .

وقد تطهو سيدة المنزل أو ابنتها ولكن لابد أن يصـل اليها الطعام النئ ليكون على يديها مطهوا .

وحين زار حلمى بيت صديقه وزميله فى الدراسة أحمد عبد المتعال لم يكن بالبيت فرج الخادم وكانت الأم مشغولة فى شـئون المنزل فلم تجد وصفية بدا من أن تجيب الطارق فلم تكن الأجراس معروفة فى

ذلك الحين • ولم تقل من ؟ وانما ظنت أن فرج عاد من السوق ففتحت بسرعة وما أن رأت غريبا حتى توارت فى لمحة وراء ضلفة الباب •

ــ أفندم

ــ أحمد بك هنا

ــ لا يا أفندم

ــ شــكرا

ــ تقول اه من

ــ حلمى

ــ حــاضر

ــ شــكرا

كانت اللمحة كافية لأن يرى حلمى وصفية •



ولم لا . وتزوج حلمى من وصفية وانتقل الى بيت جديد وترك أخاه حفنى فى البيت . وبدأ صديقى عدلى يتشكل فى عالم الغيب .

وكانت السيدات فى ذلك الحين يسيرات المأخذ قريبات الرضى فبحسب الزوجة أن تجد رجلا يحميها من ضراوة الحياة ويمد قلبها وروحها بدفء الطمأنينة حتى تسلم اليه حياتها كلها وقد كانت حياة السيدات كلها موهوبة لبيوتهن. فالنجيبات منهن النجيبات من أصابت بعض تعليم فى المنزل الأول سواء كان هذا المنزل بيت أبيها أو بيت أخيها كشأن وصفية التى مات عنها أبوها وهى فى باكر الصبا تولى أخوها أحمد أمرها . ولما كان واسع الأفق واسع الآمال حين يفكر فى بلاده فقد كان مؤمنا بتعليم المرأة وهكذا ذهبت وصفية الى مدرسة السنية وبقيت بها حتى أتقنت القراءة والكتابة واللغات أيضا ثم أصرت أمها منيرة هانم أن تكتفى من التعليم بما أصابت خشية أن ينصرف عنها الرجال ، أو ذلك ما صرحت به لابنها على الأقل فقبله فى غير اقتناع ، ولو كانت قد ساقت له السبب الحقيقى لرفضه بغير جدال ولو أن الرجال فى هذه الأيام لم يكونوا ليجرءوا أن يرفضوا

لأمهاتهم مطلبا مهما يكن حظ الأبناء من التعليم والمكانة ومهما يكن حظ الأمهات من الجهل فقد استطاعت الحيـاة أن تعلم نفسها لأولئك الجاهلات فهن فى شئون حياتهن وخاصـة أمورهن أعلم من العلماء ان فات الرأى السديد هؤلاء العلماء فى هذه الشئون .

كانت منيرة هانم ترى وصفية متفوقة فى الدراسـة وقد خشيت ان أمعنت فى هـذا التفوق أن تنصرف عن الزواج الى الدراسـة فرأت أن تحسم الأمر فى مهده وتقضى عليه قبل أن يستفحل ، واصطنعت هـذا السبب الذى اصطنعته لتبقى ابنتها فى البيت ولم يستطع أحد أن يجادل مكتفيا بأن وصفية أصبحت تستطيع أن تثقف نفسها اذا شاءت ما دامت أصبحت تعرف الكتابة واللغات قراءة وكتابة .

***

مر على الزواج شهور والزوج سعيد بزوجته سعادة يتوقعها فقد كانت أغلب الزيجات تتم دون أن يرى العريس عروسـه أما هو فقد رآها وهو يعرف البيت الذى نشأت فيه فأبوها رجـل من علمـاء الأزهر الأجلاء وان يكن قد رحل وهى طفلة الا أنه ترك نور ايمانـه فى البيت وفى زوجه وفى ابنه أحمد صديق حلمى وزميل دراسـته منذ هما فى الخديوية الثانوية حتى نالا شهادة الحقوق وعمل حلمى بالداخلية وأحمد بالنيابة العامة . وحين تم هـذا الزواج كان أحمد قاضـيا .

ولم يكتمل العـام على الزواج فقد سرعـان ما قبضت عليـه السلطات المحتلة وألقت به الى السجن وذهب أحمد الى أخته .

ـــ تعودين معى الى البيت

ـــ أترضى لى هذا ؟

ـــ ولا أرضى لك أن تعيشى وحيدة

ـ كنت تعرف حين زوجتنى أن زوجى قد يقبض عليه فى أى لحظـة •

ـ وكنت تعرفين

ـ وقبلت أنـا الزواج وقبلته أنت أفأترك البيت حين يحـدث ما توقعه كل منا •

ـ لو كان مسافرا لجئت معك ، أما وهو فى السجن السياسى فلا ••• أأجعل سجانه يحس ولو للحظة أنه هدم بيته وأن زوجتـه تخلت عنه •

ـ ان واجبى قبلك وقبل حلمى يحتم على الا أتركك وحـدك

ـ هـذا حـق

ـ اذن

ـ تأتى أنت وتقيم معى

ـ وأمى

ـ سـلها

***

ـ وأقيم أنـا أيضا معكما عند حلمى •

والناس اليوم لا تدرى أية تضحية كبرى قدمتها الأم العظيمـة منيرة هانم وهى تترك بيتها فترك البيت فى ذا الحين كان أمرا تقف دونه أهوال جسام ولكن الأم أدركت أن هـذا هو وقت التضحية التى تملكها فى سبيل مصر أولا ثم من بعد • من أجل ابنتهـا وزوجها البطـل •

٤

خلا حفنى بالأرض فأصبح يشرف على أرضه وأرض حلمى جميعا وكان القمار قد تغلغل فى دمه فراح ينفق الريع كله فى شهر أو شهرين ، ثم يقف عاجزا لا يدرى ماذا يصنع . أما أموال أخيه فقد كان يخشى عليها من نفسه ، وكذلك أعطى أمره للناظر ألا يعطيه مليما من أموال حلمى وانما عليه أن يذهب بها جميعا الى أحمد بك صهر أخيه لينفق منها على البيت ويبقى بقية المال لأخيه .

وهكذا تعرف الناظر الحاج على سعدون على أحمد . وفى أول لقاء لهما .

ـ هذا هو الريع

ـ هل معك ايصال أوقع عليه

ـ والله أعددت الايصال نعم . ولو كان مالى ما أعددت

ـ وأنا لا أقبل مليما لا أعطى عليه ايصالا فأنا أمين على هذا المبلغ ولابد أن أؤدى الأمانة الى أهلها ومعها الشواهد .

ـ ان صهرك يعرف طهارة يدك .

ــ وأنــا أيضا أعرفها ولكن ماذا أقول اذا نسيت أنت أو نسيت أنــا قيد مبلغ •

ــ الايصال أضمن

ــ وهذا هو التوقيع

ــ ولكن هذا أمر لا خطر له

ــ هناك أمر له خطر ؟

ــ كل الخطر

ــ خــيرا

ــ لا خير مطلقا

ــ مــاذا

ــ حفنى بك

ــ ماله

ــ طلب الى أن أبحث عن مشتر لعزبة الزمايلة

ــ أكلها من نصيبه

ــ له النصف وهو ما يريد بيعه

ــ وأرض حلمى

ــ ملاصقة طبعا لنصيبه

ــ كم فــدانا هى

ــ مائتا فــدان

ــ وبكم الفــدان

ـ لن يزيد عن مائة جنيه ، سينفقها على القمار فى شهرين أو ثلاثة ، واذا استمر الحال على هذا المنوال فالله أعلم الى أى مصير سينتهى اليه والله أيضا يعلم الى متى سيظل البك محبوسا عند أولاد الكلب هؤلاء •

ـ اسمع كم عندك لحلمى بك

ـ هذه عشرة آلاف وعندى محاصيل بحوالى خمسة آلاف

ـ ألا تستطيع تدبير الخمسة الباقية

ـ لا يهم أن أدبرها

ـ كيف

ـ لاعب القمار يرضى بأى مبلغ

ـ ماذا تعنى

ـ أخسف الثمن واشترى على آجال وحين يخرج حلمى بك من السجن نكون قد اشترينا الأرض كلها بربع ثمنها •

ـ افعل ذلك

ـ وحلمى بك

ـ لو استطعت أن ألقاه ـ وهذا مستحيل ـ ان يقبل ما نحن نحافظ على أرض أبيه فى غيابه ولا حيلة لنا الا هذه لأن الأرض اذا انتقلت الى يد غريبة فلن تعود •

ـ نعم الرأى • ولكن مصاريف البيت

ـ أمرها سهل ••• لا شأن لك

ـ وهو كذلك

***

٥

القمار مضمار عجيب من ميادين الحياة . الداخل فيه يدخل الى حياة أخرى بعيدة كل البعد عن حيـاته وعن مألوف أمر النـاس . وما ظنك بقوم يجتمعون حول مائدة واحدة وكل شخص منهم يحرص أن يخرب بيت الآخر فى صراحة ووضـوح ، فعلى هـذه المـائدة لا وجود لأى آصرة من قربى وان كانت قرابى ابن من أبيه ولا وجود لأى معنى من معانى الصداقة أو المودة : سعار خالص برىء من أى شائبة انسانية ولا يبقى الا المـال صاحب الصرخة الوحيدة والسيطرة المطلقة . وان كان المـال قوى البراثن صلب المخالب فى الحياة الا أنه فيها يتخفى وراء كلمـة طيبة أو يستخذى أمام صلة رحم أو سبب من أسباب المودة أو عشرة قديمة الا أنه فى مائدة القمـار يخلع كل الأقنعة ويعلن نفسـه حاكما فردا باطشا آخـذا لا شريك له ولا هو يقبل أية مراجعـة .

وعلى هذه المـائدة تلتقى أصناف من الناس شتى لكل منهم عالمه الخـاص البعيد كل البعد عن عالم الآخرين الجالسـين على نفس المـائدة العاكفين على المعبود الواحد ... القمار . تجد السياسى رجل

الدولة الذى يوشك أن يكون عالما وتجد الطبيب العالمى فعلا وتجد المهندس الذى يهز اسمه أوساط الفن الهندسى فى كل أنحاء المعمورة وتجد الضابط . وكثيرا ما تجد الضباط وتجد القواد وتجد المقامر المحترف النصاب . وتجد الجميع يعرف عن الجميع كل شىء ولكن لا شأن لأى منهم بالآخر . متفقون على أن الصلة بينهم هى هذه المائدة . وان كان لأحدهم عند آخر منهم مسألة أو موضوع فلا بأس أن يقضيه له كما يقضى خدمة لشخص يعرفه .. ولكن العلاقة تظل واضحة ... علاقة قمار . وأغلب الأمر أن من يقضى هذه المسألة انما يقضيها لأنه يعلم أنه ملاق الشفيع فيها كل يوم ولن يفلت من الحاجة . على أن هذه الخدمات لا تتجاوز فعل الخير الى المنفعة الخاصة فالمصارحة بينهم تتم حين يوزع بينهم ورق الدور الأول فى اجتماعهم . فلا يستطيع رفيق المنضدة أن يستغل نفوذ السياسى لأن السياسى سيواجهه فى الحال بما لم يتعود أن يواجه به الآخرين ، وسيقول أن هذا الموضوع ستكسب منه كذا ولست مستعدا أن أخون الأمانة من أجلك أو من أجل أى أحد .

فلاعب القمار ليس من الحتم أن يكون لصا وانما قد يكون شريفا غاية الشرف . صحيح أن القمار قد يجرف الشريف الى مهاوى الدنية ولكن هذا المنحرف ضعيف كان مستعدا أن يكون لصا تحت أى ضغط أو أمام أى اغراء . وهأنتذا رأيت حفنى يأبى أن يمس مال أخيه .

فالقمار هو هذه المائدة العجيبة التى تجمع الأصدقاء الألداء والأحباب الذين لا يمانع أحد فيهم أن يقتل حبيبه فقرا طبعا بل هو يسعى الى ذلك جاهدا ما وسعه الذكاء والمران والمناورة والمداورة .

كانت مائدة حفنى للقمار تعمر بكل هؤلاء الذين ضربت بهم المثل فكان فيها حامد باشا محمد السياسى الداهية الذى تولى مناصب

الوزارة بل انه تولى عددا وفيرا من الوزارات ، وهو رجل شريف السمعة لم يقل عنه أحد ما يشين وهو ذو عقلية سياسية نادرة وكان يلعب القمار بشيء من التعبد وبكثير من الاخلاص فى اللعب فقد كانت المائدة هى المكان الوحيد الذى ينسى عليه خصوماته السياسية والمؤامرات التى تدبر عليه والتى يدبرها هو وقد كانت أغلب الخصومات حتى ذلك الحين مع الانجليز • وكان معه دائما سياسى آخر يعمل بالمضاربة فى البورصة فهو حينا منتعش النفس أو هو حينا آخر منتكس الخاطر والقلب ، ترى فى وجهه تقلبات البورصة شأن المبتدىء الذى لا يستطيع أن يخفى مشاعره ، ولهذا لم يكن عجيبا أن يخسر عبد الفتاح صدقى بك دائما على المائدة فقد كان وجهه صفحة مفتوحة لأعين الخبراء وكان معهم أيضا وجدى المسيرى الملازم بالجيش فمائدة القمار لا تعترف بالفوارق فأنت تجد السياسى العجوز يجلس الى الضابط الصغير دون أى شعور بفارق المرتبة وكان وجدى فى اللعب مغامرا يبحث عن البطولة فى ورق اللعب بعد أن تعب فى البحث عنها فى أرجاء الحياة ودروب الوظيفة • وكان هناك أيضا يسرى الجندى اللاعب المحترف • وكان هناك أيضا رشدى المهدى اللاعب المحترف والقواد المحترف أيضا وهو الذى يعد المائدة ويدعو اليها ويدبر اللقاءات بين اللاعبين • وكان هناك طبعا حفنى •

اذا اتفقت المشارب بين اثنين من اللاعبين فلا بأس عليهما أن تقوم بينهما صداقة • وقد كان حفنى بموهبته الخارقة فى صنع الصداقات على صلة وطيدة بالجميع حتى ليحسب كل لاعب على المنضدة أنه الصديق الأول عند حفنى •

ولكن القمار لا صديق له فحفنى يخسر عشر ليال ويكسب ليلة ، واذا كان جميع اللاعبين الذين ذكرتهم والذين لم أذكر يتبادلون أمكنتهم على المائدة فهناك دائما اثنان لا يكاد يغيب أحد منهما عن

اللعب ، رشدي المهدي وحفني الوسيمي • أما رشدي المهدي فتلك هي وظيفته في الحياة ولا وظيفة له غيرها ، وأما حفني فلأنه لم يكن يجد شيئا يعمله الا اللعب وربما لو وجد متعة أخرى لترك المائدة سعيدا • فهو لا يعرف التحمس لشيء حتى ولا للقمار الذي أجمع التاريخ على أن من يصاب به فلا فكاك له منه • ولكن حفني شيء آخر غير الناس ، لا يخلص لشيء ولا يتشبث بأي عادة مما يتعود الناس عليه • دخن بعض الوقت ثم ترك التدخين وشرب الخمر ويشربها ولكنه لا يشربها الا ليشارك الشاربين ، فهو لا يذكر أنه جلس منفردا وطلب كأس خمر واذا مر به الشهر أو الشهران لم يجلس الى شاربين لم يشرب هو قطرة واحدة • وهكذا شأنه مع القمار يذهب كل ليلة ليلعب فاذا وجد متعة آخرى انقطع تماما عن اللعب • هو لا يتمسك بشيء أبدا ولا يسمح لشيء أن يتمسك به ••• ماذا تراه يفعل اذا تزوج ؟ تلك تجربة ستكون فريدة وعجيبة أيضا ••• أيمكن أن يفكر مثله في الزواج ••• من يدري ؟

وهكذا باع حفني أرضه كلها وكان مثال المقامر في بيعه فكل ما كان يفعله أن يوقع حيث يطلب منه الحاج على أن يوقع لا يرى الى اسم البائع ولا يعنيه أن يرى اليه بحسبه أن يرى المبلغ معدا في يد الحاج على حتى يوقع عجلا متسرعا ويطوي الحاج على العقد في تؤدة وذكاء وخبرة نادرة ويضعه في جيبه ويقول :

ـ عد معي يا سعادة البيك

ـ يا حاج على ألم تعد أنت ؟

ـ نعم وانما لابد أن تعد أنت أيضا

ـ يا حاج على أنت تعلم كم أثق فيك

ـ ولكن أنا يا سعادة البيك لا أثق في نفسي عد مائة مائتين ••

ويتكرر هـذا المشـهد فى كل مرة لا ينقص كلمـة ولا يزيد ولا يختلف فى مرة عن الأخرى الا فى رقم المبالغ الذى راح يتضـاءل يوما بعد يوم شهرا بعد شهر .

***

دعا رشدى المهدى الى عشاء بمنزله وكان حفنى بين المدعوين وهناك وجد حفنى دنيا جديدة تطالعه من الحياة لأول مرة وهو الذى خبر من هذه الحياة ما لم يخبره الا القلة النادرون .

الباشاوات هنـاك وقد خلعوا رتبة الباشـوية بل خلعوا رتبة الانسانية وارتدوا حيوانات حسر الوجوه من الرغبة والاثارة . والعظماء بلا عظمة والنساء بلا ملابس والمقامرة بالعرض لا بالمـال . وبالشرف لا بالنفوذ . ورشدى منتعش النفس يضحك دائما ويعقد الصفقات بين المرأة والرجل وهو سعيد غاية السعادة هنىء فى قمة الهناءة .

ويعجب حفنى أن رشدى لم يفقد شيئا من احترام المجتمع بل ان كل هؤلاء يقـدم له الاحترام والتبجيل والاعزاز ولا يعنى حفنى بما فى داخل النفوس وانما بحسبه ما يراه فى ظاهر الوجوه وفى الأيدى الممتدة بالمـال من ناحية وبالاجلال والتعظيم من ناحية أخرى للشخص نفسه الذى يتاجر فى الشرف ، ولم يعرف حفنى أن هـذا الذى يتاجر بالشرف لابد أن يتاجر معه بشىء آخر هو الذى يهيىء له كل هـذا الاجلال . انه كمـا يتاجر فى شرفه وشرف النساء يتاجر فى سـمعة الرجال والعظماء من الرجـال . وكلمـا ازداد الرجل عظمـة ازداد حرصا على سمعته ولكن أى حرص لا يستطيع أن يقف أمام رشدى . يا لها من تجارة . يا لها من تجارة .

ما هذا الحب الذى يحظى رشدى به من أصـدقاء له بل ما هذا الاحترام وما هذا الاجلال . انها مهنة تصور حفنى أن يكون رصيدها

أى شيء الا الاحترام • قد يجنى العامل فيها مالا أو صداقات أو قدرة على الشفاعة أما أن ينال الاحترام أيضا فهذا ما لم يتصور حفنى أن المهنة ترتد على صاحبهـــا به • لقد كان لفظها يختلط فى نفسه بالمهانة والاحتقار وكل ما هو ذليل فى الحياة • فقد عرف محترفيها من أسفل الطبقات ولم يعرف من محترفيها فى الطبقـــات العليا الا رشـــدى • القواعد فى هـــذه الطبقات مختلفة والوســـائل ليست هى الوســـائل والصفقات تعقد دون تصريح والأجور يتم تسلمها دون ابانة ولكن الهدف واحد والغاية لم تتغير • هنا فى هـــذه الطبقة الأسماء تطلق على مسميات أخرى ، فالفتاة أو المرأة موضوع الصفقة صديقة لا عاهرة والأجر هدية وليس أجرا • ولكن الفتـــاة أو المرأة تذهب الى المخدع على أية حـــال والهدية تصـــل واســـطة التعارف ولا يسمى قوادا ولا تسمى الهدية أجرا فكل شيء هنا محصن بسياج الشرف وأى عيب أن يحيى صـــديق صديقا وأى بأس فى هـــذا المجتمع الساقط أن تحب المرأة رجلا فتقضى ليلة فى مخدعه ، وأى لوم فى أن يقبل شخص فى مثل مكانة رشـــدى ابن الأكرمين هدية من شخص آخر هو أيضـــا ابن أكرمين •• منذ هذه السهرة أصبح عبد الفتاح صدقى أكثر الناس تقربا الى حفنى ولم يكن هـــذا غريبا فقد كانت سنه ومكانته تمنعانه أن يصـــل الى المرأة عن طريق آخر غـــير طريق حفنى • وقـــد رأى عبد الفتاح اقبال النساء على حفنى وحبهن له • وخير له أن يتعرف بالمرأة عن طريق حفنى أخى حلمى وغير القواد من أن يتعرف بها عن طريق رشـــدى فيصبح الأمر رســـميا وان كانت الرســـمية متسترة بأسماء بريئة • والظاهر عند عبد الفتـــاح وأمثاله أهم من الواقع • وحفنى يمثل له الشخص الأمثـــل ليقدمه الى من يحب فجمال حفنى يقتنص من النساء أشـــدهن مراســـا وأعظمهن فتكا • ومكانة حفنى الاجتماعية وما هو معروف عن غناه وما ليس معروفا عن فقره كل هذا يجعل صداقة العظماء به أمرا طبيعيا لا غرابة فيه ، ولو لم يكن لأسرته

من المكانة الا اسم أخيه بطل ثورة ١٩ وسجين الانجليز لكان حسبه وحسب أسرته مكانة ورفعة .

وهكذا توطدت العلائق بين عبد الفتاح رجل البورصة الذى يحيط دائما بكل ظروف الصفقة قبل أن يقدم عليها وبين حفنى الذى وجد فيه شخصا غاية فى الذكاء وسرعة الخاطر مع مقدرة فائقة على التمتع بالحياة جدها وهزلها . وأصبح بيت عبد الفتاح مثابة لحفنى ولم يجد عبد الفتاح فى ذلك بأسا فحفنى يصغره بسنوات عديدة ولا خوف على زوجته منه وزوجته سيدة فاضلة شريفة أنجبت بنتيها وانتهى ما بينها وبين الأنوثة منذ مجىء آمال البنت الصغرى منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما . وكانت البنت الكبرى سناء فى السابعة عشرة حين تعرف على الأسرة حفنى ولم يكن حفنى يتعامل مع هذه الأعمار فى مألوف حياته . فلا حرج على عبد الفتاح اذن . أن يستقبل بيته حفنى فى أى وقت ، وقد استطاع حفنى بالموهبة التى منحتها له السماء أن يكون محبوبا من السيدة كريمة المدبولى ومن ابنتيها جميعا سناء وآمال . وقد سعد حفنى بهذه الأسرة فقد كان عمله فى الصباح قليلا فما عليه الا أن يكتب كلمتين ويلقى بهما الى المجلة ثم يصبح فارغا لا هم له الا أن ينام فى القيلولة بضع ساعات يقوم بعدها ليجد الفراغ ينتظره حتى يبدأ السهر المتكاسل الذى يأبى أن يبدأ قبل العاشرة اذ يكن قمارا فقمار أو يكن حفلة فحفلة .

فماذا هو صانع فى الصباح .

وماذا هو صانع بعد نومة القيلولة الى مشارف العاشرة .

أما بيت أخيه فلم يكن يرحب به كل الترحيب وان كان لا يصد عنه فهو يذهب ليقضى واجب الأخوة ثم سريعا ما ينصرف الى هواء آخر يحب أن يستنشقه وهو بالتأكيد ليس الهواء الذى فى بيت حلمى .

ولم يكن هواء البيت عند عبد الفتـــاح مشوبا بما يحب أن يستنشق حفني في مألوف حياته • ولكنه أيضا كان خاليا من التزمت الذي كان يواجهه في بيت حلمي وزوجه وأخيها وأمها التي لا تترك سجادة الصلاة اذا تصادف ووجدهما عند زيارته •

وحفني لم يحصـــل على الأسرة منذ وعى الحياة والأسرة جزء من دمائنـــا نحن الشرقيـــين • وقد كان حلمي هو أسرة حفني جميعـــا • أما أقاربه الكثيرون فكانوا أصـــدقاء ولم يعاشرهم وما عاشروه فهو اذن واجد في بيت عبد الفتـــاح كل ما تتوق له نفسه من شعور الأسرة ومن ترحيب في اللقاء ومن سماحة في المعاملة من بين ضحكات منطلقة لا يحبسها شيء في رنينها ، فهي صفاء القلب الخـــالي والاطمئنـــان والاقبال على الحياة •

٦

صدر تصريح ٢٨ فبراير وأصبحت البلاد تتهيأ لدستور جديد وانتخابات برلمانية وأصبح من المضحك أن يبقى الانجليز على معتقلين من المصريين وهم يعترفون لهم فى نفس الوقت بحقهم فى الحياة البرلمانية الديمقراطية .

وخرج حلمى دون أن تتم محاكمته فالقضية سقطت بصدور التصريح .

ـ ماذا فعلت بأرضك يا حفنى ؟

ويجيبه صمت واطراق

ـ أجب

ـ لقد عرفت

ـ ولكن أحب أن أسمع الاجابة . فلست وحدى الذى سيسألك هذا السؤال . سنسمعه من أقاربنا جميعا وسنسمعه من أصدقائك الذين يحترمونك اليوم ظانين أنك صاحب الضياع والأرض

والمـال .. سنسمعه دائما . فماذا أنت قائل . أجب ... ماذا أنت قـائل ؟

ــ أنـا لم أمس من مالك مليما

ــ ومتى كان لى مال ولك مال

ــ احتجت للنقود

ــ فالبيع أقرب شىء اليك

ــ لم تكن بجانبى ماذا كنت أفعل

ــ بسيطة تبيع الأرض . أقـدرت أننى سأموت فى السجن . ألم تنتظر أن تقف منى هذا الموقف ؟

ــ كنت فى حالة يائسة

ــ توقف عن القمار

ــ كنت خسرت كثيرا وأريد أن أعوض

ــ وتدور العجلة فتخسر كل شىء

ــ لم أقدر هـذا .

ــ لأنك لا تقدر شيئا على الاطلاق . أنت ابن لحظتك وليكن بعد ذلك ما يكون

ــ أرجوك ياسى حلمى كفى

ــ ألم تقل لنفسـك كفى وأنت تبيع كل هـذه الأرض ... أظننتها أرضك ؟

ــ أليست أرضى ؟

ــ انها أمانة فى أعناقنا ولها أصحاب

ـ أمانة ... أصحاب ... من أصحابها

ـ أصحابها أولادنا

ـ قد يبيعونها هم من يدرى

ـ نؤدى نحن أماتتنا والباقى نتركه على الله ، فالأرض كلها ملكه وما نحن الا خلائف له عليها

ـ مـاذا ؟

ـ أنا آسف ... كان يجب ان أقدر أن هذا الحديث لا يلقى اليـك

ـ أكافر أنـا

ـ لا . مقامر فقط

ـ سأتوقف

ـ أرجو ... كم بقى معك من ثمن الأرض ؟

ـ مـاذا

ـ لاشك أنك سمعتنى

ـ وماذا تريد من الباقى

ـ أريـده

ـ أنت

ـ نعم أنـا

ـ أنـا لا أعصى لك أمرا

ـ أعرف ذلك

ـ خمسة آلاف جنيه

ـ هاتهـا

ـ أمـرك

وخرج حفنى ذاهلا وابتسم السـياسى المحترف حلمى وهو يرى الدهشة على كل نأمة جسمه حتى على قفاه الذى كان آخر ما اختفى من الباب

بقى حلمى لحظات وحده ... لم يفقد كل الخير الذى فيه ... قلت هات قال حـاضر ... وهو حتى لا يعـلم لمـاذا الا أننى أريد فقـط .

ويدخل أحمد الحجرة ويصيح به حلمى :

ـ أهلا أحمد باشا

ـ باشا مرة واحدة

ـ الباشوية مضمونة لك يا سـعادة القاضى ... كل القضاة يصبحون مستشارين فباشاوات ..

ـ وأين أنـا من مستشار هذه

ـ أنت عينت فى النيابة منذ تخرجك ورقيت الى القضاء وأنت صغير فان لم تصبح أنت مستشارا فمن يكون . المهم أنـا لا أعرف كيف أشكرك على ما صنعت مع وصفية ومع حفنى .. أما فضل السيدة العظيمة والدتك فهو أكبر من أن يذكر ..

ـ أما عجيبـة يا أخى . أولا من وصفية هـذه أليست أختى وهل أشكر لأنى أؤدى واجبى نحو أختى وثانيـا حفنى أنـا صنعت ما صنعته معه لأننى تصـورت أنك لو كنت خارج السجن لمـا فكر هو فيما أقدم عليه . وأن لك علينا واجبا أكبر من واجب الصهر على أصـهاره .

ـ أى واجب يا سعادة الباشا ٠

ـ واجب الوطنى على مواطنيه ٠ أتسجن من أجل مصر ولا نقدم كل ما نملك لك ٠ ألسنا بشرا مصريين ٠

ـ خطبة وطنية رائعة

ـ تنفعك فى الانتخابات

ـ لا ياعم ٠٠٠ لا شأن لك أنت بالانتخابات فانت رجل قضاء

ـ من سيرشح أمامك

ـ اثنان حتى الآن أعتقد أن أحدهما سيتنازل

ـ والآخر

ـ مرشح الوفد

ـ ولماذا لا تنضم الى الوفد ٠ أنت من مؤسسى لجان الشباب فيه ٠ وكنت من أعظم أبطال منظماته السرية ٠٠

ـ العمل فى السياسة عندى ليس تجارة أدفع مقدما لأربح مؤخرا ٠ أنا عملت مع الوفد لأنه كان مصر كلها وكنت واحدا من الذين يستطيعون أن يقدموا شيئا لوطنهم ٠

ـ وقد قدمت بقلمك ولسانك ومالك وحريتك

ـ ولكنى لم أعد معجبا بسياسة الوفد التى ينتهجها فقد أصبحت سياسة شخصية بعد أن كانت قومية

ـ ولكنه قوة خطيرة فى الانتخابات

ـ هذا صحيح ولكنى حتى اذا لم أنجح فان هذا لن يجعلنى أغير رأيى فى سياسة الوفد الآن ٠ المهم هناك موضوع أحب أن أكلمك فيه

ـ انتظر حتى أفتح باب المرافعة

ـ وهل حجزت القضية للحكم

ـ وماذا أعمل لك وأنت تستأذننى فى الكلام .. نحن اخوة يا حلمى

ـ وأكثر والحمد لله . حين راجعت الحسابات وجدت أنك أعطيت كل الريع لحفنى ثمنا لأرضه ومعنى هذا أن مصاريف البيت كنت تقوم بها أنت ..

ـ وماله ... بيتى

ـ وبيتى أيضا

ـ كنت فى السجن

ـ ولكن أرضى لم تكن فى السجن معى

ـ أرضك ريعها ذهب لحاجة أهم

ـ ليس أهم من المعيشة

ـ قمت أنا بها ماذا فى هذا

ـ لاشيء ولكن قدر ظروفى

ـ حين تقدر أنت ظروفى

ـ ظروفك ؟

ـ أيرضيك أن أحس أنا وأمى أننا انتقلنا الى بيتك لنعيش على حسابك

ـ وأنت هل يرضيك أن أتزوج أختك ونعيش على حسابكم

ـ كان ظرفا استثنائيا

ـ لو لم يصنع حفنى ما صنع ماذا كنت ستفعل

ـ كنت سأعطى أختى ما تحتاجه يدها من مالك وأنفق أنـا على البيت الذى أصبحت رجله حتى تخرج رجله من السجن الشريف

ـ هـذا ظلم

ـ هذه كلمة يقولها الناس فى مألوف حياتهم ولا تعنى شـيئا ولكنها اذا قيلت لقاض فهى كبيرة

ـ والقـاضى يكون فى بعض الأحيان ظالمـا لنفسه ولابد أن يجد من يواجهه بهذا مادام بعيدا عن منصـة القضاء . أنت فى هـذا ظـالم

ـ ظلمـا أحبـه

ـ وهـذا أظلم

ـ لمن

ـ لى أنـا

ـ وما شأنك أنت

ـ لا يقع الظلم الا على مظلوم . وأنت لا يرضيك أن تظلمنى

ـ لقد طال الحوار فى أمر لا يحتاجه

ـ وهذا ظلم آخر . فان المظلوم وحـده هو الذى يعرف أين ينتهى الدفـاع

ـ أسمع أنت خريج حقوق معى فقل ما تراه

ـ أدفع ما كنت أدفعه فى البيت وأنـا فيه

ـ اسمع . لقد فوضت المحكمة الأمر اليك فكن عادلا واخصم ثلثه مقابل غيبتك فقد كنت تعيش على حساب الحـكومة فى السجن

ـ موافـق

ـ وأنـا موافق وأمرى الى الله واو أن الأمر لا يستأهـل كل هـذا ..

ـ ان راحة النفس لا يماثلها شيء فى العالم

ـ أعرف ذلك

ـ وأعرف أنك تعرفه ..



حين خرج حفنى من حجرة أخيه أحس دوارا لا قبل له به .
كأنما كان يواجه تنينا وأنقذ منه ، أى شيء فيه أخافه . هو أنيس لا ينطق كلمة جارحة ولا يأتى بعمل عنيف .. ولكنه مع ذلك قوى صلب أى شيء فيه اخافه . ربما لأنه دائما على حق وأننى دائما أفعل ما يحلو لى بغير اهتمام بالحق أو بالباطل . هو يضحى بعمره من أجل وطنه وأنا أتمتع بحياتى أقصى ما تكون المتعة . أنهل رحيق كل ساعة فيها وتسرى لحظاتها فى دمائى نشوة وسرورا وجذلا وفرحا ، ايحس هو فى جهاده بما أحس أنا به فى متعتى . الحياة عندى ضحكة والحياة عنده جهاد . أينا عرف سرها وبلغ مكامن الحقيقة فيها . هو يعطى دماءه لبلده جميعا وأنا أعطى دمائى لنفسى . ربما شعر هو بمتعة العطاء قدر ما أشعر أنا بمتعة الأخذ .

هو يعتصر الحياة ليقدم للبشرية مثلا رفيعا مختلطا بتضحيته بكل ما يمتعه وأنا أعتصر الحياة لتعطينى أكثر مما تطيق أن تعطيه فأنهله أنا ... أنا ... أنهله متعة وحبا للنساء كل النساء ولرشفة خمر أشربها فى غير رضاء عنها وانما لأنها تمثل رحيق عدم المبالاة بالحياة

منجسما فى شراب ولعب القمار لأن الحياة قمار وأنـا أريد أن أمارسها وأعيشها وأذلها بألا أعنى بكل ما تخبئه لى فان يكن خيرا فاهلا وان يكن شرا فأنا عنه لاه وعن نتائجه مشيح غير آبه ولا مهتم ومنه أنـا غير خائف ولا متوجس ولا متحسب اخفايا الغد فيها • هو يفكر فى الغد وما بعد الغد وأنـا ابن لحظتى وأبوها وربهـا وقاتلها قبل أن تقتلنى • فأينا عرف حقيقة الحياة وأينا بهـا أكثر خبرا ولخبثها أكثر درءا ومنعا • وأينا أذل الحياة واغتصب منها ما يريد أن يغتصب •

حين سألنى كم بقى قلت خمسـة آلاف فصدقنى • هل صدقنى أم أراد أن يصدقنى انه ذكى يقبل الكذب الذى يلقى اليه مادام يعرف أنه لن يستطيع أن يصـل الى الحقيقة • فيم يريد هـذا المبلغ • لعل الانتخابات ونفقاتها جعلته يحتاج الى هـذا المـال • ان كان الأمر كذا فيسعدنى أن أقدم له العون • فرغم أن كلا منا يقف على طرفين متناقضين من الحياة الا أننى أقدره كل التقدير • أترانى أقدره أم أقدر فيه الرجل الذى تمنيت أن أكونه ولم أستطع • ترى هل مرت به لحظة ولو لحظة عابرة تمنى أن يكوننى ولم يستطع • من يدرى ••• ربما ••

مشى به الطريق والضجيج فى داخـله وليس يشعر من خـارج نفسه ضجيجا ولا حسا واذا هو يجد نفسه فجأة بين رأسى حصـانين ويعلو الضجيج فى هذه المرة من خارجه لا من داخله •

ـ يا أفندى اصح • مسطول فى عز الظهر

ـ أحفظ أدبك

ـ أدق لك الجرس من الصبح وأنت ولا أنت هنا

ـ قلت لك أحفظ أدبك يا قليل الأدب

وحينئذ يقفز من داخل العربة ضابط ملازم ثان ويثور به

ــ أما أنك بارد حقا وقح • تسير فى منتصف الشارع ولا يهمك من العربات الرائحة والجائية واذا أنقذ الأسطى حياتك تطول لسانك عليــه •

ــ أتظن أنك تخيفنى ببذلتك العيرة هذه

ــ عيرة يا قليل الأدب

ــ بذلة المحمل

ــ محمل ••• قدامى على القسم

ــ أخفتنى ••• قدامك على القسم

وكان أسرع منه فى ركوب العربة فقد تنبه أنه يبغى أن يحســم الموقف قبل أن تتشــابك الأيدى ويتجمع النــاس • وصادف هــذا التفكير مثيله عند الملازم شــوقى سالم • وحاول السائق أن ينهى الموضــوع •

ــ يا أفندية لا لزوم لهذا ••• حضراتكم ناس محترمون والقسم ليس لأمثالكم •

وصاح الملازم فى كبر وغيظ

ــ أمش أنت الى القسم ولا شأن لك • لابد أن يدفــع ثمن طول لسانه

ــ اياك أن تزيد كلمــة واحدة • فى القسم قدم شكواك ولكن حتى نصل الى القسم تسكت تماما

ــ وهو كذلك • أما نشوف

ولم يجد السائق بدا من الصمت فقد أدرك بذكائه الفطرى أن أى حديث قد يشعل حريقا لا داعى له •

وقفت العربة عند القسم ونزل الخصسان وطبعا قصـد الملازم الى حجرة المـأمور مباشرة ودخل حفنى وراءه واذا الجالس فى مكان المـأمور ملازم ثان من الشرطة لم يعرف ضابط الجيش ولكنه ما ان رأى حفنى حتى هب من كرسيه •

ــ من حفنى الوسيسى

وصـاح حفنى :

ــ أهلا ••• كيف أنت يا زين

وصاح شـوقى :

ــ أتعرفـه

والتفت زين أخيرا الى شوقى :

ــ أهلا حضرة الضابط تفضل ••• كيف أنت يا حفنى

وحين هدأت التحايا قال شوقى فى غيظ موجها كلامه لحفنى :

ــ ولأنك تعرف ضباط البوليس تريد أن تأخذ الدنيا فى وشك

وقال حفنى فى ثقة وعدم مبالاة :

ــ أنت الآن فى القسـم ••• اكتب شـكواك واترك الأمـر للبوليس يأخذ اجراءاته

ــ وهل بقى فيها اجراءات ••• طلعت صاحب البوليس

وقال زين وهو يكتم غيظه :

ــ يا حضرة الضـابط لا لزوم لهـذا ومعرفتى بحفنى بك لن تسنعنى من اعطائك حقك ان كنت صاحب حق

ــ وهل عاد فيها حق

ــ سـترى

ـ وهو كذلك

وروى القصة وما أن انتهى منها حتى ضحك زين •

ـ ألا تعرف حفنى بك

ـ عرفته بين رأسى الفرسين

ـ حفنى بك الوسيمى

ونظر شوقى الى حفنى نظرة متفرسة •

ـ أأنت الذى تكتب فى مجلة الفن

وقهقه زين أخيرا وقد أحس أن الحرج الذى وقع فيه قد انجاب عنه الى غير رجعة •

ـ هو الذى يكتب فى مجلة الفن وأخوه حلمى الوسيمى الوطنى المشـــهور •

ـ ولمـــاذا لم تقل هذا من الصبح يا أخى

ـ وهل تركت لى فرصة لأقول

ـ أوجعتنى بذلة المحمل

ـ حقك على

ـ ولا حق ولا يحزنون ••• الى أين أنت ذاهب

ـ كنت فى طريقى لاستئجار عربة

ـ لمجرد استئجار عربة أم لتذهب بها الى مكان معين

ـ والله كنت سأفكر أين أذهب بعد أن أركب

ـ ولا تفكر ولا حاجة ••• تعال نشرب حاجة أولا ثم فكر على كيفـــك •••

ـ تعال معنا يا زين .

ـ والمحضر ؟

ـ أكتبه حين ترجع ..

وضحك ثلاثتهم

ـ على رأيك

ـ ونادى زين البلوكامين :

ـ أنا خارج فى مهمة ... ولن أغيب

ـ أمرك يا أفندم

وفوجىء سائق العربة بالخصمين بخرجان وقد لف كل منهما ذراعه فى ذراع خصمه ومعهما أيضا ضابط البوليس وركب الثلاثة عربته . وصدر اليه الأمر أن يذهب الى قهوة ريش ... وزيد عدد الأصدقاء عند حفنى صديقا جديدا سرعان ما تبين له أن صداقته ستكون وطيدة بذلك الاحساس الخفى الذى لا يعرف مأتاه الا خالق النفوس وباريها .

٨

توقع حفنى كل شىء الا هـذا الذى فاجأه به أخوه حين ذهب اليه بعد الظهر يحمل مبلغ الخمسة آلاف جنيه التى ادعى أنهـا كل ما بقى له •

ــ أتعرف من اشترى الأرض

ــ لا والله

ــ ألم تقرأ عقدا واحدا من عقود البيع

ــ وفيم أقرأ ؟؟ الحاج على هو الذى يقوم بالبيع وكلانا يعرف أمانته كل المعرفة ••

ــ هيه ••• النهاية ••• أنـا الذى اشتريت الأرض

ووجم حفنى فى ذهول •

ــ تقول من !

ــ ألم تسـمع

ــ ولكنك ••• ولكنك

ــ نعم وأنــا فى السجن اشتريتها

ــ كيف ...

ــ لا يهم ... المهم

ــ أرجوك ... انتظر ... أرجوك ياسى حلمى انتظر لم يعد فى رأسى عقل ليسمع

ــ ضياع عقلك أمر يحدث كثيرا

ــ فى عرضك انتظر قليلا ...

وصفق وجاء بخيت آمين المنزل وطلب منه كوب مــاء وانتظر الصمت كوب المــاء حتى حضر . وخرج بخيت بالكوب الفارغ ..

ــ أهذا ذهول الفرح أم العجب أم السخط

ــ كل هــذا معا

ــ والسخط أيضا

ــ على نفسى

ــ أهذا فقط ما يسخطك على نفسك

ــ لمــاذا لم تقل لى هذا من قبل

ــ وماذا كنت تفعل اذا قلت لك

ــ أهدأ وأستريح ..

ــ وهل كنت مضطربا حتى تهدأ

ــ ومن أدراك أننى لم أكن مضطربا

ــ لأن الله وهب لك أعصابا من حديد

ــ كيف تعرف

ـ بعت أرضك كلها ومع ذلك لم يهمك شيء

ـ وماذا يمكن أن يهمني

ـ ألا تخـاف المستقبل

ـ وأنت موجود ... لا ... لا أخاف شيئا

ـ نعم تعودت أن تجدني دائما

ـ وسأجدك دائما

ـ فهل يا ترى سأجدك أنـا

ـ أنت لا تحتاج الى ولن تحتاج الى

ـ من يدرى

ـ أنـا أدرى

ـ تستطيع أن تكون قمة فى الذكاء ولكنك أبدا لن تستطيع أن تعرف الغيب ..

ـ أرجو ألا تحتـاج الى أبدا ولكن على كل حال أنت أبى وأخى وأستاذى ومثلى الأعلى فان خنت واحدا من هؤلاء فلن أخون الآخـر ..

وعاد الصمت مرة أخرى وبدأ حلمى الحديث :

ـ على كل حـال . الأرض ستظل ملكا لك وسأسدد لنفسى ما دفعته لك ثمنا لها من الريع حتى اذا استوفيته عادت الى ادارتك مرة أخرى وفى هذه المرة لن تستطيع أن تبيعها ثانية .

ـ أطال الله عمرك وأبقاك

ـ وفى فترة السداد سأعطيك خمسين جنيها شهريا لتظل محافظا على مظهر البذخ الذى عرفك الناس به .

ـ هذا كثير .. كثير جدا .

ـ الجنيه فى يدك مليم ... أرجو أن تقدر أن المبلغ كثير حقيقة ولا تبالغ فى الانفاق ..

ـ مرة أخرى وثالثة وعاشرة وألفا أطال الله عمرك ... أريد أن أقبلك ولكن لن أقبل وجهك كما يفعل الأخ مع أخيـه وانما ...

واختطف يده وقبلها وأكمل الحديث :

ـ كما يفعل الابن مع أبيه

واضطرب حلمى هنيهة ولكنه تمكن بقوة السـياسى أن يكبت عواطفه ويغير مجرى الحديث

ـ أنـا مسافر غدا لأبدأ الحملة الانتخابية

ولكن حفنى عاجله :

ـ لا تغير الموضوع هناك أمر لم يتم

ـ ما الذى لم يتم فيه

ـ هـذا المبلغ

ـ ما هـذا

ـ ألفـا جنيـه

ـ اذن فقد كانت سبعة ..

ـ لم أكن أعرف فيم تريد المبلغ قلت ان كان يريد أن يعاقبنى فالخمسة كافية أما اذا كان يريد المبلغ للانتخابات فالسبعة كلها له .

ـ مهما تكن أعمالك سيئة فى حق نفسـك الا أنك كأخ تعتبر من أبر الأخوة

ـ الآن غير الموضوع اذا شئت

ـ أنـا مسافر غدا للانتخابات

ـ أسافر معك

ـ لمـاذا ؟

ـ لأكون معك

ـ كما تشاء . ولو أنني أفضل أن تبقى

ـ أبقى لمـاذا

ـ أخشى أن تحتاج وصفية اليك

ـ هل اقترب موعد الوضع

ـ أظن ذلك

ـ البلد ليست بعيدة وأنـا قادر ان شاء الله على أن أكون على علم باخبارها دائما .

ـ كما تريد وعلى كل أخوها أحمد ووالدتها سيقيمان معها هنا

ـ اذن فانا معك

ـ على بركة الله

***

فى مولد فجر من عام ١٩٢٤ ولد صديقى عدلى حلمى الوسيمى الذى بدأت به ومعه هـذه الرواية التى أرويهـا لك وأصبح والده الأستاذ حلمى الوسيمى عضـوا بمجلس النواب وبدأت بالأب وأبنه حياة جديدة ... وربما أيضا بدأت مصر نفسها حياة جديدة .

٩

أما أخى فقد أصبح عضوا بالبرلمان منذ سنوات وسنوات وأصبح له ابنه عدلى فماذا أنا فى هذه الحياة ؟ مقامر صاحب نساء ثم ماذا ... وماذا تريد بعد ثم ... هو يجاهد فى سبيل الوطن ويشق الحياة بمخالبه ليحقق الاستقلال لبلاده لأن استقلاله هو ممثل فى استقلال مصر أما أنا فمتمتع باستقلالى دون البحث عن استقلال مصر ... هو سينال مكافأته وسعادته اذا جلا الاحتلال وأنا أنال مكافأتى من كل لحظة حياة والدفع فورى ، المتعة مع اللحظة بلا أجل ولا تسويف ولا تعطيل ولا تأخير . أنا واثق أننى تقاضيت ثمن جهدى .. أسهر على المائدة وأتمتع وأنال متعتى مع سهرتى . أو أسهر مع صاحبتى وأنال متعتى فى الصحبة نفسها أما هو فمن يعلم أينال ما يرجوه أم هو جهاد بلا نتيجة وشقاء بلا ثمن وتعب بلا فائدة .

أهو هكذا حقا أم تراه يجد لذته فى أنه يؤدى واجبه الذى اقتنعت به نفسه واطمأن اليه ضميره .. أشهد أنه لا يهتم بالشهرة ولا يسعى اليها ولا يفكر فيها وانما هى تسعى اليه كنتيجة طبيعية لجهاده ولكنها أبعد ما يكون عن آماله .

أينا خير من صاحبه • وفيم التفكير ؟ وهبنى أردت أن أكون مثله أيبدى هذا • انما أحسن مالا يحسن ويحسن هو مالا أحسن • هل أستطيع أن أتكلم بالبرلمان وأحارب الانجليز وأؤيد الحكم أو أعارضه • وهل يستطيع هو أن يلعب البوكر أو الكونكان كما ألعب هل يستطيع أن يجعل أجمل سيدات مصر يتقن الى ابتسامة منى أو موعد • هيهات له هيهات •

بالمناسبة ما قصة هذه الأميرة المقبلة على وماذا تريد منى وماذا أستطيع أن أقدم لها • جمالى وشبابى • ألم تجد شابا جميلا غيرى •• أعجبتها ••• وأى عجيبة فى ذلك ••• ومهما تكن آميرة فانها مازالت امرأة ••• ولكن الملك معجب بها ••• وماذا فى ذلك ••• هل جننت انه الملك ••• وأنا ما شأنى به ••• لتكن أنت لا شأن لك به أليس أخوك مرشحا أن يكون وزيرا ••• وما شأن الوزارة وأميرة أرادها الملك وأرادت هى غيره ••• أنسيت كيف تحكم مصر ••• لا ولكن أستطيع أن أتناسى ••• أنها أميرة ••• وأنها امرأة ••• كيف ستبدو ••• كما تبدو النساء ••• أكل النساء متساويات هيهات ••• لو كان الأمر كذلك ما بحثت عن بديلات دائما ••• كل امرأة لها مذاقها الخاص وطعمتها الخاصة ولونها المتميز ••• صوت كل امرأة له تهدج مختلف •• ولكل صوت وقعه فى الأذن نغمات تتقاصر بجانبها موسيقى عبد الوهاب وأم كلثوم ••• والله ولا مائة ملك سيمنعنى عن الأميرة فضيلة ••• فضيلة ••• مصيبة لو كان لها من اسمها نصيب •

***

كان الحفل فى قصر الأميرة فضيلة غاية فى البهاء والروعة ولكن حفنى أصبح متمرسا على هذه الحفلات • الا أنه فوجىء بشوقى سلام ضابط الجيش بين المدعوين •

ــ أهلا شوقى

ـ أهـلا حفنى

ـ ماذا أتى بك

ـ مأموريـة

ـ مـاذا ؟

ـ ألم تسمع أم أنت مندهش

ـ كنت أظن هذا من عمل البوليس •

ـ أصبحت وجوههم معروفة وأصبحنا نحن نكلف من حين لآخر
بهذه المهمـات •

ـ فى أى سلاح أنت ؟

ـ ألم تدرك

ـ أريد أن أتأكد

ـ فى الحرس الملكى

ـ أهلا ••• تشرفنا

ـ حفظت ؟

ـ وأنت ماذا أتى بك

ـ مأموريـة

ـ أنت الآخر

ـ هذا عملى الرسمى

ـ حسبتك صحفيا

ـ هذا عملى غير الرسمى ••

ـ وقعتك هباب ••• مأموريتك ألعن من مأموريتى ••

ـ ربنـا يسـتر •••

ـ أنـا على أن أراقب أما أنت •••

ـ ما دمت أنت الرقيب فمهمتى سهلة باذن الله ••

ـ ولم لا ••• لولاك ما جئت أنـا هنا الليلة ••

ـ كيف ••

ـ وصلت أخبارية أن هناك حبيبا جديدا ومهمتى أن أعرفه •

ـ لا تتعب نفسك

ـ وفيم التعب المـأمورية تمت والحمد لله

ـ اياك أن تؤدى المـأمورية بأمانة

ـ المسألة كلها لا أمانة فيهـا وما دمت أنت المقصـود فانت أولى بالمحاباة

ـ والله صاحب

ـ هل رأيت شيئا بعد

ـ الناس لبعضها البعض

ـ هيص أنت وأنس أمرى تماما ••

ـ تعيش ••

***

الأميرة فضـيلة ذات نوع من الجمـال المهر الذى لا يستطيع انسان مهما يكن زاهدا أن يعبره دون أن يقف أمامه حائرا ذاهـلا وفى أحيان كثيرة يتولى الذى يراها للمرة الأولى نوع من الخشـوع

والرهبة • قوام فارع مياد اذا مشت خيل اليك أن العالم كله يعزف موسيقى الهية من نوع خاص لا تعرفها الأرض ولم تسمع بها • شعرها ثورة كل شعرة منه تقوم بوظيفة لا يستطيع أن يؤديها غيرها عيناها الخضراوان الضاربان الى الزرقة بحر وشلال ونسير وجدول ومطر وبرق ورعد وناي وعود وكمان وقانون تعزف جميعها ألحان باخ وبتهوفن وشوبان وليست • أنفها أمر وفمها اشراقة ابتسامة وكبرياء سيد • جيدها قصيدة تشابكت البحور فيها فاذا هي بحر جديد يجمع فن الغرب والشرق جميعا وجهها أنواع شتى من وجوه الجمال في أنحاء العالم كله •• اذا طالعه انسان لم يستطع أن يطيل اليه النظر خاشيا أن تصيبه منه صاعقة ترديه وفي الوقت نفسه لا يستطيع أن يصرف عنه عينيه فهو عائد اليه فالصاعقة أهون بكثير من أن يحرم النظر الى هذا العالم المتفرد من الفن والجمال والطيبة والقسوة والاسماح والجبروت والقبول والرفض •

كل ما كان يحسه حفني أنها ذات جمال رائع •• ولكن هيهات له أن يصل من جمالها الى أعماقه ومن أين له •• وكل ما يعنيه منها ما يفكر فيه رجل من محترفي النساء عند امرأة تحب دائما أن ترى أثر جمالها الفادح على المحترفين قبل الهواة •

في لحظة أو هنيهة من لحظة استطاعت أن تهمس في اذنه آمرة في دلال وحزم حاسم :

ـ تأتي غدا الساعة الواحدة ظهرا

ـ أمر سموك

١٠

مجلة الفن التى يعمل بها حفنى تجمع فيها كل أصناف النــاس وكذلك شأن الصحافة منذ ولدت الصحافــة فى العــالم فهى تجتذب بسحر لها عجيب ألوانا من الناس شتى تضاربت مشــاربهم واختلفت أهواؤهم وتعددت ثقافــاتهم وجهالاتهم ، وكثيرا ما يكون الجهــل فى الصحافة رأس مال • ولا تحسب أنى أغــالى أو أحــاول اثارة التعجب فى نفسك • وانما أقصد تماما ما أقول فاذا كان محرر الشئون الفنيــة للسثلين فى ذلك الزمان عالمــا ــ لاقــدر الله ــ يسقط بابه ســقوطا فاحشا • فالمفروض فى محرر هــذا الباب أن يكون قمة فى السطحية لأنه ينبغى عليه أن ينقل الى القراء أين تصنع الممثلة ملابسها وأين تســهر ومع من • كمــا يتحتم عليه أن يذكر أحداثها الغرامية ومغامراتها فاذا لم يكن لها أحداث فعليه أن يختلقها اختلاقا • والخبطة الصحفية تتحقق عنده اذا ذكر أن ممثلا وقع فى حب ممثلة • وليس يعنيه أن يكون الممثل متزوجا ولا يعنيه أن تكون الممثلة كذلك ، انما المهم أن يمتع القراء • ولو كان ــ لاقدر الله مرة أخرى ــ على شىء من الثقافة لأصابه بعض الحياء فان أصابه هــذا الداء الوبيل المسمى بالحياء لمــا اســتطاع أن يقدم الباب الناجح الذى يريده صاحب المجلة أن يقدمه ••

وهكذا تجدنى لم أبتعد عن الحق بل التزمته حين قلت لك أن الجهل يكون فى كثير من الأحيان رأس مال خطيرا فى عالم الصحافة ..

وكما تجتذب الصحافة هؤلاء تجتذب أيضا من يريد أن يظهر اسمه منقوشا بحروف المطبعة ولا يهم على أى مادة يظهر هذا الاسم انما المهم أن يظهر حتى ليضطر بعض الذين على شىء من العلم أن يخفوا علمهم هذا وكأنه سبة حتى يقبل صاحب الأمر فى الصحافة أن ينشر له .

ومن الصحفيين من يريد أن يتصل بصاحب سلطة أو صاحب جاه أو صاحب شهرة .

ومنهم من يريد أن يكون كاتبا فيبدأ حياته ناقل خبر حتى يصل الزمن به يوما أن يكون صاحب قلم .

ومنهم غير ذلك ... فى بعضهم الاخلاص لمهنته وفى بعضهم الرغبة أن يركب مهنته وسيلة الى غاية أخرى .

ومنهم من يتخذ مهنته ــ كما ينبغى لها أن تكون ــ مهنة الأمانة والشرف والصدق والنقد الراغب فى الاصلاح والتأييد المنبعث فى الحق ..

ومنهم من يتخذ مهنته ــ كما ينبغى لها أن تكون ــ سلاحا لقطع الطريق وفرض أتاواته على كل من لا يطيع رغباته الشخصية فاذا هاجم هاجم لينال وان مدح مدح لينافس ... و ...

واذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

فى كل مهنة فى الحياة أخيارها وأشرارها ، وهل المهن جميعا ألا نبات الحياة . صناعها هم أبناء الدنيا . والدنيا خير وشر . وشرفاء ولصوص . وأتقياء وفجره . وأنقياء وقذره .

***

شـاع فى الصحافة جميعا تلك الصلة التى استحكمت حلقاتها بين الأميرة فضيلة وحفنى • ورأى حفنى عجبـا • راح الصحفيون من جميع الجرائد يتقاطرون على حفنى • ولكن سبقهم جميعـا اليه اثنـان من العاملين معه فى المجلة • لم يكن واحد منهما يلقى اليه اهتماما أو يحاول أن يتعرف به • ولكنهما فجأة حين عرفا بتلك الصلة الجديدة أقبلا عليه اقبالة غير قادرة ولا متمرسـة • فقد كان كلاهما فى أول حياته الصحفية وان شئت قلت فى أول الحيـاة كلها ولكن هذان الصحفيان حقيقان أن نعرف عنهما كل شىء وانى بأمرهما على علم اليقين •

فأما أولهما فهو حـامد العراقى • وليست كلمـة العراقى تلك جنسيته وانما هى اسم والسبب فيه غاية فى الغرابة ••

قدمت قبل مولد أبيه جارية من العراق أدركهـا قانون منع الرق فصارت راقصـة فى الأفراح والموالد واستعملت معها مغنية مصرية كان لابد لها منها حتى يتاح لها أن تسمع سـيدات هذا العصر الغناء فقد كان لا يغنى عند الحريم الا المغنيات وكان من الطبيعى أن تطلق على هذه المغنية اسما فنيا فاطلقته فاذا هو سـعاد العراقية • وحين تزوجت سعاد نسب ابنها الى الجانب الأكثر شهرة فاذا اسم ابنها وجيه العراقى لا وجيه القمـاش •• كما كان ينبغى أن يكون • مع أن القماش كان أيضا من أهل الفن فقد كان طبال الفرقة التى تغنى فيها العراقيـة ولكن أين الطبال من مغنية الفرقة •

أنجب وجيـه العراقى الذى عمـل قاهيـا بوش البركة فوزى العراقى الذى صمم أبوه أن يبعده عن الوسـط تماما فعلمـه حتى نال الشـهادة الابتدائية وسعى له عند زبائن بالمقهى حتى عين موظفـا بوزارة الأوقاف وأصبح يحمل اسم فوزى أفندى العراقى وأنجب فارس حديثنا هـذا حامد العراقى • وقد لقى حامد من شظف العيش ما جعله يكره الدنيا جميعا فجوانحه كلها حقد وسخيمة ••• ونفسه تأكل نفسه

حتى شب ولم يشب فهو مشروع انسان لم يكتمل خلقه ولم تكتمل نفسه • فهو قصير غاية القصر ضامر كل الضمور وان تهيأ لك أن تطلع على داخله لوجدته أعظم قماءة من جسمه •

أصر أبوه أن يعلمه ويتم تعليمه وكانت دون ذلك أهوال •• واستنجد فوزى أفندى بكل ذى أكرومة حتى استطاع أن يحصل على اعانة من الأوقاف كانت هى أحد المصدرين اللذين كان لهما الفضل فى تعليم حامد أما المصدر الثانى فقد كان مبلغا من المال يجود به كل شهر وجيه العراقى على حفيده حامد • وهكذا شب حامد وتعلم على موردين من المال عجيب أن يقترب أحدهما من الآخر وعجيب أن ينسجما فى مجرى واحد وكل منهما قادم من مصدر بعيد كل البعد عن المصدر الآخر • فقد اجتمع على تنشئته وتربيته وتعليمه مال الصدقة قادما من الأوقاف ومال السحت قادما من وش البركة •

وأكمل حامد العراقى تعليمه وتخرج فى كلية الحقوق وكان ترتيبه متقدما فكان طبيعيا أن يسعى جهده ليعين فى النيابة العامة أمل خريجى الحقوق جميعا ولكن وقفت دون ذلك عقبات لا يستطيع أن يتخطاها به أحد حتى ولا زبائن جده بوش البركة • وكيف لمن كان جده قاهيا وجدته راقصة أن يصبح عضوا بالنيابة • هيهات • راح حامد يبحث عن وظيفة أخرى ولكن الوظائف لم تكن ميسورة فى ذلك الحين فالأبواب أمامه مغلقة • كان الحقد قد تمكن من نفس حامد وعظم سخطه على المجتمع • فأى ذنب جناه هو حتى تحيطه الحياة بكل هذا القذر الذى يحيط به والذى يحول بينه وبين أن يبلغ من المكانة ما يصل اليه من هم أقل علما •

راح حامد فى هوة الفراغ التى تطالعه من الحياة يقرأ وكان بروح الحقد التى طمت على نفسه يعرف ما يريد أن يقرأ • وبدأ يكتب واتجه بكتابته الى مجلة الفن فقد كان فيها أبواب لا تخلو من الجرأة وهو

يريد حقده أن يفشو فى كتاباته ومقالاته بعد أن فاضت به مشاعره •

ومهاجمة المجتمع والمستتر من شئونه أمر حبيب الى نفس أصحاب الصحف • فكل هجوم حبيب الى القراء • فالفاشلون فى المجتمع أكثر من الناجحين وقديما قال الشاعر :

بغــاث الطير أكثرها فراخا
وأم الصقر مقــلات نزور

والفاشلون يحبون دائمــا أن يعلقوا أســباب فشلهم على أقرب مشجب • وليكن المشجب فساد المجتمع أو الوســاطة التى تأخذ بيد الناجحين أو هم يبالغون فيدعون أن الذين أفلحوا انما أفلحوا بالنفاق والسفالة وبيع الضمير • ليكن المشجب أى شىء الا أن يكون الناجح أهلا للنجاح وهم أهلا للفشل بغبائهم أو جهلهم •

وهكذا نشر صاحب المجلة مقالات حامد • وما هى الا بضــع مقالات حتى عين حامد محررا لباب المجتمع فى مجلة الفن ومن هــذا الباب كتب فى السياسة • وحين تقرب الى حفنى طلب اليه أن يعرفه بأخيه حلسى • ولم يجد حفنى مانعا وتعرف حامد بحلسى •

ألا يطيب لك الآن أن نترك حامد قليلا لنذهب الى زميله الذى سعى الى حفنى حين بلغه اتصــاله بالأميرة • انه حسن هنداوى •

أما أبوه فسمسار غلال تمكن من تعليمه حتى نال الابتدائيــة ثم تقطعت أنفاسه وأعلنه أبوه هنداوى :

ـ الابتدائية على أيامنا كانت تجعل الحاصــل عليها أفندى قد الدنيــا

ـ ولكنها على أيامنا لاتزيد عن الآخرة فى شىء

ـ يا ابنى ألا تعرف ماذا أعمل

ـ تاجر غــلال

ـ ياليت ... يا ابنى أنا سمسار . أوصل البائع الى المشترى أو المشترى الى البائع وآخذ العمولة والسمسرة

ــ ولماذا لا تكون تاجرا

ــ أولا أنا لا أملك رأس المال وهذا وحده سبب كاف ثم أن التاجر عرضة للخسارة أما السمسار فلا يخسر أبدا .

ــ ولكنك لا تملك شيئا حتى تخشى الخسارة

ــ حتى وان كنت أملك المال فأنا لا أملك الجرأة

ــ الجرأة هى الحياة

ــ وهى الموت أيضا

ــ المهم أنا لا أستطيع اكمال تعليمك

ــ حاول أن تعينى فى وظيفة اذن فعملك جعلك تعرف الكثيرين .

وكان عضو النواب بالدائرة ممن يبيعون قمحهم عن طريق أبيه . فزكاه عند صاحب الجريدة فعين بها . وراح يحاول الاتصال بالأستاذ فايز وهبى صاحب الجريدة .

وكان الأستاذ فايز يحب الليالى الحمراء وأدرك حسن هذا فيه فاذا هو يتقرب اليه عن طريق النساء . وأصبح هو الصلة بين الأستاذ فايز وبنات المواخير اللاتى وجد حياته تقوم على الاتصال بهن . وأصبح من أقرب المحررين الى صاحب المجلة . ولكن حسن كان ذا طموح كبير ضخم وليس فايز بالنسبة اليه الا أول الدرج وربما كان حفنى وحلمى هما السلمة الثانية فى هذا الدرج . وهو درج من نوع عجيب يراه حسن يؤدى الى السماء السابعة من الشهرة والمجد والجبروت ، ويراه المجتمع الشريف يؤدى الى أسفل حماة من السفالة ويبيع القلم والضمير والشرف وكل ما يتصل بالخلق الكريم .

ولكن حسن حين جال بعينيه فيمن حوله أدرك أنه لا سبيل له أن ينال مكانة مرموقة فى الصحافة التى رمته المقادير اليها الا بأن ينال شهادة وأن يتقن لغة أخرى • وان كانت صلته بفايز تمكنه اليوم من نشر مقالاته وتقربه مما يظن أنه شهرة ومجد فقد كان من الذكاء بحيث يدرك أن الكتابة هى عرض عقل الانسان على بشر كثير ، واذا لم يكن ما يعرض عميقا ذا قيمة فلابد على الأقل أن يكون جذابا فاذا هو ظل محصورا فى دائرة الثقافة الابتدائية وما يكتبه الآخرون فى شتى الصحف فلا مستقبل له • التحق حسن بمدرسة من مدارس اللغات وراح يتعلم اللغة الانجليزية وفى نفس الوقت راح يذاكر لينال شهادة التوجيهية أو البكالوريا من المنزل • فقد كان حسن يعلم أنه اذا لم يتسلح بالشهادة وباللغة فلا سلاح له فى الحياة ، وحين تعرف بحفنى كان قد نال شهادة البكالوريا وكانت أنفاسه قد تقطعت فاكتفى بها وانصرف عن اكمال الجامعة واعتمد على أن اتقانه للغة الانجليزية قد يعوضه عن الشهادة العالية واعتمد أيضا على أن الناس مع الزمن ينسون ما حصل عليه الانسان من شهادات وخاصة اذا كان هذا الانسان يعمل فى الصحافة وليس فى وظيفة رسمية فى حكومة •

كان كل من حامد وحسن أصغر كثيرا من حفنى •• وهكذا استطاعا أن يلازماه ملازمة الظل وتعرف كلاهما بحلمى الذى أصبح وزيرا فكان مصدر معلومات سياسية لكليهما وكانا يقسمان المعلومات بينهما ويعرض كل منهما معلوماته ويعلق عليها كل بطريقته • أما حامد فبخبث الحاقدين وأما حسن فبديما جوجية التجار الباحثين عن الابهار عن طريق تضخيم الهائف وتعظيم التافه واكساب هين الأمور ما لا تستحقه من أهمية وخطورة •

١١

طغى الملك واستكبر وتجمعت حوله ثلة من أصاغر الناس وحقرائهم الباحثين عن المال لأنفسهم وللملك عن أى طريق وبأى وسيلة ، أما هم فوضعاء ويعلمون أن بقاء أى فرد الى جانب السلطان أمر لا يطول أمده ، وأنهم ان كانوا نجوما اليوم فهم فى غد قريب مبعدون فهم يهتبلون فرصة قربهم هذا ليشفطوا ما يتاح لهم وما لا يتاح من أموال ، أما الملك فقد كان يشعر فى بيته بالمهانة وحقارة الشأن وكان يريد أن يثبت لنفسه أنه ذكى وخطير وأنه يستطيع أن يسخر ممن يشاء وما درى المسكين أنه يسخر أول ما يسخر من نفسه ؛ فان أحدا مهما يكن ذكاؤه لا يستطيع أن يسخر من شعب أى شعب فما الخطب ان كان هذا الشعب هو الشعب المصرى الذى خاض من أهوال الحياة ما لم يخضه شعب آخر • والذى اقتعد قمة التاريخ فى صدر التاريخ ودوخ الطغاة ودوخوه على مر الآلاف من السنين • فليس فى العالم أجمع شعب خبر الحياة وخبرته الحياة مثل الشعب المصرى فهيهات أن يسخر منه ساخر •

قد يخدعه مخادع ولكن هيهات أن يستطيع المخادع أن يخدع

المثقفين منه والمتعلمين ، أما الذين لم يتلقوا من التعليم حظا فهم يتقنون من الحياة صنعتهم فى الحياة ، فالفلاح المصرى يزرع بأدوات قدماء المصريين وينتج انتاج القرن العشرين .. رأيت فلاحا يمسك بقطعة الطين من الأرض ويضعها على لسانه ثم يقول وكأنه أستاذ فى أعلى الجامعات :

ـ هذه الأرض لا تصلح لزراعة القطن .

ورأينا الصانع المصرى يجتاز فترة الحرب العالمية وسيارات مصر جميعها تسير بغير قطع غيار من الخارج والمبانى تقوم دون أن يستقدموا لها الحديد أو أدوات السباكة من الغرب الذى كان مشغولا بحربه ولا عبور بالبحر الأبيض المتوسط الذى كان لا يخدم الا سفاكى الدماء من الجانبين المتحاربين

فاذا ظن سياسى أنه يخادع هؤلاء فلأنهم كانوا مشغولين عنه باتقان صنعتهم وليس يعنيهم أمره فى قليل أو كثير وكأنهم كانوا يريدون أن يقولوا له فى تلك الابتسامة الطيبة العذبة :

ـ أتريد أن تضحك علينا وماله ؟ اضحك ولكن أتركنا نحن لنقوم بواجبنا نحو صنعتنا .

وهكذا أصبح الملك لصا وهو فى غير حاجة الى مال وحلا له أن يذاع عنه أنه فى ميدان النساء صنديد لا يشق له غبار ليخفى بذلك حقيقة أمره . وما كان فى حاجة الى اخفائها فما يعنى الناس عنه فى هذا الميدان شىء ولكنه غباء تمكن منه وخرج به عن طبيعة الأمور وربما كان له العذر فى ذلك بما كان يلقاه فى أسرته من أهوال .

حاول الملك أن يعدو على أموال الدولة فى الوزارة التى كان يحمل عبئها حلمى باشا . وكان الملك يظن أن انعامه عليه بالباشوية سيجعله يقبل محاولة الملك أن ينال أموال الدولة ولكن فأله خاب .

ورفض حلمى أن تتنازل وزارته عن حقها فى المال العام فيصبح مالا خاصا للملك •

وأصر الملك وأصر حلمى • وأحرج رئيس الوزارة ولكن حلمى الذى لم يأبه بغضب الملك كان أكثر اهمالا لحرج رئيس الوزراء •

وأوشك رئيس الوزراء أن يستقبل ولكن الأحداث تلاحقت •

واضطر الملك أن يتراجع ليتظاهر أنه يواكب الأحداث •

فقد حدث فى ذلك الحين أن بدأ اليهود فى انتهاب دولة فلسطين مؤيدين بالامبراطورية التى كانت ما تزال حتى ذلك الحين تغطى بشمسها المظلمة العالم أجمع • وأصبحت مصر فى موقف غاية فى الحرج. فهى من ناحية زعيمة العالم العربى والاسلامى ، وها هى ذى دولة عربية بأكملها يحاول عدو وقح أن يستولى عليها ويقيم عليها دولة يهودية ، ومن ناحية أخرى كانت مصر هذه الزعيمة دولة محتلة بالامبراطورية البريطانية التى تحمى العدوان اليهودى الذى لم يسبق له مثيل فى التاريخ •

وحاول الملك أن ينتهز الفرصة ليلهى الناس عن فضائحه ويحيى الحلم القديم الذى راود أجداده أن يصبح خليفة على العرب جميعا متناسيا طبيعة التاريخ والدول ورفض كل دولة أن تكون تابعة فى حكمها الى أى دولة أخرى مهما تكن هذه الدولة حبيبة وصديقة بل وزعيمة أيضا •

أراد الملك أن يجبر الوزارة على دخول الحرب بغير أى استعداد وعرض الأمر على مجلس الوزراء وانقسم الرأى وكان رأى حلمى أن نسأل وزير الدفاع وكان وزير الدفاع من أتباع الملك فاذا هو يقول وهو يعلم أنه كاذب :

ــ ان هذه الحرب تعتبر نزهة حربية للجيش المصرى وأنه

يستطيع أن يقضى على القوات الاسرائيلية فيما لايزيد عن أسبوعين •

وحينئذ قال حلمى :

ـ مادام الأمر كذلك فان الجيش المصرى لن يجد فرصة مثل هذه ليمحو عن نفسه ذلك الاسم المقيت من أنه جيش المحمل الذى لا عمل له الا الخروج فى الاستعراضات ليكون أشبه شىء بعارضات الأزياء • ومصر عليها أن تواجه قدرها الذى ألقاه التاريخ على كاهلها فهى زعيمة العالم العربى والاسلامى ، ومصر يجب أن تجعل المحتل يحس أنه غير آمن فى احتلاله ولعله يعجل بالرحيل بعد أن أنتهت المفاوضات الأخيرة بالفشل شأنها شأن كل المفاوضات السابقة عليها •

ورفعت الجلسة دون أخذ الرأى فاذا حلمى يقدم استقالته الى رئيس الوزراء ويطلب اليه رئيس الوزراء أن يؤجلها الى فترة قصيرة ويقول حلمى :

ـ أنا أعلم أن الوزير عليه أن يخضع لرأى الأغلبية فى مجلس الوزراء •• ولكنى أعلم أيضا أن موضوع الخلاف اذا كان من الخطورة بهذا المكان فان ضميرى يحتم على أن أقدم استقالتى لأننى مصمم على رأيى وأرى أن بقائى فى الوزارة يعد خيانة منى للوطن ولنفسى •

ويقول رئيس الوزراء :

ـ انك محق فيما تقول ولكن لا تنس أن مجلس الوزراء لم يقل رأيه بعد فأبق عليك استقالتك حتى يصدر المجلس قراره فان كان مخالفا لرأيك أصبح من حقك أن تقدم استقالتك وأصبح من واجبى أن أقبلها •

وانتظر حلمى وقطع الشعب المصرى الطريق على أى رأى فقد تطوعت الألوف من الشباب بل تطوع أيضا الكثيرون من رجال

الجيش ووجدت الحكومة نفسها مرغمة أن تعلن الحرب حتى تستطيع أن تقدم لهم السلاح علانية وقامت الحرب واكتسح الجيش المصرى أعداءه • ولكن الامبراطورية البريطانية أدركت أنها لو أتاحت هذا النصر لمصر فمصيرها فى مصر أصبح مقضيا عليه وهى فى الوقت نفسه كانت تريد لدولة اسرائيل أن تقوم لتكون قاعدة لها فى المنطقة اذا اضطرتها الظروف أن تجلو عن البلاد التى تحتلها وكانت تدرك فى نفس الوقت أن شمسها تنحسر عن العالم وأن شمس الامبراطورية الأمريكية الجديدة تطفىء أضواءها فكان من الطبيعى أن تحاول لندن وهى تلملم ثيابها من الشرق أن تغرس فيه هذه الشوكة لتستعملها عند الحاجة اليها •

وتتابعت الأحداث ••



أين صديقى الذى حدثتك عنه عدما بدأت هـذه الرواية ألا ترى معى أنه تأخر كثيرا عن الظهور • لا على ولا عليك ولا عليه • فما كان صـديقى حتى الآن ذا مكان فى الحيـاة حتى يمثل مكانا فى هـذه الرواية • وأنت على كل حال قد تعرفت عليه ولكنك لم تلتفت الى أمره ولا عنيت به فهكذا أنت أيها القارىء تريد من الروائى أن يضع لك كل شخصـية فى اطار ويلح عليـك أن تتعرف بها والروائى عـادة لا يفعل ذلك الا اذا كان يحتـاج الى هـذه الشخصـية وهو أيضا لا يفعل ذلك الا حين يرى أن الموقف قد حان لشخصيته أن تظهر • وقد ألمحت لك عن عـدلى قبل الآن ••• متى كان ذلك ؟ عليـك أنت أن تتذكر • ان عدلى هو الابن الوحيد الذى أنجبه حلمى الذى أصبح حلمى باشا وقد كان عدلى يحبو فى حنايا السنين ليتعلم وحين تعرف حامد وحسن الصحفيان الى أبيه الباشا كانت سنه تقارب سنهما • فلم يكن غريبا أن يسعى كل منهما الى التعرف اليه وتوثيق هـذه المعرفة وكان عدلى من ذلك النوع من الناس الذين يحبون أن يعرفوا الناس وينزلوا كل انسـان فى منزلته •• وأدرك حامد أن عدلى لا يمكن أن يكون متفقا معه فى الرأى فهو من الفئة التى لا تحقد وانما يحقد عليها

الحاقدون فعمل جهده أن يجعل الجانب الذى يبدو لعدلى منه مناقضا تماما لوجهه الحقيقى واستطاع فى نفس الوقت أن يجتذب عدلى اليه بما قرأ من كتب فى الفلسفة والسياسة والتاريخ • أما حسن فقد علم أن عدلى لا يحتاج الى فتيات المواخير وهو فى نفس الوقت لا يحب أن تكون هـذه الصفة معروفة عنه فى بيت حلمى ولكنه اسـتطاع أن يجتذب عدلى بحديثه المنمق وبنفاقه ويسكب المديح من غير تحفظ على والده حلمى باشا •

وقد أثمرت هذه الصداقة منفعة لحامد وحسن على السواء •

أما حامد فقد كان يريد أن يسافر الى الخـارج بأى وسيلة من الوسـائل ، وقد أدرك أن حفنى لا يستطيع أن يكون شفيعا له عند فايز ليأمر له برحلة الى العالم الخارجى ليرى ما لا يستطيع أن يراه بماله الخـاص •

وقد استطاع هو أن يقنع فايز أنه لو جعل له مراسـلا فى لندن وآخر فى باريس لسبق المجـلات المصرية فى عرض أنباء العالم • وقد اقتنع فايز بهذه الفكرة وخاصة بعد أن أصبحت مجلته عامة لا تقصر اهتمامها على الفن وحده • وطمع حامد أن يكون هو واحدا من هذين المراسلين • ولكنه وجد فى فايز فتورا عن الاستجابة لمطلبـه وفى دربة الكلاب على الشـم أدرك أن حلمى باشا لو أوصى به عند فايز فان فايز لن يستطيع أن يتغاضى عن رجاء الوزير • وتكلم حامد مع صديقه عدلى وأصبح حامد مندوب المجلة فى باريس •

أما حسن فقد أراد أن يكون مندوب المجلة فى حرب فلسـطين ولكن فايز لا يستطيع أن يستغنى عن خدمات حسن فى القاهرة فهو الذى يؤجر له الشقق وما ينتفع به فى هـذه الشقق وهو الذى يعد له كل ما يحتاجه الأمر فى أمسياته ، ولكن حسن كان مصرا على أن يقفز حواجز الزمن وكان يدرك أنه اذا لم يصـنع فى الصحافـة ما يخشى

الآخرون أن يصنعوه فلا فلاح له • ومادام قد صنع ما يخجل الآخرون أن يقوموا به فمن الطبيعى ألا يقف شيء أمامه بعد ذلك •

وتوجه الى عدلى برجائه وتقرر أن يكون حسن مندوب المجـلة فى الحرب •

***

لم يكن حفنى ليعنى بهذه الحرب فى شيء الا أنه فوجيء بشوقى سلام يأتى اليه على غير موعد ببيته ••

ـ أنـا وقعت من السما •

ـ وأنـا ألقـاك

ـ أنـا مسافر الى فلسطين بعد يومين

ـ يانهـار اسـود

ـ ولا اسود ولا حاجة كل اخوانى مسافرون

ـ من اخوانك هؤلاء

ـ ليس هذا هو المهم

ـ فما هو المهم اذن

ـ صـاحبتى

ـ أحـلام

ـ طبعا وهل أعرف غيرها

ـ الآن لا

ـ اذن هى

ـ وما شأن أحلام بفلسطين

ـ هى عندى منذ ثلاثة أيام

ـ عندك ... ألست متزوجا

ـ ماذا جرى لك ... يا أخى انت تفهمها وهى طائرة

ـ ولكن هذه ليست طائرة ... هذه غير واضحة الرؤية مطلقا

ـ فى شقتى الخاصة طبعا

ـ عظيـــم

ـ بل هباب

ـ لمـــاذا

ـ كانت قالت لزوجها أنها ستذهب الى أمها فى الاسـكندرية بسلامته آخذ أجازة أمس وذهب الى الاسكندرية ولم يجدها ... أحد أصدقائى ... ماذا أقول ... أحد اخوانى وشى بى .

ـ أحد اخوانك .

ـ ضابط زميلى كل نفسـه حقد يحقد على أى سـعادة مهما يكن مصـدر هذه السعادة . المهم ليس هذا وقته أرسل ورقة مجهولة الى الزوج يخبره عن عنوان الشقة ..

ـ وكيف عرفت أن صديقك هذا هو الذى أرسل الورقة .

ـ من حظى الأسود له صديق فى نفس العمارة التى بها الشقـة ومن حظى الأسود أنه جاء يزور صديقه هذا فرآنى مع أحلام . فهو الوحيد الذى كشف أمرى ... يا أخى ليس هذا هو المهم ..

ـ وما هو المهم ؟

ـ أن نختفى

ـ أين

ـ فى أى داهية

ـ ألم يأت الزوج الى الشقة

ـ تنيل ••• أتى

ـ وأين كنتما

ـ كنا فى أول الشــارع قادمين الى العمــارة حين رأينا سيارته أمام الباب فادركت كل شيء

ـ والآن

ـ أبحث لى عن مخبأ

ـ هيــا بنــا

ـ الى أين

ـ الى العزبــة

ـ هيــا •••

ـ أين أحــلام

ـ تحت فى السيارة

ـ سأذهب أنــا فى سيارتى وتلحق بى أنت فى سيارتك

ـ لمــاذا ••• ؟

ـ حتى تكون عندنا حرية الحركة

ـ لك حق فان صــديق الحقد الذى كلمتك عنه يعرف صلته بك ولا تستبعد أن يرسل ورقة ليرشد الزوج عن العزبة •

ـ هيــا ••

وقبيل الغروب شهد منزل الوسيمى ببلدتهم الرمايحة ســيارتين

ينزل عنهما ثلاثة نفر وجرى عبد المعين خادم المنزل ففتح الباب وقال حفنى :

ـ كيف حالك يا عبد المعين

ـ بخير يا سعادة البك ربنا يبارك فيك

وصاح شوقى :

ـ اسمه عبد المعين

وقال عبد المعين :

ـ خادمك يا سعادة البك

قال شوقى :

ـ ربنا يستر ... أخشى أن يكون هو عبد المعين صاحب المثل المشهور .

وضحك حفنى قائلا :

ـ لا تخف فهو عند الشدة يعجبك ... اعمل لنا عشاء يا عبد المعين .

ـ أمرك يا بك

ـ وجهز حجرتى لشوقى بك والست زوجته وأنا جهز لى حجرة من حجر الضيوف

ـ أمرك يا بك ... سعادتك ستتعشى هنا أم فى الدور الأعلى

ـ هنا

ـ وصاح شوقى :

ـ فى الدور الأعلى ... فى الدور الأعلى آنا فى عرضك .

ونظر اليه حفنى وسكت لحظة ثم أدرك ما يعنيه وقال :

ـ وهو كذلك فى الدور الأعلى ••• واسمع يا عبد المعين

قل لسعدون يفتح الجراج

ـ أمرك يا بك

وحين انصرف عبد المعين قال حفنى :

ـ ادخل سيارتك فى الجراج وقل لهم أن يتركوه مفتوحا

ـ معقول ••• الجراج بعيد عن مدخل البيت

ـ طبعـا

***

كان الليل حالك الظلمة وكانت آلة الانارة قد توقفت تماما فى عزبة الوسيمى وأصبح البيت قطعة من ظلام لم تجرؤ الأشعة المتخافتة من ضوء مصباح الغاز المتروكة فى البهو أن تعدو على حلكته أو أن تبدد شيئا من قتامته •

ولكن ضوء سيارة اخترق الظلام واعتدى على هـذه الحلكة بنور جرىء جرأة صاحب الحق ، وهب الثلاثة فى بيت الوسيمى وهم يعرفون من صاحب السيارة والنور •

واقتحم حفنى الحجرة على شـوقى وأحـلام وألقى أوامره فى سرعة وحسم :

ـ أحـلام خذى بدلتى هـذه والبسيها وأنت البس هدومك وانزلا فورا من باب الخدم الى الجراج وسأشغل أنا عبد الصادق حتى تخرجا بالسيارة الى مصر واذهب أنت يا شـوقى الى بيتك أما أنت يا أحلام فعودى الى بيتك واتفقى مع صديقة لك فى أى بلد أن تقول

أنها دعتك فذهبت اليها • أسرعا ••• اسـمعى أليس لك صاحبـة ليست فى القاهرة •

ـ المنصـورة

ـ حلوة ••• هيا

وبسرعة نادى عبد المعين وأمره أن يرتب فراش شـوقى وأن يترك فراشه مهوشا كما هو ونزل الى الطابق الأول

ـ أهلا عبد الصادق بك

ـ أهلا بك يا حفنى بك ••• أهكذا

ـ أهكذا ماذا

ـ أتقبل أن تكون هذه صنعتك

ـ يا ترى أنت متأكد أنك قصدت الى الشخص المطلوب

ـ لاشك فى هـذا

ـ ومن هو الشخص المطلوب

ـ حفنى الوسيمى

ـ فى عزبتى والساعة تقترب من الثانية صباحا

ـ أتظن أننى أفعل مثل هذا الا لسبب خطير

ـ متصل بى أنـا

ـ طبعا ••• أين زوجتى يا حفنى ••• أين أحلام

ـ أحلام ••• معى أنـا

ـ مع صاحبك شوقى

ـ وأنـا ما شأنى

ـ أنت تخفيهم عندك

ـ واذا كان هذا صحيحا فكيف عرفت

ـ اقرأ

ولم يكن حفنى فى حاجة الى أن يقرأ فقد أدرك أن توقع شوقى قد صح فأخذ الورقة ثم رفع بصره الى عبد الصادق :

ـ ورقة من مجهول تجعلك تأتى فى الثانية صباحا الى بيت وزير من وزراء الدولة لتتهم أخاه أنه يتستر على جريمة زنا ..

ـ كان على أخى الوزير أن يبقى بيته وبيت أخيه شريفا

ـ وهل سمعت عن حلمى غير ذلك

ـ عن حلمى لا ... أما عن أخى حلمى فانه يستطيع أن يصنع أى شىء ..

ـ تهمة مثل هذه عندنا نحن الفلاحين لا يمحوها الا الدم يا عبد الصادق بك

ـ اذا لم تكن صحيحة

ـ أنت تحتاج الى أثبات

ـ اسمح لى أن أمر بغرف البيت

ـ الطابق الأسفل نعم .. أما الطابق الأعلى فهيهات أن تخطو اليه رجل غريبة

ـ ما غريب الا الشيطان يا سعادة البك يا أخا سعادة الباشا

ـ اخرس

ـ تخفيهما فى الطابق الأعلى وتقول لا تطؤه رجل لا وحياة والدك لئن لم أصعد الى الطابق الأعلى لأبلغن البوليس فورا .

ـ أتظن أن البوليس يجرؤ على التهجم على بيت وزير وعضو نواب دون أمر بالتفتيش ورفع الحصانة من مجلس النواب أيضا .

ـ أبلغ وزير الداخلية ووزير الحقانية ... شرفى يا هوه .. شرفى يا عالم

ـ أتظن أنك تصون شرفك بهذه الضجة

ـ هذا شأنى أنا

ـ اسمع يا عبد الصادق ... أنا لا أخشى التهديد ولكن لأننى انسان وأدرك الحالة التى أنت فيها سأصعد معك الى الطابق الأعلى ولكن قل لى ... اذا لم نجد أحدا كيف ستعتذر ..

ـ الذى جعلك تقدر حالتى من الثورة سيجعلك تقدر حالتى من الخجل ..

ـ وهو كذلك ... تفضل

وطبعا لم يجدا أحدا ..

١٣

ربما خيل اليك بما قدمتـــه لك عن حفنى أنك عرفتـــه من كل جوانبه ولكن هيهات • فان حفني هـــذا دنيا بأكملها وهيهات لأحـــد أن يحيط بدنيا • بحر هو متلاطم الأمواج لا يقر له قرار • وأعجب ما فيه أنه لا يتحمس لشيء فى الوجود ولا يأخذ شـــيئا مأخذ الجد الا متع الحياة وليس يعنيه مصدر المتعة وانما يعنيه أن يحصل عليها فى أى مظنة لها •

وقد رأيناه يبيع أرضـــه ليلعب القمار ولم يكن ذلك منه تحمسا للقمار وانما احتقارا للتملك مع حب شديد للمـــال لا ليكنزه وانمـــا لينفقه ويستمتع به ، ولبس يهمه أن ينفق كل ما يملك فى سبيل لحظة واحدة من المتعة الحقيقية • وهو لا يعرف فى الدنيا مشـــاعر فهو لم يستطع أن يكره أحدا • وشعوره نحو أخيه شـــعور من نوع عجيب فهو يعلم أن انتسابه الى أخيه هذا يمكنه أن يحصل على أنواع من المتعة هيهات أن يستطيع الوصول اليها اذا لم يكن أخا لحلمى باشا •

ولكن حلمى يظل مع هـــذا بالنســـبة لحفنى جزءا من كيانه ، ولو كان قلبه يعرف الحب ما أحب الا أخاه حلمى ولكنـــه لا يشـــعر

بهذا الحب ولا هو يعرف معناه ولكنــه يعرف أنه مستعد أن يبذل كل جهده من أجل أخيه من غير حب . ومادام ما يبذله لا يفســد عليه متعة من متعه . وأحسب أن حفنى لو أحس أن قطعة من جسمه ستقف حائلا بينه وبين متعته لاستغنى عنهــا وكأنه يلقى سيجارة شربها الى عرض الطريق . وهكذا عاصر حفنى كل هــذه الأحداث التى مرت بها مصر لم يشترك يوما فى مناقشة يحس أنها ستعكر مزاجه أو تجعله آخر الأمر يفكر بجدية فى شيء ما ، ولهذا لم يكن عجيبــا أن يكثر حوله الأصدقاء ، ولمــاذا لا وأين سيجدون شخصا يوافق كل الآراء المتعارضة دون أى مناقشة لها ، بل ربما وجد الكلمة المؤيدة للرأيين المتناقضين فان يكن أخوه من حزب معارض للوفد فهو لا يعرف الحزبية وأصدقاؤه من كل الأحزاب وكلهم واحد عنده تأييدا لرأيه فى الحياة .

وهكذا مرة أخرى لم يكن عجيبا أن تتوثق الصــلة وتزداد توثقا بين حفنى وعبد الفتاح صــدقى وتستمر هذه الصــداقة رغم فارق الســن بينهمــا ، ولكن صــلات حفنى لا تعترف بفوارق الأعمــار ولا بفوارق الطبقات فهو كمــا يعرف حامد وحسن وهما من سن ابن أخيه عدلى الذى هدهد طفولته وهو وليد يعرف عبد الفتاح صــدقى الذى يكبره بما يقرب من عشرين عاما ..

وبعد فهل تراك عرفت حفنى ... هيهات لك أن تعرفه وكيف لك أن تصل الى أغواره اذا كنت أنــا وأنــا مصدرك الوحيد عنه لا أستطيع أن أدعى أننى بلغت من حقيقته كل حقيقة .

وحسبى وحسبك أن أروى لك ما خاض من أحداث لعلك تقف على شيء يسير من حقيقته . وربما سألت : نفسك وماذا يهمنى من أمر حفنى ؟ فاذا فعلت فانتى أحزن حزنا شــديدا فانما حفنى لون من ألوان الانسانية وما نحن اذا لم نعرف أنفسنا وكل انسان هو جانب منا ونحن جانب منه ، هو يمثل لونا من الفصيلة التى نكونها نحن البشر

فاذا كنت لا تعرف نفسك مصورة فى الآخرين فماذا يمكن أن تعرف •

لا عليك ولا على فانى أقص وشأنك وما أقول ولك أن ترى فيه ما تشاء من رأى •

* * *

لم يكن حلمى قد اشترك فى الوزارة بعد ، حين التفت عبد الفتاح صدقى الى حفنى وهو يقدم له فنجان قهوته :

ــ قل لى يا حفنى ••• الى متى تظل تلعب القمار

ــ كلنا يقامر يا عبد الفتاح بك

ــ لم نختلف ولكن قمار عن قمار يختلف

ــ كله قمــار

ــ تظل تلعب الليل كله وتجهد نفســك وتتعب أعصابك

ــ اسمع يا عبد الفتاح بك لعلك أول انسان أخبره أنــا لا ألعب لأكسب

ــ فلماذا تلعب

ــ لأنى أجد متعة فى اللعب فاذا فقدت المتعة تركت اللعب

ــ ولا تريد أن تكسب

ــ ليس للفلوس عندى أى معنى الا أن تكون وسيلة لأنبسط وأعيش كما أحب أن أعيش

ــ أنت أحسن انسان يمكن أن يعمل فى البورصة

ــ أتظن هــذا

ــ أنــا محترف وأعرف ما أقول

ـ ولمـاذا أعمل فى البورصة

ـ لتكسـب

ـ وماذا أفعل بالكسب

ـ ستتزوج يوما

ـ أتظن ذلك

ـ اسمع أنت تعرف خالتك كريمة عز المعرفة

ـ طبعـا

ـ أتعتبرها امرأة

ـ كانت

ـ أنـا أتكلم عن الحـاضر

ـ أنـا لم أنظر اليها من هذه الناحية

ـ وهل يستطيع أحد أن ينظر اليها من هذه الناحية

ـ ماذا تقصـد

ـ وأنت تعرف طبعا مغامراتى

ـ كلها على يدى

ـ أتعرف لو ارتفعت حرارة خالتك كريمة نصف درجة أصاب بالجنون

ـ هو الحب اذن

ـ وأكثر ... هو الحياة ... حياتى وحياة بناتى وكل ما لى فى الوجـود

ـ وتريدنى أن أتزوج

ـ طبعـــا

ـ أتريدنى أن أجن

ـ لا ... وانما أريدك أن تعيش

ـ الزواج مسئولية وأنــا يا عبد الفتاح بك أرفض المسئولية

ـ أنت اليوم شاب فكر فى يوم تصبح فيه فى مثل سنى أنــا بدون كريمة وسناء لا أساوى شيئا

ـ أما أنــا فقاربت الأربعين أما أنت فتســاوى كثيرا من غير أحـــد

ـ أوهام ... أنــا أعمل لأسرتى ... أنت لا تعرف المتعة التى أجدها حين أشغل نفسى بأمورهم ولا تعرف، المتعــة التى أحس بهــا وأنــا أتكلم مع كريمة عما سنصنعه لسناء حين تتزوج ولآمال •

ـ ولكن لا أنسى الشــقاء الذى ساد البيت يوم مــات لطيف خطيب ســناء •

ـ أنت رجل مقامر ولكى تكسب لابد أن تخسر

ـ أنــا أريد أن أكسب فقط

ـ المتعة الحقيقية هى المكسب بعد الخســارة أما المكســب المستمر فيورث الملالة ... المتعــة العميقة هى الخســارة والمكسب معا ... هكذا الحياة •

ـ أظن أن هذه المتعة لا أحب أن أعرفها

ـ اسمع أنت ستتزوج يوما

ـ لا أظن

ـ ســترى

ـ انتظر حتى نرى .. المهم لماذا لا تعمل معى فى البورصة

ـ أعمل

ـ حقا

ـ ولم لا

وعمل حفنى فى البورصة وعن هذا الطريق استطاع أن يجد وظيفة لعدلى فى البورصة بعد أن تخرج فى كلية التجارة . وكان اليوم الواحد من العمل فى البورصة يقدم لعدلى من الخبرة فى المجال الاقتصادى ما تقدمه عشرات السنوات فى أى عمل آخر بهذا الميدان .

وعين حلمى وزيرا وحاول حفنى أن يستخدم وظيفة أخيه ليصل الى معلومات يستفيد بها فى البورصة فكان الفشل نصيبه دائما فمهما يكن ذكاء حفنى فهو لا يستطيع أن يصارع داهية فى السياسة مثل حلمى .

والتفت حفنى الى عدلى فوجده مازال عبيطا عبط الشباب فى سنه المؤمنين بالشرف والخلق وأسرار الدولة وواجبات العمل فانصرف عنهما كليهما واتجه الى صداقاته وطالما أسعفته صداقاته .. وازدادت ثروة حفنى وكان ينشغل تماما عن مائدة القمار وانحصرت متعته فى الحفلات الصاخبة التى يخرج منها دائما بامرأة لا يعنيه من أمرها أن تكون متزوجة أو غير متزوجة .

***

كان الحفل رائعا فى بيت رشدى المهدى فقد ترك الشقة التى كان يسكن بها وابتنى لنفسه فيلا أنيقة جعلت أعماله تتسع والمال ينهمر عليه انهمارا وكانت الحفلات التى يقيمها فى فيلته تدر عليه أرباحا خيالية فقد كان يوهم كثرة من الوجهاء أن الحفلة مقامة له

خصيصا ليعرفه بالفتاة التى يريد أن يتعرف بها ، وهكذا كان يأخذ مصاريف الحفلة مضاعفة خمسة أضعاف أو ستة أو أحيانا سبعة قبل أن تقام الحفلة • وكان من الطبيعى أن يكون حفنى الوسيمى وعبد الفتاح صدقى عضوين دائمين فى كل حفل يقيمه رشدى المهدى ، أما حفنى فلسمعته النسائية ولحب الأصدقاء له وأما عبد الفتاح فلأنه هو أيضا كان يقيم الحفلات فى بيت رشدى المهدى لحسابه الخاص أو أن رشدى يوهمه بهذا على الأقل •

كان حفنى منذ تعرف بالأميرة نضيلة قد علا نجمه بين النساء بصورة خيالية • وأصبحت كل فتاة من اللواتى لا يعنين كثيرا بالشرف تتمنى أن تكون صديقة لذلك الفتى الذى صاحب الأميرة فضيلة فترة من الزمان •

وكان فى هذه الحفلة فى تلك الليلة فتاة أو قل سيدة أو اذا كنت تريد الدقة فى الوصف فقل امرأة اسمها وسيلة الدهرى ••• وكانت لها قصة ••• أما قصتها فلا شأن لها بما أرويه لك ولكنى مع ذلك أجد نفسى مسوقا لقصها عليك ••• اذا كنا اتفقنا أننا نسعى لمعرفة البشر الذى تنتسب اليه ••• أم ترانا لم تتفق المهم كانت وسيلة ••• أتحب أن أروى لك أنا قصتها أم أتركها هى ترويها لك فأنا حريص على ألا أقص عليك قصة واحدة مرتين • وفى هذه الحادثة التى سأقدمها اليك والتى وقعت بين حفنى ووسيلة ستسمع القصة منها هى فلماذا لا أكتفى بنقل أنباء هذه الواقعة اليك وأترك وسيلة تقص هى عليك قصتها • والحقيقة أنها فيما قالته كانت صادقة • لا لأن الصدق من طبيعتها ولكن لأنها لم تكن محتاجة لكذب على من تروى له القصة •

كان رشدى المهدى يقدم خدماته للجنسين معا • فكما يستجيب لرغبات الرجال كان يستجيب أيضا لرغبات النساء ، وقد طلبت اليه

وسيلة أن يعرفها بحفنى وكانت هـذه الحفلة هى الموعد الذى حدده لها لينفذ رغبتها •

وسيلة سـيدة غاية فى الجمـال تركت الثلاثين من عمرها منذ سنوات قلائل وهى زوجة الدكتور فتوح عبد القادر وهو طبيب واسع الشهرة فى أمراض النساء والولادة •• ووسيلة هى زوجته الثانية • وهى تتمتع بشهرة قريبة من شهرة زوجها فى ميدان المغامرات وان كانت الألسنة تتناقل شـهرة زوجها فى علانية وصـوت جهير فهى تتناقل سمعة زوجته بنفس السعة ولكن خفية وفى صوت هامس •

ـ قال رشدى المهدى :

ـ حفنى بك لابد أنك تعرف وسيلة هانم

ـ بشهرة الجمال وان لم يسبق لى الشرف

وقالت وسيلة :

ـ أما أنـا فأعرفك بشهرات أخرى عديدة

وقال رشدى المهدى :

ـ اذن فلا مكان لى بينكما

خبير هو واسـع الخبرة • لقد أتم مأموريتـه وانصرف ليقوم بالأعمال الأخرى الكثيرة المتراكمـة على كتفيه أم يجدر بنا أن نقول المتراكمة على رأسه

قالت وسيلة :

ـ غريبة أننا لم نلتق قبل الآن

ـ بل لا غرابة فأنا أعرف أن الدكتور مشغول وأنك لا تكثرين من الذهاب الى الحفلات

ــ أنت تعرف عنى الكثير

ــ اذا لم أعرف عن هـــذا الجمال كل أخباره فالموت أولى بى

ــ أعوذ بالله ••• لا ••• اطمئن •• انك جدير بالحياة فأنت تعرف كل شيء تقريبا

ــ اذن فهناك أشياء لا أعرفها

ــ طبعا ••• وهل يستطيع أحد أن يعرف كل شيء عن الآخرين

ــ اذن فانا منتظر أن تخبرينى أنت عما لا أعرف

ــ عنى

ــ طبعـــا

ــ وهل تظن أن أحدا يعرف كل شيء عن نفسه

ــ الآن عرفت شيئا لم أكن أعرفه

ــ أهـــكذا

ــ أنت فيلسوفة أيضا

ــ وهل شفت حاجة

ــ أريد أن أشوف

ــ وماله

ــ متى

ــ متى أحببت

ــ أنـــا أحب من الآن

ــ من الآن ؟ !

ـ من الآن

ـ والحفـلة

ـ فى ستين داهية الحفلة ومائة حفلة

ـ هيـا

ـ هيـا

***

ـ كانا فى سرير حفنى عاريين تماما

ـ ها أنت شفت

ـ وما أجمل ما شفت

ـ ولكن أتظن أنك عرفت عنى كل شىء

ـ عرفت أهم شىء

ـ يتهيأ لك

وعلا صوت جرس الباب يدق فى اصرار متصل نشحب وجـه حفنى وابتسمت وسيلة وقال حفنى :

ـ أنـا لا أنتظر أحدا

وقالت وسيلة فى عدم مبالاة وفى هدوء :

ـ أما أنـا فانتظر

ـ غير معقول

ـ فعلا غير معقول

ـ ضعى شيئا على نفسك وادخلى الحجرة المجاورة

ـ لا تخف

ـ أنـا خائف فعلا ... افعلى ما قلته لك

وقالت وسيلة فى غير عناية

ـ أمرك ... ولكن لا تخف

وكان قد وضع على نفسه أحد معاطفه المنزلية وخرج وهو يربط حزامه والجرس مصر على ألا يصمت وفتح حفنى الباب ليرى أمامه الدكتور فتوح ولم يخطئه فهو رجل شهير وقد رآه أكثر من مرة فى أكثر من مناسبة . وقال الدكتور وهو على الباب :

ـ أين وسيلة

وكان حفنى مشدوها حائرا فهو مع ممارسـته الطويلة للمغامرة لم يلتق بمواقف مثل هذا الذى يعانيه فى لحظته تلك :

ـ ألا تدخل يا دكتور

ـ لا أريد أن أدخل

ـ أظن لا يعقل أن دكتور فى مثل شهرتك وسنك

ـ لا شأن لك بسنى

ـ فى مثل مكانتك يناقش أمرا مثل هذا على باب شقة

ويدخل الدكتور ويغلق حفنى الباب وهو يقول :

ـ تفضل اقعد

والتفت اليه فاذا بيد الدكتور مسدس وروع حفنى

ـ ما هذا يا دكتور ... أهو فيلم سينما

ـ أريد زوجتى

وقال حفنى وهو يتصنع الشجاعة وان كان فى دخيلة نفسه قد زلزل الهلع كيانه كله وفى لحظات تصــور ما قد ينشر فى غده عنه وعن أخيه وعن الدكتور الشهير وعن وسيلة

ــ أدخل هذه اللعبة فى جيبك

ــ أنــا أقتلك وأقتلها وأقتل نفسى

ــ وماذا تكسب

ــ أقتلك ...

ودخلت وسيلة وهى تضع على نفسها معطفا منزليا من معاطف حفنى وقالت فى حسم :

ــ قم يا فتوح واذهب الى البيت

ــ اذن فأنت هنا

ــ قم يا فتوح

وتوقع حفنى أن ينطلق النار من المســدس ليقتل وسيلة وهى فى وقفتها هــذه المتحدية وفى ملبسها هذا الذى يدعو ألف رصاصــة أن تنطلق ولكن الذى حدث شيء مختلف تماما . ارتخى المســدس فى يد الدكتور . وانخرط العملاق الأشم فى بكاء منهار مستخز واعتمد رأسه بذراعه وتقطعت جمله

ــ نعم هى تعرف أننى لن أفعل شيئا ... هى متأكدة ... لأنى أحبها ... أحبها .. ضعفى الوحيد فى حياتى

وقالت وسيلة التى أصبحت مثل صخرة ناطقة

ــ بل أنت تعرف أنه ليس ضعفك الوحيد ... قم ولا تجعل من نفسك أضحوكة فانت رجل محترم

وقال الزوج وهو ينشج :

ــ وهل يمكن لمن يتزوجك أن يكون محترما

وقالت الصخرة :

ــ اذا احترم هو نفسه

ــ سأطلقك ... سأطلقك

ــ اذهب الآن الى البيت ... هيا

وقام فتوح أشبه ما يكون بكلب يطيع أمر صاحبه وتدلى المسدس فى ذراعه المرتخية وخرج وقبل أن يغلق حفنى الباب وراءه صاحت وسيلة :

ضع هذا البتاع فى جيبك

ورآه حفنى وهو يصدع بالأمر مثل آلة ضغط صاحبها على الزر المناسب للحركة التى يريدها منها . وأغلق حفنى الباب وارتمى على كرسى مرتعدا مايزال يكاد لا يصدق ما رآه منذ لحظات . وأحضرت له وسيلة بعض الماء وراحت ترش على رأسه كولونيا وهى تضحك ضحكا شديدا وهى تقول :

ــ لم أكن أتصور أنك خواف الى هذه الدرجة

ــ خواف ... يا ست أنت مش واخده بالك من اللى حصل ولا دا كان حلم

ــ بل حقيقة

ــ أمال ربنا عمل الخوف ليه اذا لم يكن للموقف الذى كنا فيه

ــ عمله لغيرك الذين لا يغامرون مع زوجات الآخرين

ـ طول عمرى أغامر مع زوجـات الآخرين ولم يحصـل لى شيء من هذا مطلقا

ـ ألست أنت الذى أردت أن تعرف عنى كل شيء

ـ معرفـة مهيبـة

ـ ألم تنبسـط

ـ وهل هناك انبساط فى العالم يساوى هذا الذى كنا فيه

ـ اهدأ ... اهدأ

ـ انما قولى لى أنت ... ما كل هذا الهدوء

ـ ألم تعرف

ـ أكاد أعرف

ـ مـاذا

ـ ليست هذه المرة الأولى

ـ ولا أظنها ستكون الأخيرة

ـ ما حكايتك

ـ هذا الرجل تزوجنى من اثنتى عشرة سـنة . كنت أنـا لم أكمل العشرين وكان هو فى الستين وقد جاوزها ... الزواج الحقيقى لم يدم بيننا أكثر من سنتين

ـ ولمـاذا قبلت الزواج منه

ـ أبى كان غنيا وأضـاع أمواله كلها وطمع أن يعينه هـذا الرجل على الحياة والبنت منا لا تملك من أمر نفسها شيئا ..

ـ اذن ..

ـ وهل فيها اذن ... كان من حقى أن أستجيب للطبيعة وكنت فى أول الأمر أحاذر أن يعرف ولكنه عرف وفى كل مرة أتعرف بشخص جديد تتكرر هذه التمثيلية ..

ـ ماذا سيفعل معك حين تعودين الى المنزل

ـ أنـا عادة لا أعود فى نفس الليلة التى يقدم فيها هذا العرض الذى شهدته

ـ اذن

ـ هل عندك مانع أن أقيم معك بضعة أيام

ـ أهلا وسهلا ... ولكن ماذا بعد بضعة الأيام هذه

ـ أعود الى المنزل

ـ وزوجـك

ـ يستقبلنى وكأنى عائـدة من مشـوار لم يستغرق أكثر من ساعة وكأن الذى جرى ما كان ونستأنف حياتنـا ، هو يعرف أنى أخونه وأنـا أعرف أنه يعرف ولا يذكر أحد منا للآخر شيئا

ـ ولمـاذا لم تقولى لى هـذا قبل أن تدهمنى المفاجـأة التى كدت فيها أن أفقد حياتى

ـ من مسدسـه

ـ من الخـوف

ـ أحببت أنـا أيضا أن أعرف شيئا عن مقدار شجاعتك

ـ يا ست وهل قلت لك أنى جنرال

ـ أنت فى حجرة النوم أعظم من جنرال

ـ فى حجرة النوم انما أمام المسدس أنـا أقل من قطة

ـ عرفنـا

ـ الحمد لله انكم عرفتم

***

وفى اليوم التـالى ووسـيلة لاتزال فى بيتـه قصـد الى بيت عبد الفتاح صدقى

ـ لابد أن أتزوج فورا

ـ مـاذا

ـ ألم تسمع

ـ المصيبة أننى سمعت

ـ وما المصيبة فى هذا

ـ كلمتك مائة مرة أن تتزوج وكنت ترفض

ـ والآن قبلت

ـ أنـا عندى العروسـة ولكن لن أخبرك عنهـا الا اذا قلت لى ما الذى غير رأيك بهذه السرعة

ـ أنـا الآن فى الأربعـين وأستطيع أن أكون زوجا صالحـا اسنوات عديدة ولا أريد أن ينزل على قضاء الله بالزواج وأنـا أكبر من هذه السن

ـ كلام معقول

ـ خشيت أن أصاب وانـا فى الشيخوخة بحمى الزواج وأصبح أضحوكة أمام نفسى وأمام زوجتى

ـ لابد أن شيئا قد حصل لك بالأمس

ـ حصل أو لم يحصل لا يهم ... أنـا أريد أن أتزوج

ـ وأنـا عندى عروستك

ـ من

ـ ابنتى سناء

ـ أنـا فى عرض النبى ... أنـا أعرف سناء وهى طفله

ـ أنت دخلت بيتى منذ كم سنة

ـ أظن منذ حوالى عشر سنوات

ـ هو كذلك فعلا ... سناء كان عندها فى ذلك الحين سبعة عشر عاما

ـ حقـا

ـ طبعـا ... أنت لم تكن تنظر اليها لأنك كنت فى الثلاثين من عمرك وقطعت السمكة وذيلها .

ـ وهى تأخرت فى الزواج لأنها كانت مخطوبة لابن عمتها

ـ وأنت تعرف أنه استشهد فى فلسطين وأنـا أريد أن أخرجها من حزنها عليه

ـ لايزال الفرق بينى وبينها حوالى ثلاثة عشر عاما

ـ كل زواجاتنا تتمتع بهذا الفرق

ـ والله معقول ... ولكن كيف تقبلنى زوجا وأنت تعرف عنى ما تعرف

ـ أنت شبعت من النسوان وأنـا أطمئن على ابنتى بين يدى رجل فى مثل تجربتك

- على بركة الله

- نقرأ الفاتحة

- بل لابد أن يقرأها عنى حلمى أخى

- هكذا يكون كلام العائلات وهو كذلك

وتزوج حفنى من سناء

١٤

حين عاد حســـن من الجبهة كانت تحيط به أجواء غريبـــة كل الغرابة على الذين يعرفونه • فقد أصبح يحاول أن يضفى على نفســـه نوعا من الأهمية • وأصبح فايز يهتم بأمره بعض الاهتمام ، الأمر الذى لم يكن أحد يتصـــور أن يحدث أبدا • بل والأعجب من ذلك أنه أصبح يشارك فايز سهراته بعد أن كان يعدها له فقط دون أن يجرأ على التفكير فى مشاركته فيها •

وقد أصبح شديد العناية بملبســـه فى الحدود التى تتيحهـــا له دخوله المختلفة • والتى مازالت قليلة مع ذلك •

وقد توثقت صلة حسن بالأميرالاى وهبى عبد المولى وصـــار يتردد على بيته فى انتظـــام • وكان للأميرالاى وهبى ابنة فى الثلاثين من عمرها وكانت تكبر حسن ببعض سنوات ولكنه وجد أن فرصـــة زواجه منها لن تتكرر ومن أين له أن يجد ابنة أميرالاى الا أن تكون زوجة سابقة مات عنها زوجها وترك لها طفلا •

ــ يا ترى يا سعادة البك أطمع فى هذا الشرف •

ـ والله يا حسن يا ابنى تعرف أن بنتى كانت متزوجة وقد أصبح لها وحدها الحق أن تقبل الزواج مرة أخرى أو ترفضه .

ـ البركة فيك يا سعادة البك .

ووافقت الست بديعة وهبى على الزواج وطبعا لم يفكر حسن أن يدعو أباه الى العرس ولكنه دعا اليه ـ طبعا ـ حلمى باشا وأخاه حفنى وعبد الفتاح صدقى وعدلى . ودعا أيضا شخصا ربما تكون قد نسيته وهو حامد العرافى الذى عاد من فرنسا ومعه زوجة فرنسية فقد انتهز فرصة وجوده فى باريس ووثق أنهم هناك لن يعرفوا شيئا عن جده أو جدته أو الطريقة التى تعلم بها وأين يمكن أن تتوه هذه الأعراق العميقة الجذور فى تربة وش البركة اذ لم يدركها التيه فى باريس .

وهكذا تزوج هو أيضا وشهدت زوجته مادلين زواج زميله حسن . وقدم فايز الى حسن مائة جنيه هدية زواج له استطاع أن يشترى منها حلة العرس . وبدأت مطالع حياة جديدة تسفر عن وجهها لحسن بعد وجه شائه لم تكن الحياة تطالعه الا به . وحين انتهى العرس جلست أسرة الأميرالاى وهبى بك تذكر ما كان من أمر المدعوين ومن أمر الراقصة ومن أمر النقوط . وان لم يكن الحفل كبيرا ولكن الحديث عنه كان موفورا . وغمزت الست حكمت اليازرجى زوجة وهبى لزوجها بعينها وتلقى الاشارة وأحسن فهمها .

ـ ألا قل لى يا حسن يا بنى

ـ نعم يا سعادة البك

وقالت الست حكمت :

ـ يا أخى قل يا عمى

وقال حسن فى نفاق يجرى فى عروقه مجرى الدم :

ـ لا يمكن يا ست هانم أين أنـا من كلمة عمى هذه

وضحك الأميرالاى وهبى فقد كان لقب بك حبيبا الى نفسه دائما وأكمل حديثه

ـ متى تحب أن تتم الدخلة

ـ متى تأمر بديعه هانم

وقـال وهبى :

ـ بيدك أن تكون الليلة وبيدك أن تكون بعد أشهر

ـ اجعلها الليلة أنـا فى عرشك يا سعادة البك

وضحك الجميع ووضعت بديعة على وجههـا خمارا من حيـاء وقـال وهبى :

ـ هل تصر على أن تسكن فى شقة وحدك أنت وعروسـك

ـ والله الأمر اليها واليك

ـ أنت تعرف أن ابنها نبيه محتاج لمن يرعاه وهنا سته تستطيع أن تكون الى جانبه دائما والبيت هنا كبير وتستطيع أن تعيش معنـا وهكذا لا تحرم خالتك حكمت من بنتها الوحيدة ومن حفيدها .

ـ وهل يمكن أن أتمنى أحسن من هذا .. كل ما فى الأمر أننى مواعيدى صعبة كصحفى وسعادتك تعرف وأخشى أن أزعجكم .

ـ لا ازعـاج فى الأمر سنجعل حجرتك على السـلم مبـاشرة لتخرج وتدخل وقتما تشاء ..

ـ وهو كذلك أمركم

ـ اذهب اذن وأحضر ملابسك

ـ فى لمح البصر يا سعادة البك . فى لمح البصر

ألم أقل لك أن الحياة أصبحت تطالعه بوجه لم يكن يتصور أنه سيراه من هـذه الحياة .

١٥

حين اندلع حريق القاهرة لم يأت على القاهرة وحدها وانما أتى على أموال حفنى وعبد الفتاح مصطفى فى لفحة واحدة . فالبورصة لم تكن تتوقع هذا الحريق فاذا هى تجابه به وكأنه حيوان شرس جائع وجد طعامه . والمال أكثر شىء جبنا فما الخطب اذا واجه الرعب نفسه والحريق والدمار الآخذ لا يبقى على شىء .

ونزل الحدث على عبد الفتاح مصطفى بالهول الوبيل . فهو انسان طبيعى ضاعت ثروته كلها التى شقى فى جمعها طول عمره . فأى عجيبة أن يصاب بالهول بل أى عجيبة أن يصاب بالفالج . أما حفنى فالأمر معه مختلف كل الاختلاف لقد استقبل الأنباء وكأنه يسمع أمرا ليس يعنيه فى شىء فقد المال الذى كسبه فى البورصة وفقد الأرض التى تركها له أبوه وأنقذها له أخوه وكأنما كان ينقذها لتعتسفها البورصة . وأصبح مصيره ومصير زوجته وابنه فواز الجوع والمسغبة وهوان الفقر وذلة الأخذ وهو الذى تعود الشبع وعزة الغنى وكبرياء العطاء . ولكن لو أنه كان اهتز أقل هزة لأصبح انسانا آخر غير حفنى الذى نعرفه .

ولما استحق منا أن تتيح له هذه المساحة العريضة مما تقدمه لك هذه الرواية .

وقف حفني للعاصفة مثل الجبل وانتظر حتى انحسر عزيف الرياح عنها مخلفا وراءه الخراب وعبد الفتاح صدقي وقد أصبح جزءا من شيء لا حياة فيه ولا رجاء منه .

وكان حلمي على علم بالأمر وكان يعرف من أخيه في كل لحظة على أنباء الخراب الذي يحل به .. واعتصرت الرجل الوطني أيد عنيفة من الأسى فهو حزين أشد الحزن على عاصمة وطنه التي يمثل خرابها خراب مصر جميعا وحزين من أجل أخيه الذي أتت الكارثة على أمواله جميعا .

كان حلمي قد ترك الوزارة وهكذا أعفته الظروف أن يكون فريسة لموقف المسئول أمام مسئوليته .

كان من الطبيعي أن يطلب حفني ليوافيه بمنزله :

ـ أنا أنقذت أرضك مرة وأظنني قادرا على انقاذها مرة أخرى .

ـ يا أخي ربنا يطيل عمرك . أظنك في هذه المرة لا تستطيع .

ـ كيف ..

ـ الدين الذي تحمله الأرض أكثر من ثمنها عشرات المرات

ـ وماذا تنوي أن تفعل

ـ هل رأيتني عمرك أشكو قلة المال

ـ كان لا يمكن أن تشكو قلة المال وأنت على ما كنت عليه من غنى . أما الآن فالأمر يختلف

ـ توكل على الله

ـ كم عندك الآن

ـ ما يكفينى

ـ لا يمكن . فلوسك كلها كانت فى البنك ..

ـ معى ما يكفينى ياسى حلمى

ـ طيب .. خذ هذه خمسمائة جنيه ودبر بها حالك .. أو أبقها معك اذا كان معك ما يكفيك حقا

ـ لن أرفضها . فهذه يد أحب دائما أن آخذ منها أطال الله عمرك . .

حين عاد حفنى الى بيته أصبح يعرف طريقه تمام المعرفة . فهو حين تزوج كان قد انتقل الى شقة فاخرة ضخمة عريضة الاستقبال تستطيع أن تتسع لمائتين فى ليلة واحدة . وقد آثثها له حموه بأحسن الأثاث . وهكذا بدأ حفنى يعطى أوامره . وقد اتخذ موقف المسئولية عن بيته وبيت حميه وما كان الأمر يحتاج الى هذا فقد كان عبد الفتاح مصطفى شأن كل المقامرين قد كتب عمارة لكل فتاة كما كتب عمارة لزوجته فهم يستطيعون أن يعيشوا فى ستر وان لم يكن فى رخاء . ولكن حفنى لم يكن يملك شيئا وهو حريص أن ينال المتعة التى رصد حياته لها فكيف أذن سيبرر تصرفاته المقبلة اذا لم يتظاهر انه يصنع فى سبيل فواز وأمه بل ويزداد جرآة على الحق فيدعى أنه ينظر أيضا الى مصلحة حماته ومصلحة آمال .

وحاولت سناء أن تذكره أن دخل والدته وأختها من العمارتين سيكفيهما بل ان دخلها هى من العمارة سيكون قادرا على مواجهة الحياة ، ولكنه قال فى حسم :

ـ لقد تعودتم جميعا على العيش فى سعة وهيهات أن تستطيعوا العيش فى قلة .

ـ وماذا تريد أن تفعل

ـ نذهب لنعيش مع أبيك فى بيته

ـ هل البيت باق له

ـ انه قد كتبه باسمك واسم آمال فى العام الماضى

ـ وبعد ذلك

ـ لاشىء ••• أولا تكون عيشتنا واحدة • وتجد والدتك وأختك رجلا معهما تعتمدان عليه

ـ هل وافقتا

ـ ان أمك هى التى طلبت هذا

قالها الرجل فى بساطة وهدوء ولو كنت شاهدا الحوار بينه وبين كريمة ••• وما لى لا أتيح لك أن تسمعه

قالت كريمة :

ـ أهكذا ينتهى عبد الفتاح صدقى يا حفنى

ـ عبد الفتاح صدقى لا ينتهى أبدا يا كريمة هانم

ـ ألا ترى اليه

ـ شدة وتزول • انما أنا أرى أن تنتقلى به الى بيتنا ، الأمر قد يحتاج لوجودى معه • ربما احتاج الى طبيب فى الليل أكون الى جانبكم •

ـ ربنا يابنى يطيل لنا عمرك • وهل أصبح لنا غيرك ••• لا والنبى • لم يصبح لنا غيرك

ـ فما رأيك

ـ وكيف يمكن نقله يابنى وأنا كيف أذهب معه

ـ بيتى كبير وانت تعرفين

ـ لكن اسمع ... أليس بيتنا اكبر ... لماذا لا تأتى أنت وسناء وفواز وتعيشون معنا . أولا أجد أنا رجلا أطمئن به ونوحد المعيشة .

ـ أترين هذا

ـ أليس هذا هو المعقول

ـ أمرك

وانتهى الحوار

ولكن حفنى الجبار يقول لسناء أن كريمة هانم هى التى طلبت . وهذا فى ظاهره حق . ولكنها طلبت لأنه جعلها هى تطلب .. هكذا حفنى ... أتذكر حين قلت الك أنك لن تستطيع أن تلم بجوانبه . وقالت سناء :

ـ ولكن ماذا سنفعل ببيتنا هذا

ـ ياستى لا تفكرى فيه الآن

طبعا يجب ألا تفكر فيه الآن أو بعد الآن فما كانت النقلة الا لما يفكر هو فيه بشأن هذا البيت .

***

بدأت الحفلات فى بيت حفنى الوسيمى تضارب حفلات رشدى المهدى ، وبدأ حفنى نفسه يقضى على رشدى المهدى فى صنعته التى عاش عمره كله بها ولها .

وعاد المال ينهمر على حفنى وان كان انهماره من أنهار أخرى

ولكن الرجل لم يكن يعنى أقل عناية بمصادر المال الذى يصل اليه .

وكان شوقى سلام يأتى الى حفلات حفنى بانتظام لا يخطىء وكان يأتى معه فى كل مرة بأربعة نفر تعرف بهم حفنى وأدرك بذكائه الخارق أنهم يدبرون شيئا ، ولكنه أيضا أدرك بذكائه الخارق أنهم لا يريدونه أن يعلم عنه شيئا فصمت وقد فطن أنه لو أظهرهم على ما يحسه فربما امتنعوا عن المجىء .

وفى صباح يوم دق جرس التليفون فى بيت عبد الفتاح صدقى الذى أصبح بيت حفنى الوسيمى .

ـ أنا شوقى

ـ أهلا شوقى ...

ـ أين ستذهب فى الصباح

ـ لا مكان

ـ اذن فاذهب الى جروبى

ـ ولماذا لا تأتى أنت الى هنا

ـ اسمع ما أقوله ولا تناقش ... الساعة الحادية عشرة فى جروبى عدلى .

سلام عليكم

ـ وعليكم السلام

***

ـ تذهب الى أخيك فورا وتطلب منه أن يبيع ما يستطيع من أرض

ـ ماذا تقول

ـ ما تسمع

ـ وما الذى يجعله يصدقنى

ـ أخوك سياسى وهو يرى الحالة بعين الغيب وسيعرف أن الكلام ليس تخريفا

ـ كل أرضه

ـ ان استطاع

ـ وان لم يستطع

ـ لا يبقى منها غير خمسمائة فدان ... خمسمائة على الأكثر

***

وقال حلمى باشا :

ـ خمسمائة فدان

ـ على الأكثر

ـ أترى هذا معقولا

ـ اسمح ووكلنى واترك الأمر لى

ـ اننى أملك أكثر من ألف وخمسمائة فدان

ـ هذا شأنى

ـ تعال غدا خذ التوكيل

***

ذهب حفنى الى العزبة وصحب معه عدلى . وراحا يبيعان الأرض متظاهرين أن حلمى باشا يريد أن ينقذ أخاه . واستطاعا فعلا أن يبيعا

كل ما يزيد عن الخمسمائة فـدان وأحضرا الأموال وسـلماها الى حلمى باشا الذى وضعها فى خزانة بيته وانتظر الأحداث .

ولم يطل به الانتظار .

وحين صـدر قانون الاصـلاح الزراعى الأول كانت الأرض التى يملكها حلمى لا تزيد عما فرضـه القانون الا مائتا فدان استطاع أن يبيعها بسهولة مطبقا نفس القانون الذى كان يسمح لمن تزيد أرضه عن النصاب أن يبيعها .



حين قامت الثورة كان حفنى صـــديقا للأغلبية الكاثرة منها •
وقد جاءه شوقى الذى يتصـــدر منها مكانا مرموقا فى ليلة من ليالى
بيته التى ازدادت ازدهارا مع الأحداث الجديدة وقال شوقى •

ـ قل لى يا حفنى هـــل أساء أخوك حلمى الى الصحفى حسن
هنداوى ؟

ـ أساء •• انه هو الذى جعله يذهب مندوبا عن المجلة فى حرب
فلســطين وهو الذى ••• النهايــة لا أحب أن أذكر ما صنعه معـــه
ولا ما كان يعطيه له من ••• المهم ••

ـ هل أنت جـــاد

ـ الأمر معروف • اسأل أى صحفى يخبرك ••• لـــماذا ؟

ـ طيب وحامد العراقى هل أساء له أخوك

ـ كل الاساءة

ـ كيف

ـ هو الذى رجا فايز حتى يكون مندوب المجلة فى باريس

ـ عجيبـة

ـ ماذا حصل

ـ أنت لا تتصـور كيف كان كل منهما يصر اليوم على أن يلقى أخوك فى السجن مع المعتقلين السياسيين •

ـ هل هذا معقول ••• ماذا قالا ؟

ـ قالا أن الوجوه القديمـة لابد أن تتغير وأن الناس لابد أن تعرف أن حياة جديدة فى الطريق • ولابد لهؤلاء السياسيين أن يختفوا من الحيـاة ، وقلت لهم حتى الشرفاء ، فقال حسن وخاصة الشرفاء لأن هؤلاء هم الذين يخشى منهم على الوضـع الجديد ، وأيد حامد كلامه فى صياغة أيدولجية وألفاظ رنانة •

ـ يا نهار أسود وبعد •

ـ ولا بعد ولا قبل ••• أصررت أنـا وأصدقاؤك الذين تعرفهم فاستثنى أخوك من الاعتقال •

***

وهكذا اجتاز حلمى باشا كل ما وقع على زمـلائه من ضير • وأحس السـياسى المحنك أن الحياة فى مصر تغيرت ورأى أن خير ما يفعله أن يبتعد •

ينظر الى الجهلاء والمنتفعين فيجدهم أصحاب رأى يقال وينشر وينفذ . وهو الذى كانت مصر عنده عقيدة كأنها دين يحرم من أن يقول رأيه •• هـذا الحق البسيط الذى ينبغى أن يتمتع به كل فرد من أفراد الشـعب الحر ••• ولكن أين الحرية فى بلد أصبح أخوه حفنى هو الذى يحميه فيها ، ولم يكن يعرف عن حفنى الا أنه انسان

فشل فى كل ما عهد اليه من الحيــاة • ولم يرق اليه النجـاح الساحق الذى يحققه حفنى فى كل ليلة فى البيت الذى شـهد زواجه وشـهد مولد ابنه فواز الذى أسماه على اسم جده وكأنه انسان يعرف كيف ينتمى الى أسرة عريقة •

ولكن أصـدقاء حلمى كثيرون • وما لم يرق اليه فى شهر بلغه نبؤه بعد أشهر وكأنما هـذا الذى بلغه سـتار الختام لحياته • فقد طلب أخاه فى التليفون وأمره أن يحضر اليه فورا • وكان أمر حلمى عند حفنى معناه النفاذ • فما أسرع ما قصـد اليه وجلس منه تلك الجلسة التى تعودها معه ولم يستطع أن يغـيرها وكأنه مازال ذلك التلميذ الذى لم يستطع أن ينال الشهادة الابتدائية •

كان حلمى قد استطاع أن يقف صلبـا شامخا أمام كل ما مر به وبمصر • ولكنه فى هـذه المرة لم يستطع أن يبقى على هـدوئه • كانت عيناه تلتمعان بدموع يمنعها الكبر أن تسيل فانفجرت نبضا على شفتيه ورعشة فى يديه لم يتح له أن يتحكم فيها وتخلج لسانه فى فمه •

ـ احقا يا حفنى ••• أحقا •••

ـ ماذا ياسى حلمى

ـ أحقا ••• أحقا •••

وآثرت روحه أن تخرج الى بارئها قبل أن تخرج الكلمـة التى تجسدت على لسانه الى حفنى •

ومات حلمى ••• ومات عهد •



انفرد عدلى بين كل لداته من أبنـاء الأثريـاء بأن المـال كان موفورا لديه فلم يشك الفقر ولا القلة وكان له فى عمه حماية أى حماية ولكنه كان غير مرتاح قط كان يقول لى :

ـ الله وحده يعلم كيف استطاع عمى حفنى أن يحصـل على هذه الأسرار التى حفظ بها ثروتنا •

وكنت أحس أنه كان يريد أن يتعرف منى على مدى انتشـار الحقيقة التى يتناقلها الناس عن عمه • كنت واثقا أنه يعرف ولا يريد أن يعرف وكنت أشـفق عليه أن أظهره على ما يقوله الناس وكنت أختار لنفسى طريقا ملتويا •

ـ يا أخى وأى عجيبة أن يحمى أخ أموال أخيه •

ـ لست من هذا أعجب وانما أريد أن أعرف كيف وصـل الى هـذه الأسرار •

ـ من أصـدقائه

ـ ما نوع هذه الصداقة وماذا وراءه وما مداها •

ـ وفيم يعنيك هـذا ... لقد أنقـذه أبوك مرة من الخراب وأنقذ هو أباك مرة فى مقابلها .

ـ أما أبى فأنقذه بماله أما هو فماذا قدم لينقذ أبى .

ولم يكن شيء يجعل عدلى يسكت عن هذا التساؤل كلما خلا به وبى مكان .

* * *

لم يكن عـدلى يستطيع أن يعيش دون أن يعمـل فقد التحق بالوظيفة منذ تخرجه ولم يكن يجد فى التحاقه بالوظيفة أمرا يستحق منه انعام نظر أو امعان فكر فهو حاصـل على شهادة التجارة العليـا وعين فى الدرجة التى يعين بها كل زملائه وكان تعيينه فى البورصـة لأن عمـه كان يعمل بها وصداقاته فيها مشهرة معلنة لا تحتـاج الى البحث عما وراءها ان كان شيء وراءها .

ومرت على وفاة أبيه سنة وبعض السنة وهو مقيم فى بيته مع والدته التى بدأت تلح عليـه أن يتزوج شأن كل أم لها ابن وحيـد وتريد أن تطمئن أن حيـاة أبيه التى اعتسفت ممتدة فى حفيد يوحى اليها ببعض طمأنينه أن حلمى الوسيمى لم يمت .

وكان عدلى يرى أن زواجه أمر طبيعى فهو ليس من رواد الليل ولا هو عربيد ولا صاحب لهو فسنة الحياة سنته والطريق الذى رسمه المجتمع هو طريقه لا يريد أن يخرج عنه ولا أن يغير الكون أو يحطم ما جرى عليه عرف الحياة .

وقد وجد فى ابنة خاله أحمد نشيدته فهى فتاة متعلمـة حصلت على شهادة الآداب وذات جمال ناضر نقى وقلب يافع طازج مقبلة على الحياة اقبالة طهورا رصينة ، وهو منها ومن أسرتها فى أمان أى أمان . أمها كانت منه بمنزلة الأم وأبوها أبوه . وهما أسرتان لا تجمعهمـا

صلة الرحم وحدها وانما يجمعهما أيضـا قانون مجتمع واحد وخلق متشابه ، فهما وان كانا يعيشان فى بيتين الا أنهما فى تكوين أخلاقهم وتفكيرهم بيت واحد • حتى لقد كان كل بيت منهما يطلق على البيت الآخر كلمـة البيت الثانى فلا يقال بيت الباشا ولا يقال بيت أحمد بك فى أى من المنزلين وانما يقال البيت الثانى • فهما اذن بيت واحد • فزواج عدلى من حورية أمر يكاد يكون مقررا بالأمر الواقع حتى أنه لو لم يحدث لكان شذوذا عن الطبيعة الكونية لا معنى له ولا داعى اليه • وكان من الطبيعى أيضـا أن تقيم حوريـة مع عمتها فى نفس البيت •

***

حين أغلقت البورصـة أبوابها كان عدلى قد أنجب ولده الأول منذ سنوات وكان من الطبيعى أن يسميه حلمى • ولم يطق عدلى أن يعمل فى الوظيفة التى نقل اليها فقد كان لا يصنع شيئا الا أن يقبض المرتب فى آخر كل شـهر وهـذا أمر يأباه ضميره كما أن طبيعـة عدلى ترفض أن يكون بلا عمل حقيقى وليس يرضى أن يتوارى أمام الناس وراء وظيفة بلا عمل •

كان قد تعرف وهو فى البورصـة على أكبر المحاسبين شأنا وقد اختار منهم مكتب الدكتور فكرى الدهشان فقد كان يأنس اليه وكان يحس منه أمانة منقطعة النظير كما أنه كان يعجب بعلمه النظرى والعملى جميعـا •

وقد كان الدكتور فكرى من الذين يعجبون بوالده كل الاعجاب ولم يكن يخفى اعجابه هذا كلما دعا الحديث أن يبديه • قصد اليه •

ـ يا دكتور أريد أن أعمل معك

ـ وتترك الحكومة ؟

ـ أنت بالذات تعرف معنى أن يتناول الانسان مرتبا دون أن يعمل فى مقابله شيئا وأنت بالذات تدرك معنى أن يكون الانسان فى ريعان شبابه وفى استقبال القادم من الأيام دون آن يعد نفسه لذلك بالعمل والجهد .

ـ ولكن يا عدلى يابنى عمل المحاسبين فى مصر أصبح محدودا كما تعرف .

ـ وهل طلبت منك مرتبا

ـ اذا كنت أنت لا تقبل أن تنال أجرا بلا عمل فاننى أنا أيضا لا أقبل أن يعمل محاسب فى مكتبى بلا أجر .

ـ أنت تعلم أننى والحمد لله موفور

ـ لا يعنينى هذا فى شىء ... أنت ستعمل معى فلابد أن تنال مرتبا .

ـ اذن فانت ترفض أن أعمل معك

ـ وهل تتصور هذا

ـ هذا ما فهمته من كلامك

ـ ان ما قلته واقع لا شأن له بعملك معى فان مجرد ابداء رغبتك فى العمل معى يعتبر كأنك عملت فعلا فأنت تعرف رأيى فيك وفى المرحوم والدك .

ـ اذن

ـ اسمع أنا لن أجد خيرا منك ليتولى أعمال مكتبى فى مصر

ـ ماذا ؟

ـ هذا هو الجديد ... لقد فتحت مكتبا فى الكويت وأعتقد

أنه سيشغلنى بعض الوقت عن المكتب هنا • والعمل الحسابى فى مصر كما قلت لك أصبح نادرا أو أقل من النادر وخاصة فى المكاتب الكبيرة مثل مكتبى وكنت فكرت أن أقفل المكتب هنا ولكنى سرعان ما طردت الفكرة فقد أحسست أنها أشبه ما تكون بالانتحار فالدنيا يا عدلى ليست فلوسا فقط وها أنت تبحث عن عمل مع أنك تستطيع أن تعيش على دخلك وهذا المكتب يمثل عندى كفاح عمرى كله فأنا اذن سأتركه فى رعايتك وأسافر أنا لانشاء مكتب الكويت وسنكون على اتصال دائم اما بأن تأتى أنت الى الكويت أو بأن أجىء أنا الى القاهرة ••• ما رأيك •

ـ سأقدم استقالتى غدا ان شاء الله من الحكومة وان كنت مندهشا مما سمعت •

ـ ومم الدهشة •

ـ أنت بلا ولد وقد كونت اسما عظيما ولاشك أنك كونت ثروة ففيم اذن سفرك الى الكويت وهذا الجهد •

ـ عجيب شأن الناس • لماذا يظن الناس أن ما يصدق عليهم لا يصدق على غيرهم • يا رجل ألم تأت الى هربا من الفراغ •

ـ أنا آسف لك حق •

١٨

كانت الحياة الجديدة هى أصلح حياة لحسن هنداوى • وكأنما تم كل هـذا الذى تم لبصبح حسن هنداوى فى الذؤابة العليـا من القمة ، والحقيقة أنه كان يعرف طريقه كل المعرفـة فاذا هو حوت شرس • يحرص كل الحرص أن يمزق بأسنانه الحـادة المتراكبة كل من كان ذا فضل عليه فى ماضيه • استطاع أن يزج بفايز الى السجن أوأوحى الى مستمعيه أن عدلى لا حـديث له الا الهجوم والتنقص واعتقل عـدلى ولكنه لم يبت ليلته فى المعتقل فقد أدركه عمـه مرة أخرى وخرج بعد عشر ساعات من اعتقاله فصـداقات حفنى لم تكن مقصورة على فئـة بعينها انما هى تنداح وتتسـع فتشـمل كل ذى سلطان فى أى وقت • وكأنما كانت شقة حفنى مظهرا لا يكتمل سلطان ذى السلطان الا به ، فلم يكن عجيبا أن يكون محاطا بسياج من الأمان يستطيع أن يصد عنه وعن كل من يهتم به أى عادية •

ولكن العجيب أو ربما لم يكن عجيبا أن حسن لم يحاول يوما أن يسد أباه بشىء يعينه على الحياة مع أن المـال كان يجرى بين يديه سيلا لم يطف يوما باحـلامه • وبعد أن كان يعيش مع الأميرالاى

فى بيته أبتنى هو لنفسه فيلا خاصة وطبعا أقامت فيها زوجته وحدها دون أهلها ودون ابنها وانما أقامت معهما ابنته التى أسماها جميلة .

أما حامد فقد فشا هو الآخر واعتلى مكانا سامقا ربما لا يطاول مكانة حسن الا أنه ليس بعيدا عنه كل البعد . وقد كان حامد بحاسته وبقدرته الفائقة على النفاق حريصا أن يجعل حسن راضيا عنه دائما كل الرضـــا .

***

كان عدلى جالســا فى سميراميس فى انتظار صــديقه الصحفى فخرى عبد النبى الذى كان يعمل تحت رئاسة حسن . وجاء فخرى وهو ملتاع خائف لا يطيق أن يخفى من لوعته أو خوفه شــيئا ولم ينتظر عدلى أن يسأله بل عاجله .

ــ مصيبة سوداء

ــ ماذا ... قل

ــ قرأت اليوم نعيا لعم حسن هنداوى

ــ نعم قرأته

ــ أنت أيضــا

ــ وما العجيب فى هذا

ــ يبدو أن أحدا لم يقرأه الا أنا وأنت

ــ كيف

ــ كان من الطبيعى أن أذهب الى العزاء كلمت زملائى فــاذا هم جميعا يرفضون الذهاب ، منهم من يدعى المرض ومنهم من يدعى الشجاعة والعزوف عن النفاق . فقلت أذهب وحــدى والأمر لله .

البلدة ليست بعيدة عن القاهرة استأجرت سيارة أجرة وذهبت ...
وياليتني ما ذهبت .

وقال عدلى وطيف ابتسامة يتماوج على فمه

ـ فعلا ياليتك ما ذهبت

ـ أنت أيضا تعرف

ـ لو كنت سألتنى لأخبرتك

ـ أأطلب منك أن تعزيه وأنا أعرف، أنه حاول أن يعتقلك

ـ كنت سأرفض الذهاب ولكن ليس من أجل هذا السبب

ـ فلماذا

ـ أكمل حكايتك

ـ ذهبت فوجدت العزاء بلا سرادق ولا حتى كراسى وانما جلسنا على الأرض وتحتنا شريط من الحصير . وكان أبو حسن يستقبل العزاء وعليه معطف حائل اللون يملأ الرتق جوانبه جميعا .

ـ هذا هو السبب الذى رفض زملاؤك الذهاب من أجله

ـ أكلهم يعرفون ... أليس هناك خائب غيرى

ـ وفيم خوفك

ـ أن يعرف أننى عزيته

وضحك عدلى وقهقه ثم انخرط فى البكاء فى حزن شديد وأخذ فخرى وكأنما خشى أن يكون صاحبه قد أصابه مس من الجنون

ـ الله ... عدلى ... عدلى ماذا بك

وتماسك عدلى وصمت وناوله صديقه كوب ماء وشرب ثم تكلم وكأنما ينعى نفسه ...

ـ أهذه هي مصر .. يخاف فيه الشخص أن يعرف رئيسه أنه عزاه وعرف أنه سافل مع أبيه وضيع ساقط المروءة . كان من الطبيعى أن يخاف الشخص اذا لم يقم بواجب العزاء أما أن تخاف ـ وأنت محق ـ لأنك قمت بالواجب فواضيعة مصر . ولا يخاف الشخص الذى لم يقم بواجبه أو ببعض واجبه نحو أبيه أصل وجوده وصاحب اسمه . وتكون أنت يا من قمت بواجبك مرؤوسا ويكون الآخر رئيسا ... فلأى شىء صنع البكاء اذا لم يكن صنع لهذا الذى ترويه . وهو أهون ما نراه .

كيف أعيش فى مصر . لقد جربت أن أنافق وفشلت ... لا شجاعة منى ولكن طبيعة تكوينى ترفض أن تتيح لى هذه الميزة التى تتمتع بها الكثرة ممن أعرفهم .

مازلت أذكر ذلك اليوم الذى قمت به فيه بمراجعة دفاتر رجل الأعمال الشهير مرجان علوان الذى نجا من التأميم لسبب لا يعرفه أحد . ربما كان له هو الآخر عم كعمى . المهم راجعت دفاتره فوجدت أنه لص من أكبر اللصوص الذين نسمع عنهم . ووقفت أمام دفاتره حائرا . مكتب الدكتور فكرى ليس فيه مثل هذا وان كان فيه ما عملت معه أو لما قبل هو أن أعمل معه . ولكننى أيضا لا أستطيع أن أرفض الزبون برأيى المفرد فهذا قرار يجب أن يتخذه صاحب المكتب نفسه الموجود الآن بالكويت .

كان على أن ألقى مرجان . وجاء الرجل فى الموعد المحدد

ـ أنت يا عدلى بك رجل سمعتك مثل الجنيه الذهب

ـ ألف شكر

ـ وليس هذا غريبا على من له أصلك واسم أبيك نار على علم

ـ ألف شكر يا مرجان بك

ـ وأنـا والحمد لله رجل لا أقبل مليما حراما ... وأنت أطلعت على دفاترى ومثلك لا تخفى عليه خافيه ولو كان فيها لاقدر الله شىء لا ترضى عنه ...

ومضى الرجل يتحدث عن الشرف الذى يتمتع به وعفة اليد وكيف أنه لا يأكل على الحـكومة مليما واحدا ... وثبت أنه يسلك مع ذمة اللص جرأته على الحق . وعزمت فى نفسى آن أؤيد كل كلمـة يتنوالها عن نفسه وبدأت أرتب الحديث . استغفر الله يا مرجان بك انت رجل فوق كل الشبهات ولا يجرؤ أحد أن يشك فى ذمتك ... الى آخر هذا الحديث الذى تواضـع المنافقون على قوله لكل اللصوص فأنا أعرفـه ولست أغباه . كان المهم فقط أن أقوله . فأنا لم أقله قط لمن لا يستحقه . ظللت أتمرن على الكلام طوال الفترة التى يتكلم فيهـا مرجان عن ضميره اليقظ ويده الشريفة وذمته النقية . ولم يكن حديثه قصيرا فالفترة التى أتيحت لى للتمرين لم تكن قصيرة حتى اذا سكت مرجان وجدتنى أقول فى عفوية وانطلاق دون أى ريث من تفكير .

ـ الحقيقة يا مرجان بك أنك أكبر لص التقيت به فى حياتى

وسكت الرجل لحظة ثم انفجر ضاحكا بأعلى صوت له ووجدتنى أقـول :

ـ ولكننى لا أمزح يا مرجان بك

وازداد ضحك الرجل . حتى اذا هدأ به الضحك قال :

ـ العجيبة أن هذه هى الحقيقة ولكننى أسمعها لأول مرة وقد كنت أفكر ماذا أنـا صانع اذا جابهنى بها أحد .

ولم أجد شيئا أقوله وكان الرجـل غاية فى الذكاء فقد سرعان ما استرد وجهه ملامح الجد .

ـ ان الحكومة التى تسرق الأفراد لابد أن يسرقها الأفراد .

ـ الحكومة شخصية معنوية تمثل الشـعب أجمع وأموالهـا أموال عامة لا يجوز لأحد أن يسرقهـا والذين تتـكلم عنهم يمثلون أنفسهم ولا يمثلون مصر • وعلينا نحن أن نؤدى واجبنا نحو بلدنا حتى لو كان هناك من لا يؤدى هذا الواجب •

ـ اذن فانت ترفض الدفاتر

ـ أنـا شخصيا لن أكون مسئولا عنها أما رفضها أو قبولها فمن حق صاحب المكتب الدكتور فكرى وحده •

ـ أنـا أعرف مكانتك عنده ومادمت أنت رفضتها فهو أيضـا سيرفضها • فدعنى آخذها ويا دار ما دخلك شر •

ـ هـذا اليك

ـ أتصدقنى ان قلت لك شيئا

ـ هذا يتوقف على ما ستقوله

ـ أنـا معجب بك غاية الاعجاب

ـ ألف شـكر

ـ ولكنى لا أتمنى أن تعمل معى ولا أن تعمل لى

ـ الآن صـدقتك

ولم أعجب من الدكتور فـكرى حين رد على رسـالتى التى قصصت له فيها ما كان من أمر مرجان ووجدته سـعيدا بموقفى كل السعادة ولكن الدكتور فكرى فى الكويت • فكيف أعيش أنـا فى مصر • ومع من أستطيع أن أعمل • بل مع من أتكلم ••• كلام الناس فى مصر همس بل لقد انقطع الهمس خشية أن تشى النفس بالنفس • مع من أعيش • مع زوجتى • وابنى وأمى • ولكن الحياة لا تستقيم

الا مع الحياة • اذا لم أر الى الناس وأجلس اليهم وأعيش حيـاتى كما ينبغى لانسان فى مجتمع أن يعيش فما الحياة هـذه مصرى أنـا وهى مصر كل انسان فيها • فكيف تنحسر ملكيتها وتصبح مقصورة على عمى حفنى ومن يذهب الى شقته فى خوافى الظلام الذى لا يخفى شـيئا •

كيف أعيش فى مصر •• واذا أنـا استطعت فما مصير حلمى أنه الآن فى العاشرة من عمره وستلقفه فى غد هذه الحياة فأى الطريقين سيسير فيه وأى النجدين سيهتدى اليه • أهو سائر فى طريقى وطريق جده أم هو آخذ سمته الى طريق عمى • ان الدماء التى فى عروق حفنى هى الدماء التى فى عروقى • وهى نفسها التى فى عروق ابنى حلمى • ففى نفسه فجورها وتقواها ••

ان البيت الذى نشأ أبى ونشأنى هو البيت الذى نشأ حفنى وهو نفسه الذى سينشأ فى اجوائه وتعاليمه حلمى الحفيد فما مصيره •

واذا كان عمى حفنى قد اختـار طريقه والحياة فى مصر فيهـا الجانبان فما مصير حلمى وهو لن يجد الا جانبا واحدا هو جانب عمى حفنى ورواد لياليه •

***

جـاءنى عدلى وعرض على حيرتـه ثالث ووجد عندى الصمت المطبق • فقوله كله حق • والله وحده يعلم مصائر الناس • ولا أستطيع أنـا ولا أعتقد أن غيرى يستطيع أن يطمئنه • ولم أجد شيئا أجيب به حيرته الا أن أسأله :

ــ ماذا تتوقع

ــ فى أى شأن

ــ فى شأن مصر

وصمت قليلا وقال :

ـ لم يبق الا الكارثة

وذهلت وأكمل :

ـ لكل أمر مستقر ولكل فورة نهاية • ومادامت الأمور قد بلغت هـذا المدى فلابد أن تنكشف عن قمة الهاوية اذا جاز هـذا التعبـير •

ـ أهذا ما تتوقعه •

ـ لابد للسائر أن يقف ولابد للصاعد أن يبلغ القمة أو يهوى ونحن صاعدون قدما على جبل من أوهـام وفساد وليس للفساد قمة الا الهاويـة •

وما لبثت أن جاءت ٦٧ تحمل فى طواياها كل ما تنبأ به عدلى • وكان ابنه حلمى قد تخطى الحلقة الأولى من حيـاته • ولكن عدلى لقينى والدموع فى عينيه وهو يقول :

ـ انها ليست على مصر الحـاضر وحدها وانما على مصر الغد أيضـا •

ـ أعوذ بالله •

ـ لو رأيت حلمى ابنى وكيف أصيب فى سـنه هـذه الباكرة بانهيار عصبى •

ـ كل الشباب كذلك •

ـ الشباب نعم لأنهم شهدوا غير ما كانوا يسمعون ورأوا عكس كل ما كانوا يتوقعون • أما حلمى فهو لم يصبح شابا بعد • فما مصير جيله اذا أشرقت حياتهم على الحروب وافتتحوا مستقبلهم بالخراب •

***

لست أدرى أى الأسباب كان هو الأقوى عند عدلى حين قرر أن يسافر الى الكويت •

فقد حدث أن أصيب الدكتور فكرى بأزمة قلبية فى الكويت وحين شفى منها قرر أن يعود الى مصر وعرض على عدلى أن يقوم هو بأعمال مكتب الكويت •

ـ يابنى يا عدلى أنا ليس لى أولاد ومكتب الكويت يدر مكاسب طائلة وحرام أن أقفله دون أن تستفيد منه فلماذا لا تذهب تقوم بشأنه ويكون لك نصف الأرباح والنصف لى طول حياتى حتى اذا أختارنى الله الى جواره تكون أنت قد تعرفت على الناس هناك وبارك الله لك فى المكتب جميعه • وفى مكتب مصر أيضا •

وقبل عدلى ••• هل قبل من أجل المال ••• لقد كان عنده ما يكفيه ••• أكان يريد أن يهرب من مصر •• أم يريد أن يهرب من نفسه فى مصر • ولكنه سيلقى مصر ونفسه فى الكويت أو فى أى مكان • ولو كان استشارنى ما نصحت له بالذهاب • ولكن الانسان لا يستشير الا اذا كان مترددا فهو اذن لم يتردد وغادر مصر الى الكويت وتركنى أنا أقول لعله كان يريد أن يعمل أى شىء غير السكون والصمت والجمود • فليس هناك سبب واحد يجعله يترك مصر وزوجته وابنه وأمه الا أنه كان يريد أن يصنع أى شىء ••• أى شىء حتى ولو كان هذا الشىء ترك نفسه الى ما لايدرى ••• لعله كان يريد أن يبحث عن نفس أخرى لا تضيق عليه الخناق ولا تلهبه بعذاب القلق •

ربما هرب من الترجح بين الأمل واليأس الى احدى الراحتين • مسكين عدلى فما كان يعرف الى الهدوء سبيلا • ولو كان على غير ما هو عليه لكان الهدوء ملك يمينه ورهن اشارته •



سمعنا عن قصة ذلك المهندس الذى استدعاه صاحب أحد المصانع ليرى رأيه فى آلة توقفت عن العمل وكانت الآلة تساوى ملايين الجنيهات وكان المصنع قد أخذ قراره بالاستغناء عنها وشراء غيرها الا أن القائمين بأمر المصنع أرادوا أن يكونوا على ثقة من قرارهم فاستقدموا هذا المهندس ليعطى رأيه وليصدر قرار المصنع النهائى • ورأى المهندس الآلة وقال فى بساطة :

ـ أستطيع اصلاحها ويمكن أن تعمل بعد ذلك عدة سنوات أخرى •

ووافق صاحب المصنع ولكن المهندس طلب أجر اصلاحه للآلة خمسين ألف جنيه ولم يجد صاحب المصنع بدا من الموافقة •

ولبس المهندس حلة العمل وأمسك بعض المفاتيح وواجه الآلة وربط مسمارا هنا وآخر هناك واستغرق عمله ساعة أو بعض الساعة وضغط على زر الآلة فعملت وعادت وكأنها قادمة لتوها من مصنعها • وخلع حلته وذهب الى صاحب الآلة وطلب أجره • ولكن صاحب المصنع

بعد أن دارت الآلة ذات الجنيهات الملايين استكثر أن يدفع خمسين ألف جنيه من أجل ساعه عمل واحدة وقال للمهندس :

ـ أتريد خمسين ألف جنيه من أجل عمل ساعة واحدة

ولكن المهندس قال له فى ثقة :

ـ لا يا سيدى اننى اتقاضى خمسين ألف جنيه من أجل عمل خمسين سنة فالخبرة التى قدمتها لك فى ساعة واحدة اكتسبتها أنا فى خمسين سنة ٠

وأمام هذا المنطق الحاسم لم يجد صاحب المصنع مناصا ان يدفع الأجر الذى اتفق عليه ٠

ولكن بعض الدول العربية مازالت تفكر بتفكير صاحب المصنع ، وقليلة هى الدول التى تفكر بتفكير المهندس ٠ فالخبرة التى تقدمها مصر الى الدول العربية هى خبرة آلاف السنين تلقوها من أجدادهم الذين بنوا الأهرام مارين بكل ما مرت به مصر من تجارب فالصانع المصرى لا مثيل له فى العالم والعلماء المصريون يتفوون مع علماء العالم على قمة واحدة والمثقف المصرى هو منارة العالم العربى أجمع ٠

فمالى أرى الناس فى الكويت تعاملنا نحن المصريين المقيمين فيها هذه المعاملة وقد شهدتهم يستقبلون الأدباء المصريين والعلماء والفنانين أعظم استقبال ويحتفون بهم كل الاحتفاء ويجلونهم غاية الاجلال ٠

ولكن المقيم عندهم لا يلقى من هذا شيئا ٠ وأعرف آن الشعب الكويتى مثله مثل الشعوب العربية جميعا يحب مصر والمصريين غاية الحب ولم لا وقد تعلموا على مدرسيهم وحفظوا شعرهم وغنوا غناءهم ٠ فما بالهم اذن اذا أقام معهم المصريون تكبروا وشمخوا عليهم

بأنوف عربية من شأنهـا أن تعرف الكبرياء ولا يجوز لها أن تعرف التكبر • يذكروننا ببيت الشعر القديم :

وكان بنو عمى يقولون مرحبا فلما رأونى معدما مات مرحب

وعلم الله ما أصبحت مصر معدمة الا بظروف قاهرة فرضت عليها فرضا ولم نخترها وعلى أية حال فقد انفقت مصر على الحروب العربية ما أبهظ مقدراتها بقدر ما ابهظها المتلفون الذين اضاعوا أموالها واذكر البيت القديم أيضا :

يعيرنى بالدين قومى وانمـا ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا

أكان ذنبنا أن حاربنا نحن وخلطنا بالمـال دماءنا دفاعا عن العرب أم كان ذنبنا أن تولى أمرنا من جلب علينا هزيمة ٦٧ • ولمـاذا اعتبرت هزيمة ٦٧ هزيمة لمصر وحدها ولم تعتبر هزيمـة للعرب أجمعين •

يعيرونـنـا فى الكويت وفى العراق وفى دول الخليج بالهزيمـة ونصلى نحن المصريين مرارة الخجل والهوان وأصيح فى نفسى :

لم أكن من جناتهـا علم الله وانى بحرهـا اليوم صال

أمن أجل هـذا اللقاء تركت وحيدى حلمى وزوجتى الحبيبة حورية وأمى التى تتلهف على فى غيبتى وتخشى أن يوافيها الأجل وأنـا عنها بعيد •

ولكننى قبلت ما عرضـه على الدكتور فكرى وان كنت أستطيع أن أضيع حق نفسى فما أنـا بمستطيع أن أضيع حق رجل وهب لى ثقته واعتمد على • فما هكذا نشأت وما بهذا يرضى أبى •

فلأصلاها اذن أياما قاتمة ولأقضى الدكتور فكرى حقه على • بل ان هنا فى الكويت أيضا قوما وضعوا ثقتهم فى ما أحسب أنه يجوز لى أن أتخلى عن ثقتهم قبل أن أربى هنا ممن يساعدوننى من يطيق أن

يحمل هـذه الثقة ويؤدى الأمانة التى أؤديها • وليظن منهم من يظن أننى الى المـال أسعى فأنا أعرف ما فى نفسى وحسبى هذا ارضاء لها •

وليس السعى فى سبيل المـال أمرا تأباه الكرامة •

أنـا هنا أعرف كيف أعامل من يسىء الى فان من كان عزيزا فى قومه يعرف كيف يكون عزيزا فى أى قوم •

وأنـا أضع كرامتى فى مكان لا يستطيع أن يرقى اليه انسان فاذا تطاول أحد على فانما الى نفسه يسىء وليس الى • وتعجبنى كلمـة قالها معاوية لابنه يزيد حين رآه يضرب غلاما له « أتعلمه الأدب بأن تضيع أنت أدبك » ولم يضرب يزيد غلاما له بعد ذلك قط • وأنـا هنا لست على استعداد أن أعلم أحدا الأدب وأفقد فى سبيل ذلك أدبى فلأتذرع بالحلم وليقضى الله أمرا كان مفعولا •

***

تتابعت الأحداث فى مصر وكان عدلى يعود الى أهله أسبوعا فى كل شهر وكان يعد مكتبـه فى الكويت ليقلب الأمر ويزور بعد ذلك مكتب الكويت أسـبوعا فى كل شهر فقد كان حلمى يشب عن الطوق وكان عـدلى مصرا أن يكون الى جانب ابنـه فى هـذه الفترة التى يتكون فيها أساسه فقد كان عدلى يرى أن يقوم هو بواجبه نحو ابنه ويترك المستقبل لمن عنده أم الكتاب •

حدثت ثورة مايو واسترد شـعب مصر قدرا كبيرا من حريتـه وبدأ النـاس يتنفسون جهرا بعد ان كانوا يتنفسـون خفيـة وأصبح كل فرد فى مصر يحاول ان يذكر الآخرين بنفسه بعد ان كان كل فرد فى مصر يتمنى او ينساه الآخرون •

كان عدلى فى مكتبه بالكويت حين طلبته السيدة ألفت حشمت بنت أخى الدكتور فكرى لتخبره أن الدكتور فكرى قد عاودته الأزمة

القلبية • وانها تكلمه دون علم عمها ولكنها تدرك العلاقة بينهما وأحست أنه ينبغي عليها أن تخبره •

ووصل عدلى الى القاهرة فى أول طائرة ولم يقصد الى بيته وانما سارع من فوره ومعه حقائبه الى بيت أستاذه • وكان الاطباء قد منعوا الدخول الى حجرته ولكن السيدة ألفت استثنت عدلى من هذا المنع وطفرت الى وجه الرجل فرحة حب لا تطفر الا على وجه أب يرى ابنه •

ـ كيف انت يا عدلى

ـ طمأننا الله عليك يا دكتور

ـ اطمئن

ـ أرجو ألا تتكلم

ـ اذا مت ذهبت الى مكان سعيت عمرى أن أذهب اليه وان عشت فأنا مطمئن بوجودك الى جانبى •

ـ أطال الله عمرك •

ـ لا يهم ••• مصر الآن بخير ••• وما بنيته أنا سيصبح فى يد أمينة • لم أعش عبثا يا عدلى يابنى وهل هناك أجمل من أن يحس الانسان أنه لم يعش عبثا •

ـ سأتركك لأنك تتكلم كثيرا •

ـ وما له دعنى أتكلم فاننى سأصمت طويلا

ـ اتركك بخير ••• هل تأمر بشىء

ـ خذ بالك من نفسك ومن ابنك حلمى ••• اجعله يصبح مثل أبيك أو مثلك على الأقل

ـ وهل بيدى

ـ حـاول

ـ أنـا سعيد أننى رأيتك

ـ وسترانى دائما

ـ ربما وانما أعتقد أنك أنت لن ترانى

وخرج عدلى وكأنما كان الرجل يطلع على وجه الغيب فقد كان هذا آخر لقاء بينهما •

واستمرت أعمال المكتبين فى مصر والكويت على حالها لم تتغير فقد كان زبائن المكتب قد عرفوا عدلى واطمأنوا الى عمله فلم يترك أحد منهم أيا من المكتبين •

وكانت ألفت ميسورة الحال وكان زوجها ميسور الحال أيضـا ولكن عـدلى أصر أن يـكون لها مرتب ثابت من المكتب فـاذا هى تلقـاه :

ـ ما هذا المبلغ الذى أرسلته الى

ـ أهو قليل

ـ هو غير مفهوم

ـ انه مرتب شهرى أعتقد أنك تستحقينه من مكتب عمك

ـ لم يصبح المكتب مكتب عمى

ـ هو الذى أنشأه

ـ ولكنك الآن تقوم بشأنه وأنت تعلم أننى والحمـد لله غير محتاجـه

ـ أعلم ذلك كل العلم ولكن أنـا أقوم بما أراه عدلا

ـ هل من العدل أن تعمل أنت وأتناول أنـا مرتبا

ـ لولا عمك ما عملت

ـ لقد ورثت كل أمواله فقد باعها لى منذ سـنوات دون أن يتلقى ثمنا لها أما المكتب فقد كانت ارادته أن يؤول اليك .

ـ أعلم ذلك

ـ فما هذا المرتب الذى تريد أن تجريه على

ـ أريح به ضميرى

ـ فهل فكرت فى ضميرى

ـ اسمعى يا ألفت هانم هذا نقاش أشعر معه بنوع من السعادة انقطعت عن الشعور بها منذ سنوات .

ـ والعجيبة أننى أنـا أيضا أشعر بجو أصبح غريبا على زماننا

ـ فما رأيك أن يكون هـذا المبلغ الذى قدرته لك نواة شىء طيب بيننا .

ـ كم هـو

ـ ألم تعديه

ـ لا والله وجدت نقودا فى ظرف ومعها بطاقة منك فجئت اليك من فورى

ـ أنت ست عظيمة

ـ وانت رجل عظيم

ـ المبلغ مائة جنيه

ـ هـذا كثير

ـ اسمعى ما رأيك لو أنك ادخرت المبلغ ثم نلتقى كل عام فى مثل هذا الشهر ونقرر جهة البر التى نقدمه اليها .

ـ موافقـه

ـ عظـيم

ـ ولكن انتظر ••• باسم من يكون التبرع

ـ باسمك طبعـا

ـ أكون قد ادعيت لنفسى فضلا ليس لى

ـ وجدتهـا

ـ فقلهـا

ـ باسم المرحوم الدكتور فكرى الدهشان

ـ هو ما قلت •



ان الذى يبنى مجده على أكتاف الآخرين يزول مجده بزوالهم .
فمجدك أن لم تصنعه يداك على أساس من الكفاءة والعمل الجاد انما هو سراب قد يفرح به الرائى ولكن اذا بلغته الحقيقة وجدته وهما من الوهم وهباء من الهباء .

ولكن الذين يخدعون أنفسهم مساكين فهم أول من يصدق أنفسهم حين تخدعهم .. وهم فى خداعهم هذا يعمون عن الحق ويطيشون عنه ويظنون أن مجدهم هم صانعوه وهيهات لهم أن يتبينوا الحقيقة من أنهم نباتات متسلقة على أشخاص آخرين . فاذا شاء حظهم التعس وزال هؤلاء الآخرون طالعتهم الحقيقة صريحة صارخة لاقبل لهم بمواجهتها ولا قبل لهم بتجاهلها وويل لهم من أنفسهم حينذاك .
فالنفس الممزقة والحقيقة التى تكشف الوهم وتجعل الدجل ينماع الى زوال ويتهافت الى تلاش وينهار الى هباء تجعل الواهمين الدجالين فى سعار من الجنون يتخبطهم الشيطان فيعرف الناس عنهم أعماق الأعماق التى كان يغشيها الوهم ويذود عنها الدجل الرؤية الصادقة .

وقد يغيب الحق عن الظهور بعض الوقت ولكنه فى موعده قادم

لاشك • وهو فى قدومه موكب له طبل وزمر وزفاف كفيل أن يجعل الخداع مهتك الاستار والدجل مفضوحا ليس له عن غطاء ولا وقاء •

لهذا لم اعجب وأنا فى الكويت حين كنت أقرأ مقالات حسن فالعهد الجديد يرفض أن يعطيه ما كان يعطيه العهد الماضى • فاذا هو يبالغ فى مديح الماضى وهو فى مديحه لا يملك أدلة من واقع • فالهزيمة ماحقة والجراح من النفوس والجسوم مازالت تنزف وليس هناك نظرية واضحة المعالم يستطيع أن يتخفى وراءها كما كان يتخفى حامد وراء نظرية • وهكذا أصبح موقف حسن مضحكا • وكلما كتب ازداد الناس ضحكا منه ولكنه ضحك موجع مؤلم كله سخرية من ذلك الذى خدعهم حينا ثم تكشف أمره عن بلياتشو كانت الأصباغ تغطى وجهه ثم ازالتها مياه الحرية فاذا هم يتبينون أن الوجه لم يكن وجهه وانما كان وجه الآخرين •

ان الشيوعيين حين يدافعون عن رأيهم يجدون نظرية مهما تكن فاسدة سفاحة قاتلة للانسان فى الانسان الا أنها على كل حال نظرية اعتنقها سفاكون وفرضوها على دول • وهكذا كان حامد يستطيع أن يقول ويجد ما يقول • أما حسن فعن أى شىء يدافع ••• ليس فى يده الا وقائع كلها عسف وبطش وجبروت واعتداء على كل ما هو انسانى جسما كان أو روحا أو كرامة •

ووجد حسن مدخله الى الحديث من باب ضيق حشر نفسه فيه فلم يخرج فقد راح يدافع عن الهزيمة ويبين أنها أمر لايمكن تلافيه وأن التفكير فى حرب أخرى انما هو الخراب الآخذ الشامل الذى لا خراب مثله • ويقرأ الجيش هذا الكلام فيزداد سخطا على حسن ويقرأ العرب هذا الحدبث فيزدادون اشمئزازا من الكاتب ورفضا له •

فقد كانت الحرب هى الأمل الوحيد الذى يتحدثون به وقد كنت أنا بعد الهزيمة واثقا أنه لا حرب هناك • وكيف تكون

الحرب مع جيش هزم الجيش المصرى فى ساعات والجيش السورى فى دقائق .

ولكننى مع ذلك كنت لا أميت الأمل فى نفس محدثى . وأذكر بيت الشعر :

اذا تمنيت نمت الليل مغتبطا   ان المنى رأس أموال المفاليس

وقد كنت أعتقد اعتقادا راسخا أننا أصبحنا أكثر هوانا من كل مفاليس العالم .

أما أنا فلست كاتبا وأنا لا أنشر رأيى على الناس فمن حقى أن أظن ما أشاء وأعتقد ما أريد أن أعتقد ما دام هذا الظن وذلك الاعتقاد حبيسين فى نفسى لا يخرجان منها الى كلام منشور فى صحف .

أما الكاتب فانه وان كان واجبه أن يكون انذارا للناس ونورا لهم ومصباحا على غدهم ، وكشفا لأمسهم الا أنه لا يجوز أن يكون لهم حسرة وبأسا . فاذا توجس وجب عليه أن يذكر مكان الأمن واذا حذر تحتم عليه أن يبين طريق الرشاد . أما أن يكون ارتكاسة مع الحكام ومعولا مع الخراب وهزيمة مع الهزيمة فهذا ما لايرضاه أحد من كاتب ولا يرضاه أحد له .

وقد كان حسن ارتكاسة وحطاما ومعولا وخرابا وهزيمة فى وقت معا .

فى أول رمضان جئت الى القاهرة لأقضى الشهر مع حورية وحلمى ومع أمى . وبدأ الشهر .. بدأ طبيعيا ولكن ما كادت تمضى منه أيام ستة حتى انفجر فى العالم العربى ذلك الخبر الذى قلب موازين العالم أجمع .

مصر تعبر القناة .

كان حلمى فى تلك السن التى تبهرها الأنباء ولا تطل الى

ما وراءها فاذا الفتى يكاد يجن من الفرح فهو رائح غاد فى البيت وفى يده الراديو أو وهو ممسك به عيناه على التليفزيون التصقتا به •

أما زوجتى فهى خائفة على الشباب الذى يحارب وهى فى نفس الوقت فرحة سعيدة • فهى تعتقد أنه لم يكن لنا سبيل الى استعادة الحياة الا بحرب أخرى ولتكن نتيجتها ما تكون • أما أمى فلا تترك كرسى الصلاة على السجادة فقد كانت لا تستطيع أن تصلى الا وهى جالسة وهى تدعو الله فى تجرد كامل لوجهه سبحانه أن يحمى أبناء مصر المحاربين •

أما أنا فقد كان أمرى عجيبا ••• لقد توقعت هزيمة محققة • والآن وأنا أفكر بعد كل هذه السنوات أجدنى كنت محقا فى تفكيرى ••• والا فكيف لجيش هزم منذ ست سنوات فقط فى ست ساعات أن يعود الى حرب أشد شراسة بنفس الرجال ونفس السلاح ويريد أن ينتصر •

لقد كان فى الحرب الأولى مع العدو على أرض واحدة لا تفصله عنه حدود من طبيعة أو من صنع الانسان • والآن يريد أن يعبر القنال • يحطم خط برليف •• ما فيه من ألسنة لهب مثلها لنا كنار جهنم • ثم ينتصر •

أينهزم ولا حدود بينه وبين عدوه وينتصر وبينه وبين عدوه حواجز من بحار وجبال ونيران ••• هيهات !!

ولكن • الآن • لابد أن أقول اذا لم يكن الجيش قد انتصر وأمامه كل هذه العقبات لما حقق المعجزة وقد شاء ربك من فوق سماوات سبع أن يقول لعباده آمنوا بى فان أكن قد قطعت عنكم رسالات السماء فانى أرحم بكم من أن أقطع عنكم معجزاتها •

وتمت المعجزة •

ويمارى فيها أقوام فى نفوسهم احن وأحقاد مثل حسن وحامد ولكنها معجزة • وما لهذين ولأمثالهما ألا يماروا • والا فماذا كنا نريد منهم أن يقولوا ••• أعيدوا الينا شلالات الأموال التى كانت تنسكب علينا وآيات المجد التى كانت تحيط بنا وطقوس الاجـلال التى كانت تفرش تحت أقدامنا •

وما لهم ألا يماروا وقد خسروا بانتصار مصر طريقهم الى خراب مصر •

أستعاد حلمى ابنى نفســه وأحس أنه انسان مكتمل وفى يوم وقف اطلاق النار فوجئنا به على المـائدة يقف والدمع فى عينيه ويصيح بأعلى صوته ••• أنـا مصرى ••• بابا أنـا مصرى ••• نينا أنـا مصرى ••• ماما أنـا مصرى •

كانت بداية مشرقة لعامه المدرسى فقد كان فى الثانوية العامـة وقد اختار هو دون أى تدخل من أحد أن يكون فى القسم العلمى • وكانت درجاته العلمية تتيح لى أن أستبشر خيرا باختياره هذا •

وكان حلمى فى الأجازة قد وثق صلته بقريتنا الرمايحه وقد أغراه فريد بن الحاج سعدون الذى أصبح يشرف على أرضنا بعد أبيه أن يربى بعض عجول بدلا من أن يترك العزبة خالية من البهائم تماما • وقد أحببت أن يرتبط عدلى بالرمايحة وشجعت تحمسه المراهق وفرح وبدأ مشروعه • وقد كان الفتى يعرف حقوقه وواجباته وكنت واثقـا أن اشتغاله بالعجول لن يشغله عن الدروس وكنت أمزح معه قائلا :

ــ يا عدلى يابنى العجول لا تغنى عن العقول •

ويبتسم فى ثقة ويقول :

ــ لا تخف •

***

انتهى شهر رمضان وعدت الى الكويت لأقضى بها أسبوعين ..
لقد عادت مصر الى مكانها بل انها عـادت الى أرفع مكان تبوأته فى تاريخها ، وما لها ألا تعود وقد حققت النصر الوحيد فى العصر الحديث ولكن عجيبة ... أم تراها ليست عجيبة . لقد كانت الهزيمـة هزيمة مصر وحدها ولكن وبقدرة قادر أم ترانى يجب أن أقول بقـدرة ظالم أصبح النصر نصر العرب أجمعين ... لا بأس فليكن كذلك ، وهل مصر والعرب الا كما قال الشاعر :

وهل أنـا الا من غذية ان غوت

غويت وان ترشـد غزية أرشد

وانتهى الأسبوعان . وركبت الطـائرة عائدا الى القـاهرة . شعور عجيب يتولانى كلما عدت من الخارج الى مصر . مهما يكن المكان الذى كنت فيه والذى أعود منه الى مصر . أنـا دائما مشوق اليها بكل حال هى عليه . انـا مشوق اليها والظلم يتغشاها ويتغشانى معها ومشوق اليها وحقى وحقوق المصريين مكفولة . مشـوق اليها حتى بعد أن خامرها ما خامرها من طريق غير سوى وماء متفجر وكهرباء مقطوعة وتليفون لا ينطق . بل ربما أنـا أشد شوقا اليها وهى فى تلك الحال من شوقى اليها وهى لا تعانى . وهل نعرف قيمة الأم الا اذا مرضت الأم . وهل نحبها فى مألوف أيامنا قدر ما نحبها وهى تعانى . وأمنا الخالدة تعانى فنحن أبناءها أعظم لها حبا وأكثر اليها لهفة وأشد عليها حرصا .

لقينى حلمى فى البيت وما هدأ بى المقـام حتى وجدتـه ينتهز فرصة صمت ويسارع قائـلا فى لهفة وقد وضح لى أنه كان يختزن ما يقوله منذ أيام وينتظرنى متعجلا عودتى ليعرض على ما يعرض .

ــ يا بابا من المفروض أن يأتى الى العجول طبيب بيطرى ليرى ان كانت قد بلغت الحجم الذى تستحق معه الحصة المخصصة لها من

العلف أم لا . وقد جاء الطبيب ورأى العجول وقرر أنها لا تستحق بعد تلك الحصة وقبلت رأيه كأمر مقرر ولم أناقشه وخرج الطبيب من المنزل هو والتمورجي الذي يعمل معه ولكن ما هي الا دقائق حتى عاد التمورجي ليهمس في أذني اذا كنت تريد أن يقرر الدكتور حصة العلف فادفع خمسة جنيهات عن كل رأس وسألته لمن قال للدكتور قلت أهي تمغة أو ضريبة حكومية مثلا قال لا وانما هي أكرامية للدكتور ، قلت ولك قال اللي تشوفه قلت ولكن الاكرامية من الاكرام والاكرام لايكون بالعافية قال والله أمرك قلت أتركني أفكر في الأمر . والحقيقة أن المبلغ بسيط لا يستحق التفكير ولكنني يا بابا لا أتصور أن أبدأ حياتي بالرشوة وفي نفس الوقت أرفض أن يقع على ظلم لأنني رفضت أن أقدم رشوة ... ماذا أفعل .

ولا أدرى ان كان قد ظهر على وجهي ما شقيت به من ذلك الحديث أم لم يظهر ، فجعت فجيعة كبرى . ليس الأمر غريبا على . ولكنني شأن الناس أرى الشيء وهو بعيد ولا أتوقع أن يلاقيني أنا في طريقي . ماذا أنا قائل لابني الآن أأقول أقبل أن تكون راشيا . هذه هي المثل العليا التي يريد أب مثلي أن يرسيها في نفس أبنه . وماذا سيكون أمري أمام ابني وهو يرفض لنفسه أن يكون راشيا وأنا أقبل له هذا . أم أقول له أرفض وهو يريد أن يخوض الحياة وقد بدأ خوضها فعلا بتلك العجول التي يربيها . وكيف يستطيع خوضها وهو بكل هذه الطهاره ويل لمصر مما مر بمصر .

قد يصلح الطريق فيها للسيارة ولكن ما أظن أنه سيصلح للمثل العليا . وقد لا تنقطع فيها الكهرباء ولكن نور الشرف سيتأخر عن الانارة . وقد يتحدث التليفون ولكن شقة عمى مازالت تعمل ومازال التليفون يستعمل في اقامة لياليها .

قلت لحلمى في حسم :

ـ حلمى مادمت قد دخلت الى الحياة فينبغى أن تقرر طريقك فيها وحدك ... أنظر أنت ماذا تريد أنت أن تفعل وأفعله .

قال الفتى فى حسم :

ـ بابا ... أنا لن أدفع مليما واحدا وليكن بعد ذلك ما يكون.

قلت فى نفسى : لهفى عليك يابنى ... لقد اخترت طريقك لاشك فى ذلك فاللهم يارب العالمين يا حق يا عدل يا سبحانك ثبته على هــذا الطريق وأن لقى فيه ما لقى الحسين بن على .

وقررت أن أقيم فى مصر . هنا بجانب ابنى فانه فى هذا الطريق سيحتاجنى لأكون له نسمة هواء فى هجيره ونفحة دفء فى جليدة .. أنـا هنـا .



قال لى عدلى :

ــ مـاذا أصنع الآن .. ان عمى حفنى يرسـل الى كثيرا من الزبائن وكلهم أصدقاؤه وكلهم من ذوى الصـداقات ذات النفوذ . وأنـا لا أحب صداقاته هـذه ولا أعرف ما تخفى ولا أدرى أقبل أم أرفض .

وأسقط فى يدى فان كان هو يدرى ما وراء هـذه الصداقات أو كان لا يريد أن يدريها فانا أدريها كل الدراية فان قلت له أقبل خنت نفسى وخنته وأن قلت له أرفض أقفلت من دونه بابا واسعا من أبواب الرزق . وليس الرزق له وحده فربما كان فى وفرة تغنيه عن المـال وتغنينى عن الحيرة ولكن الرزق أيضا للشباب الكثيرين الذين يعملون معه والذين يريدون أن يتعرفوا على هـؤلاء الناس ويشقوا طريقهم فى الحياة كما شقه أستاذهم عدلى . ولم أجد شيئا أقوله الا أن سـألته :

ــ ألم تخبرنى عن موقفك من مرجان حين أراد لمكتب الدكتور فكرى أن يكون مسئولا عن حساباته .

ـ أمازلت تذكر

ـ وأنت أيضا يجب أن تذكر

ـ فهمت ما تعنى

ـ فلا حيرة اذن

ـ فيما يختص بالزبائن لم تعد هناك حيرة

ـ اذن

ـ حيرتى لن تنتهى ••• لن تنتهى •

وعرفت ما كان يقصده تماما ولكننى أيضا كنت سعيدا بتخلصى من الاجابة على سؤاله ولم أشأ أن أوقع نفسى فى حيرة جديدة معه •

***

شمل السلام مصر واتهمها من اتهمها انها باعت القضية بقبضة من الرمال وعلم الله أن مصر لم تبع القضية وانما أقامتها على أسس من المنطق والعقل بعد أن ظلت أعواما لاشىء الا هتافات وشعارات وصراخا لا معنى له ولا قوام ولا عمق • وعلم الله أن هذه الرمال انما هى أرض مصرية عزيزة على مصر • ولست أدرى لماذا تكون أرض مصر وحدها هى الرخيصة وكل أرض غير أرضها عرض وشرف وكرامة ومستقبل وماض وحاضر وتاريخ • لم أذهب الى الكويت وان كان مكتبى ظل يعمل به تحت اسمى • وأصبح من بين تلاميذى الذين مرنتهم هناك من يستطيع أن يقوم بالعمل خير قيام ومن أعتقد أنه نال الثقة فى نفسه ومن الزبائن • وتركت أمر المكتب لم أعد أفكر فيه واستغرقنى عمل المكتب فى القاهرة فقد نشطت الحركة الاقتصادية فى مصر بصورة لم أر لها مثيلا فى حياتى وأتسع مكتبى أتساعا لم

أكن أنتظره ولكن الذى يحيرنى هو النظام الذى يقوم عليه الاقتصاد فى مصر . فهو نظام فريد فى العالم لا شبيه له .

فهو باليقين والقطع ليس نظاما شيوعيا وهو أيضا ليس نظاما اشتراكيا . وهو أيضا ليس نظاما رأسماليا . انما هو خليط من هذا جميعه . يأخذ من كل نظام بطرف والنظريات ليست على استعداد أن تقبل معها نظاما جديدا خلقته الظروف الشاذة فى حياة مصر ولم تخلقه التيارات الطبيعية التى تولدت عنها النظريات الأخرى ما نجح وما ثبت فشله . والذى لاشك فيه أن هذا النظام المضطرب الذى كان الاقتصاد المصرى يعانيه هو ابن شرعى للنظام السياسى المترجح الذى كان يحكم مصر . فلا كان النظام فى مصر ديكتاتوريا كاملا يترأسه حاكم باطش مخيف ليس يبقى لأعدائه من باقية وليس يرعى فيهم حق اله أو كرامة انسان أو شرف آدمية . ولا كان النظام أيضا ديموقراطيا مطلقا ومن أين له بالديموقراطية وقد قتلت أصولها منذ ربع قرن ولم تعد لها أدوات ولا أحزاب ولا أشخاص .

وبيد الحرية الوليد وآثار الديكتاتورية قتل رئيس النظام وتغيرت الأوضاع فى مصر بعض الشىء فبقيت وجوه على المسرح وأخرى تبدلت بقوم آخرين انما الذى عنانى بالذات أن شقة عمى قد أقفلت أبوابها وبدأ عمى يبحث عمن يؤجرها منه ايجارا مفروشا . ولكن أن يكون وجوه القوم الذين كانوا يعمرون شقة عمى قد غابوا عن الواجهة فان أذنابهم يملأون أرجاء مصر منتشرين فى كل مرفق من مرافقها ما لهم عنها من منصرف .

قلت له :

ــ أتقص على كل هذا وكأننى لا أعرفه

ــ بل أعرف أنك تعرفه ... بل وتعرفه كل المعرفة

ـ ففيم اذن أتعبت نفسك

ـ لابد من شكرى لذى مروءة

ـ أشكر لك حسن ظنك •• ولكن ماذا بعد الشكوى

ـ اما جواب منك أو أظل أنا على حيرتى

ـ وفيم الجواب وأنا لا أعرف بعد ما السؤال

ـ ابنى

ـ ماله

ـ لقد انتهى من دراسة الطب

ـ وهذه أيضا أعرفها

ـ والأطباء فئة فيهم الملائكة وفيهم الوحوش القاتلة السفاحة السفاكة •

ـ هو ما قلت

ـ وحلمى ابنى يحمل دم جدى • وهذا الدم أخرج أبى وأخرج عمى • فالى أى فصيلة من الفصيلتين سينتسب حلمى • وهل طريقه مسبعة الذئاب الباطشة أم مسابح الملائكة ••• لكم أخاف عليه ••• ان الذى أشاهده فى مصر لا يفرش الطريق الى مسابح الملائكة وهو مهيأ كل التهيؤ أن يجعله الى الوحوش يميل •

ـ أو لم يكن الأمر معك أشد عسفا وجورا وظلما

ـ لو كنت واثقا أنه سيصبح مثلى ما احترت

ـ ومن الذى يستطيع أن يعرف الغد

ـ وأخاف عليه أن تطالعه سمعة عمى حيثما اتجه

ـ وأى شىء تخشاه من هـذه السمعة ••• أتخشى أن تكون عائقا له أم تخشى أن تكون طريقا له مفروشا بالورد والرياحين والزئبق الذى كان يملأ شقة عمك •

ـ أخاف عليه من الأمرين كليهما ••• فكل من الفرضين أشد هوانا من صاحبه •

ـ هل طالعتك أنت سمعة عمك

ـ لست أذكر

ـ فلماذا تخشاها عليه وهى لم تهددك أنت وأنت الى عمك أقرب من ولدك اليه

ـ الحيرة تقتلنى

ـ ألم تشعر أنك أديت واجبك

ـ كل انسان يطمئن نفسه بهذه الجملة

ـ أتحس أن هناك شيئا كان يجب أن تصنعه ولم تصنعه

ـ لا أظن

ـ أفلا تترك الأمر لله الذى ألزم كل انسان طائره فى عنقه • اترك ابنك يلزم طيره والزم أنت طيرك وتوكل على الله •

وصمت عدلى ••• ولكن أكان صمت الطمأنينة وزوال الحيرة لا أظن ••• بل انى واثق أنه على حيرته ما تزال مسلط عليه ما كتب على الانسان الا يعرف ماذا يكسب غدا • ذلك القانون الذى يتمثل فيه عذاب الحياة وتتمثل فيه متعتها أيضا •

(تمــت)



أحلام في الظهيرة

أحلام في الظهيرة

١

حين كان الزمان مثل الموسيقى الحالمـة الهادئة وكان الناس فيه أنغاما ساجية حالمة • ذلك الزمان الذى لم نره نحن وانما هو بالنسبة الينا روايات عن الآباء تلقفوها عن الأجـداد فأصبحنا ولا نعرف عنه الا مباهجه ومتعته ، الجلسة الهادئة المليئة بالسعادة والضحك والهناء ، فالأجيال جميعـا تحب أن تنظر الى أمس الغارب وتكره الحـاضر وما تشهده فيه من صراع وتخشى المستقبل الذى تطل عليها بواكيره مكشرة الأنياب رهيبة السمات •

ذلك الزمان البعيد عنا هو أحب الأزمان علينـا لأننا لم نشهده ولا نستطيع أن نعرف منه الا ما حلا للأجداد أن يرووه لأبنائهم الذين هم آباؤنا ونقله الينا الآباء سـعداء بما ينقلون مقارنين دائمـا بين الخير الذى كان يشيع فى جوانبه والشر الذى يفشو فى الزمان الذى يعيشون فيه • وهكذا أصبح شأننا نحن أيضا لا يختلف جيلنا الحاضر عن أجيالنا السابقة فأصبحنا ساخطين نحن نفوسنا الى هـذه الملاوة من الزمن التى كنا فيها بلا مسئولية وبلا صراع وكان آباؤنا يحملون عنا العبء جميعا ونحن نتصـور ــ كما يتصور أبناؤنا اليوم ــ أن عليهم

أن يحملوا العبء وعلينا نحن أن نسعد وعليهم هم أن يحبونا وعلينـا نحن أن نحترمهم فقط ثم لا نصنع شيئا من بعد •

فى ذلك الزمان البعيد بدأت أسرة وهـدان تتكون • وكان رأس الأسرة طفلا بريئا فى الملعب يلهو مع أترابه من الأطفال لا فارق ثمـة بين طفل وطفلة ولا بين قادر بسط الله الرزق لأبيـه وبين معسر قدر الله سبحانه ــ لحكمة لا يعلمها الا هو ــ الرزق على ذويه • فى ذلك الزمان كان وهدان يحب نبوية ذلك الحب الطفل الطيب الذى لا يعنى عند أى منهما الا خفقة فى القلب وفرحة عند اللقاء وشوقا عند التباعد •

وحين شب كلاهمـا عن الطفولة الى الصبا القريب من الفتوة احتجبت نبوية ولم تصبح الحيـاة كلها لعبا عند وهدان • بل كان يحلو له أن يتشبه بالرجال ويقف فى الجرن ويرقب النورج أو يركبه • أو يقف فى الغيط يجمع القطن أو يرقب من يجمعونه • وما كان أبوه غنيا ولم يكن أيضـا معسرا وانما هى أربعـة أفدنة تنأى بأبيـه عن الأجراء لتضعه فى مصاف الملاك •

ولكن الحقيقة مع ذلك تبقى كما هى أربعة فدادين •

كانت الشمس ساخطة على الأرض ، تكويها بشواظ لاهب من النار ، وكان النورج يدور وقد أوشـك هو الآخر أن ينبجس العرق من خشبه أو من عجـلاته الصلبة الحـادة وهى تمر فى دائرة مفرغة على عيدان القمح فى ملالة وضيق يجرها الثور الكبير وقد أوشـك أن يتهـاوى من شـدة الحر • وكان وهـدان يعتـلى صهوة الدكة الخشبية التى يجلس اليها من يسوق الثور وبيده سوط مفتول من لحاء أشجار التيل الذى يزرعونه حول حقول القطن ليرد عنهـا عادية الأتربة وعدوان الحيوان •

وكان يدرى أن الجرن الذى يتلبس فيه ملابس الرجـال ذوى الأعمال هو الطريق الطبيعى لمسير نبوية • وكانت هى أيضا تعلم ذلك

فكانت تظل فى هـذا اللهيب من الحر رائحة جائية تتظاهر بأنها تؤدى مطالب المنزل وعلم الله وأحسب أن وهدان أيضـا كان يعلم أنهـا لا تكثر من المرور الا لتلتقى نظراتهـا بنظراته وتطفو الى شـفاه كل منهما تلك الابتسامة الوادعة الحنون التى يخفق لها القلب ذلك الخفق الدؤوب الجديد المرتفع الوجيب المتخافت الصـوت حـذر أن يطلع عليه من شهود اللقاء أحد .

كانت حيـاة وهـدان منذ البواكير الأولى من سـنوات عمره حياة جادة حازمة كلها عمل . وربما كانت سنوات الكتاب التى تتسم بعنف المعلم وصعوبة العلم بالنسبة لوهدان هى أندى هـذه السنوات وأخفها وطأة عليـه لو كان من هؤلاء الذين يرون فى العمل جهـدا وشقاء . ولكنه كان من الذين يحبون أن يعملوا . ولا يقومون العمل ان كان ممتعا أو غير ممتع . وانما هو عمل ولابد أن يؤدى فهو يؤديه كما يتنفس الهواء ويطعم الطعام .

ولم يكن جلوسه على النورج فى هـذه السن الباكرة لعبا شأن رفاقه من الصبية . فما هى الا أيام قليلة ركب فيها النورج لهوا ومراحا ثم سحب أبوه المكلف بادارة النورج ، ووجهه الى أعمال أخرى وترك النورج بكل ما يتصـل به من أعمال عهدة فى ذمة وهدان . فهو الذى يجمع أكوام التبن والقمح ويمد النورج بزاده الجديد من أعواد القمح ذات السـنابل حتى اذا مالت الشمس الى منزلها من العصر توجه الى كوم القمح رجلان أو ثلاثة أشـداء ليذروا الأكوام فينفصل القمح عن التبن بنفس الوسيلة التى يتبعها أجدادهم وأجداد أجدادهم منذ عرف الانسان القمح كوسيلة لصنع العيش .

ومرت الأيـام . وأوشـك موسم الحصـاد أن ينتهى وبدأت المخاوف تساور الصبيين اللذين التقيا بشبابهما مع أنسام القمح أن يصبح اللقاء بينهما غير ميسور .

وكانت الشمس فى السماء حريقا وكان النورج يدور دورات كان وهدان فى غير حاجة اليها ولكنــه يديره ليجد عند نفسه أو عند المــارة عذرا ينتظر به مرور نبوية حتى اذا مرت قفز من النورج قفزة سريعة ملهوفا يريد أن يظفر منها بوعد على اللقاء ولكن مسمارا فى النورج يمسك بجلبابه فاذا وهــدان تحت النورج واذا الأسلحة تبتر ذراعه الأيسر أو تكاد وترى نبوية ما حل بحبها وتصرخ بأعلى صــوت لها فيدوى صراخها فيملأ أنحاء القرية وتجرى الى وهدان الذى فقد وعيه فتبعده عن النورج وتعمد الى خمارها وتسد به نوافير الدماء المندفعة من الذراع وتحضن الفتى فى لوعة وتصرخ لا يعنيها أن يراها الناس . ويقبل الملأ من كل حدب وينقلون وهدان الى حلاق الصحة وتلازمه نبوية لا تتركه ويضطر أبواها اللذان جاءا مع الجمــوع أن يلازماها مدركين ما ينفطر به قلب الابنة .

وحين تطمئن الجموع على حياة وهــدان ينصرف كل الى شأنه الا نبوية . ويقول الأب لزوجته وابنته :

ـ أذهبا أنتما فانى سأبقى .

ولا يدرى أحد أو لعل كل محب يدرى من أين استطاعت نبوية أن تأتى بكل هــذه الشجاعة التى تجعلها تقول لأبيها فى حسم قاطع لا يقبل المناقشة :

ـ أنــا سأبقى يا أبــاه .

ويخشى الأب أن يجــاوز النقاش ما بلغه من حسم فينفضح من حب الفتــاة الطــاهر ما ينبغى أن يظل فى طى الكتمــان ويقول فى استسلام :

ـ ونبقى نحن أيضا .

ومع أنسام الفجر تنقطع آهات وهــدان التى ظلت تدوى طوال الليل وتوقظ نبوية التى لم تنم أباها وأمها من نومهما الجالس ويتجه ثلاثتهم الى بيتهم .



أي تحد تلبس وهدان منذ ذلك اليوم . كان يعرف نفسه طفلا لاهيا اذا دعاه الرفاق الى اللهو . وكان يعرف نفسه أيضا يقبل على العمل مع أبيه كلما دعاه أبوه الى ذلك العمل . ولم يكن يعرف فى نفسه أن اقباله على العمل ما كان الا ليستجلب الى كيانه وجوانحه ذلك الشعور بأنه بلغ مبالغ الرجال . وأنه يستطيع أن يقوم بعملهم ويسير طريقهم ويختط فى الحياة خطتهم . وانه بذلك يستطيع أن يحدث نبوية وكأنه رجل . وانه خف القطن مع أبيه وانه جمع مع الجامعين وأنه فى موسم الذرة يفرط ثمارها عن كوالحها وأنه فى موسم القمح يدرسه كما رأته . كان يحب أن يصنع هذا الصنيع ولم يكن يدرى انه يحب ذلك جميعه لينشىء منه حديثا مع نبوية فى أمسيات الصيف وبشهد من الحقول ومن أشجار الكافور والعبل ومع روائح الزروع ومع أنسام العبق الالهى تسرى فى خفايا الليل بكرا دائسا كأنها لأول مرة تنطلق الى أرجاء الحياة .

وحين أصابه هذا الذى أصابه وأصبح بذراع واحدة ظل طوال فترة علاجه يفكر .. أيصبح عاجزا .. أيثير الشفقة كلما وقعت عليه

عين .. أيكون فى الحياة انسانا ناقصــا لا أمل من بعد فى نبويه .. ولكن ماذا بعد .. ان تلك وحدها كارثة الكوارث أجمعين ولكنهــا حصلت .. وقعت .. بترت ذراعه .. أيصبح على الحيــاة عالة .. أيفقد نبوية ويفقد كرامته فى وقت معا . اترين منى الأيام ما لم تتوقعه منى حين كنت صحيحا بل وما لا تتوقعه من صحيح آخر مهما تكن قوته وجبروته .

لأكونن أشــد عنفا عليها مما عنفت به على .. فتى كان فى أول عهده ينام فى سريره ليعالج فى ذلك الزمان البعيد كل البعد عن زماننا اليوم .. والأيام تتطــاول به والمرض جائح باتر والدواء بدائى يحبو ما يزال فى ظلمــات دوامس من الجهل والتاخر ... ماذا يصنع الفتى اذا لم يتوعد الحياة ويهددها ... وما البأس عليه وهو نائم والحياة كلها يقظة ودأب وعمل وكدح .

ولكن نبوية تعوده كل يوم .. فما له اذن يقطع ان الأمل فى الزواج بها قد انقطع لا وما له يجعل فقدانها أمرا لا مفر منه ولا شــك فيه ولا سبيل اليه . والعجيب العجيب أنه كان يكره زيارتها وان كان قلبه يرى فى عينى أمه وأبيه علامات تعجب فقد كان الفتيان والفتيات يزوجون فى مثل هــذه السن فى هذه الأيام فما لهذه الفتاة لا تفنى حياءها وما لها تصر على زيارة فتى بترت ذراعه ويصلح لها عريسا . أتظن انه ما دامت ذراعه قد بترت فهو لن يتزوج على أية حــال .. انها مجرد ذراع أيتها الفتاة .. وما تصنع الذراع المبتورة الفتى أن يتزوج . فما مجيئك هــذا كل يوم فى جرأة لا تكون الا لزوجة كتب كتابها ودخلت أيضا . فما كان يجوز لمن يكتب كتابها ولم يدخل بهــا زوجها أن تذهب الى بيته وحدها .. بله الخطيبة .. بله التى ليست بهذه ولا بتلك .

عجيب شأن نبوية فى رأى الأب والأم معا .

أما وهــدان فقد استقر به الرأى على واحــدة من اثنتين ..
اما انها تشفق عليه فى هــذه المحنة الطاحنة . واما انها تريد أن تحيى
موات أمــله حتى ينتهى العــلاج ويخرج الى الحيــاة مرة آخرى .
وكلا السببين لم يستطع أن يجعل قلبــه يكف عن الوجيف وجيفــا
كان يجعــله يحزن كلــما جاءت لزيارتــه ، وقد كانت زيارتها يومية
عاليا دراكا يكاد يعلن عن نفسه للملأ الحاضرين بل والغيب أيضا .

وشفى وهــدان .. وخرج للحياة ورضى عن نفسه وهو يجعل
من أحلام المرض وهذائه حقا واقعا وقوع حياة جادا جدية من لا يهذى
ولا يعرف الى الهذاء سبيلا .

هو فى الغيط منذ الصباح الباكر وهو لا يعود الى البيت الا بعد
أن تغيب الشمس وتوغل فى المغيب وتأتى اليه نبوية فى الغيط وعلى
ملأ من الدين يعملون فيه وتجالسه . فى أول يوم ذهب فيه الى العمل .
وحرص أن يجعل الحــديث بعيدا عن مواطن القــلب وحرص على
آلا يتخاضع لها فى الكلام وانما شــكرها لأنها جاءت تهنئه بســلامة
الخروج وشغل نفسه بالدين يعزقون الارض لاينصرف عنهم ولا يميل
اليها بكلمة . وان كانت نفسه جميعا باقية بجانبها لا تستطيع عنهــا
منصرفا ولا تطيق منها فكاكا .

وابتسمت نبوية بتلك الشفافية التى عرفها الريف فى قلوب فتياته
وبنياته . فمع أنهــا كانت ترى وجه وهــدان وهو منصرف عنها الى
فئوس العاملين الا أنها كانت واثقــة أن نفسه جميعا بقلبها وجوانحها
بجانبها . انتظرت مليا ثم قالت فى شبه همس وفى صوت أغن :

ــ فتك بعافية يا وهدان .

وقال دون أن ينظر اليها :

ــ مع السلامة .

وصحبت نفسه وجوانحه وانصرفت ، وقــال هامسا لمــا بقى

منه .. ما تزال تحاول تشجيعى على مصيبتى .

وفى اليوم التالى جاءت نبوية ولم يطق وهدان صبرا ... أمسك يدها وانتفض جسمه انتفاضة لم يعرفها فى حياته قط وابتعد بها عن الجميع :

ـ مجيئك بالأمس يرى فيه العاملون فتاة تهنىء ابن قريتها بالعودة الى العمل أما مجيئك اليوم فغير مقبول ... عودى الى البيت .

ـ وكيف أراك .

ـ سأجىء أنا اليك .

ـ أين ومتى ؟

ـ أيوافق أبوك على مجيئك ؟

ـ لم أسأله .

ـ أتظنين أنه يوافق ؟ !

ـ اذا اتصل الأمر بى وبك فأنا لا أفكر .

أحس بالكلمة كأنها رصاصة أصابت منه كل المقاتل ونظر الى ذراعه المبتورة وأبقى عينيه عليها لتخفيا دمعات تبادرت فهمس وقال بصوت لا يكاد يسمع ولكن فى نبرته أمر وحسم .

ـ عودى الى بيتك .

وفى غير تردد قالت وهى تولى عنه :

ـ أمرك هو الأمر الوحيد الذى لا أناقشه .. فتك بعافية .

وتزداد الدموع وبلا من عينيه ... أما عافية الجسم فقد أنالها أما عافية الروح فهيهات .

وظل وهدان يذهب الى الغيط كل يوم ومرت شهور وكان أبوه

يظن أول الأمر نزوة جريح فقد ذراعــه ولا يريد أن يصاحب الفتيــة فيما يضطربون فيه حتى اذا تتابعت الشهور وأوشكت أن تكتمل عاما أصبح الأب فى غنــاء عن الذهــاب الى الحقل وراح يقضى نهاره فى جلسته الحبيبة عند عبد الحميد أبو ديدة الخياط الذى لا تمنعه صنعته عن الحديث ولا عن سماع من يقرأ الجريدة له •

وكانت نبوية فى كل يوم تذهب الى حيث ترى وهدان وتطمئن عليه وتنصرف لا تقترب منه ولكن لا تمضى أو تكون واثقة أنه رآها •

اذن فالأمر ليس اشفاقا ••• ولا هو بتشجيع •

جاءت من بعيد ورآها فراح يجرى اليها بكل قوته وهى قوة عاتية ••• وما كان فى حاجة الى الجرى فقد كان مناها أن يقبل اليها ولو اقبالة وانية هينــة وانها لمنتظرة وان استغرق خطوه اليهــا عاما وأعواما •

ــ ماذا تريدين يا نبوية ؟

ودون ان تفكر لحظة •

ــ أريد أن أتزوجك •

ومادت به الأرض بما حوت وصاح •

ــ أنــا بذراع واحدة يا نبوية •

وصاحت هى أيضا به •

ــ وهل هذه جديدة على •

وفى تعجب حزين •

ــ ألم ينقطع حبك لى حين انقطع ذراعى •

واجابته فى قوة حاسمة •

ـ ومن قال لك انى كنت أحب ذراعك •

ويطأطىء رأســه •

ـ لم أصبح انسانا كاملا •

ويعلو صوتها وهى تقول :

ومن قال لك ان الانســان ذراع أو ساق •• ان الانسان قلب وحنان ورجولة واصرار ••• أحببتك بعد أن فقدت ذراعك أضعاف أضعاف ما كنت أحبك من قبل ، وأحببتك حين أمرتنى الا أجىء اليك فى الغيظ أضعاف أضعــاف ما أحببتك بعد أن فقــدت ذراعك •• وهدان •• اذا لم تتزوجنى فلن أتزوج طول عمرى •

وتزوجــا •

***



عجيب شأن الأيام والسنين .. فالأيام تمر بطيئة متثاقلة كأنما يدفعها القدر الى المضى رغم أنفها بينما تمضى السنوات مسرعة تلهب الزمان بسياطها وتندفع كالسيل الجارف فاذا الطفل فتى واذا الفتى شاب واذا الشاب كهل واذا الكهل شيخ واذا نظروا الى أمسهم وجدوه قريبا منهم يكادون لو مدوا أيديهم أن يمسكوا به أو هكذا يخيل اليهم على الأقل . فهم يعلمون أن أمسهم الذى ولى بعيد عنهم بعدهم عن بدء الخليقة . ولكنه فى أذهانهم وفى وجدانهم كأنه ما مضى. وقد يتجسم الخيال فى نفوسهم ويوشكون أن يصدقوه فما هى الا نظرة فى مرآة أو قومة متثاقلة يعوقها الكبر حتى يدركوا ما على أكتافهم من سنوات وتتبين لهم الحقيقة أوضح ما يكون الوضوح . ان السنين قد مرت ولم يكن مرورها بوهدان وزوجته عبثا فقد أنجبا سباعى وخليل وفاطمة وعابدة .

وكان وهدان طوال هذه السنوات خير فلاح فى القرية وربما كان خير فلاح فى المنطقة فاستطاع أن يشترى أربعين فدانا كاملة . فقد كان حريصا أن يشترى فى كل عام أرضا بما يفيض من ماله

فلا ينكسر عنده مال الى عام قادم مرتئيا أن مستقباله ومستقبل أولاده جميعا هو هذه الأرض • ولكن عشرة أفدنة من هذه الأربعين لها قصة انت بالغها •

ومع كل هذه الأرض التى اشتراها لم يعرف أحد عنه بخلا ولا هو قصر فى الأنفاق على بنيه ولا هو كان شحيحا مع زوجه فما طلبت منه مطلبا الا كانت اجابة هـذا المطلب هى أول شىء يسارع اليه • لم ينس أنها قبلته بذراع واحدة على غير غنى فما كان أبوه يملك غير أربعة أفدنة استطاع أن يصـل بها الى خمسة قبل موته وبالجهد الذى بذله وهدان فما كان أبوه ذا همـة وما كان يعنيه أن تزيد أرضـه بقدر ما كان يعنيه ان يجلس الى عبد الحميد أبو ديدة الخياط •

ولم يحاول وهدان وهو يجمع هـذه الأرض أن يكون جشعا يهتبل الفرص ويشترى ممن تلم بهم الضـوائق أو تعترض حياتهم الكوارث ولم ينس أهل (الصالحة) قريتهم أن سليمان النواوى الذى يملك ستة افدنة من أجود أراضى القرية جمعها من تجـارة القطن التى كان بارعا فيها كل البراعة ضارب يوما فى البورصة فاذا هو مدين دينا كبيرا وان كان لا يستغرق الأرض • وقصد عبد الحميد أبو ديدة الى وهدان وأوعز اليه أن يشترى أرض سليمان فى هـذه الفرصـة ويفوز بها واذا بوهدان ينتفض عن انسان يعف أن يكون أخوه فريسته :

ـ أترضى لى هذا يا عم عبد الحميد ؟ ••

ـ وماذا فيها يا وهدان يا بنى ••• هو معذور ••• ولابد ان يسدد الدين وجميع أصدقائه فى التجارة مضروبون معه ولا طريق له الا بيع الأرض فلماذا لا تشتريها أنت ؟ ••

ـ قسما بأهل بيتى جميعا لو كان سليمان هـذا يهوديا لا أعرفه ولا يعرفنى ولا نحن أبناء بلدة واحدة ما فعلتها فكيف وهو ابن قريتنا

نشأنا نراه ويرانا وتتزاور زوجته وزوجتي ويلعب أطفالي مع أطفاله .. صل على النبي يا عم عبد الحميد .

ــ عليه الصلاة والسلام يا وهدان يا ابني ولكن أليس هذا الذي تذكره سببا أن تنقذه من أزمته .

ــ أيكون ما تشير به انقاذا أم اجهازا عليه ؟

ــ على الأقل ستكون أنت رحيما معه في الشراء وتدفع له ثمن الأرض دون أن تخسف بها سابع أرض كما يعرض عليه حمدان أبو اسماعيل .

ــ ولا هذا ..

ــ اذن فقد أضعت الرجل وأنت تحاول أن تنقذه .

ــ وما كنت لأفعل هذا أيضا .

ــ فماذا أنت فاعل ؟ ..

ــ قم معي وسترى ..

وحين استقر بهم المجلس عند سليمان قال سليمان دون ريث من التفكير :

ــ الحمد لله انك جئت يا وهدان ..

ــ تحت أمرك يا سليمان ..

ــ والله لا يشترى الأرض الا أنت .. لقد خسف حمدان ثمنها الى العشر وأنا مضطر للبيع ولكنني رفضت أن أبيعها له من شدة غيظي منه أما أنت فأبيعك اياها بالثمن الذي عرضه وأكون سعيدا .

ــ صل على النبي يا أبو داود ..

ــ عليه الصلاة والسلام .. أتريد أن تنزل بهـا عن ذلك أيضا ؟ ..

ــ صل على النبى « أمال » .. خذ هذه الفلوس ..

ــ ما هذه .. ألا تنفق الأول ؟ ..

ــ ولا تنفق ولا يحزنون خذ وصل على النبى .

ــ بكم تريد الفدان ؟ ..

ــ لا أريده مطلقا .. لا أريده حتى ولو بعته لى بلا ثمن .

ــ فما هذه الفلوس ؟ ..

ــ دينك .. اذهب فسدده ..

ــ ماذا تقصد يا وهدان ؟ ..

ــ ماذا جرى يا سليمان ، أكلاب مسعورة نحن حتى تتشمم الضوائق تحيط بناسنا فنجعل منها فرصـا لنا .. لا يا سليمان .. لا عشنا ان كنا نفعل ذلك .. سدد دينك والتجارة يوم فى العالى ويوم فى الواطى وان خانك السوق مرة فمصيره أن يكرمك فى المرة القادمة ..

ــ أما سبحان الله .. ولكننا لسنا أصدقاء ..

ــ معارف .. وأولاد بلد واحدة ووشـنا فى وش بعضنا البعض العمر كله .. وأنـا كنت سأشترى بضعة أفدنة هـذا العام بهـذا المـال الفائض عندى فماذا يجرى اذا أجلنا الشراء الى العام القادم ..

وصاح سليمان من الفرحة وكأنه يرى سحرا لا يصنعه أحد من أبناء الأرض ..

ــ أهذا معقول ؟ ..

ـ غير هـذا هو الذى لا يعقل .. توكل على الله .. سـلام عليـكم ..

ـ انتظر أكتب لك ورقة ..

ـ ولا ورقة ولا يحزنون ..

ـ لا .. هذا ليس من حقك ..

ـ انه مالي وأنـا حر فيه ..

ـ أطال الله عمرك ولكنه ليس مالك انه مال اولادك وأنت أمين عليـه ..

ـ لا مسئولية على أمام أولادى .. لقد ورثت عن جدهم خمسة أفدنة ولو كنت بعتهـا لكان هـذا من حقى ولكنى لم أبعها وزدت عليهـا ..

ـ اسمع من غير كثرة كلام . تأخذ الورقة أو تأخذ الفلوس ؟

ـ هات الورقة ..

وهكذا لم يكن وهدان فى شرائه الأرض مسعورا ولا كان نهازة فرص . ومادمنا قـد روينا قصته مع سـليمان فمن حق القصـة أن نكملها . فقد سدد سليمان دينه وعمل فى التجارة وكسب فى العـام التالى كسبا يمكنه من سداد دين وهدان ولكنه لم يفعل وانما قصـد الى وهـدان ..

ـ لقد عملت فى معروفا مازالت الجهة تتحاكى به .

ـ يتهيأ لك ..

ـ اسمع .. أنـا كسبت هذا العام ولكننى مع ذلك لا أستطيع أن أرد اليك دينك ومن عمل معروفا فعليـه أن يتمه فهـل أنت على استعداد أن تتم معروفك ؟ ..

ـ أتمه ان شاء الله ..

ـ تترك فلوسك للعام القادم ..

ـ أمرك ..

وانصرف وهدان ودار العام فى غمضة عين وان كانت أيامه كانت تمر ثقيلة أثقل من الأيـام العادية فقد كان سباعى كلما خلا بأبيـه يقول له :

ـ لو كنت يا أبا اشتريت أرض سليمان لكان محصولها يكفى لشراء نصفها على الأقل هذا العام .

ويصيح الأب فى حزم آباء هذا الزمن :

ـ اخرس يا ولد ..

ويضطر الولد أن يخرس ثم ما يلبث أن يكرر جملته تلك كلما امتد حديث الى محصول أو أرض أو شراء أو بيع ..

وكان الأب يحس حسرة ان ابنه يلومه ولم تكن الحسرة مليده اللوم وانما كان باعثها أن ابنه سباعى على غير خاقه وانه لا يعرف معنى ألا ينتهز انسان نسائقة انسان أخيه ولا يعف عند مقدرة ولا يتعالى عن خلق الذئاب .

وكانت نبوية تهون عليه ما يتداوله من ألم لمـا جبل عليه ابنـه البكر . فكان يقول لنبوية :

ـ أخاف عليكم منه بعدى يا نبوية ..

ـ لا عشنا بعدك يا وهدان .. لا عشنا بعدك ..

ـ انه بلا قلب ..

ـ ابنك لايمكن أن يكون بلا قلب ..

ـ أتصدقين أن الأبناء يرثون أخلاق آبائهم فيما يرثون هيهات ليست الأصلاب ولا الأرحام أمينة دائما .. والذى لا يقدر ما صنعته مع سليمان شخص يخشى منه يا نبوية ..

ـ اسمع يا وهــدان علينا أن نحمل همهم ونحن أحياء أما من بعدنا فعلى كل منهم أن يحمل هم نفسه ..

مر العام اذن وكان أثقل الأيام مرورا ثم جاء سليمان الى وهدان وكان ولداه جالسين معه ..

ـ السلام عليكم ..

ـ وعليكم السلام ..

ـ كل عام وأنت بخير ..

ـ وكل عام وأنت بخير يا سليمان ..

ـ قم يا عم هات الورقة التى عندك ..

ـ أمرك ..

وعاد وهدان بالورقة وأعطاها لسليمان ..

ـ خذ يا عم .. ربنا يزيدك ..

ـ وانت خذ هذه ..

ـ مــاذا ؟ ..

ـ لقد تعلمنا القراءة معا فى الكتاب اقرأ ..

وقرأ وهــدان فوجد بالورقة عقد شراء باســمه لعشرة أفدنــة ملاصقة لأرضه : وانتفض فى جلسته ..

ـ وهل أنــا مراب يا سليمان ؟ ..

ـ اهدأ واسمع ..

ـ هــدأت ..

ـ فلوسك كانت جاهزة معى من السنة الماضية ولكننى أحببت ان أرد جميلك قلت أتاجر لك بها فان كسبت فالمكسب لك وان خسرت أردها اليك دون ان تعلم : وقد كسبت وجاءنى جارك نجيب الجلدلة يريد أن يبيع أرضــه لأن ابنه الذى أصبح مهندسا يريد أن يبنى بها عمارة فى مصر .. وانظر الى الثمن تجده عادلا لا ظلم فيه .. استخرت الله واشتريت الأرض باسمك .

وانتصب سباعى واقفـا وأهوى على يد سليمان يريد أن يقبلها وألمت بوهدان غصة أوشكت أن تضيع عليه فرحته بما صنع صديقه .. ما سباعى هذا .. لا عفة عند مقدرة ولا كرامة عند فرحة .. حسبى الله ونعم الوكيل ..

حسبى الله ونعم الوكيل ..

***

٤

فى هـذه السـنوات البلهاء من حياة مصر كان ينبت فى بعض المناطق مجرم يثير الذعر حوله ينتمى هذا المجرم الى وجيه من وجهـاء المنطقة بعقد شيطانى غير مكتوب أن يحمى الوجيه المجرم من الحكومة ويحمى المجرم أمـلاك الوجيـه من المجرمين الآخرين .. وشأن كل العقود الشيطانية يتجـاوز مفعول العقد حدوده ويتستر الوجيه على المجرم تسترا لو حاسـبه عليه قانون العقوبات لأصـدر عليه أحكاما قاسية .. وفى مقابل ذلك يصبح المجرم أداة بطش وعدوان للوجيـه يخيف به كل المقيمين حوله مجرمين كانوا أو غير مجرمين . وما هو الا يسير زمن حتى تصبح أعمال الوجيه بواسطة مجرمه كلها اعتداء على حقوق الآخرين لأن سمعته وحدها كافية أن تذود عنه أى مجرم يفكر أن يمس حقوقه . ويصبح الريف غابة ، السيادة فيها لمن لا ضمير له وهـذا نوع من الغابات فريد . فغابة الحيوان غابة تجمع مخلوقات بغير عقول ومن لا عقل له لا ضمير له فمن الطبيعى أن يكون الحكم فيها للأقوى ومن الطبيعى أيضـا أن تكون الوحشية هى الدسـتور فبغيرها لن تطعم الحيوانات ولن تجد مأكلها وهـذا فى ذاته سبب كاف أن تستعمل قوتها لتعيش .

أما غاية الانسان فهي بعيدة عن ذلك كل البعد فاذا كان الحيوان قد حرمه الله حق الاختيار فانه سبحانه قد فرض على الانسان هـذا الحق بما وهبه من نعمة العقل ومن نعمة الرحمـة ومن نعمة المشاعر الرقيقة . وكان طبيعيا مادام العدل المطلق قد وهب الانسـان كل هذه الحقوق أن يفرض عليه واجب الامانة التي عرضها على السماوات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان .. وهو سبحانه حين حمله هـذه الأمانة الثقيلة فرضها عليه حين اختـار هو أن يقبلها فحين خلق الله آدم نبه اليه الا يمس شجرة من الجنة .. وما شجرة في جنة عرضها السماوات والأرض .. فحين عصى ادم ربه اختار اذن أن يحمل الأمانة .. ان الانسان كان ظلوما وهكذا ظل .

قليـل من وجهـاء الريف من كان يضـع تحت حمايته مجرما أو عددا من المجرمين ففي كل منطقة قد نجد واحدا من هؤلاء الوجهاء غير الوجهاء في الدنيا أو في الآخرة وغالبا ما تكون المناطق نقيـة منهم كل النقاء تسمع عنهم في الجهات المجاورة ولكنها لا تعرفهم ولا تشتهي أن تعرفهم . بل ان الجميع يدعو الله أن يبعدهم عنهم ويعمي عيونهم عن بلادهم وأملاكهم وأرواحهم . فهم يعرفون عنهم كل شيء معرفة يقين . ويعرفون أنهم متوحشون يستأجرهم سادتهم لقتل من يجرؤ أن يناقشهم في أمر أو يتوانى في تنفيذ اشارة اصبع تصـدر عن ذلك الوجيه غير الوجيه .

وكانت بلدة الصالحة متطهرة من هـذا الوباء وكانت كل صلتهم به ما يسمعونه عن أبو سريع الفرحان ذلك المجرم الدموي الذي يأوي بعصابتـه الى ظل عز الدين بك الخولي عضـو مجـلس النواب عن الدائرة التي تتبعها الصالحة . وكانت الصالحة ترد عن نفسها العدوان بأن تعطي أصـواتها لعز الدين متظاهرة بالطواعية حتى لا يكون هناك أي مبرر أن يقترب منها أبو سريع . والبلدة لم تكن متحمسة لمرشح

آخر فهى لا تجد بأسا أن تنتخب حامى المجرمين هـذا مرتئية أن فيما تفعله كياسة لا تضيرها •

وفى يوم كان وهـدان جالسا الى أسرته جميعا أما الأم فقد كانت تصلى وكان وهدان يقرأ القرآن وكانت فاطمة تقرأ فى كتاب اشتراه لها أخوها خليـل وعابدة تنظر الى الجميع وترى فى وجوههم القلق الشديد الذى يحـاول كل منهم أن يخفيه بشتى وسائل حتى لايثير بقلقه قلق الآخرين • ولم يكن عجيبا أن يتولاهم هـذا القلق • فخليل هو أملهم أن يصبح لهم شأن فى حياة العلم بعد أن ترك سباعى المدرسة وهو طفل فى العاشرة فلم يتعلم منهـا الا قراءة وكتابة توشـك أن تكون عاجزة • أما خليل فقد مضى فى التعليم مضيا موفقا وكان متقدما فى دراسته دائما • وهم اليوم ينتظرون نتيجة التوجيهية التى حملت اسمها هـذا لأنها تعطى لحائزها الحق أن يتوجه فى التعليم الجامعى الى الكلية التى يختارها فهى نهاية التعليم العـام أو هى بلغة وزارة المعارف نهاية التعليم الثانوى •

كان الأب والأم والابنتان جميعا فى هذا القلق الذى تشعر به عابدة وتراه على وجوههم • وكان سـباعى كشأنه بعيدا عن قـلق الأسرة وعن اجتماعهـا هـذا بل هو حتى لم يكن يدرى أن نتيجـة شهادة التوجيهية ستظهر فى هذا اليوم فهو دائما فى شأن يظن أنه يغنيه وهو دائما بعيد عن أسرته ومشاعرها بما يشغل به نفسه من شـواغل منها الأرض والمحصول ومنها غير ذلك •

كان فى يومه هـذا يلبى دعوة على الغداء دعاه اليها شـعبان الخولى بن عز الدين الخـولى الذى تعرف به منـذ قريب فى مقهى بالمركز • وأراد شعبان أن يظهر ابن وهـدان على القصر الذى ابتناه أبوه بقريتهم العدوة وأراد أيضا أن تصل بينه وبين ابن الرجل الذى يعتبر أغنى من فى الصالحة آصرة صداقة فقد كان شعبان أيضـا ممن

تكتصوا عن التعليم شأن سباعى • وكما يلتقى الفلاح بالفلاح فيتناجيان ويتعارفان ويجدان شيئا دائما يقولانه يلتقى الغريبان فيتناجيان ويتعارفان ويجدان شيئا يقولانه فيصبحان صديقين • والآن لابد لنا ان نكون منصفين فان يكن شعبان وسباعى قد فشلا فى المضى قدما على درج التعليم فقد كان كل منهما فلاحا من الطبقة الأولى يعرف ما تحتاجه الأرض ويقدمه لها فى كرم ومهارة وحذق واثقين أن الأرض خير شىء يرد ما يأخذ أضعافا مضاعفة • وقد كان وهدان يجد فى قدرة سباعى الفائقة على رعاية شئون الأرض ما يعزيه عما جبل عليه من خلق لا يرضيه • ولكنه شأن الناس أجمعين كان يتلمس لطف الله فيما يصاب به وقد وجد لطفه سبحانه فى براعة سباعى الزراعية وراح يقول لنفسه ربما أراد سبحانه أن يجعل منه حارسا على الأرض يرعاها من بعدى لأخوته عنى • وان كانت غصة تلوى عزاءه بعض الشىء •• أتراه سيحرسها أم سينهشها • الله وحده يتولى عباده بما يرضاه •

كان سباعى اذن يلبى دعوة شعبان وقبل ان يأتى الغداء جلس الضيفان فى غرفة الاستقبال الواسعة الأرجاء وقال سباعى :

ــ ما سمعنا عن سعادة البك والدك ولا عن سعادتك الا كل كرم •

ــ أرأيت بخلا ؟

ــ نعم رأيت

ــ ولكن الأكل لم يظهر بعد

ــ قطعة جبن تنبىء عن الكرم فى كثير من الأحيان •

ــ فماذا تقصد ؟

ــ أتتغدى وحدنا ؟ !

ـ آه .. أنــا أردت ألا يشاركنا أحد الحديث .

ـ وهل يحلو الحديث الا باللمة .

ـ ومن تريد .

ـ أين أبو سريع .

ـ والله هو هنا اليوم .

ـ فلماذا لم تدعه معنا .

ـ أدعه ان بيته قريب .

ـ لابد أن يكون بيته قريبا .

وضحك شعبان وقال سباعى :

ـ ادعه يا شعبان بك وادع رجاله واللقمة الهنية تكفى مية .

وجاء أبو سريع وعرف أن الذى دعاه هو سباعى وحمد هــذا له فما كان يتناول طعامه على مائدة عز الدين بك الا عندما يكون هناك أمر جليل يريد أن يكلفه به أما شعبان فما كان يهتم بدعوته مكتفيــا بأن يعطيه من حين لآخر بعض المــال .

***

حين عاد سباعى الى البيت وجد الكثيرين أمام بابه ووجد الدوار مبتسما فرحا . وعجب .. انه هو فرحان نعم أن تغدى مع شــعبان وأبو سريع ورجال أبو سريع ولكن ما هــذا الفرح فى بيتهم . وعرف أن أخاه حصــل على التوجيهية والعجيب أو ربما ليس عجيبا أن يشعر بالفرح . فخليل بهذا قد أصبح من أهل الكتب وليس لهؤلاء صبر على الفلاحة . لقد تأكد فى لحظــة علمه ان أخاه ذاهب الى الجامعة والى كلية الطب .. ان أرض أبيه أصبحت له وحده من بعده .

وعجب الأب من فرحة سباعى وربما خامر ذهنه ما آختلط بنفس سباعى فقد علمته الحياة أن يصـــل من النفوس الى أبعد أعماقهـــا • ولكنه بمشاعر الأب الذى يمتزج حب الأبناء مع الدماء فيها نفى ان يبلغ الجشع بأبنه البكر هـــذا المدى •• وأبى الا أن يسعد فى يومه هذا سعادة لا يقف بها عارض من أى مكان ســـواء كان هذا العارض من داخل النفوس أو من خارجها •

***

٥

حين عرف وهدان من سباعى أنه دعا شعبان وأبو سريع ومجرميه الى الغداء بالبيت غضب كل الغضب •

ـ هذا بيت عاش طاهرا وأحب أن يظل طاهرا •

وكان سباعى فى دهشة من أمر أبيه فقد كان يظن انه سيفرح غاية الفرح ان ابن عز الدين بك قبل الغداء عنده •

ـ يا أبـا أنه ابن عز الدين بك •

وازداد ذهول سباعى وأبوه يقول له :

ـ طظ ••• وما عز الدين بك بتاعك هذا ••

ـ يا أبا عز الدين بك كبير الناحية •

ـ بالاجرام والقتل والاعتداء على حرمات الله والناس •

ـ رجل عتره •

ـ عند من لا يخافون الله أمثالك • انما فى الحقيقة هو ليس رجلا أصلا ••

ــ ليس رجــلا ••

ــ الرجل هو الذى يشق الحياة الى الآخرة بطاعة الله لا بعصيانه وباحياء البشر لا بقتلهم ومن قتل انسانا واحدا فهو عند الله كمن قتل الناس جميعا •

ــ انظر يا أبى الى الثروة التى كونها •

ــ بسيطة

ــ مائتا فدان من لا شىء بسيطة

ــ وألف وألفان بسيطة ما دامت وسيلته القاء الذعر فى قلوب الناس والاستيلاء على حقوقهم بالباطل •

ــ على كل حال يا أبا أنــا لم ادعه •

ــ دعوت ابنه ودعوت المجرمين الذين يعملون لحسابه

ــ أريد أن يكون لنا قيمة فى البلدة وفى الناحية

ــ فشرت أنت وضيوفك جميعا •• ان قيمتنا فى قلوب النــاس أعظم منهم ألف مرة

ــ يا أبا أنه نائب الدائرة

ــ بالرعب والقهر وليس بالاختيــار ، ولو ملك النــاس أمر أنفسهم دون خوف لأختاروا أى شخص يمثلهم فيكون تمثيله لهم شرفا وقيمة •• يختارون متعلما أو يختارون شريفا لا لصا ولا قاتلا •••

ــ فما احترام الناس هذا

ــ الا تعرفه وتعرف من أين يصدر من نفوسهم

ــ انهم يهابونه

ــ انهم يخافونه ، وانهم لا يحترمونه ، انما الاحترام هو ذلك الذى تنطوى عليه نفوسهم بحريتها المطلقة وليس بما يخشونه منه اذا هم حجبوا عنه احترامهم ، ان اخاك خليل محترم بعلمه فى بلدتنا أكثر من عز الدين هــذا الذى تتشرف بمعرفــة ابنه وبدعوته الى الغداء عندك ٠

ــ خليل أخى ، لا يا أبا شرع الله عند غيرك ٠

ــ بل هذا هو شرع الله والناس أما شرعك انت فشرع الشيطان المسعور من بنى آدم ٠

ــ والآن ماذا ترى ؟

ــ وهل تركت لى رأيا ٠٠ لقد دعوت فعلا ولا أحب أن اجعل منك طفلا أمام الناس ٠

ــ مصيبة سوداء لو عرف عز الدين بك رأيك فيه ٠

ــ أو يشرفك هــذا ٠٠ نعم فعلا مصيبة سوداء ٠٠ ومعرفتــه مصيبة سوداء أيضــا ولهذا كنت أرجو أن أقضى الأيام الباقيــة لى لا أعرفه ولا يعرفنى ٠

ــ الحق على يا أبــا ٠

ــ حين أموت أخــاف أن يكون عز الدين وأمثاله هم مثــلك الأعــلى ٠

وأوشك سباعى أن يهتف : ياليت ، ولكنه كتمها وسأل أباه :

ــ اتحضر معنا الغداء يا أبــا

ــ وأنــا ما شأنى

ــ انه بيتك

ـ بل بيتك مادمت دعوت فيه فأنت تعرف أنه بيتك وان لك هذا الحق لا انازعك فيه وانما أغضبنى اختيارك لمدعويك • ولكن الأمر لله •••

***

حين استقر المقام بشعبان ورجال أبيه فى الدوار أصبح الدوار فجأة خلية نحل وراح كل من يعمل فى البيت يعد العدة للغداء • وتسامع أهل القرية جميعا بهذه الدعوة فتولاهم نحو سباعى ذاك الشعور العجيب الذى يجمع بين الخوف والرهبة والاحترام المرتعد • ولم يحاولوا أن يضعوا الحدود الفاصلة بين هذا النوع من الاحترام وبين ما يكنونه لوهدان من احترام فيه حب وفيه تقارب ومودة •• لقد تعودوا أن يكتموا ما يعتمل فى نفوسهم نحو عز الدين ومجرميه . وأصبحت هذه العادة منهم طبيعة لا تناقش ولا يحلل مداها انسان ولا يحاول أحد أن يتتبع جذورها • هم فقط أحسوا أن سباعى أصبح شخصا مهما لانه دعا ابن عز الدين وأبو سريع ورجال أبو سريع وقبلوا الدعوة •

تناولوا الغداء وضمتهم حجرة الاستقبال فى الدوار مرة أخرى وقد كان الدوار شأن أمثاله فى بيوت الأعيان بعيدا عن الدار موصولا بها فى وقت معا • فهو جلسة الرجال وليس له بحرم البيت وحريمه صلة الا أن يأتيهم منه المطعم والمشرب ثم لا اتصال •

قال شعبان وقد اتنفش على الكنبة مزهوا بمكانة أبيه :

ـ مبسوط يا سباعى •

ـ رضا والحمد لله •

ـ الحمد لله على كل حال ولكن لماذا الرضا •

ـ يا سلام أتكون مشرفا عندى أنت وهؤلاء الرجال السباع ولا يكون الحال رضا ••

وضحك الجميع .

وقال أبو سريع معلقا على السباع :

ـ يا سباعى .

وعلا الضحك مرة أخرى . أما رجال أبو سريع فلأنهم لابد لهم أن يضحكوا مادام أبو سريع يضحك . وأما شعبان وسباعى فليفهما أبو سريع أنهما فطنا الى قفشته وتلاعبه بالسباع وسباعى وسرعة خاطره أيضا . ولكن شعبان يقول مواصلا حديثه :

ـ يا حبيبى أنا أسألك هل أنت مبسوط فى حياتك ؟

ـ وهى أيضا رضا والحمد لله .

ـ لماذا .

ـ وماذا أريد أحسن من هذا آكل شارب نايم آشوف أرض أبى واتنج منها أحسن محصول ماذا أريد أحسن من هذا ؟

ـ وهل هذه عيشة ؟

ـ وما العيشة ؟

ـ تعال معى الى مصر وأنا أعرفك العيشة على حقيقتها .

ـ يا سلام !

ـ رحت مصر ؟

ـ طبعا .

ـ أين ذهبت ؟

ـ زرت المشايخ وزرت أقاربنا هناك وأصدقاءنا ودخلت السينما ورحت الى المسارح وشفت كل حاجة فى مصر .

ـ دخلت كباريه ؟

ـ كبا ... وماذا ؟ .

ـ كباريه

ـ آه .. لا .. سمعت عنه فقط .

ـ سمعت عن ماذا ؟

ـ يقولون عن الأوبرج وشيء آخر اسمه الأريزونا .

ـ يقولون

ـ سمعت

ـ ولم تر ؟ !

ـ الكذب خيبة .. لا لم أر

ـ فانت لم تر مصر

ـ أهذه هى مصر

ـ عندى أنـا .. أنـا يا بنى حين اذهب الى مصر لا شأن لى لا بأقارب ولا بغيره . كم صاحب أعرفهم أصل الى بيتنا هنـاك وأدور عليهم بالتليفون وعينك ما تشوف الا النور .

ـ وأين هذا النور

ـ فى الأوبرج

ـ أتذهب الى الأوبرج

ـ ولا أحب غيره .. جربت كل كباريهـات مصر . لم يمـلأ عينى الا الأوبرج . الملك يذهب الى هناك .

ـ شـفته ؟

ـ مرة

ـ واحدة ؟

ـ كفاية

ـ ما شكله

ـ سمين وضخم •• انما الحق له هيبة

ـ ملك •• ملك يا عم ملك •• المأمور عندنا يهز المديرية
شف ملك ماذا يفعل

ـ ليس هذا هو المهم

ـ الملك ليس مهما !!

ـ هناك ليس مهما بالمرة ، المهم أشياء أخرى

ـ مثل ماذا

ـ اسمع يا عم أنا رجل أحب العمل ولا أحب الكلام

ـ ولكننا الآن لا نملك الا الكلام

ـ فشر ونملك العمل أيضا

ـ كيف

ـ أنا مسافر الخميس القادم •• تجىء معى ؟

ـ أجىء

ـ صحيح ؟ !

ـ وهل القى فرصة أحسن من هذه

ـ اتفقنا

ـ اتفقنا

***

حوت غرفــة الاستقبال فى المساء قوما آخرين فقد تصــدرها وهدان كشأنه كل ليلة والتأم حوله أصدقاء جلسته يكادون لا يتغيرون فى ليلة عن الأخرى فأغلبهم تعود هــذه الجلسة والحديث بينهم متصل منذ سنوات وفى أيام أم كلثوم يعدون العدة لسماعها فى راديو وهدان وقد كان الاســتماع الى الراديو لمدة طويلة يحتــاج أن يذهب أحدهم بحمــاره الى المركز فى اليوم السابق ليملأ البطــارية الضخمــة فهى بطارية سيارة ويعود بها فى اليوم التالى ، ولم تكن أم كلثوم تغنى فى هذه الليلة وانما هو الحديث .. حديث فى كل شىء . وأحيانا كان يلم بالجلسة أصدقاء غير منتظمين اما أن يكونوا أصحاب مصلحــة يريدون قضاءها مع وهــدان أو مع أحد جلسائه أو يكون قدومهم لمجرد السمر والحديث . وفى هــذه الليلة جاء الى الجلسة عبد الحميد أبو ديدة الذى توقف عن العمل كخياط للقرية تاركا الصنعة لابنه بعد أن أوهنه الكبر . وأصبح لا يخرج من البيت الا فى القليل النادر وكانت تنعقد فى بيته هو أيضا جلسة مثل جلسة وهــدان هذه . فلم يكن غريبــا أن يكون المــامه بدوار وهدان نادرا وقد أوسعه وهــدان ترحيبا . وقد حرص سباعى أن يحضر الجلسة ليرى نفسه موضــع الاكبار والتقدير بعد دعوة الغداء التى عرفت القرية جميعا بشأنها . وما هــذا بعجيب فان أى دعوة فى القرية هى حديث القرية جميعا . ولكن مجىء شعبان ورجاله أمر يعرف سباعى أنه هز القرية كلها من الأعماق . وتهيأ سباعى لسماع كلمات التقدير على دعوته تلك . وقد رأى فعلا نظرات الاحترام ماثلة فى أعين معظم أهل الندوة وحين بدأ الحديث بدأ بطبيعة الحال عن مجىء شعبان وأبو سريع فاذا وهــدان يقول فى هدوء وفى حسم :

ــ اذا تكلمتم فى شأن هذه الدعوة فاسمحوا لى أن أنصرف .

وانقمع الحديث عنها تماما وأحس سباعى لذعة أسف أنه لم يتمتع بما كان يهفو الى التمتع به . والتوى الكــلام الى غير هــذا

مما تعودوا أن يأخذوا فيه • وما هي الا بعض الساعة حتى استأذن عبد الحميد أبو ديدة وقال وهدان :

ــ لماذا يا عم عبد الحميد • لم نشبع منك يا رجل

ــ عمك كبر يا وهدان ••• أنا حتى فى دارى اترك ضيوفى كل ليلة يكملون حديثهم وأقوم أنا ويعذروننى يا ابنى •• كبرنا يا وهدان •

ــ أنت الخير والبركة • أوصل عمك عبد الحميد الى بيته يا سباعى •

ويقول عبد الحميد فى صوت من يرغب فى هذا التكريم الذى تعود عليه والذى جاء فى هذه المرة آملا أن يحدث •

ــ وما لزوم التعب

ــ تعبك راحة يا عم عبد الحميد

ــ ويصيح سباعى راجيا أن يسمع من عبد الحميد ما فوته أبوه عليه من تكريم •

ــ تحت أمرك يا عم عبد الحميد •

وما يكاد الطريق يخلو بالاثنين حتى يقول عبد الحميد :

ــ لقد جئت اليوم خصيصا من أجل خلوتنا هذه •

ــ خيرا يا عم عبد الحميد

ــ أنت دعوت اليوم شعبان

ــ حصل

ــ أخطب أخته

ــ ماذا ؟ !

ـ ما سمعت

ـ وهل هذا معقول يا عم عبد الحميد . بنت البك تقبلنى أنـا !

ـ وأنت ما عيبك ؟ !

ـ على الأقل يقولون لم يتعلم

ـ وهل تعلم أبوها أو أخوها أو تعلمت هى انما هما كلمتـان عرفت بهما كيف تفك الخط

ـ أنـا والحمد لله مستور فى القرية ولكن بالنسبة لعز الدين بك أنـا فقير

ـ ولا فقير ولا حاجة

ـ كيف .. وأين ما أملك مما يملكون . وايجاراته من الأوقاف وحدها تدر عليه دخلا قدر دخلنا مائة مرة أو قل مائتين

ـ اسمع ما أقول لك .. أخطب أخته

ـ ان رفضونى ستكون سبه

ـ لن يرفضـوك

ـ وأنت كيف عرفت

ـ هـذا شأنى

ـ فقط قل من أين عرفت

ـ من سنى الكبيرة .. من الزمن .. من الناس الذين عرفتهم .. اسمع كلامى يا ولد .. أنـا فى مكان جدك ومن سنه أيضا .

ـ اذا تمت هـذه الزيجة يا عم عبد الحميـد لا أدرى كيف أكافئك .

ـ أنت يا ولد تكافئنى .. أنت يا ولد ابن وهدان وأبو وهدان عاش عمره كله على باب دكانى ، أتظن أننى جئت اليك لكى تكافئنى وماذا أصنع بمكافأتك هـل سآخذها معى الى الآخرة . ان أردت أن تكافئنى حقا فانى أوصيك بابنى حسن فهو قليل الحيلة وأنـا لم أترك الا ثلاثة أفدنة دفعت فيها عينى وانكفائى على ماكينة الخياطة عشرات السـنين .

ـ ربنا يطيل عمرك يا عم عبد الحميد وحسن فى عينى الاثنين .

ـ يكفينى هذا . ارجع أنت . سلام عليكم .

***



لا يكون الحلم الا من تجــارب الانســان ومن ســابق خبرته فالأحــلام على هذائهــا وبعدها عن العقل تخاطب النــاس على قدر خبراتهم • هى قد تخلط هــذه الخبرة وتقلب موازينها وتجعل أعاليها أسافلها وأسافلها أعاليها انما تظل بالنسبة للانسان الذى تعرض له فى حدود ما عرف من واقع الحياة ، ولذلك يستطيع المرء غالبا أن يعبر عنها ويروى ما عرض له فى أحلامه اذا كان منتظما أو يعزوه الى خرف النوم أو فقد انتظامه وتتابعه •

اما هــذا الذى يراه سباعى فلم يخطر له على حلم أبدا وما تصور أن تضم جنبات الحياة شيئا مثل هــذا الذى يشاهده من راقصــات الأوبرج • عرايا صــدورهن أو عرايا جســومهن جميعا الا موقعــا أو موقعين الغطاء فيهما أخبث من العرى وما أن أفاق هونا من ذهوله حتى التفت الى شعبان :

ـ أهؤلاء نسوان

وانفجر شعبان فى قهقهة عالية ليست غريبــة ممن يحويهم هــذا المكان وقــال :

ـ طبعاً نسوانى

وظل سباعى فى بهره وهو يقول :

ـ مثل نسوان البلد عندنا

واستمرت القهقهة يختطف من شهيقها الاجابة

ـ ماذا ترى أنت ؟

ويقول سباعى فى جدية حاسمة لا أثر فيها لمزاح :

ـ النسوان عندنا خفراء

ويقول شعبان بعد أن هدأت ضحكاته :

ـ لعلك لم تراهن الا فى مواطن الجد

ويقول سباعى فى جديته لايزال :

ـ رأيتهن فى كل المواطن .. خفراء .. خفراء فى أكثر المواطن خلاعـــة

ـ لعلك لم تحسن الاختيار

ـ وهل هى واحدة .. انهن كثيرات عرفتهن .. وكلهن خفراء

ـ فما رأيك أنك لم تر شيئا بعد

ـ ما أرى يكفى .. يا رجل أنـــا أتعجب من نفسى كيف لم يغم على

ـ لا .. اجمد .. الليل مازال طويلا أمامنا ..

ـ وماذا سنعمل فيه أكثر من هذا

ـ هــذا شأنى

ــ أنــا تحت أمرك •• عبدك وبين يديك

ــ أولا تشرب هذا الكأس

وما له أشربه •• هه باسم الله الشافى العافى

وهم أن يقلب الكأس جميعه فى فمه مرة واحدة ولكن شعبان أسرع فأمسك بيده

ــ لا •• انتظر •• ليس هكذا

ــ فكيف اذن

ــ رشفة رشفة •• اريد أن تنقلب سنا فى الأوبرج

ــ أمرك

ــ حين ينتهى الكأس أو الكأسان •• وليس أكثر سترى ما لم تره حتى الآن ••

وانتهى سباعى من شرب الكأسين فى بطء الجــاهل الذى لا خبرة له وبدأت المناظر التى يراها تصــل الى أعمــاق كيانه وتصــاعدت الحميا الى مكامن الشعور فيه فاذا هو يعيش حيــاة غير الحياة حتى ليحسب انه لم يولد الا فى هــذه اللحظة وحين ادرك شعبان ما صار اليه حال صديقه سأله :

ــ وما رأيك اذا قلت لك انك ستقضى الليــلة مع واحــدة من أولئك الراقصات •

وفى وقار متمتع سأله :

ــ وماذا اصنع معها ؟

وحينئذ انفجر شعبان مرة أخرى فى قهقهة عالية وراح يقف ثم يقعد والقهقهــة على حالها حتى اذا استطاع أن يلتقط أنفاسه قــال لســباعى :

ـ كان يوم هنا يوم عرفتك •

أما أصحاب شعبان فكانا اثنين وقد اتخذ كلاهما موقف الشاهد سعيدين غاية السعادة بهذا المخلوق الجديد على المكان والجديد على هذه الحياة جميعا ولكنه عندما سأل شعبان سؤاله الأخير هذا كانا أشد سخبا من شعبان وسأله أحدهما وكان شعبان يدعوه كريم :

ـ ألم تقل انك عرفت نسوان كثيرات فى البلد ••

وفى نفس النغمة الوقور المتعتعة قال سباعى :

ـ ياسى كريم أفندى اسم الله على مقامك النسوان اللواتى عرفتهن شيء والنسوة هنا شيء آخر بالمرة لم يرد صنفه على مطلقا ولم يخطر لى على بال أن فى العالم نسوانا بهذا الشكل •• بالتأكيد هؤلاء صنف آخر من الناس لا أعرفه أنا ولا أبى •

وتتم الليلة كما ينبغى أن تتم مثل هذه الليالى ويحس سباعى أنه بهده الليلة أصبح من طبقة أخرى غير طبقة أهله ولكن العجيب أن سباعى مع كل هذه المتعة التى شعر بها والتى أوغلت فى العميق من كيانه كان يدرك أن مثل هذه الليالى انما هى لهو يتمتع بها من يحبها ليلة كل شهر أو ليلتين ولكنها لا يمكن أن تكون حياة بأكملها كما كان يعتبرها شعبان • كان الأمر بين الاثنين مختلفا كل الاختلاف فقد كان شعبان لا يريد من الحياة الا هذه الحياة • وكان عمله فى الأرض عمل مرغم لا راغب مدركا أن أباه سينضب عليه موارد المال اذا هو لم يقم بواجبه كفلاح يعينه على زراعة الأرض الواسعة بما يستأجر من الاوقاف • أما سباعى فقد كان يرى فى الزراعة حياته ويرى فى مثل هذه الليلة لهوه •

كان من الطبيعى أن تتوطد العلاقة بين شعبان وسباعى وتكاثرت

الزيارات بينهما . وفى يوم حزم سباعى أمره بعد أن فكر وأطال التفكير وتدبر الأمر مع نفسه فأحكم التدبير وقصد الى شعبان فى بيت أبيه .

ـ أنا أحببتك حبا لا تدرى قدره

ـ هذه مقدمة لشىء تريد أن تقوله

ـ أى نعم

ـ قل

ـ أريد أن أكون قريبك وصاحبك

ـ فهمت

ـ وما رأيك

ـ لابد أن أتأكد من صحة فهمى أولا

ـ أنت تفهمها وهى طائرة

ـ يكون أحسن لو قلت

ـ أخطب اليك است أختك قدرية

ـ هل شفتها

ـ شفتك أنت

ـ على كل حال اسأل أبى

ـ طبعا

ـ ولكن لابد أن تشوفها

ـ ومن غير شوف

ـ لابد

ـ أمرك .. كيف ؟

ـ هذا أمر ميسور . والحقيقة أنــا أفضل أن تشوفها قبل أن أكلم أبى .

ـ كيف ؟

ـ حتى يتكلم أبوك بعد ذلك وتجرى الأمور فى طريقها الطبيعى

ـ ولكن معنى كلامك انك لا ترفضنى

ـ أنــا لا أملك الرفض أو القبول

ـ أعرف ذلك ولكن معنى ان تسمح لى برؤية الست أختك ان الأمر ليس بعيد الاحتمال .

وتنبه شعبان الى الموقف وسارع يقول :

ـ أنــا لا أستطيع أن أقول شيئا مطلقا . وأنا أسمح لك برؤية أختى لأنى اعتبرك أخا . وأحب اذا فاتحت أبى فى هذا الموضــوع أن أكون واثقا أنك جاد فيه . لأن التقدم منك ثم الرجوع مسألة قد تسيل فيها دماء .

ـ أنــا أعرف تماما وظيفة أبو سريع عندكم . ولا أحب أن أكون أنــا أو يكون أبى من بعض مهام وظيفته .

ـ اذن تراهــا

ـ ياليت .. متى ؟

ـ الآن

ـ كيف ؟

ـ اسمع .. اخرج من الباب الأمامى قدام الخدم ولف وعد لى من باب الشرفة ..

ـ أمرك ..

وخرج سباعى وعاد وفتح شعبان حجرة مجاورة وأدخله فيها :

ـ سأنادى قدرية وأنت تستطيع أن تراها من هنا وسأجعلها تقعد بحيث لا تراك فحين تراها وتسمعها روح الى بيتك من هـذا الباب الذى يخرج من الشرفة الى الحديقة الى الخارج .

ووجم سباعى قليلا وقال :

ـ وكيف سأقول لك أنى وافقت ؟ ..

ـ قلها بكرة .. لا أريد أن أعرف رأيك اليوم على كل حال .

ـ أمرك ..

ودخل سباعى الحجرة وأبقى شعبان بابهـا نصف مفتوح حتى اذا رأته قدرية حسبت أنه نصف مقفل وانه ترك هكذا عن اهمال لا عن عمد ..

ونادى شعبان من بهو البيت الأسفل :

ـ قدرية .. قدرية ..

ـ نعم يا شعبان فيه حاجة ؟ ..

وأطلت عليه من أعلى فقال :

ـ ماذا تصنعين ؟

ـ لاشىء .. أسمع الفونوغراف ..

ـ أنا زهقان .. لماذا لا تحضرين الكوتشينة وتجيئين نتسلى؟

ـ حاضر .. جاية ..

وجاءت ورآها سباعى وفهم كل شىء ..

***

هى النقيض الكامل للنســوة اللواتى خبلن عقله بجمــالهن فى الكباريه هى الطرف الآخر من جمــال الخليقــة .. اذا كان سبحانه قد خلق النســوة الجميــلات ليرى عباده بديع صنعه فهو سبحانه جلت قدرته قد خلقها ليعرف عباده شديد سخطه .. اذا كان هنــاك من لا يصــدق أنه سبحانه قادر على خلق الجنــة والجحيم فليضــع قدرية الى جانب أى جميلة من جميــلات أى مكان ســواء كان هذا المكان هو الأوبرج أو حتى قرية الصالحــة . وحينئذ ستتمثل له فى الفتاة الطبيعية الجنــة كل الجنة وفى قدريــة الجحيم غاية الجحيم . سبحانه انه على كل شىء قدير ..

لهذا قال له عبد الحميدة أبو ديدة أخطبهــا ولهذا لم يرفض شعبان فكرة زواجه بها رفضــا قاطعا من أول وهلة وان كان قد دهش من رد الفعل الذى استقبل به شعبان طلبــه . وان كان قد ذهــل لأن شعبان جعل الأمر قابلا الاتمام وان كان قد ازداد ذهوله حين وجده يسارع الى اتاحة الفرصــة له أن يرى أخته ، فان الدهشة والذهول الآن لا مكان لهما فهو بالنسبة الى الحالة التى رآها فرصــة لا نعوض لعز الدين بك .. فلاشك أن أباها وأمها وأخاها لم يكونوا يأملون أن تتزوج أكثر من عامل زراعة فى أملاكهم ويكون العامل مظلوما .

كيف استطاع فمها أن يكون بهذه السعة وكيف استطاع أنفها أن ينفرش لينال من وجنتيهــا ــ اذا كان لها وجنتان ــ كل هــذه المساحة .. وكيف استطاع هــذا الوجه المسحوب كعلامة تعجب أن يسع كل هــذا الفم وكل هذا الأنف .. وهى تغطى شعرها بمنديل ولكنه شعر متمرد صاخب يرفض المنديل ويقذف به الى أعلى ليجعل منه طرطور . وكل هــذا يهون اذا تركز البصر من الناظر على ذقنها انه مقذوف الى أعلى يوشك أن يغلق الفم وربما كان هذا هو السبب فى نحافتها المفرطة .. فلاشــك أن فمها يجد مشقة عاتية فى أن يلقف اللقمــات ..

لقد وعى سباعى قبح الفتـاة وعيا كاملا ولكن العجيب فى أمره أنه ازداد اصرارا على الزواج بها فقد أدرك لحظـة رآها أن الزواج بينهما متكافىء بل ان أسرتها هى الكاسبة فيه لأنهم لا يعرفون ما يفكر فيه هو .. الزواج متكافىء لاشك .. هى قبيحة كل القبح وهو فقير بعض الفقر .. فهو مقبل اذن على الزواج فى عزم واصرار ازدادا ولم ينقصا .. وهو فى اقباله هـذا غير مرغم ولا مضطر فانه يستطيع اذا لم يكن يريد للزواج أن يتم أن يذهب من غده الى شعبان ويحدثه فى حديث آخر غير هـذا وسيفهم شعبان وسيعذره .. فهو مصمم .. وهو مصمم أيضا أن يكلم شعبان أباه حتى يكون وهدان مضطرا لاتمام الزواج ، وقد كان سـباعى مقدرا لهذا الأمر منذ دبر أمره قبل أن يفاتح شعبان فى شأن الخطبـة . فهو يعلم حرص أبيه وهدان على أن تعيش أسرة بعيدة عن كل المشاكل فاذا هو امتنع عن اتمام الخطبـة فالويل الآخذ والانتقام الويل ..

وقد كان سباعى واثقا انه حين يطلب من أبيـه أن يخطب له ابنة عز الدين سيرفض رفضـا قاطعا كما كان واثقا أنه سيقبل أن يخطبها له على رغم أنفه اذا أخبره أن شـعبان فاتح أباه فعلا فى الأمر من قبل .. قـدر سـباعى هـذا جميعا وأقدم على هـذا الحديث مع شـعبان ..

وفى الصباح الباكر كان سباعى واقفا بجانب شعبان فى الغيط :

ــ متى ترد على ؟

ونظر اليه شعبان مليا ثم قال :

ــ تعال الليلة فى البيت ..

***

انتظر سباعى حتى صحا أبوه من القيلولة وتوضـأ وصلى صلاة

العصر واستقرت به الجلسة على الأريكة وبجانبه نبوية ، وكان وهدان منشرح الصدر فهو يقول تلك الجملة التى كثيرا ما يرددها :

ــ لقد كان قطع ذراعى بركة .. تزوجت به نبوية بعد أن تأكدت من قطعه .. انها تحبنى لشخصى وأعفانى الله من غسيل ذراعين فى كل وضوء مكتفيا بذراع واحدة .

وضحكت نبوية وهى تقول :

ــ أما زلت تذكر زواجنا .. قد آن الأوان أن نفكر فى زواج أبنائنا ..

وقال وهدان :

ــ ما أحب هذا الى ..

واندفع سباعى الذى كان يتربص بالحديث :

ــ صحيح يا أبا ؟ ..

ــ صحيح جدا ..

ــ اذن فأنا أريد أن تخطب لى ..

ــ من ؟ ! ..

ــ قدرية بنت عز الدين بك الخولى ..

وهب الأب واقفا :

ــ من ؟ ! ..

ودقت نبوية صدرها وهى تقول :

ــ من ؟ ! ..

وقال سباعى :

ـ ماذا يا أبـا •• ماذا يا أمه ••

وألجمت الصـدمة لسان وهـدان وذهات الأم بعض الحين ثم قـالت :

ـ ولكن يا ابنى •• هل •• هل يقبلون ؟ ••

وابتسم سباعى وهو يقول :

ـ لقد قبلوا فعلا ••

وصاح الأب مرة أخرى وهو مايزال واقفا :

ـ مـاذا ؟ ! ••

وقالت الأم :

ـ قبلوا •• اذن ••

ومات الكلام على شفتيها وارتمى وهـدان جالسا على الأريكة معتمدا برأسه على ذراعه الواحدة مفكرا فى كل ما فكر فيه ابنه من قبل •• وتمت الخطبة وتم الزواج •

***



أقام سباعي وزوجته فى بيت وهدان .. ولكن وهــدان لم يكن يطيق أن يكون البيت مزارا لعز الدين وابنه شعبان .. وما كان يتصور أن أسرة كهذه تندمج مع أسرته .. وما كان يدور بخياله أن شــعبان يسكن أن يدخل الى بيته فى أى وقت من أوقات اليوم وهجست نفسه أن شعبان ربما فكر فى الزواج من فاطمــة أو عابدة واذا مر هــذا التفكير بذهن شعبان فهيهات لوهدان أن يرفض لأنه لم يكن يريد أن يموت مقتولا .. فهؤلاء نفر من النــاس لا يقف بهم نسب أو قرابة أن يرتكبوا أى جرم .

سارع وهدان فابتنى بيتا لابنه سباعى ولم يشــعر أن كارثة زواج ابنه من ابنة هــذا المجرم قد خفت حدتهــا الا يوم انتقل هو وزوجته الكئيبة الى البيت الجديد ، ومهما يكن البيت قد كلفه فكل مال هين اذا قارنه بمصيبة زيارة واحــدة من عز الدين أو اطلالة من شعبان على أخته التى تسكن فى نفس البيت الذى يعيش فيه مع نبوية وابنتيـــه .

وكان التعليم قد انتشر فى القرية انتشارا أتاح لفاطمــة أن تجد

شابا متخرجا فى كلية التجارة هو حسونة الزينى خطبها بعد أن تم تعيينه بالصعيد مراجعا لحسابات السكة الحديد بها . ولم يمر كثير من وقت حتى خطبت عابدة أيضا الى ياسين ضيف خريج كلية دار العلوم والذى عين مدرسا بالقاهرة . وقد كان ياسين قبل أن يلتحق بكلية دار العلوم شيخا معمما نال ثانوية الأزهر ثم التحق بكلية دار العلوم وكان الأب والأم سعيدين غاية السعادة بهاتين الزيجتين .. وكان كلاهما يحمد الله أن عوضهما عن زيجة سباعى .

والواقع أن قدرية لم تكن فى أخلاقها على هذا القبح الذى طبعه الله على وجهها وان كان بلوغ هذا القبح عسير المنال على أية حال .. الا أن الفتاة كانت رضية الخلق تعامل حماها وحماتها بكل اجلال واحترام .. وكان وهدان بحاسة العدل فيه وبمشاعر الأبوة يعلم أن قدرية لا ذنب لها فيما ركب عليه أبوها وانها تزوجت برغبة منفردة من زوجها وبشعور بالسعادة من أبيها وأخيها أن وجدت انسانا أى انسان يقبل أن يتزوجها .

وهكذا كانت معاملة وهدان ونبوية لقدرية تتسم بالأبوة الكاملة وبالحنان الشفوق لا يفرقان بينها وبين ابنتيهما وكانت هى تقوم مع أختى زوجها بشئون البيت فى يسر ونعومة . ولم يحدث فى يوم أن اشتجر خلاف مهما يكن هينا بينها وبين أحد من أهل البيت جميعا .. حتى الخادمات اللواتى استقبلنها فى وجوم وأسى لقبحها وليس لأى سبب آخر هن أيضا سرعان ما أصبحت عندهن واحدة من أهل البيت لا تختلف معاملتهن لها عن معاملتهن للست فاطمة والست عابدة . والخادمات فى الريف يألفن بنات الأسر التى يعملن بها حتى لتصبح الصلة بينهن صلة أقرب الى الأخوة منها الى صلة سيد بمسود .. فلم يكن غريبا اذن أن تفرح قدرية بخطبة فاطمة ثم عابدة كفرح البيت جميعا من سادة وخدم .

وقد يتساءل الشباب ما هذا الزواج الذى تم بغير حب سبقه ولا لقاء ولا اتفاق بين العروسين ولو عرفوا الريف فى هذه الأزمان لعلموا أن الزيجات التى كانت تتم على حب فى الأسرة المتوسطة تكاد تنعدم • ففتيات هاته الأسر لم يكن يخرجن من بيوتهن منذ اليوم الذى ينقطعن فيه عن التعليم بل ان الكثيرات منهن كن يتلقين تعليمهن فى البيت اذا كان الأب يريد لبناته أن يتعلمن • فالدائرة التى تتسع لسجنهن ضيقة غاية الضيق ولكن تفاصيل حياة كل فتاة ومدى جمالها أمر مشاع بين أبناء القرية جميعا • والخاطب حين يتقدم الى الخطبة يكون عالما بكل اسرار الفتاة التى يتقدم لها ولكن من غيرها وليس منها •

فأحاديث القرية عن القرية • وأمهات هؤلاء الشبان يروين لهم كل شىء عن كل فتاة أو سيدة أو حتى طفلة فى القرية فينشأ الفتى وأبناء القرية جميعا فى كامل وعيه لا يغيب عن شاب من هؤلاء الشباب خبر عن اى فتاة من فتيات قريته •

والأمر مختلف كل الاختلاف اذا كان الزواج من ابن فلاح يعمل فى الحقل وابنة فلاح آخر يعمل • فالفتيات فى هذه الفئة يخرجن كل يوم ليذهبن بالطعام الى آبائهن أو أخواتهن فى الحقول وهن يملأن الجرار وهن يشترين حاجات البيت فى أيام الأسواق فاذا كان الحب قد اندلع بين وهدان ونبوية حين كان الزمن مازال فى غيبوبة الجهل فهو مندلع أيضا والزمن قادم على نور العلم لأن الفتيات من مثيلات نبوية حين تزوجت مازلن كشأنها فى الأيام الخالية من طفولتها وصباها وباكر شبابها •

ربما لو كان هناك شاب من أقرباء وهدان أو نبوية يتردد على البيت بصلة القرابة وشب حب بين هذا الشاب وبين واحدة من الفتاتين كان الأمر قد تغير • وقد كانت الفتاتان جميلتين وكانت كل

منهما تمثل نوعا من الجمال الذى لا يختلف فيه اثنان وان كان هناك مجال لاختلاف فانه سيكون تقدير مدى هذا الجمال • كانت احداهما خمرية اللون ذات تقاطيع منسجمة لها أنوثه جذابة وشعر مناسب فيه رخاء وسيولة ولين وكانت الأخرى عابدة شديدة البياض فى خديها حمرة واهنة وفى عينيها سواد داكن يتوسط بياضا ناصعا وفى شعرها عربدة حبيبة • كلتاهما ممشوقة القوام وكانت عابدة أطول من فاطمة قليلا ولكن لا يشتكى من فاطمة قصر ولا يعاب على عابدة طول •

فالفتاتان كانتا جديرتين أن تحبا • ولكن لم يكن هناك حبيب فالذين يرونهما من الرجال لا ترتقى آمالهن الى حبهن • وكلتاهما كانت تعلم أنها ستجد الزوج اللائق بها فقد كانت كل منهما تعلم أنها جميلة وأن أباها ممن يألف الناس ويألفون وأن أمها قريبة الى مشاعر الأمهات فى القرية لم تمد يدها لاحداهن بغير المعروف والمكرمة • كلتاهما كانتا تجدان المتعة فى كتاب من الكتب الكثيرة التى كان يشترها لهما خليل وفى الراديو ما وجدت البطارية وفى الاسطوانات • وقد تزوجتا كلتاهما وهما فى مطالع الشباب فلم تضق منهن نفس ولم تشعر واحدة منهما فى حياتها برهبة المستقبل ولم يهدد أحداهما شبح من عنس •

وما هى الا سنوات قلائل حتى امتلأ البيت بأبناء فاطمة وعابدة يأتون جميعا الى بيت وهدان فى الاجازات والأعياد وكان الجدان يشعران بمجيئهما أن الحياة التى عاشاها كانت مثمرة خصيبة ولم يشعر واحد منهما بالأسف أن سباعى لم ينجب وقد استطالت سنوات زواجه • وكان سباعى فى هذه السنوات تواقا الى ابن وليس ابنة ليضمن وارثا لماله الذى سيئول اليه من أبيه والذى ينوى أن ينميه بكل الخطط التى كان يعدها طوال حياته وما سترثه أيضا قدرية من أبيها وهو نصيب ان يكن نصف نصيب شعبان الا انه يظل مع ذلك موفورا ولم يكن قبح زوجته بالنسبة اليه يشكل أى أسف لزواجه

منها • فقد سرعان ما تعوده حتى لم يعد يرى فيها ما رآه فى أول يوم دهمه فيه رؤياها • وهو أيضا كثيرا ما يروح عن نفسه مع شعبان • ولم يكن شعبان يجد أى غضاضة أن يصحب زوج أخته فى لياليه الصاخبة بل لعله كان يعتقد أنه اذا لم يصحب شعبان فان شعبان سيجد وسيلة أخرى يخفف بها وطأة أخته عليه وهى وطأة لا يطيق احتمالها الا ذو قوة وايد •

وكان العرب قد بدأوا يرودون ملاهى شعبان وسباعى • وكانوا حريصين ان يجدوا لأنفسهم أصدقاء فى القاهرة • وكان شعبان يتمتع حيث يسعى بأنه ابن أحد النواب وبأنه ثرى وأحس أمير عربى أن مثل هذا لن يطمع فى ماله وانه يستطيع ان يتخذ منه صديقا • فاتخذه صديقا وأصبح الأمير نمر من أقرب أصدقاء شعبان أما سباعى فكانت الصلة بينه وبين الأمير صلة تعارف لا تصل الى الصداقة • وكثيرا ما دعا شعبان الأمير الى شقته بالقاهرة وكم سعد أبوه عز الدين حين دعا الأمير الى بيتهم فى القرية فأى مجد يناله وهو يصيح فى خدمه • القهوة لسمو الأمير يا ولد • الشاى لسمو الأمير يا ولد • انه لم يحلم بزيارة وزير فكيف بأمير • كان فخورا عز الدين بابنه وبصداقته هذه الأمير فخرا لم يعرفه حياته كلها •

ودعا الأمير شعبان أن يزوره فى بلده فلبى الدعوة وحده طبعا فالدعوة لم توجه الا اليه • وحين سافر شعبان لم يكن يفكر الا فى رؤية هذه البلاد وحين استقر به المقام هناك ووجد الثراء الفاحش الذى يعيش فيه الأمير انتهز فرصة خلا فيها به وسأله فى شبه مداعبة :

ـ أتقبلون فى أسرتكم غير الأمراء •

وقال الأمير :

ـ يا أخى وما البأس كلنا أبناء آدم وكلنا مسلمون •

ـ أحقا ما تقول يا سمو الأمير •

ـ نعم هو الحق .

ـ ألك أخوات لم يتزوجن بعد ؟ .

ـ تسع أخوات تزوجت منهن اثنتان ..

ـ فاذا طلبت منك أن تزوجنى احدى السبع الباقيات .

ـ أيهن ؟

ـ وهل أعرف .. انها أول مرة أعرف أن لك اخوات ؟

ـ وكيف تريد أن تتزوج اذن ؟

ـ بالانابة .

ـ الانابة تكون فى زوجة محددة .

ـ اننى أوكلك عنى فى الاختيار أما العقد فلا داعى فيه للأنابة فأنا حاضر بين يديك .

ـ أتريد أن تتزوج فى هذه الزيارة

ـ وأعود الى أبى بالعروس .

ـ وهل هـذا معقول ؟

ـ وفيم نحتـاج الى الزمن . أنـا بيتى موجود فى البلدة وفى ساعات أختار للأميرة أحسن شقة فى القاهرة والأميرة قطعا لا تحتـاج الى جهاز ففيم الانتظار ؟

ـ اسـألها .

ـ هل أخترت لى ؟

ـ قد أخترت .

وتزوج شعبان من الأميرة العربيـة وعـاد بها الى أبيـه وأقيم الفرح فى القرية ثلاث ليال سويا . ولم تكن الأميرة على كل حال فى قبح قدرية . وهو حين طلبها انما سعى الى لقبها وثرائها وما سعى الى

جمالها أو أنوثتها • قدر أنه لابد ان يتزوج وقدر أن مثله لا يعرف للحب الا هـذا الذى يمارسـه فى لياليه فى القاهرة وعندما تنطفىء الأنوار تتساوى جميع النساء •

❋❋❋

اشتد المرض بوهـدان فقد داهمه الكبر فجـأة وتوالت عليـه علائمـه وأحس أنه يعيش الأيام الأخيرة من حياته • وكانت نتيجـة البكالوريوس على وشـك الظهور فكان كل دعائه حين كان يصـلى وهو نائم من شدة الوهن أن ربى لا تضمنى اليك حتى أعرف نتيجـة خليـل • أريد أن أقول له يا دكتور مرة واحـدة قبل موتى • ومن العجيب أن قدرية كانت حاملا فى هـذه الفترة وكانت قاب قوسـين أو أدنى من الولادة ولم يدع وهدان ربه أن يرى سـباعى قبل ان يموت وان كانت نبوية تدعو له دائما بطول العمر ثم تهمس وكأنهـا تناجى الله فى علياء سـمائه وان كان لابد يا الله فافرحه بنجاح الدكتور خليل وبحفيد من أبنه البكر •

وفى يوم أصبح خليل الدكتور خليل وقبله أبوه وعينـاه تنهمران دموعا وراح ينظر الى السماء وهو يقول الآن اذا شئت يارب •• الآن ولك ألف شكر وألف حمد وابت السماء الا أن يأتيه الخبر الآخر فى نفس اليوم أن ابنه سباعى قد رزق بولد وكان سباعى هو من سـعى اليه بالنبأ وقبل يده وسأله :

ـ لن يختار له الاسم الا أنت يا آبا •• أطال الله عمرك •

وقال وهدان وهو يلتقط أنفاسه :

ـ ليكن اسمه صلاح وليكن صلاحا باذن الله •

وفى المساء فاضت روح وهـدان وهومت فى سـماوات القرية كلمات الآية الكريمة ••• يخرج الحى من الميت سبحانه •••

❋❋❋



الانتخابات فى القرى مواسـم • حين تقبل يصبح الجميـع مشغولا بها لا يصرفه شيء عنها • الا أن يكون موعد زراعة أو ري أو تسميد فان الأرض لا تعرف التأجيل والنبات لا شأن له بالانتخابات فهو لن يعطى صـوتا وهو أيضا لن ينال ما يناله أصحابه من مـال أو من تسلية •

ولئن كان النفاق هو أعظم العملات تداولا فى الحيـاة جميعها فان موسـمه الأكبر هو أيام الانتخابات •• نفـاق متبادل يقدمـه المرشحون الى الناخبين ويقدمه الناخبون الى المرشحين مع ما يكرمونهم به عند زياراتهم • ويروى أحد المرشحين المشهورين أنه ذهب فى يوم لزيارة بلدة من بلاد دائرته الانتخابية فلقيه الأهـالى على الأعنـاق واتجه الركب الى بيت العمدة ليكون أول بيت يزوره المرشح فى القرية وكان التراب قد تصـاعد الى عينى المرشح حتى لم يعد يرى وهو بطبيعته ذو عيون كليلة حساسـة فهمس فى اذن العمدة أنه يريد أن يغسل وجهه وسرعان ما أخلى الطريق له الى الحمـام وغسل وجهـه ونشفه ووضع نظارته على عينيه • ووجد بالحمام شيئا عجيبا ووجد

لافتات فى حجم اللافتات التى استقبلته بها البلدة لا فارق هناك بينهما الا شيء واحد هو أن هذه اللافتات تحمل اسم المرشح الآخر •

ولئن كانت الرشوة تتستر وراء الكلمات فى مألوف الحياة وان كان المرتشى يقول دائما ان المال لغيره والراشى يتظاهر بأنه يصدق فان الرشوة فى أغلب الانتخابات تسفر عن وجهها سفورا كاملا لا تتشح بساتر ولا تستخزى وراء الكلمات ولا تستحى ان تصرح • فاذا لم يكن للبلدة كبير يرشى فقد تتمثل الرشوة فى تبرع يقدمه المرشح لجامع يبنى علم الله أنه تبرع لن يكتب فى الحسنات أبدا • واذا كان كبير البلدة عفيف النفس وطلب الى المرشح الا يقدم أى تبرع فى أثناء الانتخابات سعى الصغار الى المرشح يوسعونه مطالب واستجداءات حتى ليتمنى لو كان كبير البلدة مرتشيا فطلبات الأفراد لا نهاية لها أما التبرع أو رشوة الكبير فرقم محدد وينتهى الأمر • ولما كان المكر السيىء يحيط بأهله دائما فالراشون هم فى الأغلب الأعم هم الساقطون فان المرشح الواثق بنفسه لا يقبل مساومة فى فترة الانتخابات قط حتى لأعرف مرشحا كلفه المطعم والمشرب واستقبال الناخبين مبلغا لا يتجاوز بضع مئات ولكنه خشى أن يعرف أحد هذا فيظن أنه انفق فى الرشوة مالا فقال لابنه وهو ينبئه بالحساب لا أحب أن يعرف أحد أننى انفقت هذا المبلغ • وكان نجاح هذا المرشح ساحقا •

فالمرشح السياسى الخبير بالانتخابات يعلم أن الصوت الذى يشتريه لم يصبح له وانما يصبح سلعة فى السوق • واذا كانت السلعة يدفع مشتريها ثمنها ويتسلمها فان الصوت سلعة غير أمينة ولا مأمونة فهى تأخذ من كل المرشحين ثم لا تنتخب أحدا على الاطلاق أو قد تنتخب من لم يدفع لها شيئا •

ولكن حين يكون بين المرشحين مجرم مثل عز الدين الخولى فان الأمر يختلف كل الاختلاف • فان أغلب البلاد لا تريد أن تتعرض

لزبانيته ومجرميه الذين يسلطهم على عباد الله فيفعلوا بهم الأفاعيل من حرق للزرع الى سرقة للبهائم الى قتل اذا احتاج الأمر الى قتل . والبلاد فى الريف تخاف على زرعها وعلى بهائمها وعلى أرواحها ولكنها لا تحب أن تعلن انها خائفة فهى تتظاهر بذكاء لا يتأتى الا للفلاحين أنها تنتخب المرشح المجرم عن حب وطواعيه وليس عن خوف واذعان . وانها تختاره راغبة لا راغمة . والمجرم أعمى البصيرة بطبيعة تكوينه وانلم يكن كذلك لادرك أن مال العالم وسلطانه أجمع لا يساوى دم انسان برىء واحد من الدماء التى يريق ، وبهذا العمى فى البصيرة يصدق أنه محبوب من دائرته وانها تنتخبه عن اقبال وحب .. وقد يسأل واحد من الذين لم يعيشوا فى الريف . الا يسأل المجرم نفسه لماذا يحبه الآخرون وهو قاتل سفاح يهدد مصادر رزقهم ويقض منهم المضاجع ويجعل حياتهم رعبا وموتهم لعبة . ان هذا السؤال قد يرد على ذهن المجرم وهو واجد عند نفسه الجواب فهو يظن ان الفلاحين ما داموا يطربون حين يسمعون حكايات أبو زيد الهلالى وعنتر بن شداد والزناتى خليفة ، ومادام بعضهم يروى لبعض حكايات أدهم الشرقاوى ومن تبعه باجرام الى الخط فهم اذن يعجبون بالرجل القوى الذى يصادر الحياة ويجعل من نفسه جلادا لمن يقول فى وجهه لا اله الا الله محمد رسول الله . وهو منطق كما ترى سخيف وساذج . أما الطرب من الفلاحين لحكايات الأبطال فهو شعور بأن هؤلاء الذين تروى عنهم الاساطير قد واجهوا الظلم بمثله ودافعوا الطغيان بالقوة والعنفوان وهو ما كان الفلاحون يتمنون أن يصنعوه مع أمثال عز الدين الخولى . فعنتر وأبو زيد والزناتى واضرابهم هم أزاحة الغضب الذى يغتلى فى نفوس المغلوبين على أمرهم أمام القوة الغاشمة المتمثلة فى أسلحة الطغاة وأعوانهم .

أما رواية الفلاحين لقصص المجرمين من معاصريهم فهى اتقاء لشرهم وتظاهر بالاعجاب بهم عساهم أن ينأوا عنهم باجرامهم وأذاهم

فالفلاحون اذن بما يروون انما يتقون شرا ولا يعجبون بشرير الا أن يكونوا أطفالا يسمرون ما يلبثون مع الأيام أن يدركوا الحقيقة وأن يعلموا الذميم والطيب والفساد والصلاح والأعوج والقويم .

ولكن عز الدين الخولى وأمثاله لا يحبون هذا الحق وانما يحبون أن يهيئوا لأنفسهم أنهم أبو زيد وعنتر والزناتى وأدهم الشرقاوى والخط جميعا . وانهم محبوبون .

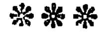
ولهذا لم يكن عجيبا أن يزور عز الدين الخولى بلاد الدائرة فى سيارة مكشوفة وخلفه صفوف من السيارات التى استأجرها للانتخابات بأسعار توشك أن تكون رمزية فأصحاب السيارات أصحاب أولاد يخشون أن يخطفوا وأصحاب أرواح يخشون أن تحرق .. فهم اذن يقدمون سياراتهم له بكل الحب وبألفاظهم صائحين انها ملكه هى وأصحابها مقسمين بالطلاق ألا يتقاضوا مليما ومايزال بهم حتى ينزلوا على أمره ويقبلوا ما يعرضه . وقد كان ما يعرضه سفاكا للمال كما هو سفاك للدماء وكانت الانتخابات قد بدأت وكان عز الدين منتميا لحزب الوزارة التى تركت الحكم ولكنه فى نفاق واضح لا شبهة فيه ولا مراوغة ترك حزب الحكومة المولية وانضم الى حزب الحكومة الحاضرة . فالرجل لم يدع فى يوم من الأيام أنه ذو مبدأ أو أنه سياسى أو أنه — لا قدر الله — ذو شرف .

ولم يكن هذا الانتقال من حزب الى حزب نظرة الى الانتخابات فهو يعرف نتيجتها على الحالين وانما كان تحسبا لما بعد الانتخابات وحرصا على أن تكون صلته بالسلطة التنفيذية وطيدة فتظل ايجارات الأوقاف سارية المفعول فى العهد الجديد وتظل رغباته فى تعيين العمد ونقل الموظفين نافذة . وهو قبل لم يختر الحزب الذى كان فيه عن مبدأ ولا هو انتقل الى الجانب الآخر عن اعمال رأى .. فالشرف السياسى بعيد عن كيانه كل البعد . ومادام الأمر كذلك فماذا سيخسر اذن ان هو ترك حزبا الى آخر .. لا خسارة طبعا .. والربح مؤكد .

وراحت مواكب عز الدين تجوب بلاد الدائرة . وان له لبصمة فى كل بلد زارها .. وبصمة السفاح تترك حيث تقع دماء ان لم تكن دماء بشر فدماء كرامة مسفوكة وخزى يلحق بمن اختاره الطاغية ليكون ضحيته .. والسفاح معدوم الحياء جامد الوجه شديد التبجح فليس يراعى الا يمر ببيت قوم قتل عائلهم أو سلب بهائمهم أو حرق زرعهم أو محصولهم . وانما هو يتحرى أن يعمد فى أول نزوله الى القرية الى البيت المخضب بدماء البشر أو الكرامة أو الفقر التى أسالها هو ويتعمد أعوانه الذين هم على شاكلته من الفجور أن يرفعوا عقائرهم بالهتاف له ثم ينطلق رصاص عصاباته ليعلن أن الذى يتخلف عن الهتاف ينوب الرصاص عنه فى هذا الهتاف .

وعلا الضجيج وعلا الصخب ودق الطبل وعلا المزمار وتهانئت أصوات الرصاص وغلت دماء فى العروق وصعدت حميا الجنون الى مكان العقول وسقط عز الدين الخولى قتيلا برصاصة فى رأسه وخشع الطبل والمزمار وولى المجرمون بزعامة أبو سريع هربا وهم من كانوا يقسمون فى كل يوم أنهم يفدونه بحياتهم .. ولكن القسم شىء وقتله ومجىء الشرطة والتحقيق شىء آخر .. وبدا الفرح على وجوه الجميع فى القرية تحاول أن تغطيه الحوقلة ولا اله الا الله .. وسبحان الدائم .. ومحاولة التظاهر بالحزن أمام ابنه ومن بقى من أعوانه .. فمن أين لهم أن يعلموا ان كان شعبان فى مثل اجرام أبيه أو أقل أو أكثر فهم لم يجربوه بعد ولا يدرون مدى جبروته أو ضعفه .. انه عاش عمره تابعا لمجرم أفتراه يصبح متبوعا لمجرمين أم لا يكون الله وحده أعلم .. التظاهر بالحزن أسام .. وما هى الا ساعة أو بضع ساعات ثم ينحسر عن القرية موكب الاجرام ويفرغون هم لأفراحهم بما خلصهم الله من هذا العاتية السفاح .. كان من المستحيل أن يعثروا على الجانى فكم من أعداء للقتيل .. وان انصرف الظن الى من نكبهم عز الدين من أهل القرية فسرعان ما يخيب هذا الظن فقد

كانوا جميعا يعلمون أنه قادم الى القرية فى هذا اليوم وكان من الطبيعى أن يتركوا القرية اكراما لأنفسهم أن يروا وجهه الذى لا يطيقون رؤيته وتقية أن يبلغ منهم الغيظ مداه فتنطلق من أفواههم كلمة قد تكون فيها نهايتهم ويدرك الشرطة أن القاتل قادم من بلد أخرى وانه تخفى حتى لا يلمحه أحد ممن يعرفونه من أبناء هذه القرية وانه انتهز فرصة الهتاف والرصاص والطبل والمزمار ونال ثأره وثأر كثيرين آخرين غيره .. ولم يدهش أحد من كل الذين شهدوا القتلة أو الذين سمعوا بها فهى أمر كان لابد أن يقع على هذه الصورة وليس على غيرها .. كل الذى كانوا لا يعرفونه هو متى .. وقد عرفوه ..



٩

حين اجتمعت أسرة وهـــدان بعد وفاته بفترة قال خليـــل كلاما قاطعـــا :

ــ يا أمه أنت الكبيرة ولا رأى قبل رأيك ولا بعده ولكننا نعرف أن هـــذا الحديث لا يطيب لك •• ونعرف معنى أن تفقدى المرحوم ولكننا فلاحون •• والأرض جامدة صلبـــة بلا عواطف ولابد لها من خدمة وأنـــا لى رأى ••

ــ يا خليل يابنى أنـــا ليس لى أرض •• الأرض أرضكم •

وقـــال سباعى :

ــ بل كلها أرضك ••

وقالت فاطمة :

ــ اســـمعى يا أمه انت تديرين الأرض كمـــا كان يفعـــل أبى ويساعدك سباعى ••

وقالت عابدة :

ـ ونعم الرأى يا فاطمة •• وماله يا أمه •• أنت فلاحـة بنت فلاح وسباعى ابنك ••

ونكس سباعى رأسه فى مراوغة مكشوفة وقال :

ـ أنـا تحت أمركم •• الا أننى أحب أن أتسلم نصيبى ••

وقالت الأم فى أسى وفى تؤدة :

ـ طول عمرك مستعجل يا سباعى ••

وقـال سباعى :

ـ ليس فى الأمر استعجال •• هذا شرع الله ••

وقالت الأم :

ـ لا اله الا الله •• وهـل نازعك فيه أحد •• ولكن أنت كذا طول عمرك مستعجل ••

وقـال سباعى :

ـ يا أمه أبدا ••

وقالت نبوية :

ـ ان لم تكن عجولا لانتظرت على الأقل حتى تسمع رأيى ••

وقـال سباعى :

ـ أنـا آسف يا أمه •• الحق على •• قولى رأيك ••

وقالت نبوية :

ـ الآن لا أقول ••

وقـال سباعى :

ـ ورحمة أبى الا قلت رأيك ••

وقالت نبوية :

ــ ماذا كنت تريد أن تقول يا خليل ؟ ••

ــ كنت أريد أن أوفر عليكم كل هذا الحديث •• أما الآن وبعد أن قالت فاطمة ما قالت ووافقت عابدة على كلامها فلابد أن أسمع رأيك أولا ••

واندفع سباعى قائلا :

ــ هذا ليس رأى فاطمة ولا عابدة •• هذا رأى الشيخ ياسين والأستاذ حسونة •

وقال ياسين :

ــ أولا يا سباعى أنا وحسونة جالسان ولم نفتح فمنا بكلمة وأقسم بعهد الله أننا لم نلتق قبل هذا الاجتماع ولم نتفق على هذا الصمت ولكننى رأيت أن هذا هو الخليق بى ويبدو أن حسونة رأى نفس هذا الرأى •• ولو كان ما قالته زوجتى رأيى لقلته وأعتقد أيضا أنه لو كان رأى حسونة لقاله فليس علينا بأس أن نشارك فى شئون عائلة أصبحنا منها بحق النسب •• ولكن هذه أرضكم وزوجتى والحمد لله تعيش حياتها الزوجية فى رضى وأعتقد أن أختها كذلك •• ولهذا فأنا أرجوك أن تبعدنى عن هذه المناقشة ويتهيأ لى أن حسونة يرجوك نفس هذا الرجاء ••

وقال حسونة :

ــ الله يفتح عليك يا ياسين •• ليس لى بعد ما قلت كلمة واحدة أزيدها ••

واستخزى سباعى بعض الشىء وأطرق وقالت نبوية :

ــ ألم أقل لك يا سباعى انك دائما مستعجل ••

وقــال سباعي :

ــ الحق على مرة أخرى .. قولى أنت رأيك ..

وقالت نبوية :

ــ الأمر لله .. أقول .. أنــا لا أريد من الدنيا الا أن أكون أمكم وأن أبقى فى هــذا البيت لأفتحه لكم جميعــا حين تأتون اليه وبهــذا أشــعر أننى استطعت أن أرد بعض الدين الذى فى رقبتى للمرحوم الذى عشت معه ما عشت ولم أر منه فى لحظــة من اللحظات ما يسيئنى حتى اذا غضب كان يدخل الى حجرته ويقفل بابها على نفسه حتى لا أراه مكشرا .. أرض ؟ ! أنــا لن أشــوف .. وان كنت كما قالت فاطمــة فلاحة وبنت فــلاح الا أننى منذ تزوجت أباكم لم أخرج الى الغيط .. حتى حين كنا فقراء فى أول حياتنا رتب لنا مصطفى السقا حتى لا أخرج لملء الجرة .. فأى أرض هــذه التى أشوفها .. وهل تسمح سنى بذلك .. يا أخى أنــا كفاية على أن أجعل البيت دائما مستعدا لاستقبالكم .. غير هــذا أنــا ليس عندى كلام .. وما تشــوفه أنت وأخوك أنــا مســئولة أن أجعل فاطمــة وعابدة تقبلانه ..

وقــال خليل :

ــ أطال الله عمرك يا أمه وأبقاك لنا جميعا .. نعم الرأى الحقيقة أننى الآن أصبحت طبيبا .. والطبيب يحتــاج لوقته كله حتى يكون طبيبا ناجحا .. وأنــا متأكد أنكم تحبون أن يكون أخوكم ناجحا .. والحقيقة أيضا أن سباعى كان دائما ابن الأرض يعرف كل شىء عنها وكان أبى يعتمد عليه منذ كان سباعى صبيا وحين أصبح شابا كان هو الذى يشرف على الأرض ويكتفى أبى بأن يعرف منه ما فعل .. وكان أبى يبيع المحصول وبحضور سباعى .. أليس هذا كله حقا ..

وهيمنت أصوات بالموافقة كأكمل حديثه :

ـ وأن يجلس كل واحد منا آخر السـنة ويرى حساباته أمر أنـا لا أحبه فقد تقتنع فاطمة بالحساب ولا أقتنع أنا مثلا •• فالرأى عندى أن أقعد الآن مع سباعى ونرى ما أنتجته الأرض فى السـنوات الثلاث الأخيرة ونقدر ايجارا معقولا يعود بالربح على سباعى مقـابل ادارته للأرض وتعبـه فيهـا ويكون كل منـا على علم طول السـنة بما سيحصل عليه آخر العام ••

وقالت الأم فى حسم :

ـ كلام معقول ••

ونظرت فاطمة الى أختها وبادلتها عابدة النظر وتلمست كل منهما رأيا عند زوجها فلم تجدا اعتراضا وقالت فاطمة :

ـ موافقـة ••

وقالت عابدة :

ـ نكتب عقود ايجار ••

وقـال خليل :

ـ نكتب عقود ايجار ••

وقال سباعى والفرحة تملأ عليه منافذ الهواء :

ـ على بركة الله ••

***

حين خلا سباعى الى شعبان بعد مأتم أبيه سأله شعبان عما فعله مع اخوته فأخبره •• وفكر شعبان مليا •• ثم قال :

ـ بعد الأربعين أريدك فى أمر مهم ••

***

كان شعبان انسانا آخر غير أبيه وغير الذى عرفه فيه أبوه ••

فان تكن الأرض هى كل حياة أبيه يقتل فى سبيلها الناس ويعتصر دماء البشرية فان شعبان لم يكن يرى فى الأرض الا وسيلة تمكنه من قضاء أيامه مقلوبة ومن أن يجعل نهاره كله سودا لأنه فيه دائما يجب أن يكون نائما ولياليه كلها بيضاء بالنور الملقى على أجساد الراقصات وهن بعض كاسيات أو حمراء بالضوء الشاحب الهارب فى خجل من جسومهن وهن عاريات .. تلك هى الحياة عنده .. وان كان فى حياة أبيه يعاونه فى الزرع ويغضى عما يفعله بالبشر فما كان هذا منه الا لينال ما ينفقه على صنعته الوحيدة فى الحياة وهى المتعة والمتعة المشتراة وانها لباهظة الثمن .

وان كان أبوه يحب أن يكون عضوا فى مجلس النواب معتليا كرسيه على الرعب يثيره فى الناس بالقتل والسرقة والغصب والنهب والجبروت فان شعبان كان ينظر الى مجلس النواب هذا على أنه تسلية لا طائل تحتها مادامت لياليه لا تنتهى بما تنتهى به لياليه هو .. وان كان فى حياة أبيه مرغما على الزراعة والسعى فى الانتخابات .. فلا ارغام اليوم عليه .. وقد كان شعبان فى القمة من سعادته بزوجته الرضية التى لا ترى فيما يفعله من سهر أمرا غير عادى وانما هو مألوف ما يصنع الرجال وما عليهم فى ذلك من بأس ما داموا آخر الليل أو أول النهار ينامون فى أسرة منازلهم .. وكانت قد ولدت لشعبان سمية ووليد فهى مشغولة بأبنائها والمال عندها دائما موفور بما يرسله اليها أخوها أو يعطيه لها حين يزور مصر .. وهى تشترى ما يعن لها أن تشترى وربما كان الشيء الوحيد الذى كانت تتوق اليه هو زيارة أمريكا وأوروبا وقد كان زوجها يعتذر عن عدم تنفيذ هذه الرغبة بمشغوليته فى أملاك أبيه مخفيا الأسباب الحقيقية التى يتقدمها جهله باللغة ولكنه أمام الحاحها وافق على السفر معللا نفسه أن اللغة التى يجب أن يتحدث بها عالمية وربما وجد فى باريس مثلا من يفهمها خيرا مما يفهم الفرنسية نفسها وحدد لسفره انتهاء المعركة

الانتخابية . فحين قتل فيها أبوه تأجل الموعد الى أن تمر فترة مناسبة وهكذا كان شعبان فى مشاغله وآماله بعيدا كل البعد عن مشاغل أبيه وآماله .. وكان أبعد ما يكون عما يفعله أبو سريع وقد كان واثقا أن أبو سريع لن يبقى معه بعد موت أبيه الا ريثما تمر فترة تسمح له أن يجد مستأجرا آخر .. فما كان شعبان يتصور أن يقتل أحدا فى سبيل أى شىء الا أن يعوقه عن متعته فى الملاهى .

ولهذا لم يكن غريبا أن يقول شعبان لسباعى بعد احياء ذكرى الأربعين لوفاة أبيه :

ـ ما رأيك يا سباعى أن تصنع معى ما صنعته مع اخوتك ؟

وذهل سباعى .. أحقا ما يسمع .. ويسأله أيضا ما رأيك .. وهل فيها رأى .. لقد بدأت الآمال تتحقق من أوسع الأبواب .

***

حين غادر سباعى بيت شعبان قصد من فوره الى بيت أبو سريع ..

ـ السلام عليكم ..

ـ أهلا سباعى بك مرحبا .. القهوة يا ولد .. يا مرحبا أهلا وسهلا ..

ـ أهلا بك يا أبو سريع .. قهوتك مشروبة يا أبو سريع الا أننى أريدك فى كلمتين ..

ـ تحت أمرك .. عن اذنكم يا رجال ..

وينظر الرجال بعضهم لبعض فى دهشة شديدة ثم يقومون الواحد منهم تلو الآخر وقبل أن يصل أولهم الى الباب يصيح سباعى :

ـ يا سـلام ...

ويقف سلام ويلتفت اليه فى اجلال :

ـ نعم يا بك ..

ـ أنتم طول عمركم رجال ..

ـ تحت أمرك .. مر ..

ـ هـذه الزيارة ..

ـ مالها يا بك ..

ـ لم تحصـل .. لم تتم .. لم أجىء الى هنا .. لم يرنى أحد منكم ..

وابتسم سلام وهو يقول :

ـ وهل جئت يا بك حتى يراك أحد منا .. هيا بنا يا رجال

وخرج الجميع وهم يضحكون تشيعهم جملة سباعى :

ـ ألم أقل أنكم طول عمركم رجال ..

وحين خلا المكان بسباعى وأبو سريع قال سباعى :

ـ هل اتفقت مع أحد بعد عز الدين ... بك .

ـ يا بك الأربعين كان أول أمس .. من يمكن أن يكلمنى قبل أن يمر الأربعين ..

ـ لا تتفق ..

ـ أمرك .. فيه حاجة ..

ـ لا تتفق وبس .. أفهمت ؟ ..

ـ أمرك ..

***

١٠

متولى أبو منصــور هو أحس فلاح فى أرض وهــدان جميعا وقد انتج فدانه فى العام الأول من تولى سباعى الأرض سبعة قناطير . وكان نظــام الزراع مع المــلاك خاضعا للمحمول وهو نظــام يشبه الايجار الا ان السداد فيه يكون عينيا أى بالمحصول نفسه . وكان هذا السداد يسمى المحمول وقد غلبت هــذه الكلمة على النظــام كله فكان يقال أن الزراعة بالمحمول وكان محمول الأرض الذى يجب أن يسدده الفلاح فى أرض وهــدان هو ثلاثة قناطير عن فدان القطن وثلاثة أرادب عن فدان القمح وأربعة أرادب عن فدان الذرة . وكان متولى يزرع خمسة أفدنة وكانت الأرض تنتج فى مألوف عادتها خمسة قناطير وكان الأصل أن يكون ثلاثة أخماس المحصول للمالك وخمساه للزارع فان كانت هنــاك مصــاريف زراعية تخصــم بنفس النسبة ما تمثل الكيماوى والرى وجمع قطن عينا أيضا من محصولها .

وحلا لسباعى أن يبدأ حياته الجديدة التى أعد نفســه لها منذ

باكر الأيام مع متولى أبو منصور الذى يزرع عندهم منذ عشرين سنة ونيف . أرسل اليه وبدأ يحاسبه على ملأ من الناس .

ـ كم أنتج الفدان عندك

ـ ياسى سباعى أفندى

ـ بك يا ولد

ـ ولامؤاخذة بك الا تعرف

ـ أعرف ولكن أريد الرجال أن يسمعوا

ـ سبعة قناطير

ـ هو ما قلت

ـ أنـا لا أكذب عمرى وأنت تعرف

ـ سبعة قناطير فى خمسة أفدنة يكون كل محصـولك كم

ـ لا حول ولا قوة الا بالله

ـ انطق

ـ خمسة وثلاثون قنطارا

ـ حلو جدا .. فلماذا وردت خمسة عشر قنطارا .

ـ عجيبة .. ثلاثة فى خمسة .. أليست خمسة عشر . وليس على مصاريف أنـا اشتريت الكيمـاوى ورويت وأنـا الذى جمعت أيضا .. ماذا تعوز منى ياسى سباعى أفندى .

ـ بك

ـ بك

ـ أليس المحمول مخامسة

ـ كان كذلك حقا ولكن المرحوم والدك لمـا رأى الأرض تنتج عادة خمسة قناطير جعل المحمول ثلاثة قناطير حتى ينال الفلاح الذى يجتهد حقه وينال المقصر جزاءه عن ضعف المحصـول وأنت نفسك كنت تحصل منا المحمول منذ سنوات على هذا الأساس •

ـ ولكنى السنة أريده مخامسة

ـ السنة هـذه غير معقول •• اما اذا كنت تريد ذلك فى العام القادم فأمرك ولكن رأيى ان هـذا ليس من مصلحتك وليس عدلا أيضـا •

ـ وهل لك رأى

ـ وكان المرحوم والدك يأخذ به منذ كنت أشيلك على كتفى

ـ اخرس يا ابن الكلب

ـ ابن الكلب •• أهى حصلت يا سباعى ••

ـ بك ••

ـ من غير بك •• سلام عليكم

وانصرف متولى ونادى سباعى

ـ يا أبو سريع

وجاء أبو سريع من الحجرة الأخرى

ـ نعم يا بك

ـ قطن متولى أبو منصـور يذهب رجالك اليوم ومعهم بعض رجال تختارهم أنت وتعبئونه فى الأكياس وتجيئون به الليلة •

ـ أمرك يا بك نكن فقط

ـ مالك

ـ سمعت وهو جالس معك من الرجال انه باع قطنه

ـ باعه ؟

ـ نعـــم

ـ وسلمه ؟

ـ اليوم وقبض ثمنه

ـ تذهبون اليه وتطالبونه بثمن سبعة قناطير منه . أنــا لا أظلم أحدا .. انما حقى لابد أن آخذه .

ولم يجد الرجال الجالسون والذين يقف أمامهم أبو سريع بكل تاريخه فى موقف التابع الخاضع لسباعى بدا من أن يقول قائلهم :

ـ عداك العيب

ـ رجل وابن رجل طول عمرك

ـ وكتر خيرك لانك لم تؤدبه بثمن قنطارين جزاء طريقته فى الكلام مع سعادتك

ويقول سباعى الذى أحس ان مراسم التتويج الاجرامى قد تمت اه بهذا النفاق

ـ المؤدب ربنــا .. أنــا أريــد حقى فقط .. اذهــب أنت يا أبو سريع

ـ أمرك يا سعادة البيك

وينصرف أبو سريع ويأخذ الرجال الجالســـون من ســـباعى فى حديث آخر وحين يأتى أبو سريع يبادره سباعى :

ـ هــه .. أحضرت المبلغ

ـ يا سعادة البك هذا الرجل قليل الأدب

ـ كيف ؟

ـ قال لن أدفع شيئا ولن أخاف منك يا أبو سريع ولا من سيدك الجديد وأعلى ما فى خيلكم اركبوه

ويقول سباعى :

ـ أهو قال هذا

ويقول أبو سريع :

ـ يا سعادة البك وماذا يجعلنى اتقول عليه وأنـا لم أخاطبه فى حياتى الا اليوم

ـ هيه .. طيب منه الى الله .. روح أنت يا أبو سريع

والتفت سباعى الى الرجال وقال :

ـ اذا منعته من الزراعة عندى أيلومنى أحد

وقال أكثرهم نفاقا :

ـ وهذا قليل عليه

وقال سباعى فى تظاهر بالعفو والرحمة

ـ يكفيه هذا وانما أردت فقط ان تكونوا شاهدين

مر على هـذه الواقعة يومان فقط واذا بلدة الصالحة تعلو بها أصوات الأعيرة وما ان تنكتم حتى يعلو الصراخ وتنقلب البلدة كلها الى بيت متولى .. لقد أطلق عليه الرصـاص وهو جالس مع زوجته يتناول العشاء وعلى ركبته ابنه الأصغر الذى كان فى الخامسـة من عمره وقد أفنى الرصـاص ثلاثتهم وجـاءت الشرطة وجاءت النيابـة واستقبلهم العمدة والخفراء وجرى التحقيق ولم يكن أحد فى القرية يجهل القاتل والآمر بالقتل جميعا لأن أحـدا فى القرية لم يكن يجهل

تفاصيل ما حدث بين سباعى ومتولى • ولكن من ذلك الذى يريد أن يلقى مصير متولى • وازداد سباعى فجورا فأعلن أن مصاريف الدفن والمأتم عليه • فهو رجله وهو مسئول عن دفنه هو وابنه وزوجته وعن مأتمهم أيضا • وبلغ أقصى القمة حين وقف يستقبل العزاء يحف به عن يمين شاكر الابن الأكبر لمتولى وعن يسار عبد التواب الابن التالى لشاكر •

وعرفت القرية أو المنطقة أن سباعى قد جلس على عرش سيىء الذكر المجحوم عز الدين الخولى بك •

ثنى سباعى بحسن بن عبد الحميد أبو ديدة الذى أوصاه بابنه هذا لقاء نصيحته له أن يتزوج ابنة عز الدين • طلب سباعى الى حسن أن يبيعه أفدنته الثلاثة فرفض حسن •

ــ ماذا يقول الناس عنى • باع أرض أبيه • خائب أنا اذن لا اكسب من صنعتى •

ويقول سباعى وكأنه ينصحه :

ــ يا بنى أنت فى دكانك ولا تستطيع زراعة الأرض وهم ينهبونها منك •

ــ كل هذا ولا أنى أبيعها

ــ بل تبعيها

ــ أهذا تهديد يا سباعى بك

ــ ليكن كذلك

ــ تقتلنى كما قتلت متولى

ــ وهل أنت كبير

ــ كبير جدا

ـ نشـــوف

ويحرق المحصـــون فى أرض حسن وتسرق بهائمه فى ليلة واحدة ويأتى خاضعا وعيناه نيران ولهيب وغيظ وتمرد ولكنه تمرد المكبل الذى لا يستطيع من كبوله فكاكا .

ـ ابيع يا بك ابيع وأمرى لله .

ـ بنصف الثمن الذى عرضته .

ـ بنصفــه ؟ !

ـ اذا كان يعجبك .

ـ يعجبنى فأبنائى صغار ولن يجدوا من يربيهم من بعدى . ابيع . وان قلت بغير ثمن ابيع أيضا .

وأمر سباعى وكتب العقد .

ثم استدار الى سليمان النواوى . ذلك الرجل الذى أتاح لأبيه أن يشترى عشرة أفدنه بالدين الذى استدانه منه . ذلك الرجل الذى قبل سباعى يده يومذاك وغضب أبوه من فعلته تلك مرتئيا فيها بعدا عن الكرامة . هــذا الرجل صاحب ذلك الفضل عليهم استدار اليه سباعى بجبروته الجديد . وكان الرجل قد علت به السن واستطاع أن يجمع الى الستة أفدنة عشرين أخرى وكف عن التجارة خاشيا ألا يتيح له وهن جسمه أن يقدم لها ما تستحق من سعى . ومكث الرجل يربى أولاده بريع أرضــه .

استقدمه سباعى الذى لم يستطع أن ينسى أن أباه كان يستطيع أن يشترى هــذه الأفدنة الستة وعف عنها بكبرياء من لا ينتهز الفرص وينهش ما ليس له بحق . واســتطاع فى جمود مشاعره وتحجره أن ينسى ان سليمان ابدلهم بالستة أفدنة عشرة ونسى بعواطفه الصــلبة البخيسة صداقة سليمان لأبيه منذ وقف أبوه الى جانبه فى أزمته .

استدعاه :

ـ اشترى الأفدنة الستة .

ومع ان سليمان رجل عجوز خبر من الحياة أوجه الحياة جميعا ومع انه عاش أغلب عمره تاجراً يرى ما لا يراه الناس ويعرف من القوم أسافلهم والاكرمين منهم . ويعرف من الأسافل أشدهم انحطاطا ومن الاكرمين أعلاهم يدا . ومع أنه عرف من الحياة كل دناءتها وكل ما فيها من قذر ودنس ، ومع أنه أصبح وهو لاشيء يدهشه ولا يثير فيه تعجبا .. مع كل هذا .. فغر الرجل فاه . هذا نوع من فجور الحياة لم يتصور انه ملاقيه .. ومن هذا الولد الذى قبل يده . ومن ابن أعز صديق له .

وتمالك سليمان أمر نفسه ولكن بعد فترة ليست بالقصيرة سيطر فيها الصمت الصاخب فى نفسه والصمت المتبجج من محدثه .

ـ آه ... أنت لم تنس ان اباك كان يستطيع أن يشتريها وعف .

ويقول سباعى فى جرأة :

ـ عليك نور .

ـ ولكنك نسيت أننى اشتريت لأبيك عشرة أفدنة بدلا منها .

ـ ونسيت هذا ولن أذكره مهما ذكرتنى به .

ـ كم تريد أن تدفع

ـ بكم تريد أن تبيع .

ـ أما أنا فلا أريد أن أبيع . ولكننى تاجر وأعرف أنك حددت الثمن وأعرف أيضا اننى لن أستطيع أن أناقشك فهل أعددت العقد .

ـ جاهـر .

ـ أين هو ؟

ـ ها هو ذا .

ـ وهذا توقيعى .. سلام عليكم .

ـ ونقودك .

ـ ارسلها حين تريد مع أبو سريع فهو الذى صنع الصفقة .. سلام عليكم .

***

١١

كان صلاح طفلا لا يدرى ما يصنعه أبوه وحين بدأ ينطق الكلام ويفهمه وجد أباه فى مكان الصدارة من البلدة جميعا ووجد الناس لا تخاطبه الا بكل اجلال ، وحين بلغ الخامسة من عمره وجد أبوه أن من الطبيعى أن يذهب الى المدرسة وقد أحب أن يبعده عن القرية فقد خشى أن يجتمع بالفلاحين فيعرف منهم فى طفولته ما لا ينبغى أن يعرفه عن أبيه • أما القاهرة فهى بعيدة وابنه هنـاك سيكون فى تيه عن أمر أبيه وأمر أبيه هنـاك لا يعرفه أحد • وان كان سيلتقى فى القاهرة مع ياسين زوج أخته ومع عابدة أخته الا أن أحدا منهما لن يذم أبا الى ابنه وخاصـة اذا كان الأب هو المتصرف فى أرضهم • ومهمـا يكن ظالمـا لأخته ولخليل متأبيا أن يرفع الايجـار الذى ارتفع فى جميع الأراضى الا انه مع ذلك كان واثقا أن أحدا من الاثنين لن يذم أبـا عند ابنه • وسيرى هناك الدكتور خليل عمه ولكن خليل أبعد ما يكون عن ذلك فان من هو فى مثل علمه لا يتصـور أن يذكر أبـا عنده ولده بما لا يرضاه •

كلم سباعى ياسين فى التليفون وطلب اليه أن يبحث له بجوارهم

فى المنيرة عن شقة تسكن فيها قدرية وابنها وقدر انه بقربه من ياسين المدرس سيكون فى رعاية منه طيبة خاصـة وانه فى مثل سن ابنه عمر وسيذهبان مدرسـة واحدة ◆ وتم الأمر كما أراد تماما وذهب سباعى الى القاهرة ورأى الشقة وكانت فاخرة واسعة فقد استقر فى نفسه أن تكون بيتا له فى القاهرة يلتقى فيها بمن يرى دعوتهم الى غداء أو عشاء اذا اقتضت مصلحة أن يدعو الى غداء أو عشاء ، وبعد أن وقع عقد الشقة عزمت عليه أخته وزوجها أن يبيت ليلته عندهما ولكنه رأى أن يبيت عند أخيه خليل ◆ واستقبله خليل بترحاب أخ شريف يحب أخاه ويتغاضى عما يرتكس فيه مما لا يرضاه الشرفاء وبعد العشاء قـال خليـل :

ــ قـل لى يا سـباعى ◆◆ من المؤكد انك عنـدك من المـال السائل ما تريد ◆

ــ الحمد لله لا أشكو ◆

ــ لا تخف أنـا لا أنوى أن أستلف منك فالحمد لله أنت لاشك تعرف انى اكسب من عملى مكسبا يكفينى ويزيد ◆

ــ ولمـاذا لم تفكر فى الزواج ◆

ــ فـكرت ◆

ــ واخترت ؟

ــ وسأدعوك قريبا لتخطب لى وتتفق على كتب الكتاب ◆

ــ أعرفهـا ؟

ــ لا أظن انها ابنة أستاذ لى وطبيبة زميلتى

ــ وستجعلها تعمل ؟

ــ طبعـا هـذا أمر لا تتصـوره أنت ولكن هـل تظن مصر تستطيع أن تستغنى عن جهد طبيب أو طبيبة ◆

ويقول سباعى فى دهشة :

ــ مصر وأنت مالك وما لمصر

ويقول خليل فى حسم :

ــ طبعا هذا موضوع لا شأن لك انت به

ــ أنـا من مصر .. آلست كذلك

ــ سباعى اعمل معروف .. يا أخى لكل منا طريق فى الحيـاة لا يتوازى معه ولكن يتقاطع .. ولا يمكن ان أفهمك وأنت أيضـا لا يمكن أن تفهمنى فدع هـذا وقل لى . هل عندك مانع أن تشترى أرضى .

ــ مطلقا .. كم تريد فى الفدان

ــ انت الذى تسألنى .. اننى لو كنت أبيعهـا لغريب لجعلتك انت الذى تبيعها عنى

ــ وهو كذلك .. اشتريت

ــ ادفع الثمن ولن أناقشك فيه واكتب العقد الآن

وكتب سباعى الشيك وكتب خليل العقد وتمت الصفقة .

وقـال سباعى :

ــ أين مفتاح شقتك ؟

ــ فى جيبى

ــ نم أنت اذن وسأترك لك المفتـاح على هـذه المنضدة حين أعود حتى تخرج الى عملك ولا توقظنى .

ــ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ ألم تقل ان الطريقين متقاطعان

ـ فقط أردت أن أعلم

ـ وأنت تعلم ولكنك تتخابث على

ـ ظننت أنك ستقضى الليلة معى نسمر فأنا لا نلتقى الا نادرا

ـ أنت ستنام

ـ ما أخبار أمى ؟

ـ قاطعتنى

ـ ولهذا أسألك ..

ـ ولماذا ؟

ـ انها قادمة لتعيش معى

ـ أحسن

ـ أتظن ذلك

ـ أصبحت لا تحتمل البلد

ـ لا يخرج أمى نبوية من البلد الا ما لا تطيق

ـ ما دمنا اتفقنا أن الطريقين متقاطعان الا يحسن بنا الا يناقش أحدنا طريق الآخر

ـ على كل حال أشكرك

ـ العفو عـلام ؟

ـ انك جعلت أمى تأتى لتعيش معى

ـ وسأرسل لك ايجار أرضها كل سنة

ـ بل أظنها ستوكلنى فى بيع آرضها هى أيضا

ـ وعلام توكلك •• اكتب وخذ العقد وخذ الشيك ولتوقع هى العقد عندما تحب

ـ وهو كذلك

ـ وتمت الصفقة •• وقال سباعى :

ـ والآن أين المفتاح ؟

ـ هل أنت مصمم

ـ لو شفت ما أشوفه أنا حين اجىء الى مصر لما سألتنى هذا السؤال •• اتظن نفسك عائشا يا دكتور

ـ علم الله أن حياتى هى الحياة •• ولكن فليتقاطع الطريقان ولا نقاطع نحن وخذ المفتاح •

ـ ولكن تقاطع الطريقين لن يمنعك من رعاية صلاح فانى سأتركه تحت اشرافك وسجلت اسمك فى المدرسة وليا لأمره •

ـ هل رأيتنى عمرك اتخلى عن واجبى • أنا أعرف واجبى دائما وصلاح ابنى كما هو ابنك •

ـ أعرف ذلك سلام عليكم ••

وخرج سباعى الى سهراته التى بدأ تاريخه معها فى صحبة شعبان والتى أصبح مجيئه الى مصر مرتبطا بها ارتباطا يوشك أن يكون هو الوحيد •

***

حين جاءت نبوية الى بيت خليل وأعطاها ثمن أرضها سألته :

ـ ماذا أنت صانع بأموالك

ـ سأشترى بها كمية من الأسهم

ـ وماذا تصنع هـذه الأسهم

ـ تدر دخلا أحسن من دخل الأرض على الأقل .

ـ اذن فاسمع اشتر بثمن أرضى أنـا أيضا كمية من الأسـهم باسم أختك فاطمة وأختك عابدة واسمك للذكر مثل حظ الانثيين .

ـ أنـا متنازل عن نصيبى لهما .

ـ الله يفتح عليك ويعوضنى فيك عما أصابنى به من أخيك . فقط أريد الريع طول حياتى .

ـ وأنـا أدفع لك قيمة الريع واتركى أنت الربع للبنات .

ـ .. أطال الله عمرك ولكن لا .. ان أعيش على نفقتك لا مانع فهذا حقى عليـك لكن مصروف يدى لابد أن يكون من دخل مالى أنـا .. حين أريد أن أعطى أحدا من أولاد أختيك هدية لابد أن تكون من مالى أنـا . أعط انت لأختيك ما تشاء لتعينهما أما أنـا فريـع الأسهم يكون لى طول حياتى .

ـ امرك . وسيكون كذلك .

***

١٢

حين اقتربت الاجازة الصيفية كان سـباعى فى بيته بالقاهرة فى المـامه سريعة فاذا صلاح يقول له :

ـ بابا سنأخذ الاجازة الصيفية بعد أسبوعين .

ووجم سباعى فما كان يفكر فى هـذه الاجازة فطالعته من حيث لا يحتسب ودون وعى سأل ابنه :

ـ وماذا تريد أن تفعل

ـ أذهب للبلد

ـ وماذا تصنع فى البلد

ـ أركب الحمير وألعب الكرة .. اننى أريدك أن تشترى لى كرة ألعب بها مع أصحابى فى البلد

ـ أى بلد التى تذهب اليها

ـ بلدنا .. أنـا أحبها جدا يا بابا

ـ يا بنى البلد تراب وعفار

ــ ولكنك تعيش فيها مع التراب والعفار

ــ شــغلى

ــ رفضت فى العيد واجـازة نصف الســنة أن تذهب بى الى هناك ٠٠ أرجوك يا بابا ٠٠ والنبى

ــ ألم أجىء اليكم فى العيد

ــ أنت جئت نعم ولكن البلد لم تجىء

ــ وكيف تريد البلد أن تجىء

ــ أذهب اليها أنـا

وفجـأة ومضت فى ذهن ســباعى فــكرة لم تكن خطــرت له على بال

ــ أنت تلعب مع من طول السنة

ــ مع أصحابى فى المدرسة ومع عمر ابن عمتى

وهنا فقط تدخلت قدرية فى الحديث :

ــ الله يخليها عابدة لا تتركنى ليلا ولا نهارا أما ياسين أفندى فلابد أن تقدم له هدية عظيمــة انه يعامل صلاح كأنه ابنه عمر وزيادة لا يشغله شىء فى الدنيا أن يعطيهما كل يوم الدرس ويراجع معهمـا دروس المدرسة فاذا أحسن صــلاح الاجابة أعطاه مكافأة من النعناع والملبس والشيكولاتة التى لا يخلو منها درجه أبدا ٠

والتفت سباعى الى صلاح

ــ مبسوط منك عمك ياسين يا صلاح

ــ كل يوم آخذ أنــا النعنــاع والملبس والشيــكولاتة وعمر لا يأخذ

ـ أنت أشطر من عمر

ـ بزمـان

وقـال سباعى :

ـ ما رأيك أن تذهب أنت وعمر وعمتك عابدة وعمك ياسـين الى الاسكندرية لتصيفوا هناك

والتفت الى قدرية وقال لها :

ـ وتكون هذه هى هديتنا الى ياسين وعائلته

وقبل أن تجيب قدرية يقول صلاح :

ـ ما الاسكندرية هذه يا بابا أنـا لم أرها عمرى
ويقول الأب فى سخرية :

ـ والله يا ابنى ولا أنـا ولكن ماذا أفعل .. الغلبة لها أحكام
وتقول قدرية وهى مترددة فى السؤال وكأنها تعرف الاجابة :

ـ لمـاذا لا تريد صلاح أن يذهب الى البلد

ـ أريده بعيدا عنها

ـ الا ينبغى أن يتصل بالأرض

ـ ليس الآن .. حين يكبر

وفى خوف ولعثمة قالت قدرية :

ـ اذا كنت لا تريده أن يعرف ما تفعله فلماذا تفعله

وفى حسم قـال :

ـ أنت التى تقولين هـذا يا بنت عز الدين الخولى دعى هـذا الكلام لغيرك

ـ ومن قال لك انى كنت راضية عما يفعله أبى

ـ اذن فما دمت لم تكونى راضية فمن الطبيعى الا يذهب صلاح الى البلد ..

وحاولت أن تقول :

ـ ولكن ...

وقاطعها سباعى فى لهجته العاتية التى أصبحت طبيعة عنده .

ـ انتهينا .. لا مناقشة .

ونسكت قدرية رأسها فى استسلام .

ـ أمرك ..

ومر هذا النقاش على ذهن صلاح وكأنه لغة أخرى غير التى يعرفها فهو لم يفهم من الحديث شيئا وكان يفكر أن يسأل ولكنه حين رأى الطريقة التى ختم بها أبوه الحديث أخذه الرعب من ملامح أبيه ولهجته فنكس رأسه فى استسلام وراحت عيناه ترتفعان الى أبيه مخالسة ثم ترتدان الى أسفل كأنما يخشى أن يراه أبوه وهو يتجرأ على النظر اليه . ورمقه أبوه فى حاله هذه فحاول أن يزيل ما علق بنفسه من أثار الحديث .

ـ وماذا يدرس لك عمك ياسين ؟ ..

ـ القرآن ..

ـ القرآن ؟ ..

ـ نعم .. فأنا أحفظ الفاتحة وأحفظ الكثير من السور .

ونظر سباعى الى زوجته وسألها :

ـ هل يدرسون لهم القرآن فى المدرسة ؟ ..

وقبل أن تجيب أجاب صلاح :

ــ لا •• ولكن عمى ياسين يدرس لنا القرآن مع دروس المدرسة ••

ولم يجد سباعى شيئا يعلق به الا أن يقول :

ــ ما رأيك أن تذهب الى الاسكندرية ؟ ••

ــ أنا لا أعرفها ••

ــ سنعرفها معا ••

ــ هل ستبقى معنا هناك ؟ ••

ــ أطل عليكم كما أفعل هنا •• هيه ما رأيك ؟ ••

ــ أريد أن أذهب الى البلدة ••

وحسم سباعى الموقف :

ــ ستذهب الى الاسكندرية ••

وفى الصباح توجه سباعى الى الاسكندرية وحين نزل من القطار سأل عن فندق وذهب الى فندق سيسيل •

وهناك طلب من ادارة الفندق أن تدله على سمسار شقق وبدأه :

ــ أريد شقة ••

ــ للمصيف ؟ ••

ــ طبعا ••

ــ تقصد مفروشة ••

وفكر سباعى قليلا فوجد نفسه لا يفهم السؤال فلم يجد بدا من أن يسأل :

ـ ماذا تقصد ؟ ..

وفهم السمسار أنه أمام رجل لم يطأ الاسكندرية من قبل فقال :

ـ هناك شقق يمكن أن تستأجرها طول العام وتفرشها أنت وهناك شقق تؤجر للصيف فقط وتكون مفروشة ويكون ايجارها مدة الصيف فقط أو جزءا منه اذا شئت أنت وكيفك .

وفكر سباعى قليلا ..

ـ والشقق التى أستأجرها طول العام أفرشها أنا ؟ ..

وقال السمسار :

ـ نعم وطبعا تستطيع أن تأتى اليها فى الصيف وفى الشتاء كما تريد .. تصبح شقتك ..

ـ وكم ايجار هذه وكم ايجار المفروشة ؟ ..

ـ على حسب الحجم والمكان ..

ـ أقصد الفرق كبير بين المفروشة وغير المفروشة ؟

ـ طبعا المفروشة تكون أغلى بكثير لأنك تستأجرها بفرشها ولمدة ثلاثة أشهر فقط على الأكثر ..

ـ والسنة الجائية اذا أردت أن أصيف ؟ ..

ـ نستأجر لك شقة أخرى ..

ـ وأظل كل سنة أبحث عن شقة ؟ .

ـ طبعا ..

ـ اذن فأنا لا أريد شقة مفروشة ..

ـ عظيم •• تريد شقة طول السنة ••

ـ طول الســنوات ••

ـ طبعا •• العقد يتجدد من تلقاء نفسه ••

ـ أريد من هــذه ••

ـ كم تريد أن تدفع ؟ ••

ـ أريد شقة واسعة وعلى البحر والفلوس لا تهم ••

وكان ما أراد ••

***

١٣

حين صدر قانون الاصلاح الزراعى الأول لم يمس سباعى فقد كانت أرضه لا تزيد عن المائة فدان الا قليلا وكانت أرض زوجته تقارب السبعين فدانا .. أما شعبان فقد كانت أرضه تقارب المائة والأربعين فدانا .. ولكنه أحس بما تحمله هذه القوانين فى طواياها فطلب الى سباعى :

ــ بع أرضى ..

ــ ماذا تقول ؟ ..

ــ أنا لست فلاحا .. والدولة أصبحت لا تحب الملاك ..

وفكر سباعى قليلا .. انه يرى فى كلام شعبان حقا ولكن بيع هذه الأرض سيجعل المساحة التى يشرف عليها تتقلص فنظر الى شعبان طويلا ثم قال :

ــ ما رأيك أبيع أرضك ولا أبيعها ؟ ..

ــ وكيف ؟ ..

ـ اكتبها بأسماء فلاحين آخرين واستكتبهم أوراقا بمبالغ من ثمنهـا ..

ـ الله أكبر .. أحاول أن أهرب من الحكومة فأقع فى أيدى ناس الله أعلم بذمتهم ..

ـ أيجرؤ أحد منهم أن يطالب بالأرض ؟ ..

ـ يجرؤ أحـد .. ويقول ان هـذا البـائع هو ابن عز الدين الخولى وانه اغتصب منا كمبيالات ... لا .. لا يا عم .. الا هذا .. وأنـا ما حاجتى الى الأرض .. بعها يا سباعى .. واسمع منى نصيحة هـذا الزمن يجب أن تعرف أنه غير الزمن الذى نعرفه والله وحـده يعلم ما مصير الملاك فيه ..

ـ والله كلامك معقول ..

ـ بع أرضى الآن .. وأنت اليوم تستطيع أن تحسن بيعها قبل أن تضيع منى .

ـ وماذا ستعمل بالفلوس .. تصرفها على اياهن ؟ ..

ـ أنـا أحب المتعة ولكنى صاحب أولاد وقد فكرت جيدا ..

ـ ماذا ستفعل ؟ ..

ـ سأعطى الفلوس كلهـا للأمير .. وان شئت أن تطمئن على سلمها أنت له ..

وبعد ..

ـ سيضعها فى أحد مشاريعه وسيعطينى مرتبا شـهريا أكبر من ريع الأرض خمس مرات وآخر السنة يعطينى بقية أرباحى ويبقى رأس المـال كما هو .. وحتى يزداد اطمئنانك سيضع المـال باسـم وليد وسمية بالنصيب الشرعى ..

ـ وهو كذلك ..

ـ كم يستغرق بيع الأرض ؟ ..

ـ لو كان غيرى الذى يبيع لاستغرق بيعها شهورا قد تصل سنوات أما أنا ففى مدى شهر واحد سأكون قد بعت الأرض ..

وأنفذ سباعى وعده وكان الأمر ميسورا بالنسبة اليه فقد أمر كل مستأجر فى الأرض أن يشترى الأرض التى يزرعها ولم يبالغ فى الثمن وسارع المستأجرون يشترون فقد كانوا على ثقة أنهم لن يحصلوا على هذه الأرض تطبيقا لقانون الاصلاح الزراعى الذى سمح للمالك أن يستبقى مائتى فدان اذا لم يكن له أبناء وثلاثمائة اذا كان أبا .. وشعبان أب وأين مائة وأربعون من ثلاثمائة .. ولم يكن عسيرا على المستأجرين أن يحصلوا على أثمان الأرض فمن لم يكن منهم ميسورا كان يسيرا عليه أن يستدين المبلغ أو يتقاسم الأرض مع ميسور على أن يسدد هو ما عليه على مدى الأيام ..

باع سباعى الأرض جميعا وأبلغ شعبان بأن ثمن الأرض جميعه معه .. وقال شعبان فى فرحة :

ـ يعمر بيتك .. ما رأيك .. الأمير هنا هذه الأيام سأدعوه للغداء عندك بعد غد وسيتم كل شىء أمامك ..

ـ وهو كذلك .. يا مرحبا ..

وتم الأمر كما رتبه شعبان وأصبح شعبان لا يملك قيراطا واحدا من الأرض ..

***

كان سباعى قد انضم الى التنظيمات السياسية الجديدة ولهذا لم يكن عجيبا أن ترشحه الحكومة فى دائرة عز الدين الخولى ..

وبدأت الانتخابات •• وطلب صلاح أن يأتى الى البلدة ليكون مع أبيه أثناء مروره بالدائرة • وأحب سباعى أن يشهد صلاح أباه والناس تهتف باسمه والخطب تلقى فى مديحه •• وجاء صـــلاح ورأى عجبا •• رأى أباه يمر بالدائرة ولكن محوطا دائما بالســـلاح يشهره أبو سريع ورجاله ورأى فى نقاء صباه أن الناس تهتف ولكن العيون والوجوه لا تهتف •• وسمع الخطب تلقى ولكن الخطباء يتكلمون مذعورين •• فالأوجه منهم باسرة وعلى الجبين منهم حسرة وفى أصـــواتهم رنين المقهورين من الرجال فعل المغلوب على أمره لا اختيار له ••

قليلا ما بقى •• وعجب أبوه ألا يفرح صـــلاح بما يرى واستبعد أن يكون قد وصل ببصيرته الى خفايا النفوس •• وما كان يتصـــور أن الروح الشفيفة ترى من الأشياء ما تخطئـــه العيون •• وحزر أن يكون أحد قد هجس فى أذن صـــلاح بجبروت أبيه ولكنه استبعد هـــذا الحزر أيضا فمن ذاك الذى يجرؤ على أن يقـــدم على هـــذه الهمسة •• اذن فلماذا يطلب صلاح أن يعود الى القاهرة ؟ ••

ــ وراءى مذاكرة ••

ــ ألا تريد أن تنتظر حتى تعرف النتيجة ؟ ••

ــ المرشح الآخر واضح الضعف وأنـــا واثق من نجاحك ••

وسافر صـــلاح عائدا الى القاهرة وفى نفسه الكثير مما لو أراد أن يعبر عنه لمـــا استطاع •• انها مجرد مشاعر •• ان حاول أن يسأل سته أو عمه أو عمته فانهم جميعا سيطلبون اليه ألا يفكر فى هذا الذى يغشى ظنونه وكيف لأم أو لأخ أو لأخت أن يشوهوا ابنهم أو أخاهم أمام ابنه ؟ ••

طوق نفســـه على ما بها وصمت ولكن نفســـه أبت عليه هـــذا الصمت •• قال لعمر :

ـ يا أخى سبحان الله •• هنـــاك شيء فى البلدة لا أعرف كيف أقــوله ••

ـ مـــاذا ؟ ••

ـ الناس تخاف من أبى ••

ـــوماذا فى هذا ؟ ••

ـ الكلام معك لا يجدى ••

وانتظر فرصـــة فى فسحة الظهيرة وذهب الى زوج عمتـــه فقد أصبح هو وعمر تلميذين فى المدرســـة نفسها التى يعمل ياسين مدرسا بها • وكان صـــلاح يحس نحو ياسين بنوة صادقة يمازجها اعجـــاب شديد •• فقد استطاع ياسين أن يرسى فى نفسه حب الله والطمأنينـــة اليه بما علمه من الدين وما حببه فى القراءة وفى كل المعانى التى أصبح صلاح يجد فيها سموا وقربا من السماء •• كما استطاع أن يجعله يحب أن يذاكر لا للنجاح ولكن للعلم •• وان كان صلاح فى سنه هـــذه الباكرة المتشوقة فى مطالع الشباب الأولى الى الغد لا يستطيع أن يقدر فضـــل ياسين عليه بالعقل والمنطق الا أنه كان يشعر بهذا الفضـــل بنقاء هذه السن التى تتمازج فيها الطفولة مع الشباب ••

ـ عم ياسين •• أريدك فى كلمة ••

وكان ياسين فى حجرة المدرسين فقال :

ـ تعال •• وقل ••

ـ لا ••• اذا سمحت ••• تتمشى فى الفناء •••

ورأى ياسين على وجه الصبى الذى رباه خلجات لم يشـــهدها عليه قبل اليوم فقام اليه •• وقال صلاح فى لجلجة :

ـ لا أعرف كيف أبدأ ولكن أنـــا لم أكمل الانتخابات مع أبى •

ـ أعرف ذلك وحسنا فعلت حتى لا يفوتك شيء من الدراسة •

ـ هذا ما قلته له ولكن ليس هـذا ما جعلنى أترك المعـركة الانتخـابية ••

وصمت ياسين قليلا ثم قال :

ـ الحق أنـا دهشت لهذا الذى فعلته •• فالشباب فى سـنك يحبون هـذه المعـارك ويسعون اليها فما الذى جعلك تترك هـذه المتعـة ؟ ••

ـ كانـوا يهتفون لأبى ويلقون له الخطب ويدقـون الطبـل والمزمـار ••

ـ ألم يسرك أن تجد أباك محبوبا ؟

ـ هذا هو ما أرجعنى ••

ـ ألا تحب أن تراه محبوبا •

ـ بل لا أتمنى شيئا فى حياتى قدر أن يكون أبى محبوبا •

ـ ألم يكن ما رأيته علامات الحب ؟ ••

ـ بل هو علامات حب ••

ـ اذن ؟ ••

ـ علامات غير صادقـة •• رأيت فى العيون خوفا ورأيت فى القلوب رعبا •• لم يكن الحب هو الذى رأيته ••

وأطبق الصمت بين المتحدثين تماما •• أما ياسين فلا يدرى ماذا يقول •• أيقول انه انقطع عن الذهـاب الى البلدة حتى لا يسـمع ما يصنعه نسيبه بالناس •• أيروى لهذا الفتى الغض كيف جمع أرضه وهو لم يرث عن أبيه الا عشرها تقريبا وما ذنب صـلاح فيما صنع

أبوه •• ولكن هو يعرف منزلته عند صلاح ولا يحب أن تهتز هــذه المنزلة •• من أجــل مستقبل صــلاح نفسه لا ينبغى أن تهتز هــذه المنزلة •• واذا كذب عليه اليوم فهو فى غد سيعرف الحقيقة فكيف ستكون نظرته اليه •• ربما يدرك ويقدر ولكن اذا أحس أن أســتاذه وزوج عمته الذى كان منه دائما بمكان الوالد يكذبه فمن يصــدق اذن وأين ينشد الصــدق اذا لم ينشده عند الانسان الذى يعتبره بغريزته الصافية أبــاه الروحى •• ولمــاذا لم يوجه هــذا السؤال الى عمتــه بل لمــاذا تحرى أن يأخذ فى هــذا الحديث معه فى المدرسة وهو قادر دائما أن يحادثه فى البيت الذى يعتبره بيتا ثانيــا له • أو لمــاذا لم يسأل جدته أو عمه •• لقد خشى أن يحرج أحدا منهما والوحيد الذى ألقى اليه بثقته هو أنــا ••

وتقبل صــلاح الصمت الطويل متصــورا أنه لم يستطع أن يحسن البيان عما يجيش بصدره •• وأخيرا تكلم ياسين ••

ـــ صلاح •• اسمع •• انك غير مسئول عن أبيك ••

ـــ ولكنه مسئول عنى ••

ـــ ولكنك غير مسئول عنه ••

ـــ ولكن الناس تنسبنى اليه وأنــا ابنه فعلا ••

ـــ هذا يجعله مســئولا عن الانفــاق عليك ولكن حين تخرج الى الحياة ستكون وحدك فى مواجهتها فهى لن تعرف الا أنت •• وانى أراك تحسن اعداد نفســك لمواجهتها وحينئذ لن يقول الناس من أبوه وانما سيعاملونك مع موقفك منهم ومع موقفك من الحياة ومن البشر ومن الانسانية •• وحينئذ يصبح أبوك أيضا وهو غير مسئول عنك •• انه لم يقصر فى شأنك ••

ـــ وهل المسئولية مال فقط يا عمى ياسين أفندى ؟ ••

ـ انه اطمأن انك معى وانى أحسن القيـام بشأنك وأنـا لحسن حظه أو لحسن حظك مدرس أيضا والتعامل مع الناشئين هو صناعتى وليست صناعته ..

ـ اسمع يا عمى ياسين أفندى انك أجبت أحسن اجابة وانى أشكرك ولقد قلت أكثر مما توقعت أن أسمعه منك .. لن أفتح هذا الموضوع معك مرة أخرى ..

ودق جرس المدرسـة وذهب المدرس الى مكان المدرس والتلميذ الى مكان التلميذ .

توفيت نبوية واتصل خليل بأخيه وأخبره :

***

ـ سأقيم المـأتم وأنتظركم ..

ـ لا تقم المـأتم ..

ـ ماذا ؟ ! كيف ؟ !

ـ لقد طلبت أن يكون العزاء فيها أمام بيتى ..

ـ أمرها .. أجيء فوراً ..

ـ بل انتظر ..

ـ مـاذا ؟ !

ـ لقد طلبت أيضا أن تدفن الى جانب أبى فأعد مكانهـا وتعال لتتقبل العزاء ..

***

حدث انفصـال سوريا وصـدرت القوانين فى مصر بمصـادرة شركات وأموال .. وهكذا فقد خليل أغلب أمواله فقد كان يضـع

كل ربحه من الطب فى الأسهم شأن أغلب الأطباء وكان رأيهم أنهم ليسوا فلاحين وأن عملهم فى العيادات وفى المستشفيات لن يسمح لهم أن يباشروا أرضهم حتى ولو كانوا من هواة الزراعة .. فاذا أرادوا أن يبنوا عمارات فهم قد رأوا ما حل بأصحاب العمارات من أهوال فلم يكن أمامهم الا الأسهم تعطيهم عائدا دون أن تتطلب منهم مباشرة ودون أن تعرضهم لما يتعرض له أصحاب الأملاك كافة أرضا كانت هذه الأملاك أو كانت عمارات .

وهكذا لم يبق للدكتور خليل الا أوشال وضاع عليه جهد السنين الطويلة التى عاناها والتى كان يأمل أن يجد فيها موئلا حين يفكر ابنه وهدان فى الدراسة بالخارج أو حين يأتى اليوم وتتزوج ابنته نبوية .

سبحانك يارب .. أهذه هى العدالة الاجتماعية .. أخى الذى جمع ماله بهذه الوسائل لا يمسه شىء وأنا الذى جمعت مالى بما يرضيك أصاب بهذه المصيبة ولكنه سرعان ما نفض عن نفسه هذا الخاطر .. ان الله عادل والذى أنزل بى هذا الخراب بشر من البشر .. ولا يجوز لى أن أنفس على أخى انه لم يمس .. ولكنها هواجس نفسى وليس لى فيها حيلة .. الأمر لله من قبل ومن بعد ..

أما فاطمة وعابدة فقد أصابتهما القوانين فى دخلهما ولم تصبهما فى رأس المال فقد كان بطبيعته أقل من الحد الأدنى الذى أعفاه القانون ..

ولكن المصيبة الحقيقية هى تلك التى نزلت بعد أيام بقدرية زوجة سباعى الذى أصبح عضوا بمجلس الأمة .. فقد صدر قرار بمصادرة أموال أبناء المرحوم عز الدين الخولى وابنته .. ونزل القرار بسباعى فاجعة قاصفة .. وراح يطرق الأبواب بكل الوسائل التى يستطيعها ولكن هيهات .. لا سبيل .

ليس عجيبا أن يكون سباعى وحده هو الذى أحس بهول

الكارثة فقدرية لم تكن تدرى عن الأرض شيئا وهى تعيش فى حمى زوجها وتعلم أن شيئا لن ينقصها وما كانت مطالبها تزيد عما تحتاجه حياة طيبة ليس فيها هوان وليس فيها أى بذخ •• أما المشاعر التى كان من المفروض ان تشترك فيها مع زوجها فهى لم تكن موجودة •• بينهما فى أى شىء حتى تجمع بينهما فى هـذه الكارثة • وبلطف من الله كانت قدرية تحس أن غنى ابنها صلاح لن يكون بمال أبيه وانما بعلمه الذى ظل متفوقا فيه دائما • وهو فى هـذا العام مقبل على امتحان الثانوية العامة وهى تريد أن يكون الصفاء مخيمـا على البيت حتى لا تتأثر نفس صلاح بأى عامل خارجى •

أما صلاح فلم يكن يعرف عن أرض أبيه شيئا وانما هو مشغول بالعلم وبالقراءة وبالشـباب وبصـداقات فى المدرسـة يريد أن ينسى ما وسعه الجهد ما رأى من خوف الطبالين والزمارين والهاتفين لأبيـه وأصحاب الخطب التى كانوا يلقونها فى مدحه وقد وجد بغيته بالاقبال بالحياة على الحياة •• وألقى نفسه فى دفاعها يتعلمها منها ومما يكتب الكتـاب ومما يؤلف الفنانون فى الموسيقى والرسم •• ومن التاريخ الذى كان يعتبره السـيرة الذاتيـة للحياة كتبها عنها أبنـاء لها منهم الصادق ومنهم المتحمس الذى يميل به تحمسه عن الصدق الى الهوى • وكان يحلو له أن يرى تصـارع هؤلاء المتحمسين ويرى كلا منهم وهو واقف على طرف قصى من أطراف الحقيقة وعرف صلاح التيـارات الدينية والتيارات الملحدة •

وناقش كل الآراء مع عمه ياسين وكان يقبل رأيه حينا ويرفضـه أحيانا ولكنه كان يحترم الرأى وصاحبه دائما •

وحين صودرت أموال أمه كان يدرك أن هـذا لن يؤثر على حياته فى شىء ولم يكن يهمه الا أن تظل حياته كما هى حتى يتم تعليمه ثم يتفرغ بعد ذلك لمـا يحاول أن ينساه مما رآه فى الانتخابات ••

فموقفه الذى اتخذه بالتباعد عما رآه فى الانتخابات وعما استشفه من حديث ياسين لم يكن الموقف النهـائى له وانما كان موقف الذى يؤجل المواجهة الى اليوم الذى يستطيع فيه أن يواجه وهو قادر حتى تكون للمواجهة يومذاك قيمة ولا تكون مجرد احتجاج كاحتجاجات هيئة الأمم .

ولم تكتف الأيام بهذه الصاعقة تنزلها بسباعى بل نزلت به صاعقة أخرى فقد صـدر أمر بترحيل أبو سريع الى جبل الطور مع المجرمين الذى يخشى على الأمن منهم . وراح سباعى يبذل مساعيه للافراج عنه وفى هـذه المرة نجح سعيه وعاد أبو سريع الى البلدة وأمر سـباعى فاستقبله الطبل والزمر والفرح ولكن ما هى الا أيام لا تصـل الى الشهر حتى جاء النبأ لسباعى أن أبو سريع قتل وهو عائد فى الليل من البندر . وحاول سباعى أن يتماسـك وجعل سلام كبير مجرميه بعد أبو سريع ولكن أين الوشل من الغمر وأين التلميذ من الأستاذ .

***

١٤

التحق صـــلاح بكلية الحقوق وقد انتسب اليها عن رغبة وليس بارعام من المجموع فقد كان مجموعه يؤهله لأ ى كلية يختارها وهنـــاك تعرف بأصـــدقاء جدد الى جانب من التحق معه بالكليـــة من زملاء دراسته الثانوية •• وكانت معه فى نفس السنة عديلة • أعجب بها منذ وقعت عينه عليها •• وما أيسر ما عرف اسمها عديلة عبد الغنى الزاهد • ولكن فى زحـــام الطلبـــة لم يكن يعرف عن أبيهـــا شيئا الا اســـمه أما وظيفته •• أما بلدته •• ولكى ماذا يهمنى من وظيفته أو بلدته •• وماذا يهمنى أيضا من عديلة •• انها جميلة وفقط •• وأنـــا لست قادما الى هنا لأحب فللحب أمكنة أخرى •• ولكن البنت حلوة •• وحلاوتها جعلتنى أعرف اسمها والأمر عند ى ينتهى الى هذا الحد •

ولننظر بعد ذلك فى أمر هـــذه الكلية التى تحمل اســـما من أشرف أسماء التاريخ •• الحق وهو اسم من أسماء الله الحسنى •• وان من أسمى معانى الحياة أن يعرف الانسان الحق •• ويقف عنده •• ترى لو لم تحدث لى هـــذه الحادثة التافهة فى أول سنة لى فى المدرسة الاعدادية أكنت انتسبت الى كلية الحقوق •• من يدرى •• لـــماذا

لا تريد هـذه الحادثة أن تفارقنى •• أهى حادثـة •• انها واقعـة صغيرة •• ولكنها فى حياتى كانت حادثة بل هى الحادثة الوحيدة التى ارتكبتها لمـاذا لا تريد أن تبارحنى •• كان ياسين أفندى يدرس لى القرآن فى الليلة السابقة على هـذه الحادثة وكان يشرح لى أن السرقة حرام وأن الذى يسرق يعاقبه الله •• وفى اليوم التالى كان علينا حصـة حساب بعد الفسحة مباشرة •• وبدون أى مناسـبة ذهبت الى الفصل قبل أن يدق جرس الحصة وجلست الى الدرج أعيد النظر فى واجب الحساب ووجدت زميلى عبد التواب تاركا قلم حبر على درجـه •• القلم رخيص كل الرخص •• ولكننى قلت فى نفسى سأسرق هـذا القلم وأرى ان كان الله سيعاقبنى أم لا •• وبفكرة السرقـة وحدها أخذت القلم •• ربما لو كنت أخذته دون تفكير فى السرقة كان الأمر قد اختلف وانما أنـا أستوليت عليه بقصـد السرقة وأعلنت هـذا لنفسى • وبدأت أوضح بالقـلم أرقام مسـألة حسابية من مسـائل الواجب •• أمر عجيب •• القلم جديد •• فما هـذا الذى حدث •• كيف انكسر دون أى ضغط منى عليه ثم انتثر الحبر منه على الواجب كله حتى لم يبق فى الصفحة مكان لم ترتم عليه بقعة حبر •• أكل هذا الحبر كان فى هذا القلم الصغير ؟ •

عرفت الحياة بعد ذلك وعرفت أن الله لا يعاقب كل السارقين من الحياة فى الحياة وانما عقابهم فى الآخرة •• وجعلتنى هـذه المعرفة أوقن أن الله يرعانى بعنايته وانه أنزل بى العقاب عند أول سرقة لى •• وهو وحده يعلم أى طريق كنت سأسير فيه لو لم يردعنى فى بادرتى الأولى •• أم ترى من حقى الآن أن أقول فى حادثتى الأولى والتى أصبحت أخيرة •

أهـذا ما جعلنى أختار كلية الحقوق ؟ •• ان الذين انتسبوا اليها معى عن اختيار قلة نادرة فأغلب زملائى فيما رمى بهم اليها المجموع •• لمـاذا •• لمـاذا يرفضـون الالتحاق بكلية الحقوق •• أترانا أصبحنا

فى زمن لا حقوق فيه .. هل ضـاع فى زماننا حق الله وحق الوطن وحق الأسرة وحق الناس ؟ .. والا فما انصراف الشـباب عن كليـة الحقوق لا يلتحقون بها الا مرغمين .

ربما جعلنى هذا أتفوق فى دراستى .. ولكن هل التفوق على الضعاف قوة .. ليس النجاح فى الكلية اذن هو المهم .. انما يوم أكون محاميا أو وكيلا للنيابة وأتفوق على الظلم وعلى الجشع وعلى نفسى .. يومئذ أستطيع أن أدعى لنفسى أننى تفوقت .

***

كان صلاح حريصا على أن يزور عمه كل فترة وكان يجد منه لقاء رحبـا . وقـد حرص أن يذهب اليه بعد القوانين التى أتت على الجانب الأكبر من مدخراته وفرح بعمـه وهو يجده يقوم بعمـله فى العيادة وكأن شيئا لم يكن .

ــ المصيبة يا صـلاح ليست فى حجمها وانمـا فى الحجم الذى تحس به أنت وفى المكان الذى تنزلها فيه من نفسـك .. وقد علمتنى مهنتى أن أرى الناس . وجدت بعض المرضى مصابا بالأنفلونزا وهو مع ذلك هالع مرعوب كأنما هى كارثة الكوارث .. ووجدت آخرين من ذوى العقول الناضجة والعلم الواسـع والايمان الراسخ مصابين بأمراض تجعـل الموت اليهم أقرب من حبـل الوريد ومع ذلك كنت أجدهم كالجبال الرواسى لا يحركها شىء بل وجدت من هو سـعيد فرح أنه سيلاقى ربه .. فما المـال يا بنى .. أنـا الذى جئت به وأنـا القادر على أن أجىء به مرة أخرى .. وانمـا قل لى ما الذى جعلك تأتى وقد اقتربت من امتحان الثانوية العامة .

ــ أحببت أن أطمئن عليك ..

ــ لفتة عظيمة منك هـذه يا أبو صـلاح .. أنت مصمم على الحقوق ..

ـ ان شاء الله ••

ـ حين تعرف أساتذتك أخبرني عنهم فان لي أصـــدقاء كثيرين في الكليـــة ••

ـ وماذا أريد منهم ؟ ••

ـ أعرف همتك •• ولكن تعرفك بهم يجعلك تقصـــد اليهم في غير حرج اذا أردت شرح شيء أو التوسع في موضوع على كل حال التعرف بالأساتذة ينفع ولا يضر ••

ـ فعلا •• حاضر سأخبرك بأسمائهم •• ولكن أين أنـــا من أسمائهم وأنـــا لم أمتحن بعد في الثانوية العامة ؟ ••

ـ نجاحك مضمون وحتى أكون أكثر تأكدا تفضـــل بالذهاب الى المذاكرة •• ولا أراك الا بعد الامتحان •• وأرجوك بل آمرك أن تأتي الى في اليوم الأخير من الامتحان لأطمئن ••

ـ حـــاضر ••

ـ قبل سفرك الى الاسكندرية ••

ـ حـــاضر ••

ولم يستطع صلاح أن يجد عمه في العيادة يوم انتهى من الامتحان وسافر الى الاسكندرية وعرف النتيجة والتحق بالكلية وعرف أسماء الأساتذة وأحس أنه تأخر عن زيارة عمه فقصـــد اليه بعد أسبوع من الدراسة كان مشغولا فيه بالتعرف على الحيـــاة الجامعيـــة الجديدة عليـــه •

ماذا يدبر القدر •• ما الذي أتى بعديلة هنا •• ومن هذا الذي بجانبها ؟ •• أيسلم عليهـــا •• وكيف ؟ •• انها تعرفه فقد رأته مدة الأسبوع كله وهو يحملق فيها •• جمع أطراف شجاعته :

ــ مساء الخير يا آنسة عديلة •• أنــا زميلك صلاح سباعى وهــدان ••

ــ مساء الخير •• أهلا وسهلا •• هذا أبى ••

وقال الأب وهو يحــاول أن يرغم نفســه على تقبل الأوضــاع الجديدة للشباب :

ــ أهلا يا بنى •• مساء الخير ••

وأبى صلاح أن يفوت الفرصة :

ــ خيرا •• ماذا تفعلين هنا ؟ ••

ــ أبى متعب قليــلا ••

ــ وهل البك الوالد من زبائن الدكتور خليل ؟ ••

قال الأب فى اختصار من يريد أن ينهى الحديث :

ــ نعــم ••

وقال صلاح فى دهشة :

ــ هذا شرف لنا كبير ••

ودهش الأب لحظة ثم قال :

ــ ما اسمك قلت ؟ ••

وابتسم صلاح وقال :

ــ نعم وهدان جدى هو والد الدكتور خليل وهدان ••

وابتســم الأب وأحس بنوع من هــدوء بعد بوادر ثورة من غضب :

ـ أهـلا يابنى ونعم الناس •• أنـا أعرف عمـك منذ بدأ اشتغاله بمهنة الطب •• كنت أنـا موظفا صغيرا لا أحتمل أجر الدكاترة الكبار ودلنى عليه أحد الزملاء •• ونعم الناس يابنى •

ـ سلامتك يا عمى ••

ـ والله يابنى الكبد ••••

ووجد صـلاح نفسه قد نجح نجاحا باهرا فليس أحب للمريض من أن يروى عن مرضه ويجد من يسمع اه •

***

١٥

لو ترك سباعى مقتل أبو سريع يمر دون أن يهتم به اهتمام الانسان على خاصة حياته لكان معنى هذا قاصما بالنسبة له .. فان هذا يحمل فى طواياه تهديدا مباشرا لسباعى .. والقاتل يعلنه انك لست عنا ببعيد نقتلك حين نشاء فحياة سباعى اذن أصبحت أسهل شىء منالا ولم يكن سباعى يحب أن يموت.. والأمر الذى لاشك فيه ان مقتل أبو سريع ضياع لهيبة سباعى واعلان أنه لم يصبح مرهوب الجانب فى المنطقة .

سارع سباعى الى المأمور :

ـ أرى أنكم لم تهتموا بالبحث عن قتلة أبو سريع ..

وكان المأمور يعرف كل شىء عن سباعى وصلة أبو سريع به فقال له فى جفاء صريح :

ـ هذا ليس من شأنك ..

ـ أنا عضو مجلس أمة ومن واجبى المحافظة على الأمن .

ـ الظاهر ان سيادتك لا تعرف واجبات وظيفتك وحقوقها .

ــ تتعلم من سعادتك ..

ــ بل ويعلمك تلامذتى يا سيد سباعى فالذى أعرفه عن مدى ثقافة سيادتك يسمح لتلامذتى أن يعلموك ..

ــ أنــا عضو مجلس أمة ..

ــ هذا لا يدل على ثقافة ..

ــ وابنى طالب فى كلية الحقوق ..

ــ وهذا أيضا لا يدل على أن سيادتك مثقف ..

ــ اذن ؟ ..

ــ اذن فيجب أن تعلم أن وظيفة عضــو مجلس الأمة داخــل مجلس الأمة فقط وليست خارجــه .. وان المحــافظة على الأمن من اختصاص وزارة الداخلية فقط واذا رأيت علينا اهمالا فتستطيع أن تتقدم بســؤال أو استجواب داخل مجلس الأمة .. ولكن الصــلة الرسمية بينى وبينك مقطوعة تماما .

كارثة أخرى ، لم يكن رجال الداخلية يكلمونه بهذا الجفــاء وهو أشد ما يكون حاجة الى هؤلاء الرجال .. وان يكن سباعى الذى طغى وتجبر قد صار متعودا أن يقول فلا يناقشه أحد فان سباعى الذى قبل يد سليمان النواوى مازال فى داخله فان المجرم البعيد عن الحق هو مع جبروته أشــد الناس هلعا اذا واجهه الحق أو واجهته السلطة .. والرجل الذى ينافقه الجبناء خوفا من بطشــه هو أكثر الناس خبرة بالنفاق اذا اقتضى الأمر منه نفاقا ..

وأحس ســباعى من كلام المــأمور المستخف كل الاستخفــاف بمنصبه فى البرلمــان أن الحكومة تريد أن تؤمم الأجرام كما أممت الشركات والأرض .. انها حــكومة لا تريد أحدا أن يسرق أو يقتل

أو يذل الناس غيرها هى •• هى وحدها صاحبة الحق فى السرقة والقتل والاذلال •• وهى لا تريد أن تراعى زملاءها من الأفراد والا فما لهذا المـأمور يخاطبه بكل هذه الاستهانة ••

وهكذا لم يكن عجيبـا أن يتصـاغر سباعى فاذا هو قطيطـة مذعورة وما أسرع ما قال :

ـ ومن قال يا سعادة البك اننى قصـدت اليك بصفة رسمية •• ومن قال يا سعادة البك اننى لا أحب أن أتعلم منك ما لا أعلمه •• أنت راجل سمعتك مثل المسك وحياة النبى •• والمديرية كلها تحبك وتعمل لك ألف حساب ••

ـ يا سـيدى كتر خيرك •• مادام الأمر كذلك فأنا أقول لك ما تشاء عن مقتل أبو سريع •• أعداء أبو سريع كثيرون وهو كما تعلم جيدا مجرم محترف ••

وضغط المـأمور بقوة وهو يقول كلمـة « جيدا » وأصابت الكلمة موضعها تماما من كيان سباعى وأكمل المـأمور حديثه :

ـ له عند الكثيرين ثأرات وما أكثر ما قتل وما أكثر ما سلب ونهب ولذلك فاننا فى هـذه الحالات نعلم علم اليقين أن البحث عن قاتله والعثور عليـه أمر يوشـك أن يكون مستحيلا •• قد يكون القاتل أحد رجاله أنفسهم فالذى يقتل مرة يسهل عليه أن يقتل لأقـل سبب •• قد يكون أساء الى سلام مثلا فقتله سلام أو قد يكون سلام طامعا أن يحل محله فى رئاسة العصابة كما حصل ••

وقال المـأمور الجملة الأخيرة فى تؤدة وفى تفصيل واضح فيه القصد الذى يهدف اليه وأدرك سباعى الاشارة •• أولاد العفريتـة هؤلاء لا تخفى عليهم خافية ••

وأكمل المـأمور كلامه :

ـ ولهذا فقد قمنا بكل التحريات الممكنة ولم نصل لنتيجة لأن الذين نسألهم واحد من ثلاثة اما لا يعرف شيئا وهذا طبعا لن نأخذ منه حقا ولا باطلا ، واما يعرف وفرحان وهذا أيضا سيبالغ فى اخفاء ما يعرفه ولا أمل لنا فيه ، واما يعرف وخائف من القاتل أن يقتله وهذا لا حيلة لنا معه .. فاذا كنت سيادتك تعرف شيئا وتريد أن تمدنا به آكون شاكرا ..

ـ شيئا ... مثل ماذا يا حضرة المأمور ؟ ..

ـ مثل أبو سريع قتل من ؟ اغتصب مال من ؟ حرق غيط من ؟ هذه المعلومات .. ستنفعنا كثيرا ..

يا نهار أسود من الحبر الكوبيا .. هذا الرجل يريدنى أن أقول ان أبو سريع قتل متولى أبو منصور وأحرق غيط حسن ابن عبد الحميد أبو ديدة وهدد سليمان النواوى والسؤال التالى من الذى استفاد من هذه الجرائم .. وأروح أنا فى ستين مصيبة .. أنا غلطان من الأول أن جئت لهذا الداهية .. تنبه سباعى الى ما يحيط به فوجد نفسه على شفا أن يكون متهما وهو الذى جاء ممتلئا بالكبر ليعلم الداخلية واجباتها .. قال للمأمور :

ـ وهل تظن سعادتك أننى أعرف شيئا وأخفيه ؟

ـ من جهة أظن .. نعم أظن ولكن للأسف لا دليل عندى على الاطلاق :

ـ ومن أين هذا الظن ؟

ـ هذا علمنا يا سيد سباعى .. أن نبدأ بالظن .

مصيبة سوداء .. الرجل يهددنى تهديدا صريحا .. لا .. القيام أحسن حاجة أعملها الآن .

ـ الحمد لله يا سعادة المـأمور انك تظن فقط •• وستعرف مع الأيام انك لست محقا فى ظنك •

ـ هذا ما أرجوه يا سيد سـباعى •• لأن الظن فى أعضـاء مجلس الأمة الذين رشحتهم الحكومة وعملت على نجاحهم أمر لا نحبه نحن العاملين فى نفس الحكومة •

ـ ربنا يديم المودة يا سعادة البك •

ـ هى دائمة طالمـا أنت مع القـانون ولست ضده يا سباعى •

ـ أسـتأذن أنـا ••

ـ مع ألف سلامة ••

لا أمل له اذن أن يعرف قاتل أبو سريع من الجهات الرسمية •• لم يبق أمامه الا تحرياته الخاصة وقد بدأها فور عودته •

ـ سلام •• أليس بينك وبين أبو سريع عيش وملح ؟

ـ وعيش ودم وحياتك يا سعادة البك •

ـ فكيف تترك قاتله بغير عقاب ؟

ـ اعرفه ويموت قبل أن تطرف عينه ••

ـ أليس من واجبنا نحن أن نعرفه ؟

ـ وماله •• نبحث ••

ـ فى البلد هنا أولا •• شف لى أين كان حسن ابن عبد الحميد أبو ديدة وأين كان شاكر وعبد التواب أولاد متولى أبو منصور •• وأين كان سليمان النواوى • طبعا هو لن يقتل بيده وانما اعرف لى من زاره أو هو زار من •

ـ يا سعادة البك سليمان لا يخرج من الدار مطلقا ••

ـ اعرف لى من زاره ..

ـ أمـرك ..

أما حسن أبو ديدة فهو منذ اغتصب منه سباعى الأرض لا يبرح دكانه يحـاول أن يعوض بالعمل ما ضـاع من ريع الأفدنة .. وقد اشترى بثمن الأرض حجرة بجانبه وفتحها على الدكان فاتسع المكان وما أن بلغ ابنه الأكبر عبد الحميد السن التى يستطيع فيها أن يتعلم الصنعة حتى أجلسه معه وراح يعلمه الخياطة بكل ما يملك من مهارة.. كان الطفل ذكيا واسـتطاع أن يكون تلميذا موفقا لأبيه وفى نفس الوقت أرسل ناصح ابنه الأصغر مع ابنتيه الى الكتـاب وحين أتم ناصح حفظ القرآن أرسـل به الى الأزهر الشريف حتى يستطيع أن يفى بنفقاته الى نهاية التعليم .

وكان عبد الحميد الابن الأكبر جالسا فى الدكان حين جاء مرسى الشحات أحد رجال سلام ومعه قطعة قماش :

ـ أين أبوك يا ولد ؟

ـ ما ولد هذه .. أكنت خادم أبيك ؟ ..

ـ يا سيدى ولامؤاخذة .. أين أبوك ياسى عبد الحميد ؟.

ـ ومن غير سى .. عبد الجميد كفاية .

ـ نهارك أسود .. أين أبوك يا عبد الحميد ؟

ـ فى البيت .. لمـاذا تريده ؟

ـ أما عجيبة هو ترزى وانت شايف فى يدى قطعة قمـاش فيم سأريده .. ويقولون عنك ناصح ..

ـ ناصح أخى ..

ـ طيب يا سيدى .. يقولون عنك فالح .

ـ أنـا اسمى عبد الحميد .

ـ اسمع بابنى لو قابلت كل الزبائن بهذه الصـورة فالمؤكد انك انت وأبوك واخوتك لن تجدوا قوت يومكم .. يا أخى قل لى أين أبوك ؟

وخرج عبد الحميد من باب البيت المفتوح على الدكان ..

ـ حاسب على الوليد يا مرسى وهل هو قدك ؟

ـ انت سامع الحديث ..

ـ من أوله ..

ـ ولمـاذا تأخرت ؟

ـ لم أتأخر وانما كانت فى يدى قطعـة قمـاش أنقعهـا .. تحت أمرك ..

ـ القطعة هذه اشتريتها من البندر .

ـ وماله .. ألف مبروك ..

ـ أريدها جلبابا على ذوقك ..

ـ أول مرة تأتى الى .. طول عمرك تفصل عند عطية .

ـ أتلف لى الجلباب الأخير فأقسمت ألا أذهب اليه .

ـ أمرك يا سيدى نفصلها لك .. خذ مقاسه يا عبد الحميد .

ـ خذه أنت ..

ـ وانت لمـاذا لا تأخذه ؟

ـ يدى مشغولة .

ــ أمرك يا سيدى •• أصــل الزمن انقلب •• تفضــل ياسى مرسى ••

وبدأ مرسى الحديث الذى جاء من أجله :

ــ المديرية مقلوبة على رجل •

ــ لمــاذا كفى الله الشر ؟ •

ــ من أجل مقتل أبو سريع •

ــ هل عرفوا القاتل ؟

ــ أبــدا ••

ــ عجيبة ! ••

ــ والأعجب ان كل حادثة مثل هــذه نسمع كلاما ربما يكون اشاعات كاذبة انما نسمع •• أما هــذه المرة ولا حتى ســمعنا شيئا •

ــ الناس ملهية فى مشاغلها ••

ــ طول عمرهم مشغولون ومع ذلك يحبون الكــلام أكثر من عيونهم • فى هذه المرة لا حس ولا خبر ••

ــ عجيبــة ! ••

ــ وانت كيف عرفت بقتله ؟ ••

ــ مع الناس ••

ــ أين كنت ؟ ••

ــ أنت تعرف أننى لا أترك الدكان مطلقا •

ــ يعنى لم تسمع شيئا ••

ــ نهائيــا ••

ـ طيب يا سيدى شكرا •• متى أستلم الجلباب ؟ ••

ـ اعطنى يومين فقط ••

ـ وهو كذلك •• السلام عليكم ••

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ••

وانصرف مرسى والتفت عبد الحميد الى أبيه فى غيظ ••

ـ تفصل له أيضا ؟ ••

ـ يا ولد اعقل وافصل لأبيه أيضا •• وأفصل لسلام اذا طلب منى ذلك ••

ـ ليس هذا غريبا عليك مادمت ضعفت أمام تهديدهم •

ـ يا عبد الحميد يا ابنى تمزقنى بسكين يارد كلما قلت ذلك •• يا ابنى أنا ليس لى أمل فى الدنيا الا أن أكون أمامك وأمام أخوتك رجلا قويا ••

ـ وهل يقبل القوى التهديد ؟

ـ غصبا عنه اذا هدده من هو أقوى منه •• ماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟

ـ أترك البلد ••

ـ وهل لو كنت تركتها كنت سأحمل فدادينى على كتفى ؟ •

ـ لا أعرف ماذا كان يجب أن تفعل انما المهم ألا تقبل التهديد•

ـ أنت تعرف أننى حاولت فأحرقوا المحصول وسرقوا البهائم وكانت الخطوة التالية أن يقتلونى •

ـ ولا عار الذل ••

ـ ومن كان سيربيك أنت وأخوتك •• أكنت أترككم تمدون أيديكم للحسنة ••

ـ كلما سمعت اسم سباعى زفت أو شفت أحدا من رجاله تركبنى عفاريت الدنيـا •

ـ مصيرك تتغلب على العفاريت •• انما يا ابنى خف الوطـأة عنى • فلاشيء يقتل الأب مثل شعوره أن ابنه لا يحترمه •

ـ أنـا فقط أشفق عليك •

ـ وهذه يا ابنى أدهى وأمر •• حسبى الله ونعم الوكيل •

***

حين ذهب مرسى ألى سليمان النواوى قال له :

ـ كيف الصحة يا عم سليمان ؟

ـ أهلا مرسى •• عجيبة ••

ـ ما العجيبة ؟ ••

ـ الزيـارة ••

ـ قلت اطمئن على صحتك ••

ـ أى صحة التى تريد أن تطمئن عليها •• أنـا أنتظر عزرائيل من سنوات ولم تحـاول أن تطمئن على صحتى وعزرائيل هو الآخر تأخر فى الوصول •• تأخر جدا يا مرسى يابنى ••

ـ وفيم العجلة ؟

ـ حتى يعفينى من رؤيتك ورؤية أمثالك ياسى مرسى •• اسمع يابنى أنـا عجزت نعم ولكن عقـلى كما هو رغم كل ما شـفته فى الحيـاة •• أنت تريد أن تعرف منى معـلومات عن قتـل المجحوم

أبو سريع .. وطبعا لا أنت تتصور ولا سيدك ولا سيد سيدك اننى سأقتله .. لم يبق الا أن أسلط عليه ولو كنت أفكر هـذا التفكير لفعلتها منذ استوليتم على أرضى .. قم يا مرسى مع السلامة ولا تضيع وقتك وابحث عن غيرى ..

ـ كـذا ..

ـ وهل هناك غير كذا ؟

ـ أمرك .. سلام عليكم .

***

كان شاكر وعبد التواب معا فى الغيط وقدم اليهما مرسى ورآه شاكر مقبلا عليهما من بعيد فالتفت الى أخيه :

ـ يعنى أخبطه بالفأس وأخلص ؟

ونظر عبد التواب وهو يقول :

ـ من .. آه .. يا أخى اعقل .. انه قادم يظن أننا لنا يد فى قتل أبو سريع .. اسكت انت ولا تتكلم .

ـ لا أطيق ..

ـ اسكت انت وأنـا سأريحك .

ـ السلام عليكم ..

وقال عبد التواب وهو يعمل فأسه فى الأرض وكأنه لا يراه :

ـ من غير سلام أبلغ سيدك اننا عندما قتل أبو سريع كنا فى فرح هنداوى الجلطة أنـا وأخى وأعطينـا النقوط على ملأ الناس وألف شاهد يشهد على ذلك .. مع السلامة يا مرسى ..

ـ يا سلام أهكذا من غير أخذ ولارد ؟

ـ وما لزوم الأخذ والرد وقد عرفت ما كنت جائيا من أجله ..
مع السلامة يا مرسى ..

ـ طيب يا سيدى وهو كذلك ..

***

أدرك سباعى أن لا فائدة ترجى من بحثه وانتهى به الأمر الى اليأس التام من العثور على القاتل . ولم يبق له الا أن يكون هو على أهبة تامة حذر الموت .. وتولاه شعور بالرعب لم يعرفه حياته كلها .. ان لحظة خوف واحدة يصغر أمامها مال العالم كله وسلطان الدنيا بأسرها .. وخالق النفوس سبحانه هدد البشر بشىء من الخوف رحمة بعباده أن يبلوهم بالخوف كله فان شيئا منه أدهى من الموت ومن الفقر وكل عذابات الدنيا .. ترى أيكون سباعى بهذا الرعب الذى يتغشاه قد كفر عن جرائمه .. من يدرى .. فالله وحده هو الذى يملك الغفران وهو وحده الذى يعرف متى يستحق عبده المغفرة يمنحها له أو لا يستحقها فيحجبها عنه .

فكر سباعى أن يقيم أغلب وقته فى القاهرة ولكن ارتد عن هذا .. فالقاهرة واسعة وقد يقتل هناك فى أى لحظة .. ثم هو لا يستطيع أن يسير فى القاهرة وحوله هؤلاء الحراس الذين يصطنعهم هنا فى البلدة .. كل ما استطاع أن يفعله أن يضع على بابه أضعافا مضاعفة من المراتج وأن يزيد من عدد الخفراء .. وكان يظل طول ليله لا يغمض له جفن وتظل آلة الاضاءة تعمل لا تنى ولا تنطفىء بل لقد اشترى آلة أخرى لتضىء اذا أصاب العطب الآلة التى تعمل . ولا ينى طول الليل ينادى أسماء الخفراء الواحد بعد الآخر ليكون على ثقة أنهم أيقاظ فلا ينام الا حين يأتى الصباح .

***



السنوات الخضر من الشباب حين يكون للحب جناحان يحلق بهما الانسان فى سماوات سامقات عن الدنا : قصيات عن الأرض . رفيعات عن الدنية . هنالك يحس الشباب أن الهوى لم يخلق الا له وأن الله سبحانه وتعالى يرسل به الى الأرض نفحات من الجنة تعين الانسان على مرور الحياة وعلى تكالب البشر وعلى اشتباك المصالح وعلى الكذب وعلى الغش وعلى خداع الصديق وعلى حضيض الناس وانحيازهم الى خلق الحيوان وتنكرهم للانسانية التى جعلهم الله بها سادة الخلق أجمعين .

بالحب يستطيع الانسان أن يكون سيد المخلوقات .. بهذه الخفقات المجنحة العربيدة الآمنة .. السعيدة القلقة .. الباسمة المقطبة .. الآملة اليائسة .. الراغبة العازفة .. المقدمة عن رعونة المحجمة عن حذر .

بالبحث عن الكلمات فاذا هى فى تيه عن المشاعر أغلقت عليها المسالك لا تدرى أين سبيلها الى الشفة لتعبر عن حب صاحبها . باللعثمة واللسان فصيح ولكنه ينوء بما لا يطيق من أحمال الحب .

فاذا به ـ وهو المنطلق القؤول ـ مقيد مكبول واذا النجوى صمت واذا الحديث نظرة واذا الحياة نشوة يطمسها الحديث المعلن ويشعشعها الفم الصموت .

عرفه صلاح وعرفته عديلة . بلمســـة يد بابتسامة عند لقـــاء فى الصباح أو لقاء فى المساء .. بكلمات يهمهن على شفاه صلاح ويقف بهن جلال على وجه عديلة .

انه الحب البكر لقلبين مخلوقين من نقاء المـــاس دون صلابته ومن طهارة الملائكة ممتزجة بخلجات الانسان وشفافية البلور وقد سرى فيه نبض البشر ومن نور الأمل فى المستقبل طليقا من قيود الزمن .. أحس كل منهما عند صاحبه ما كانا به فى غنـــاء عن التصريح .. وكان الحديث يجرى بينهما رخاء وفى غير الحب كان الحديث .. لقد اتفق كل منهما مع الآخر دون قول منهما أن أى حديث هو أصغر من الحب يكنه كل منهما لحبيبه والمكان الذى يعرفه كل منهما لنفسه عند هواه .

سألته يوما :

ـ هل أنت اخوان أم شيوعى ؟

ـ أنـــا مصرى ..

ـ اذن فأنت من الأغلبية ..

ـ وأنت ؟ ..

ـ ماذا تظن ؟ ..

ـ مصرية .. لحما ودما وقلبا وروحا وجسما ومشاعر وأخـــلاق وآراء ..

ـ اما أن يكون المصرى كذلك أو لا يكون .

ـ ولكن ألم تفكر أن تنضم الى هؤلاء أو أولئك لتعرف ما يفكر فيه كل من الجانبين ؟

ـ صادقت من هؤلاء ومن هؤلاء وحاول كل من الجانبين أن يضمنى اليه ورفضت ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لا أريد أن أحكم العالم ولا أريد حتى أن أحكم مصر بل ولا أريد أن أحكم أحدا على الاطلاق ..

ـ فماذا تريد أن تكون ؟

ـ انسانا ..

ـ ألست كذلك ؟ ..

ـ ليس بعد .

ـ فما الانسان عندك ؟ ..

ـ أن أحب كل الناس حتى المخطئين .. ولا أحقد .. وأن أعطى اذا ملكت العطاء ولا أنتظر على العطاء شكرا لأن العطاء نفسه يمنح المعطاء سعادة لا يبثها فى القلب كل شكر العالمين . أريد أن أرى جمال الحياة وأحاول بكل جهدى أن أهون البؤس فيها على البائسين .. أريد أن يظل ايمانى بالله وبالخلق وبالصدق وبالقيم ثابتا لا تزعزعه الأهوال التى أعلم أن الحياة ستواجهنى بها .. أريد أخيرا أن أكون وأنا فى طريقى الى الله سعيدا أننى سألقاه .. وأنت ..

لم يسمع جوابا ورأى الدموع تجرى مدرارا على وجنتيها وكانت توقفت عن المسير فتوقف وهو يتحدث دون أن يسألها عما دعاها للوقوف .. أسعده بكاؤها ومد يده ومسح دموعها فى هوادة محب مشفق . وفى ضغط شاب فتى وابتسم وقال :

ـ لقد أجابت دموعك عنك أنت تريدين أن تكونى مثلى ..

***

١٧

كان صلاح يؤدى امتحان النقل من السنة الثانية فى كلية الحقوق الى السنة الثالثة حين ضرب جرس التليفون فى بيتهم وقال خليل :

ــ صلاح أنت تذاكر هذه الأيام ؟ ..

ــ نعم ..

ــ اذن اسمع .. آخر يوم امتحان تعال فأنا أريدك فى شىء مهم جدا .

ــ خير يا عمى ..

ــ وهل تظن ان عمك يقدم لك الا خيرا ؟ ..

ــ ولكن سعادتك شغلتنى ..

ــ وهل تظن أنه لو كان هناك ما يشغل كنت طلبتك وانت تمتحن .. متى آخر امتحان عندكم ؟

ــ غدا ..

ـ اذن تعال غدا •• واطمئن ستفرح جـدا •• أظن ذلك على الأقـل ••

وحين ذهب صلاح الى عمه فى اليوم التـالى كانت اللهفة تحيط به وكان عمه مشغولا بالكشف على مريض فازداد به القلق حتى اذا خرج المريض دخل دون استئذان وقال دون سلام :

ـ ماذا هناك يا عمى ؟ ••

ـ أقعـد ••

ـ ماذا هناك والنبى ؟ ••

ـ اسمع يا سيدى •• لقد خطبت لك ••

ـ ماذا ••• من ؟ •• هل أعرفها ؟ •••

ـ وهل من الضرورى أن تعرفها ؟

ـ اسـمع يا عمى •• أنـا خاطب فعلا وأنـا أعرف حبك لى ولذلك أرجو أن تكون خطبتـك مجرد جس نبض •• أنـا خاطب فعـلا ••

ـ من ؟ •••

ـ فتاة زميلتى ••

ـ اسمها عديلة ؟ ••

ـ مـاذا ؟ ! ••

ـ وابنة عبد الغنى بك الزاهد ؟

ـ كيف عرفت يا عمى ؟ ••

ـ الله يكشفك .. أعرف منهم ولا أعرف منك ..

ـ ماذا تقول ؟ ..

ـ لقد جاءت الى هنا وقالت ان كثيرا من الخطاب تقدموا لها ورفضتهم ولكن تقدم اليها أخيرا شاب مهندس لا عيب فيه وأبوها يريد أن يزوجها منه على رغم أنفها وطلبت الى أن أرجو أباها الا يرغمها ..

ـ وماذا فعلت يا عمي ؟ ..

ـ سألتها عن سبب الرفض فأصرت أن تصمت ولكنها أخيرا قالت انها لا تريد أن تخرج عن طاعة أبيها ولكنها لن تتزوج هذا المهندس .

ـ وبعد يا عمي وبعد ..

ـ طلبت اليها أن تنتظر فى غرفة الاستقبال وطلبت أباها فى التليفون .. فاذا الرجل ينفجر .. ألم تفكر يا دكتور لماذا اختارتك أنت بالذات ؟ .. قلت أعتقد انها اختارتني لأنها تعرف مكانتى عندك .. قال يا سيدى مكانتك على العين والرأس ولاشك فيها ولكن لها أعمام ولها أخوال وكان من الطبيعى أن تلجأ لواحد منهم ، وتنبهت الى هذه الحقيقة متأخرا يبدو أننا عائلة غبية يا ولد يا صلاح . سألت عبد الغنى ماذا اذن .. قال ابن أخيك يا سيدى .. ماله ؟ ! . قال متحابان وهى لا تريد الزواج من أجل خاطره .. ربك والحق يا ولد يا صلاح فرحت بك قلت وانت ما المانع عندك .. قال المانع بسيط جدا أنه لم يتقدم اليها وهؤلاء العرسان تقدموا وكلهم شبان ممتازون وأحسنهم هذا الشاب الأخير .. ما رأيك .. قلت له اذن يا عبد الغنى فأنا أخطب ابنتك عديلة لابن أخى صلاح .. قال الا تسأله .. قلت انى أعرف الجواب .. قال اذن وأنا قبلت .. قل

للبنت انها لن تتزوج الزفت المهندس ولا تقل لها شيئا عن الخطبة حتى تتم رسميا قلت حاضر ..

وقفز صلاح عن كرسيه وراح يقبل عمه ويحتضنه ويصيح .. الله يطيل عمرك .. الله يخليك .. وقال خليل :

ـ والآن قل لى ماذا فعلت فى الامتحان ؟ ..

ـ قل لى انت أولا كيف عرفت أننى سأقبل هذه الخطبة ..

ـ عجيبة .. ألا تعرف أن لى أصدقاء كثيرين بين أساتذتك ؟

ـ وكيف عرفوا ؟ ..

ـ لماذا يعتقد الشباب منكم أن الشباب لم يعرف الا جيله وحده .. كانوا هم أيضا شبابا وكانوا فى الجامعة ولا تفوتهم الفائتة ..

ـ العجيبة اننى مع عديلة كل يوم ولم تقل شيئا عن هذه الحكاية مطلقا ..

ـ أولا ماذا تريدها أن تقول لك .. تعال اخطبنى .. ثانيا هى لا تعرف أننى خطبتها من أبيها ..

ـ والبنت التى ترفض أن تذكر لى شيئا عن خطابها أليست جديرة بالحب ..

ـ فعلا هى جديرة بالحب وبالاعجاب ولو أننا نحن أحببناها اولا والآن نفكر فى حيثيات الحب أليس كذلك يا نصف المتر .

ـ وهل تظن أن أبى سيقبل أن يخطب لى وأنا نصف متر ؟

ـ غصبا عنه ..

ـ كيف ؟ ..

ـ ان كان عليه هو يريد أن يزوجك من يوم دخولك الجامعة وأنا الذى كنت أستمهله ..

ـ هل كلمته ؟ ..

ـ وسيكون هنا غدا .. اذهب أنت الآن الى والدتك واخبرها بكل شيء حتى لا تفاجأ ..

وجاء سباعى وطلب الى أخيه خليل أن يشترى له الشبكة المناسبة وما هى الا أيام حتى تمت الخطوبة وأعلنت واتفق الجميع على أن يكون الزواج بعد الليسانس مباشرة .. وكانت أم عديلة متوفاة ولهذا لم يكن عجيبا أن يهمس عبد الغنى فى أذن صلاح :

ـ تعال يا ابنى أريدك فى كلمتين ..

قام صلاح مع والد خطيبته وذهب به الى غرفة نومه :

ـ أعرف أن الكلام فى هذا سابق لأوانه الا أننى يابنى لا أحب القلق ..

ـ تحت أمرك يا عمى ..

ـ أنت ترى أنه ليس لى فى الدنيا الا عديلة .. أمها تركتها لى من خمس سنوات وأنا كبرت ولا أستطيع أن أعيش وحيدا أيكون هناك أثقال عليك لو عشت معى فى هذا البيت ؟

ـ أنا تحت أمرك ولكن لى رجاء واحد عندك ..

ـ قله .....

ـ أن أساهم فى مصاريف البيت .

ـ فى بيتى ؟

ـ وهل ترضى لى أن أعيش عالة عليك ؟

ـ أنا قبلت ..

ـ وأنا قبلت ..

ـ على بركة الله .. اذن ربنا يهنيكم يا ابنى ان شاء الله .

***

١٨

كان صــلاح قد انتهى من امتحــان الليسانس ولكنــه بقى فى القاهرة فى انتظار النتيجة ولم يسافر الى الاسكندرية .. وكان يتهيأ للنزول ليذهب الى عديلة شأنه فى كل يوم حين دق جرس الباب واذا القادم عمــه خليل .. وفوجىء صــلاح بعمه يحتضنه على البــاب ويصيح :

ــ جيد جدا .. ألف مبروك ..

وذهل صلاح :

ــ أحقــا ؟ ..

ــ كلمنى الآن الدكتور عبد الوهاب رفاعى .

ــ أستاذ الجنائى ..

ــ ورئيس الكنترول ..

ــ وعديلة ؟ ..

ــ جيــد ..

ــ يعنى نجحت ..

وقبل أن يكملا الحوار انفجرت زغرودة من حيث لم يحتسبا ومن حيث لم يتصورا أيضا . لقد كانت قدرية بمسمع منهما .. والتفتا اليها فى فرح فاذا هى نطلق زغرودة أخرى وترتمى على الكرسى . ويجرى اليها ابنها وعمه وتقول لاهثة :

ــ ندر على وأنا أوفيه .. ما فعلتها فى حياتى ولكنى كنت أتمرن عليها كل ليلة منذ دخلت الحضانة .. أنا يابنى لا أحب الحياة الا من أجلك .. انت حياة حياتى ..

وراح صلاح يقبل يدها ووجهها ويشرب صادق دموعها المنهمرة .. وهى تقول وكأنها تكلم نفسها :

ــ لقد جئت مصر من أجلك وأنا لا أعتبر أن لى زوجا منذ رزقنى الله بك .. لم أفكر فى شىء لنفسى طول حياتك لا فكرت فى فسحة ولا فى فستان ولا فى شىء حتى أرضى حين أخذوها منى قلت فى ستين داهية مادمت انت فالحا فى مدرستك .. ولولا الحاحك ما ذهبت عمرى الى السينما . التليفزيون لا ينفتح مادمت أنت تذاكر . عمرى كله كان ينتظر هذه اللحظة فلا تعجبوا .. انها لحظة عمرى، منذ اليوم أنا لا أريد شيئا . أنا ابنى معاه الليسانس وكل شىء بعد ذلك لا يساوى شيئا . حتى فى يوم فرحك لن أزغرد . فرحانة نعم سأكون . ولكنى لن أزغرد . هى مرة . ولن تعود . ابنى معاه الليسانس . شربات يا أم السعد . شربات يا هنية . شربات للعمارة كلها .

ان حب الأم لابنها أمر ليس غريبا على صلاح ولا هو بغريب على خليل ولكن الذى دهشا له أن قدرية الصموت المستسلمة دائما الجادة تزخر بكل هذه المشاعر ولا تبين عنها الا الآن . تركيبة عجيبة

هذا الأنسان .. حتى أقرب الناس اليه لا يعرف الأعمـاق الحقيقية التى ينطوى عليها كيانه .

قـال خليل :

ــ انت وعديلة عندى على العشاء الليلة . وكلم أباك .

وقبل ان ينزل خليل قال له صلاح :

ــ نجىء لك فى العيادة أم فى البيت ؟

ــ على البيت مباشرة واذا تأخرت انتظرانى .

ــ وهو كذلك ..

وسارع صلاح الى عديلة وبشرها بمشهد من أبيها ومن هنـاك طلب أباه فاخبره هادا بصوت ابيه ياتيه فى التليفون :

ــ اسمع يا استاذ .. بعد غد أنت وعروسـك والبك والدها وعمك وزوجته وعمتك عايدة وزوجها وعمتك فاطمـة وزوجها كلكم مدعوون مع أولاد الجميع على احتفال عندنا هنا فى البلد بمناسـبة تخرجك .. سامعنى ..

ــ خذ سعادتك كلم عمى عبد الغنى .

قبل الرجل الدعوة ونزل صـلاح مع عديلة ولم ينتظرا أن يركبا السيارة وانما قبلها على السـلم واذا هى تضربه على خده ضربة أقرب الى التربيت وهى تقول :

ــ يخرب عقلك ..

ــ ماذا ؟ اذا كنت جيد فأنا جدا .

ــ وما شأن الناس بهذا ؟

ــ انهم يحبون أن يروا خطيبا يبوس خطيبته ..

ـ ولكنهم مع ذلك يدعون الغضب .

ـ وأنت ما الذى يهمك الحقيقة أم الادعاء ؟

ـ يبدو أنك ستكون أنت فى الادعـاء فالغالب انك ستدخل النيابـة .

ـ أو أكون أستاذا فى الكلية .

ـ ماذا تريد أنت ؟

ـ لم أحدد بعد ربما رفضت هـذا وذاك وفكرت فى المحاماة .

كانا قد ركبا السيارة وسارت بهما وقالت عديلة :

ـ الى أين ؟ ..

ـ الى صاحب الفضل الأول على ..

ـ الأستاذ ياسين ؟ ..

ـ كان يجب أن يعرف قبل أبى ..

***



كان سباعى حريصا دائما أن يحضر كل بقرة أو جاموسة عنده تلد . وتلك خصلة صحبته وصحبها منذ كان طفلا فى رعاية أبيه . وقد ظلت فرحته بولادة البهيمة التى كان يحسها وهو ذلك الطفل كما هى لم تتغير . وان كان فى طفولته يساعد الكلاف الا أنه كف عن ذلك منذ شب عن الطوق وأصبح يشرف على زراعة أبيه ، وهو اليوم يضع كرسيا ويجلس قريبا من الذين يقومون بتوليد البقرة أو الجاموسة حتى تتم الولادة فينصرف الى البيت . وكان فى جلسته هذه ينسى كل مشاغله التى أصبحت حين كبر مخاوف ولا يفكر الا فى مولد العجل أو العجلة ان كانت الوالدة بقرة والفحل أو الفحلة ان كانت الوالدة جاموسة . وكانت البلدة كلها تعرف عنه هذه العادة . فعادات كل أبناء القرية معروفة لبعضهم البعض ، فالقرية مهما تتسع انما هى بيت كبير كل انسان يعرف كل شىء عن كل انسان فيها فما الشأن اذا كانت تلك هى عادة أغنى أبناء القرية وكبير طغاة المنطقة .

وقدر الذين يجسون البهائم وهم أطباء الولادة بالقرية أن

الجاموسة المفضلة عند سباعى ستلد فى نفس اليوم الذى حدده للاحتفال بحصول ابنه على الليسانس •

وفكر سباعى قليلا ثم قال لمحدثه الذى سيقوم بتوليد الجاموسة:

ـ اذن فاسمع •• عليك أنت ان نظل الى جانبها لا تنتقل وحين تحس أن الموعد اقترب ارسل لى أجىء اليك • وسيكون المدعوون كثيرين ولن يلتفت احد لغيابى •

وحل يوم الاحتفال ولم تكن الجاموسة قد ولدت بعد وتقاطر المدعوون وكان سباعى لم يترك أحدا الا دعاه وفى المقدمة المحافظ ومدير الأمن والمأمور وأعضاء مجلس الأمة والعمد والأعيان • لقد اراد أن يعلن للجميع ان سباعى الذى لم ينل شهادة استطاع ابنه أن يحصل على الليسانس وبدرجه جيد جدا • الوحيد الذى كان يجب أن يكون موجودا ولم يدع هو شعبان فما كان الى دعوته من سبيل فقد كان قد سافر الى صهره الأمير مع زوجته وأولاده وأقام هناك اقامة غير عائد •

وجاء المحتفل به ليرى القرية التى لم يكن رآها منذ كان صبيا يافعا سعى الى القرية فرحا ليشهد الانتخابات وانصرف عنها مصطحبا الحيرة والقلق مما رأى فى أعين الرجال وهم يحتفلون بأبيه •

جلس صلاح بين القوم وراح ينظر •• لم تكن عديلة معه فقد ذهبت هى وأمه وعماته الى مكان الحريم ، فالريف لم يعترف بعد باختلاط الجنسين • رأى فى عيون القوم المدعوين وفى جباههم تعبيرا آخر غير الذى شهده من الناخبين • هؤلاء لا يخافون أباه ولكنهم أيضا خائفون • كلهم مرتعد فى داخله تتضح الرعدة فى حديثه •• فالحوار يبدأ ولكنه ينقطع من تلقاء نفسه اذا أدى الى موضوع عام • وكل حوار بين الرجال لابد أن يؤدى الى موضوع عام •• ولكل منهم رأى وربما كانوا متفقين جميعا على رأى ولكن هيهات لرأيهم

أن يعلن أو يخرج من منطقة الهمس الداخلى الى منطقة الحديث .. أشدهم رعبا المحافظ ويليه مدير الأمن ويليه المـأمور . ويعجب صلاح كيف يحافظ على الأمن من لا أمن له . كيف يكون مسـئولا عن أمن الناس وهو نفسه غير آمن على نفسه . ويل للناس اذا خاف الناس . وويل للناس كل الويل اذا كانت نفوسهم تخاف من نفوسهم .

أما أعضـاء مجلس الأمة فهم يتلهون بكل حديث فارغ ويختارون طريق الحديث حتى لا يصل بهم الى ما يرهبون . وقد وجد بعضهم فى الاجتماع فرصـة ذهبية يقترب بها الى العمد والأعيان فكل نائب فيهم ليس يدرى الانتخابات القادمة متى تكون .

حابل ونابل كما يقول العرب وقوم يجتمعون وينفضون يقولون الكثير من الكلام ولا يقولون شيئا . وصـلاح ذاهل واع مندهش مفـكر .. لا يفوتـه شيء مما حوله .. وتزيـد قـوة الملاحظـة المـا ورفضا . وخلا بأستاذه ياسين :

ـ أهؤلاء ناس .

ـ مجتمعك .

ـ أكانوا كذلك دائما .

ـ المجتمعـات التى عرفتها حين كنت فى مثل سـنك لم تكن متعرضة لمـا يتعرض له هؤلاء .

ـ أليس فيهم رجل ؟

ـ كلهم فى داخلهم رجـال ولكن الارهـاب يطمس الرجـولة فالتمس لهم العذر ولا تعنف بهم فى حكمك .

ـ ماذا تقول أنفسهم .

ـ ان كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى .

ـ وماذا لهم عند الكلب .

ـ الحيـاة .

ـ الموت خير منها .

ـ نادر من يقول هذا أو يشعر به .

ـ تهون الحياة مع الذل .

ـ ومع ذلك فهم يرون أنفسهم على كرامة .

ـ من أين يأتيهم هذا الشعور .

ـ كل منهم لبعض الناس عندهم حاجات .

ـ فكلهم كلاب .

ـ ويجدون من يقول لهم يا سيدى .

وانقطع الحوار وهوم الصمت الذاهل فقد انطلقت فى اسماع الحاضرين ثلاث رصاصات .. ارصاص والمحافظ والمدير والمأمور ورجال الأمن جميعا هنا . ما هذا! .. ما هذا .. ما هذا .

وجاء الجواب .. قتل سباعى .. من القاتل ؟ .. سلم نفسه . من هو ؟ .. حسن عبد الحميد أبو ديدة .. من حسن عبد الحميد أبو ديدة ؟ !

***



كان كل ما عنى به المـأمور ان يحافظ على حياة القاتل وقد تمكن من ذلك وصحبـه الى المديريـة • وانقلب الاحتفال مأتمـا وتحقق بيت شـوقى :

واذا نظـرت الى الحيـاة وجدتهـا
عرسـا أقيم عـلى جـوانب مـأتم

وكان أول ما صنعه صلاح بعد أن انفض معظم الناس أن يعجل بسفر خطيبته وأبيها • وحين حاولت عديلة البقاء معه اصر على سفرها فى حسم لم تشهده منه قبل اليوم فاضطرت الى السفر •

اقيم المـأتم فى اليوم التـالى • ولكن صـلاح لم يكن يطيق انتظارا لقد رأى داخل الناس وكأنهم يقولون : غمة وانزاحت •

انتحى جانبا بياسين :

ــ أتعرف شيئا •

ــ أعرف كل شىء ولا أعرف شيئا •

ــ أتذكر حديثنا فى فناء المدرسة •

ـ وكيف أستطيع أن أنساه •

ـ الا تعرف على الأقل من أستطيع أن أسأله •

ـ نعم أعرف •

ـ مـن •

ـ أكبر أهل البلدة سـنا •• عمك سليمان النواوى كان صديق جدك الصدوق ولن يكذبك •

***

روى سليمان النواوى كل شىء • لم يخف عنه خافية وحين أتم حديثه قال صلاح :

ـ هل معك العقد الذى فرضه عليك أبى •

ونادى سليمان ابنه وأمره أن يأتى بحقيبة أوراقه •• وأخرج سليمان العقد دون جهد وقدمه الى صـلاح •• قرأه •• ثم التفت الى الابن وطلب منه ورقـة بيضـاء وصـدع الابن بالطلب وقـال سليمان :

ـ ماذا ستصنع •

ـ أكون أنـا •

ولم يزد • وجاءت الورقة وراح صلاح يكتب ونقل بعض أشياء من العقد القديم ووقع الورقـة •• واعطـاها لسليمان وقـام وهو يقول :

ـ سلام عليكم •

ـ انتظر •• اقعد •• ما هذا •

ـ لقد انتهت مهمتى •

ـ اذن فانتظر ربما كانت لى مهمة أنـا الآخر •

ـ أمرك •• انتظر •

وقرأ سليمان الورقـة ووجدها عقد بيع من صـلاح بالأفدنة الستة خالصة الثمن وفهم أنه كان ينقل الحدود من العقد الأول وجرت دمعتان على خدى سليمان وهو يقول :

ـ عجيبـة •

وقال صلاح : ما العجيبة ؟

ـ بل عجائب •

ـ ما هى العجائب •

ـ العجيبـة الأولى أن عينى مازال فيهـا دموع ولم تحجرها السنون والثانية أن تكون أنت ابن سباعى وأمك من أشرف الناس ولاشك أنك ابنه فتلك عجيبة أما العجيبة الثالثة أن عزرائيل تأخر عنى طول هذه المدة وأنـا لا أدرى السبب • واليوم دريته •

ـ والآن اتسمح لى •

ـ بل انتظر •

ـ مـاذا ؟

ـ الفلوس التى ارسلها الى أبوك •• لم امسـها •• كما هى وهى هنا فى هذه الحقيبة •

ـ لا تلزمنى •

ـ امثلى يقبل الصدقة •

ـ استغفر الله وانما الذى قدرته قلته أنت الآن •• لو كان أبى

صنع هــذا معك وأنت تاجر فربما كنت تاجرت بالمــال وكسبت منه. أما وقد فعل ما فعل بعد أن توقفت أنت عن التجــارة فهذا معنــاه. أن المــال بقى عندك ولم يصنع شيئا ولاشك أن نفسك عزفت حتى أن تشترى أرضا أخرى .. فالريع الذى أخذه أبى من الأرض حقك. فليكن ما أرسله لك من المــال مقابل هذا الريع .

ـ منطق قد يقبله غيرى .. فقد كنت أستطيع أن أشترى أرضا أخرى وكنت أستطيع أن أجعل زميلا لى فى التجــارة أو واحدا ممن علمتهم التجارة يتاجر لى . فابقاء المــال بلا عمل خطأ اخترته أنــا ولم يفرضــه على أبوك . والأرض اليوم ثمنها أضعاف أضعاف ثمنها يوم اغتصبها منى أبوك ودفع فيها نصف الثمن . فاذا كنت تريدنى أن أقبل. الأرض فأقبل أنت على الأقل ما دفعه لى أبوك قسرا . انه أرغمنى على. البيع بثمن بخس فأذل كرامتى فلا ترغمنى أنت على الشراء بلا ثمن. وتزيد كرامتى ذلا .

ـ لا والله فما الى هذا قصدت .

ـ اذا أردت أن تريح ضميرك فارح ضمير النــاس واطال الله. عمرك وثبتك على ما أخذت به نفسك واعانك عليه فان من كان فى مثل. عدلك سيلقى الكثير من المتاعب . خذ الفلوس .

ـ أمرك .. سلام عليكم .

ـ مع ألف سلامة !

***

ذهب صلاح الى بيت شاكر وكان ما صنعه صــلاح مع سليمان النواوى قد ذاع فى القرية كلها فرحب به شاكر فقد أحس أن القــادم اليه انسان .. قال صلاح :

ـ أين أخوك عبد التواب .

ـ فى بيته •

ـ ارسل اليه من يستدعيه •

وجاء عبد التواب وبدأ صلاح :

ـ حياة الانسان لا يساويها شيء فى العـالم • ولكن الله وحده هو القادر على أن يبعث الحياة ولا يد لى فى هـذا • وكل كلام للعزاء فى أبيكما لا يجدى فلا عوض عن الأب ولكننى أنـا أريد أن أعيش وبيدك أنت وأخوك هـذا أن تسمحا لى بأن أحس أننى فعلت ما يجب على أن أفعله فى أضعف صـورة فاستطيع أن أعيش •

وقال عبد التواب :

ـ ما المطلوب منا يا ستاذ •

ـ لا شيء الا أن تقبلا هذا العقد •

ـ وماذا فيه •

ـ بيع باسمك واسم أخوتك منى للأفدنة الخمسـة التى كان يزرعها أبوكم •

وبهت الأخوان وقال شاكر :

ـ والثمن ؟ •

ـ العقد خالص والثمن وصل •

وقال عبد التواب :

ـ لا يرد الكرامة الا لئيم••كان غيرك يستطيع أن يقول ما شأنى بما فعله أبى ويبقى الأرض •

ـ ولكنى أنـا لا أستطيع •

ـ اذن فأنت جديد بالشكر •

ـ بل الشكر لكما أن قبلتما •• السلام عليكم •

ـ السلام ورحمة الله وبركاته •

تردد كثيرا ثم جمع أطراف شجاعته وذهب الى عبد الحميد ابن حسن قاتل أبيه • وجزع الشاب وهو يراه واقفا على رأسه فى الدكان وانتفض واقفا وبيده المقص وهو يقول :

ـ ماذا تريد ؟

ـ رد السلام أولا •

ـ ومن أين يأتى السلام •

ـ يا أخى أبوك قاتل أبى وأنا الذى جئت اليك •

ـ من أجل هذا أعجب ماذا تريد •

ـ كل خير ان شاء الله •

ـ لم نر الخير منكم مطلقا •

ـ صدقت ولكن من يدرى ماذا فى داخل الأيام القادمة •• رد السلام •

ـ وعليكم السلام •

ـ اقعد •

ـ نقعد •

ـ خذ هذا •

ـ ما هذا •

ـ أنا أعرف أنك تعلمت القراءة والكتابة •

وقرأ عبد الحميد :

ـ أهذا معقول ٠

ـ نعـم ٠

ـ ليس معى ثمنها ٠

ـ ألم تقرأ العقد ٠

ـ نعـم ٠٠

ـ ماذا فيه عن الثمن ٠

ـ انه خالص ٠

ـ وهو خالص ٠

ـ هذا كثير ٠٠ هـذا كثير ان أبى قتل أباك من أجل هـذه الأفدنة الثلاثة ٠

ـ والآن وقد مات أبى فلنترك الأيام تصنع ما عندها ٠٠ ويؤدى كل منا واجبـه ٠

وانفجر عبد الحميد عن بكاء عالى النحيب وراح صـلاح يربت كتفه ٠٠ وقال عبد الحميد :

ـ أنـا الذى جعلته يصنع ما صنع ٠

ـ أنت ؟

ـ كنت دائما أعيره انه قبل الذل ٠٠ وكان يقول اننى أقتله كلما قلت له هـذا ٠٠ قال لى عندما زرته فى السجن : ثلاث رصاصـات عن كل فدان رصاصة ٠٠ قل لأولادك جدكم لم يكن ذليلا ٠

ـ هل وكلت عنه محاميا ٠

ـ لا ٠

ـ وهل معك أجر المحامى ؟

ـ سأدبره ٠

ـ خذ هذا المبلغ وتسمع نصيحتى فى اختيار المحــامى أم تظن أننى أغشــك ٠

ـ أتقدم لى كل هذا وتغشنى ٠

ـ اذن فاذهب الى القاهرة ووكل الدكتور عبد الوهاب رفاعى أســتاذ القانون الجنائى فى كلية الحقوق ٠٠ وهــذا عنوان مكتبه ٠٠ ســلام عليكم ٠

ـ نعم ٠٠ الآن السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

وبقى صــلاح فى البلدة يعيد الى كل من اغتصب منه أبوه أرضا أرضه أو يعيدها لأولاده ، منهم من يرد الثمن ومنهم من لا يرد حتى اذا اطمأن أن لم تبق أرض لم تعد لصاحبهــا أو لورثتــه سافر الى القــاهرة ٠

وهناك ذهب الى عمه الدكتور خليل ٠

ـ أهكذا تكون النهاية موت فى حظيرة بهائم ٠٠ فى أقذر مكان فى القرية بل ربما فى العالم ٠

ـ انه مجرد جســد ارتمى فى القذارة وعند الموت تســتوى الأمكنــة ٠

ـ وربما كانت روحه قد صعدت وهى تحمل من القذارة أكثر مما ارتمى عليه جسده ٠

ـ هذا ليس شأنك ٠

ـ أنــا ابنه ٠

ــ ولكنه أصبح الى من لا ينفع عنده مال ولا بنون •

وأكمل صلاح :

ــ الا من أتى الله بقلب سليم •• أو كان قلبه سليما ••

ــ ومن هذا الذى يستطيع أن يطلع على القلوب •

ــ الذى لا ينفع عنده مال ولا بنون •

ــ فهذا شأنه اتركه له •

ــ ياليتنى أستطيع •

ــ أنت قمت بواجبك بعد وفاته •

ــ ليس بعد •

ــ ماذا بقى عليك •

ــ هناك انسان سيقتل •

ــ انه قاتل •• هذا حق المجتمع •

ــ وحقى •• ألست ولى الدم •

ــ وماذا تريد أن تفعل •

ــ رفعت الدعوى المدنية •

ــ أتريد عوضا عن أبيك •

ــ أريد الحق أن يأخذ مجراه •

ــ لا أفهم شـــيئا •

ــ لكل شىء وقته •

ــ بلغنى ما فعلته فى البلد •

ـ لم يبق أحد أرد حقه الا سعادتك •

ـ أنـا ليس لى حق •

ـ سنعرف الآن •

ـ أربعون فدانا •

ـ لا بأس •

ـ ستصبح الآن عشرين تقريبا •

ـ كم بقى لك من أرض •

ـ لمـاذا ؟

ـ أرضك وأرض جدتى •

ـ أرضى أنـا •

ـ نعـم •

ـ مالهـا •

ـ لابد أن أردها اليك •

ـ لمـاذا وهل بعتها قسرا أنـا الآخر •

ـ لو لم يكن أبى على ما كان عليه لما بعت أرضك •

ـ أكذب لو قلت لك أن هذا كان تفكيرى •

ـ بل تريد أن تبقى فى ملكى أرضا ليست من حقى •

ـ كان أبوك لا يتأخر عن دفع الايجـار وكنت أستطيع أن أبقى الأرض تحت اشرافـه لو أردت ذلـك ولكننى بعت الأرض بمحض اختيارى والثمن كان مناسبا لهذه الفترة •

ـ عمى أنت تعرف العبء الذى أحس به على ضميرى ٠

ـ وواجبى أن أخففه عنك ولكن أتريد أن تخفف من عبئك لأحمل أنا عبئا أشد ٠ أغشك ٠٠ أغش ابنى ٠٠ أى ضمير يقبل هذا ٠

ـ هل أنت واثق ٠

ـ كل الثقة ٠

ـ فأرض ستى اذن ٠

ـ هى الأخرى باعتها مختارة ٠

ـ لقد رأيت ستى وهى تعيش معك ٠ كانت الحسرة تملأ نفسها الى يوم وفاتها لأنها تركت البلد وبيتها ٠٠ لا ٠٠ لولا أبى وما فعله ما تركت ستى البلد أبدا ٠

ـ وأفرض ٠٠ ولكنها باعت الأرض باختيارها ٠

ـ أهذا اختيار ٠٠ انه الارغام ذاته ٠٠ على كل حال أنا قررت أن أتنازل عن أرض ستى لعمتى عابدة وعمتى فاطمة ٠

ـ وأنا قبلت عنهما هذا وقبلت هذا لك ، فان من واجبك أن تكرم عماتك ، وفعلا كلتاهما تحتاج الى ما يعينها على الحياة ، وأنا أعمل ما فى طاقتى وأحب لك أن تكون بجانبى فى رعايتهما ٠

ـ اذن ٠

ـ عندى توكيل منهما ٠

ـ وهذا عقد بيع خالص الثمن لهما وقعه أو لا توقعه فهو على كل حال من صورة واحدة وكلف سعادتك واحدا من وكلاء المحامين ليبدأ فى اجراءات التسجيل ٠

ـ لا أحب أن أمدحك ولكن لابد أن أقول لك أنى فخور بك •

ـ أرجو أن أشعر بنصف هذا الشعور نحو نفسى •

ـ والآن ماذا ستعمل فى الزواج •

ـ تأجل طبعـا •

ـ كيف ؟

ـ عديلة من نفسـها قالت لابد أن ننتظر سـنة على الأقـل وأبوها أيد هذا الرأى بحرارة •

ـ وأنت ما رأيك •

ـ لو لم يقولا هذا ما كنت تزوجت الآن على أى حال •

ـ نعم ولكن سنة كثير •

ـ والله أعلم •• ربما أكثر •

ـ كيف ؟

ـ أتريدنى أنـا أن أتزوج وأفرح وأنجب أطفالا وهنـاك روح انسان متهم فى قتل أبى يتردد الأمر فيها بين البقاء والازهاق •

ـ وأنت ماذا بيدك •

ـ لا أعرف ولكننى لا أتصور أن أتزوج والقضية منظورة •

ـ صلاح •• أتكون كرهت عديلة •

ـ بل يزداد حبى لها كل يوم عن اليوم الذى فات •

ـ عجيبـة •

ـ يا عمى حتى يتزوج الانسـان •• وأقول الانسان لابد أن يكون مرتاح الضمير •

ـ يابنى ضمير الانسان لا يشغله الا ما يصنعه الانسان نفسه .

ـ أو ما يصنعه أبوه .

ـ وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه .

ـ وهذا طائرى يا عمى .

ـ أعانك الله على نفسك يا ابنى .

ـ ادع لى .

ـ لم تقل لى فيم أتنويت أن تعمل .

ـ عرض على عميد الحقوق أن أتقدم لأشغل وظيفة المعيد الخالية بالكلية فطلبت أن يمهلنى للعام القادم .

ـ لماذا ؟

ـ لى غرض فى هذا .

ـ ألا تقوله لى .

ـ ستعرفه فى حينه .

ـ والنيابة .

ـ هى أيضا لم أتقدم لها .

ـ اذن فماذا تنوى ؟

ـ طلبت قيدى فى المحاماة .

ـ ومتى ستحلف اليمين .

ـ أظن بعد شهر تقريبا .

ـ وأين تريد أن تتمرن .

ـ لم أفكر بعد •

ـ أتحب أن تتمرن فى مكتب الدكتور عبد الوهاب •

ـ وكـله ابن حسـن عن أبيـه وليس معقولا أن اتمرن فى مكتب يترافع عن قاتل أبى •

ـ اذن أكلم الأستاذ عاطف البهنسى •

ـ عظيـم •

ـ الآن •• أى مكتب يتمنى أن تتمرن عنده •• أنت جيد جدا يا أستاذ •• وهل أنت قليل •• وعاطف من أعز أصدقائى •

ـ وهو كذلك •

***

٢٩

انعقدت دائرة الجنايات ونظرت فى قضـــية حسن عبد الحميد وتحدد يوم المرافعة • وتكلم وكيل النيابة ولم يكن محتاجا لاسباب فالقـــاتل معترف والجريمـــة تمت مع سبق الاصرار والترصـــد نبو يطالب بأقصى العقوبة •

وطلب صلاح أن يترافع بوصفه مدعيا بالحق المدنى فسمح له وبدأ المرافعـــة •

ـ بســـم الله الرحمن الرحيم أقولهـــا يا حضرات المستشـــارين لا افتتاحا المرافعة فحسب وانما لأتأمل مع المحكمـــة الموقرة لمـــاذا أختار سبحانه الرحمـــة الرحيمة من بين اسمائه الحسنى جميعا ليجعل منها فاتحة فاتحة الكتاب • أليس هـــذا الآن صفة الرحمة الرحيمة هى أحب الصفات الى الذات العلية • وقد جعل الله الانسان سيد المخلوقات لأنه قبل أن يحمل الأمانـــة التى عرضـــها سبحانه على الســـماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان فنصبه سبحانه سيد خلقه أجمعين فانسان بلا رحمـــة ليس انسانا جديرا أن يحمل الأمانة •• والأمانة يا حضرات المستشارين هى الاختيار الذى

منحه الله للانسان حين هداه النجدين وحرم سـائر مخلوقاته من حق الاختيار هـذا فالحيوان لا يستطيع أن يكون الا حيوانا والملائـكة لا تستطيع أن تكون الا ملائكة .. والانسان وحده هو الذى يستطيع أن يكون انسانا أو حيوانا أو ملاكا وبهذا الاختيار يصبح الانسـان أما شرا من الحيوان لأنه اختـار أو خيرا من الملائكة لأنه اختـار وكلاهما لا يملك الاختيار .. ونحن فى عصر يا حضرات المستشارين فرض على مصر أن يكون أبناؤها مسحوقين .. وحينما يسحق الناس يسود الجبروت ويفشـو الظلم ويصبح النفاق هو الزعيم الأول .. فنحن ننافق السلطات وننافق من ينافقون السـلطات وننافق الغش وننافق الخداع وننافق الرشـوة وننافق التدليس وننافق السرقـة وننافق القتل وننافق الاعتداء على الأعراض والأموال والكرامات وعزة الآدمى .. حضرات المستشارين اننا ننافق النفاق ذاته وأبناء جيلى نشأوا فى هـذه الفترة القاتمة السـواد . وقد تبينا أمرنا بعد أن أدلهم الخطب واشتدى أزمة تنفرجى قد أوشـك ليلك بالبلج هكذا قـال الشاعر وهو ينظر الى قوله سبحانه فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا والعسر هنا واحد لأنه معرف بال واليسر مطلق لأنه محرر من التعريف بحكمـة الاله الأعظم ولهذا قـال المفسرون لا يغلب عسر واحد يسرين أبدا فلا عجب يا حضرات المستشارين أن يبدأ جيلنا نحن أن يصنع اليسر بيده مؤيدا بروح من بارىء النفوس وملهمها فجورها وتقواها . وقد آن لنا أن تتبع تقوانا بعد أن أوغل عصرنا فى فجوره وخلق من المعاصى ما لم تعرفه البشرية .

ان هـذا المتهم المـاثل أمامكم لم يقتل أبى وانمـا قتل أبى نفسه .. وان هـذا المتهم حين أطلق الرصاص على أبى كان فى حالة دفاع شرعى عن الكرامة التى هى أغلى من النفس .

أما ان أبى قتل نفسه فبما صنع من فظـائع فى حق البشريـة وبما قتل من أنفس وبما قهر من رجولة الرجـال وبما أذل من كرامات

الانسان •• وأى شىء أقسى على نفس الرجل من أن يكون ذليلا أمـام زوجته وابنه وابنته ولا يملك لظالمـه دفعا ولا لكرامته صـونا •• واذا قالت النيابة ان المتهم هو أيضـا قتل طلبت الى الزميـل ممثل النيابة أن يرجـع الى قول الله سبحانه انه من قتل نفسـا بغير نفس أو فسـاد فى الأرض فكأنمـا قتل النـاس جميعا • وقـد كان أبى وأشهد فى هـذه الساحة المقدسة مفسدا فى الأرض فحق عليه عقاب • واذا قيل أن العقاب من حق المجتمع ومن حق الله وحده انتقلت الى موقف المتهم مرتئيا أنه فعل فعله فى حالة دفـاع شرعى عن الكرامـة التى هى أقـدس عند الفـلاح الأصـيل من النفس •• تصـوروا يا حضرات المستشارين حال هذا المتهم أن يبيع أرضا لا يريد بيعها • ما نظرته الى نفسه والنظرات من حوله احتقار أو اشفاق وكلتا النظرتين أشـد على الحر وقعا من كل رصـاص العالم فاذا قيل فما باله انتظ هذه السنوات فان الجواب حاضر من قريب •• لقد ذاق هو الذل مقهورا بالجبروت ولم يرد لأبنائه أن يذوقوا الذل مقهورين بالحاجة• فلو أنه صنع صنيعه يوم أرغم على ترك أرضـه لترك أطفاله صغارا يتكففون النـاس ويمدون أيديهم فى طلب الجـدوى فانتظر تزيده السنوات شعورا بالمهانة والذلة حتى استوى أبناؤه رجالا • ودافع عن كرامته التى امتهنت طوال هذه السنين •

وأنـا يا حضرات المستشـارين لست أدعـو بقولى هـذا الى الفوضوية التى يتاح فيه للفرد أن يمسـك القانون بيديه يشرعه هو ويحاكم به الآخرين وينفذه أيضا فانه اذا حدث هـذا وقعنا فى هوة سحيقة ينهار فيها بنيان المجتمع كله الى حضيض ما له من قرار •• انما أحاول فقط أن أخفف عبء جريمـة القتل العمد التى توجهها النيابة وهى المدافعة عن حق المجتمع الى قاتل أبى هـذا •• ان هـذا الذى أقول هو ما يعتمل فى نفسه دفعنى الى قوله محـاولة منى أن يكون العدل أعظم من الأبوة وأن يكون حق الانسان فى الكرامة التى

وهبها الله له مقدسا قداســة الروح الانسانيــة •• وأن تكون مصر مسبح آدميين لا غابة ذئاب •

وبعد يا حضرات المستشارين فقد يقــال أننى دافعت عن المتهم وجحدت حق الأبوة والله وحده يعلم كم أقدس الأبوة ولكن تقديسى للحق ولكرامة الانسان أشــد • واننى بهذا الذى أقوله أتوجه الى الذات العلية أن أكون قد كفرت بما قلت عن بعض ما صنع أبى بالانسان سيد المخلوقات وبما امتهن من كرامته وبما أذل من عزته وبما أزهق من أرواحه •

وقد يقال شاب فى مقتبل العمر انتهز قتل أبيه فرصــة ليصنع منها لنفسه شهرة • وانى أحتمل هــذه القالة ولا أحتمل أن أكتم الحق نفاقا للمجتمع ولكننى أعلن منذ اليوم أننى أعتزل المحاماة وأقبل أى وظيفة قد تعرض على •

ولو كنت وكيلا عن موكل فى هــذه القضية ما قبلتها ولكننى يا حضرات المستشارين أنــا وحدى الموكل والوكيل فلا وارث للحق المدنى غيرى ولهذا رخصت لنفسى أن أتشرف بهذا الدفــاع فى ساحتكم القدســية •

وأنهى مرافعتى يا حضرات الســادة المستشــارين بتنــازلى عن الدعوى المدنية تاركا لأستاذى ممثل الدفاع البدء فى مرافعته •

وأنهى صلاح كلامه واتجه الى باب الخروج واذا عديلة التى كانت جالسة على مقعد بجانب الممشى تقف واذا هى حين يقبل اليها تحتضنه وتقبله على ملأ الناس لأول مرة فى حياتها ويصحبها ويخرجان •

ويبدأ الدفاع مرافعته :

ــ حضرات المستشارين •• ليس لى بعد مرافعة المدعى بالحق المدنى أى مرافعة أضيفها الا أن أخبر عدالة المحكمة أن هــذا الشاب

الذى كان ماثلا أمامكم قد أرجـع الحق الى كل من اغتصب أبـوه منه حقا ٠

وأنهى المرافعة بطلب البراءة ٠٠

والتفت رئيس المحكمة الى ممثل النيابة :

ـ النيابة لها تعليق ٠٠

ـ النيابة تفوض الأمر للمحكمة ٠

***

ذهب صلاح مع عديلة الى منزل أبيها ولم يكن هناك ما يستطيع واحد منهما أن يقوله ٠ هو لايزال مرتعشا بالموقف الذى وقفه مقتنعا انه الحق ٠ وهى مبهورة به ولم يطل بهما الانفراد جاء أبوها وقالت عديلة :

ـ ما الذى أخرك ؟

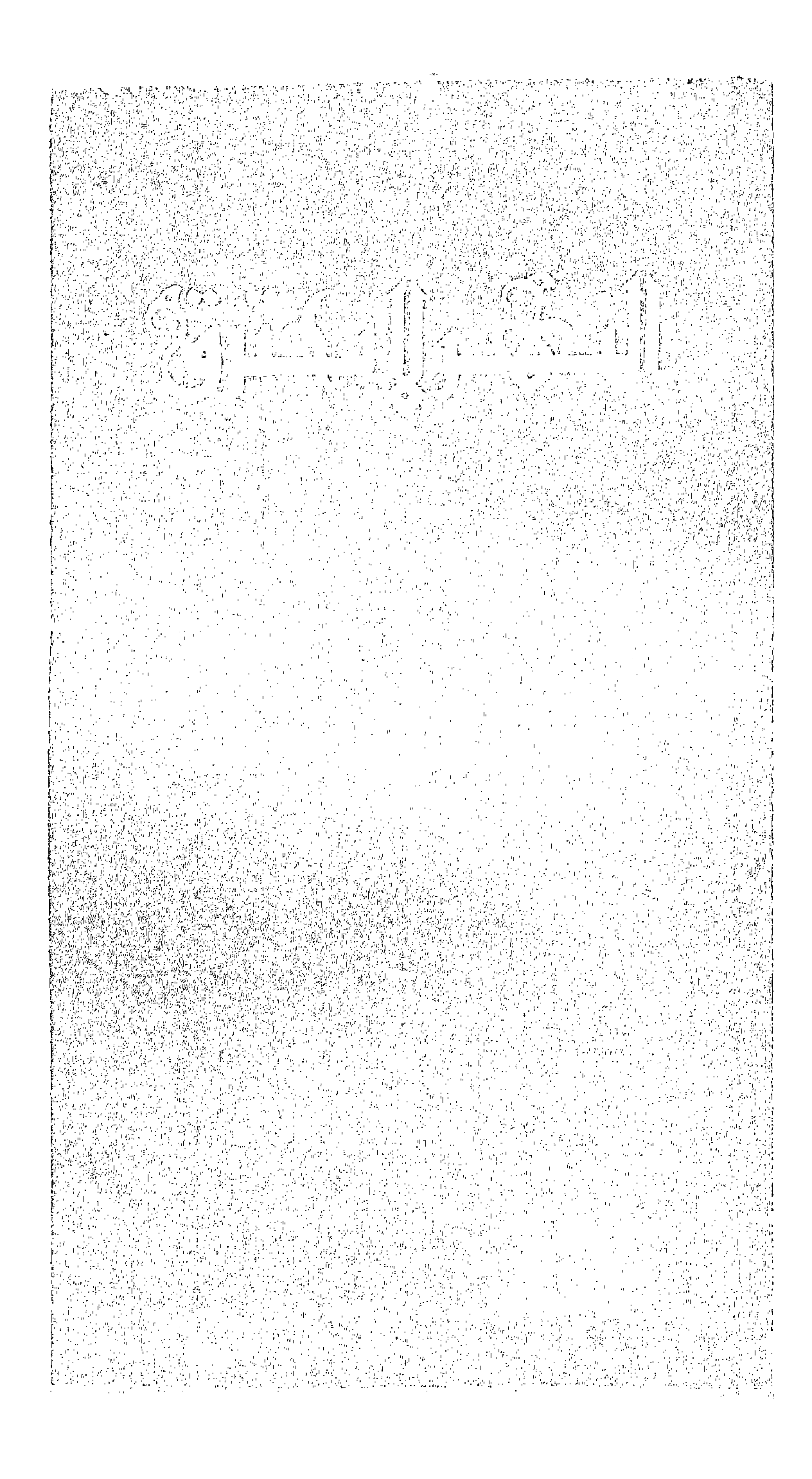
ـ كنت أنتظر الحكم ٠٠

ولم يسأل صلاح عن الحكم وقال لوالد خطيبته :

ـ لقد انتظرت هذا اليوم لأسألك هل مازلت مصرا أن تزوجنى ابنتك بعد ما شهدت اليوم وبعد أن بددت ثلثى الثروة التى تركهـا أبى والتى كانت فى حسبانك يوم قبلتنى ٠ أما عديلة فقد أعلنت رأيها فى المحكمة فما رأيك أنت ٠

ـ يابنى أنـا لست مصرا ولكن لو لم تكن خاطبا لابنتى لسعيت اليك لكى تخطبها ٠٠ أنـا اليوم أتشبث بك وفى تشبثى بك تشبث بالأمل فى مصر الغد ٠٠

***





النهر لا يحترق

١

الحر شديد ، شديد ، وفوكيون لمبرو يحمل حقيبته الثقيلة ثقل الزمن ، وبيده اليسرى يحمل البقجة المنتفخة بالأقمشة ، والمثقلة بهـا أيضا • عجيبة أن تكون الأقمشة الحريرية والأخرى الشفيفة بكل هذا الثقل • ان شأنها شأن الزمن ما هو الا ثانية وثانية ، ثم دقيقة ودقيقة ، ثم ساعة وساعة ، ثم أيـام ثقيلة الخطى ، ثم سنون ترزح على كتف الانسان فاذا القامة المديدة تحنيها الأعوام التى لم تكن الا أياما كانت ساعات وكانت دقائق وكانت ثوانى •

من تراكم الثوانى شاب شعر فوكيون لمبرو ، ومن تراكم الحرائر والشفائف فى الحقيبة والبقجـة يئن فوكيون لمبرو ، وكأن الشـمس لا يكفيها ما هو فيه من معاناة فاذا هى تصليـه تلك النار الضـارية تخترق قبعته وتعتصره اعتصارا •

ويمشى لمبرو ، والحر شديد ، شديد •

ويمر ببيت الست عدلات ، ويله من الست عدلات ، انه لا يشتهى مطلقا أن يذهب اليها فهى كثيرة التقليب فى الأقمشة ، غزيرة الكلام بطيئة الحركة ، شحيحة المـنال ، قليلة الشراء ، نادرة الدفع •

يعبر البيت ويستمر سائرا فى ذلك الشارع الجميل الذى يرافق النهير العظيم الذى سماه أهله وذووه بحر مويس ، فلم يكفهم فى شأنه أن يرفعوه من نهير الى نهر بل أفاضوا عليه بما عرف عنهم من كرم وأطلقوها عليه بحرا فأصبح بحرا ، وكان يقوم بين البحر والشارع سور من الأعواد الحديدية العريضة بعض الشىء والمدببة الهامة ، وهكذا استطاع أهل الزقازيق أن يحموا مويس من أن يكون موئلا لمن يفكر أن يلقى به ما يشوه جماله . واستطاعوا أيضا أن يردوا الأطفال عن خوضه والتعرض لمائه العميق .

وفى هذه الأيام التى كان فوكيون يماشى فيها النهر فى ذلك السعير لم يكن على الجانب الآخر من النهر الا قليل من المبانى على قلة عددها جليلة الشأن عظيمة الخطر . فمن هذه المبانى المدرسة الابتدائية ، وكان كثير من التلاميذ يعبرون اليها النهر فى مراكب صغيرة لقاء مليم أو مليمين يتقاضاهما صاحب المركب . فقد كانت الكبارى لاتزيد على اثنين أحدهما على رأس النهر حين يتجه شرقا الى القاهرة عن طريق أبى حماد . والكوبرى الآخر فى الجهة المتجهة غربا الى منيا القمح فبنها . وكان منزل الباشا المدير فى هذا الجانب أيضا .

أما الجانب الذى يسير فيه فوكيون فهو زقازيق تلك الأيام بكل ما فيها من معالم . وحيث يدور النهر لمتد بجانبه تأبى أن تبتعد عنه ، وكان فوكيون يسكن فى شارع البوستة وهو أهم شارع بالزقازيق ، وحين تزوج أتينا فروسو ــ وشدد السين حتى تصل الى النطق الصحيح ــ أقاما بنفس البيت ، فقد عرفها فيه وهى تقيم مع أخيها متراكى صاحب محل البقالة الشهير بالزقازيق .

دام زواج فوكيون لأتينا فروسو اثنتى عشرة سنة ولم ينجبا أطفالا ، والعجيب أن كليهما لم يحزن لهذا ، فقد كانا يعرفان كيف يعملان حين يعملان وكيف يستمتعان بالأجازة حين يرغبان .

كانت أرينا تذهب مع فوكيون كل شهر الى محل الحاج محمدين الطوخى فى الحمزاوى وتنتقى منه الأقمشة لسيدات الزقازيق ، وكانت تعرف الغالبية العظمى منهن من قبل أن تتزوج فوكيون ، فقد كانت هى التى تقوم بتفصيل ملابسهن ، وقد كانت على ذكاء حاد فعرفت أذواقهن وهكذا استطاعت أن تكون ذات فائدة عظمى لزوجها . وبعد أن كانت الأقمشة التى يشتريها يتخلف منها جزء غير يسير فترات طويلة عنده مما يضطره آخر الأمر أن يبيعها بغير مكسب أو بخسارة أصبحت الأقمشة التى تنتقيها فروسو تنفد فى أسابيع قليلة الى درجة أنه كان أحيانا ينزل مع فروسو مرتين أو ثلاثا الى القاهرة ليتزود ببضاعة جديدة .

وكان الزوجان يصران على أن ينالا شهرا أجازة فى كل عام . وكانا يختارانه شهر يوليو ، ففى هذا الشهر تكون السيدات فى الصيف هن أيضا قد انتهين من اعداد ملابس الصيف ، ويكون الشتاء بعيدا فأغلبهن يبدأ شراء الأصواف قبل أغسطس ان لم يكن سبتمبر .

سنوات طيبة عاشها الزوجان معا . العمل عند كليهما يحميهما من الفراغ والشجار . والأجازة السنوية تجدد نشاطهما ، والخروج الى الفسحة كل أسبوع يدخل على حياتها اليومية الرتيبة تجديدا . وكانا يذهبان فى كل يوم أحد الى كنيسة الأروام ، ثم يتناولان الشطائر عند الغداء فى حديقة وابور النور الذى يقع فى آخر الزقازيق بعد منشاة أباظة . ثم يذهبان الى سينما أبولون فى حفلة الساعة السادسة . ولا يمنعهما شىء عن هذا البرنامج الا المرض ونادرا ما كانا يعرفانه . والعجيب . أو ربما لم يصبح عليهما عجيبا أنهما كانا يستمتعان غاية المتعة بالموسيقى العربية والمارشات العسكرية التى كانا يسمعانها من فرق الجيش فى كشك وابور النور . فقد كانت موسيقى الجيش تعزف أيام الخميس والجمعة والأحد من بعد الظهر .

وكانت كثير من السيدات يمزحن مع فروسو وهي تخيط لهن ملابسهن ويقلن لها انك مصرية يا فروسو أكثر من المصريات فلماذا لا تتكلمين مثلنا وتتركين لهجتك الجريجية هذه •

وتضحك فروسو وتقول :

ــ دا سغل يا خبيبتى • أقصد أقول دا شغل يا حبيبتى •

وتضحك السيدات وتقول هي :

ــ اذا أنا اكلمتو أربى الستات يقول دى خياطة بلدى ويتركننى ويذهبن الى خياطة جريجى غيرى •

كانت فروسو تعلم أن السيدات يحببن أن يلوين ألسنتهن باسم أجنبى اذا أردن أن يذكرن اسم الخياطة التى تفصل لهن فساتين •

وكانت فروسو اذا ذهبت الى أحد البيوت لتخيط لسيداته أصبح ذهابها موسما • وتجمعت عند هذه السيدة الصديقات الأخريات اللاتى تفصل لهن فروسو • ولا بأس أن يداعب الرجال فروسو أيضا على مشهد من الزوجات فقد كانت مداعبات تثير الضحك ولا تثير الغيرة • قال لها لطفى سعيد بمنطق المال :

ــ لمن تجمعين يا فروسو كل هذا المال أنت وفوكيون ؟

وتضحك فروسو ولا يمسها طائف من الحزن أنها لم تنجب وتقول :

ــ من عارف يا لطفى بك ••• لصاحب النصيب •

ــ ألم تفكرى أنت وفوكيون من هذا الذى يمكن أن يكون صاحب النصيب • ؟

ــ أو ••• أنا وفوكيون نفكر فى كل حاجة سوا سوا •

ــ فيمن تفكران اذن ليكون صاحب النصيب ؟

ـ على كل حال لطفى بك ••• مش انت ••

ويضحك الجميع ويقول لطفى :

ـ دا مؤكد فروسو ••• دا مؤكد •

وتقول هى جادة :

ـ لطفى بك تفتكر أنـا وفوكيون نقدر نشتغل كدا على طول • يجىء يوم تتعب •• نحب نستريح • يكون الفلوس موجودة • سفت لطفى بك ••• أنـا وفوكيون أصحاب النصيب مش حد تانى •

ونقلت أتينا هـذا الحديث بأكملـه الى فوكيون لمبرو وهمـا يتناولان العشاء ويسمران • وضحك فوكيون وقال لها باللغة اليونانية الخالصـة :

ـ أحسنت الاجابة يا أتينا •

أتينا هو اسمها الحقيقى أما فروسـو فاسم أبيهـا ، ومع ذلك لا يناديها أحد بأتينا الا زوجها وأخوها متراكى • فهو أيضا اسـمه متراكى فروسو ولكن أحدا لا يعرف عنه الا متراكى ولا يرى أحد داعيا مطلقا أن يبحث عن بقية اسمه ، ومن عرفه صدفة لا يرى داعيا أن يناديه به •

***

وحين ماتت أتينا فروسو دون أى توقع أصبحت الحياة عند فوكيون لمبرو صحراء جرداء لا تستحق أن تعاش • كان قد أعد مع أتينا كل خطوة سيخطوانها فى المستقبل ، ولكنها أخلفت موعـدها فى لحظة عابرة وهما جالسان فى البيت يلعبان الورق •

لم تقل أنها ذاهبـة ولم تقل أنها متعبـة • كل ما قالته بعد أن وضعت الورق على المنضدة : فوكيون •• وقبل أن يجيب كانت هى قد أجابت داعى السماء •

لا معنى للحياة ، ولكن الحياة لا تعترف برأى الأفراد ولا حتى برأى الجماعات أو الشعوب . انها تمضى كما تعودت أن تمضى ثانية تدفع ثانية ودقيقة تسوق دقيقة وساعة تستحث ساعة ويوما يستبطىء يوما وأعواما تنتهب العمر انتهابا .

ماذا أنا صانع اذا لم أعمل ، اذا كنت أعددت المستقبل لى ولأتينا وتخلفت هى فالمستقبل لن يتخلف . بل هو قادم رغبت أنا فى قدومه أو لم أرغب وسيجدنى أنتظره مادمت على قيد الحياة . والمصيبة الكبرى أننى لابد أن أظل على قيد الحياة . والمصيبة الأعظم أننى لا أعلم متى سأغادر هذه الحياة . وقد أصبح العمل هو كل ما أملك فى الحياة بعد أن كانت معه أتينا . أخشى اذا أنا توقفت عن العمل أن يهملنى الموت ولا يذكرنى ، فهو زبون بلا موعد ولا منطق ولا عقل . يخطف أتينا وهى فى قمة صحتها لا تشكو مرضا وينسى غيرها من الذين أنهكهم المرض سنوات طوالا . قد يرسل الى المرض فالمرض من أتباع الموت ومن خدمه وحاشيته ، ثم ينسى أنه أرسل لى المرض ويتركه عندى السنوات الكثيرة وأصبح بلا مال أنفقه على الضيف الذى أرسله الى الموت وعلى نفسى أيضا .

لابد اذن أن أعمل ، فلئن جاءنى الموت أو خادمه المرض وعندى مال خير ألف مرة من أن يأتينى أحدهما ، وخاصة الخادم ، وأنا قليل المال . فالمرض ضيف لا حياء له ويرغم مضيفه على كثير من الانفاق ولا يقف به الطمع عند حد . فهو رذل وقح عربيد لا يخجل ولا يبالى أن يطلب آلاف الجنيهات وهو واثق أنك ستدفعها ولا تناقش .

أعمل اذن . ولكن الحر شديد . وموت أتينا أصاب مشاعرى باحباط كثيف ، واللذة التى كنت أستشعرها وأنا أعتصر الحياة معها انعدمت تماما ، ولم يصبح للحياة رحيق ولا للمال ذلك الطعم

الساطع الذى كان يملأ النفس رضى وهناءة وطمأنينة وثقة .

والحر شديد وأنـا لا أريد أن أذهب الى الست عدلات ولكن لابد مع ذلك من الذهاب ، فان عليها لى مبلغا من المـال ونحن الآن فى موعد حصـاد القمح وربما استطاعت أن ترد لى شيئا من ديونها .
ثم أنـا لا أستطيع أن أمضى خطوة بعد هـذا . أمرى الى الله .

وفتحت نعمات خادمة الست عدلات الباب وقالت فى ألفة :

ــ يوه هو أنت يا خواجه لمبرو ؟

وقال لمبرو بعد أن دخل وقعد على كرسيه المعهود :

ــ هو أنـا يا نعمات ... كنت تنتظرين أحدا آخر ؟

ــ أبدا يا خواجـه فقط كيف تقدر على المشى فى هـذا الحر الشـديد ؟

ــ أكل العيش يا نعمات !!

ــ بل أكل الجاتوه يا خواجه .. ماذا ستعمل بكل هذه الفلوس يا خواجه . قل لى يا خواجه لمبرو أتكتم السر ؟

ــ كل أعمالنا أسرار ..

ــ سلفنى مائة جنيه أتزوج بها وأرد لك كل شهر جاجة ..

ــ وأنـا كيف سأراك اذا تزوجت يا نعمات .

ــ بلدنا قريبة ..

ــ وتريديننى أن أروح لبلدك كل شهر من أجل القسط ؟

ــ معروف تعمله فى . ألا تعمل معروفا لله أبدا ؟

ــ الله يعلم ولكن الذى تطلبينه مستحيل ..

ــ أنـا أحضر لك الفلوس حتى بيتك ..

ـ قولى يا نعمـات ، من خطيبك ؟ انت مازلت صـغيرة على الزواج ..

ـ أبو الروس ..

ـ من ؟

ـ سويلم أبو الروس ..

ـ ماذا يعمل ؟

ـ يعمل فى مقهى فى البلد .

ـ كم عمره ؟

ـ قريب منى ..

ـ آكبر ؟

ـ يا ترى كل هذا التحقيق له فائدة ؟

ـ أين الست عدلات ؟

ـ جائيـة .

ـ أهى ليست هنا ؟

ـ عند الست تفيدة ..

ـ فـوق ؟

ـ نعـم .

ـ فهى لن تأتى اذن ..

ـ لمـاذا يا خواجة لا قدر الله ؟

ـ الاثنتان لا تتوقفان عن الحديث الا بالبوليس ..

وتضحك نعمات وتقول له :

ـ الله يجازيك يا خواجة لمبرو ... ماذا قلت ؟

ـ فيم ؟

ـ خواجة ... أنسيت ؟

ـ قلت لى عمره كم ؟

ـ انت مالك ..

ـ أعـرف .

ـ ما دخل هذا فيما أطلبه ؟

ـ فقط قولى . أهو أكبر منك ؟

ـ يا سلام يا خواجة ..

ـ كم عمرك ؟

ـ ثمانى عشرة سنة .

ـ يعنى عنده عشرون تقريبا ..

ـ لن أقول لك .

ـ فهو أصغر منك اذن ..

ـ يا خبر أسود ... هل هذا معقول ؟

ـ ليس مهما .

ـ وما رأيـك ؟

وقبل أن يجيب تدخل الست عدلات وتفاجأ بالخواجة لمبرو .

ـ يخيبك يا لمبرو ... فى هذا الحر ؟

ـ وأنت ست عدلات تخرجين فى هـذا الحر . أنـا أخرج من أجل العمل لكن أنت تخرجين من أجل التسلية .

ـ ألفلوس على قلبك ستقتلك وتخرج فى هذا الحر ؟

ـ والله ست عـدلات لم أعد أحب أن أبقى فى البيت أبدا . البيت كله أسود فى وشى ..

ـ الله يرحمك يا أتينا . والله من يوم ما راحت وأنـا لم ألبس شيئا أرتاح له ..

ـ مرسى ست عدلات .

ـ هل معك حاجة جديدة ؟

ـ طبعا ... لكن أنت أليس عندك حاجة قديمة ؟

ـ يخيبك يا لمبرو ... كم حسابى ؟

ـ خمسة وعشرون جنيها ،

ـ وكم تريد منها ؟

ـ خمسة وعشرين جنيها ..

ـ أليس عندك دم ؟

ـ أنت سألت كم تريد وقلت لك ما أريد وأنت حرة ..

ـ طيب أرنى ما عندك ... يا نعمات . بنت يا نعمات ..

وتأتى نعمات مبتسمة ومعها حقيبة يد سيدتها .

وتضحك نعمات ويضحك لمبرو :

ـ كيف عرفت يا بنت أنى أريد حقيبة يدى ؟

وقالت نعمات وهى تضحك :

ـ وهل يأتى الا من أجل حقيبة يدك ؟

ويقول لمبرو :

ـ ملعونة أنت يا نعمـات ... لمـا أخلص مع الست لى معك كلام أمام الست عدلات .

ـ صحيح يا خواجة .

ـ ليس كما فهمت ، ولكنك ستفرحين جدا .

ـ الله يخليك يا خواجه .

ـ مش مهم يا نعمات مش مهم .. لا أريد أن يخليني مش مهم .

ـ برضه الله يخليك ويعطيك الصحة .

ـ آه ... دا مهم ... الصحة مهم ... مرسى نعمات مرسى .

وتعطى الست نعمات الخواجة لمبرو عشرة جنيهات ويدور جدل طويل يقصـد لمبرو أن يطيله حتى تنكسر حدة الحر ويستمتع بفنجان القهوة الذى أحضرته نعمات مع المـاء البارد .

وتبدأ الست عدلات فى رؤية الأقمشة الجديدة وتنقلب الحقيبة رأسا على عقب وتتناثر محتويات البقجة ويخرج عثمان بك من نومة القيلولة ويجد بهو بيته مليئا بالأقمشة ولا يعجب فهو أمر تعوده ويمزح مع لمبرو :

ـ أنـا يا لمبرو لا أشوفك الا ومصـارينك كلها ملقـاة على الكراسى والسجاجيد .

ـ أمر الله يا عثمان بك ... أمر الله ،

ـ لا تترك منها الكثير فأنا الذى أدفع ثمنها كما تعرف .

ـ أعرف وأنا الذى أنتظر الثمن حتى تطلع روحى يا عثمان بك .

ـ ويضحك عثمان بك ويخرج ويستمر العرض .

وتغرب الشمس . وتنتقى عـدلات هانم قطعـة واحـدة من

كل الأقمشة التى كانت ملقاة بعرض البهو وطوله . تعطيه جنيهين من ثمنهـا . وتدخل نعمات تعاون لمبرو فى اعـادة الحقيبة والبقجة الى ما كانتا عليه عند قدومه . ويسأل لمبرو فى اصرار :

ـ كم عمر عريسك ؟

وتدهش نعمات من هذا الاصرار :

ـ ماذا جرى يا خواجـة أتريده فى الجيش ... ألم تقل أنت عمره .

ـ فقط قولى .

ـ عشرون سنة كما قلت أنت .

ـ اتفقنـا .

ـ اتعطينى المـائة جنيه .

ـ أكثر بكثير .

ـ وتسأل عدلات هانم وتنقل لها نعمات الحوار الذى دار بينها وبين لمبرو وتقول عدلات :

ـ ألم يقل سيدك أنه سيعطيك المـائة جنيه فى القطن ؟

وتضحك نعمات فى حياء وتقول :

ـ وماذا أعمل يا ستى ؟

ـ يا لهوك ... تعملين فى ماذا ؟

ـ الولد سويلم يريد أن يتزوج فى مولد سيد أبو مسلم .

وتضحك عدلات وتقول :

ـ آه مستحيل ... طيب ولا يهمك يا بنت . جهازك على نفقتى فى أى وقت .

ـ ربنا يطول عمرك يا ستي ويخليك ٠

ويتدخل لمبرو :

ـ يعنى أنـا خارج الموضوع اذن ؟

وتضحك نعمات وهى تقول :

ـ البركة فى ستى يا خواجة ... أما أنت فاننا نريدك فى الخير ٠

ويقول لمبرو :

ـ ولكن أنـا الذى أريدك الآن يا نعمات ٠

ـ كيف ؟

ـ أنت قلت أن سويلم يعمل فى مقهى ؟

ـ نعـم ٠

ـ وهل هذا عمل ؟

ـ لا يعرف كيف يفلح الأرض ٠

ـ أحسن ٠

ـ كيف ... ياالبته كان فلاحا ٠

ـ ما رأيك يا نعمـات وأنت ست عـدلات أن يأتى سـويلم ويساعدنى فى العمل ٠

وصاحتا معا :

ـ مـاذا ؟

وساد الصمت مليئا بالضجيج ٠

وماله والله فكرة يعمـل مع لمبرو ٠ وفى هـذه الحالة لا تتركنى

البنت نعمات . ولا أحتاج للبحث عن غيرها . وأين أجد مثلها . أنـا التى ربيتها وأصبحت تعرف كل طلبـاتى وكم كنت سأتعب حتى أجعل خادمة غيرها مريحة لى مثلما هى مريحة .

وساد صمت آخر .

ـ والله فكرة ..

اذن فقد قضى على أن أبقى هنا . وماله . اللقمة طيبة والهدمة نظيفة ، والذى نعرفه خير مما لانعرفة . وهل كان سويلم سيستتنى لابد أننى كنت سأخدم فى البلد ان لم يكن عند العمدة فعند أحد الأعيـان وربنا يعلم أين ولكن .

ـ ولكن يا خواجة .

ـ انطقى يا نعمات ولكن ماذا ؟

ـ سيدخل سويلم معك الى الستات ..

وضحكت الست عدلات وضحك الخواجة وهو يقول :

ـ هـذا شغلنا يا نعمات وأكل عيشنا ... أتخـافين عليه من الستات وكلهن كبيرات وزوجات أعيان ؟

ـ أتخافين عليه من الستات يا مضروبة ؟

ـ يا لهوى يا ستى أليس رجلا . لابد أن عينه ستروح هنا ... أو هنا .



أأعمل مع الخواجه لمبو ... هل اسمه لمبو أظن لا .. لا تفرق . وأين أجد المتعة التى أجدها هنا وأنـا أبيع الكازوزة لركاب القطارات. أين فى العـالم فرجة مثل هـذه الفرجة . أنـا قاعد مستريح والعالم يمر على كله فى القطارات وفى الزبائن .

ـ أنـا واحد من معالم هذا المكان . الزبائن لا يعرفون المعلم فرج قدر ما يعرفوننى ، بل ركاب القطار المنتظمون لا ينادون المعلم فرج فى غدوهم ورواحهم وانما ينادوننى .

أين سأجد حرية مثل حريتى هذه التى أنعم بها ، أصنع ما يحلو لى والكل يحبنى وأنـا أحب الجميع . موظفو المحطـة لا يحلو لهم طلب لا أقدمه اليهم . وأعيان البلدة جميعا يسعون الى مقهانا هـذا ينفحوننى نفحات طيبة . ومرزوق والحمد لله ، ما الذى يجعلنى أترك هـذا جميعه للخواجة لا أدرى اسمه هـذا .. لمبو .. لا لمبرو ... ما شأنى أنا به . وماذا سأصنع معه ؟

ولكن المسـألة ليست بسيطة ... البنت نعسـات قالت كلاما

معقولا • الزواج محتاج الى مصاريف وأنـا ــ والحمد لله ــ ما يجيء يذهب ولا يبقى شيء لأقيم به بيتا ولا حتى عشة • ولنفرض أن نعمات عملت فى أحـد بيوت البـلد • ألا تحتـاج هى الأخرى الى ملبس ومصاريف •

وفى الزقـازيق ستقيم هى عند عثمـان بك وأنـا سأقيم عنـد الخواجة • وقد قـال أنه سيترك لى غرفـة استقبل فيها عروسى فى الأجازة • وقال أيضا أنه سيرسلنى أسـبوعا فى لوكاندة برأس البر كهدية زواج منه • والله حلوة هـذه • والبنت نعمـات تقول لى فى ابتسامتها الحلوة التى تحاول أن تخلطهـا بتكشـيرة : أكنت حفظت القرآن والكتابـة والحساب لتظل طول عمرك صبى مقهى • قـل لن يصيبنا الا ما كتب الله انا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون • من يدرى ربما يكون عملى مع الخواجة لمبرو هو المصـير الذى اختاره الله لى •

أنـا بعد فى كامل صحتى •• وهآنذا مقبل على زواج أغلب الأمر أن يعقبه أولاد • واذا كان ما أكسبه اليوم وما ستكسبه نعمات كافيا لكلينا فكيف سنواجه الأولاد •

لقد تيتمت وأنـا طفل لم أتم حفظ القرآن واضطرتنى الحيـاة أن أعمل حين كان أترابى يلعبون • وربما يكون الله سبحانه وتعـالى عوضنى عن اليتم بحب الناس لى • وأن كثيرا من الناس يقولون لى أن فى وجهـك القبول يا سـويلم ألا يجوز أن يكون هـذا القبول هو نصيبى الذى قسمه لى الله فى الدنيا • أنـا لا أغضبه • البنت حميدة حاولت معى وقلت فى نفسى أنى أخاف الله ولم أذهب الى موعدها ، وحين أخطـأت مع البنت نفيدة زوجة حسنين خفير العمدة ظللت نادما أياما طويلة وخاصـة بعد أن رأيت معها عويس قاهى العمدة • انهـا بنت سائبة وزوجها هو الآخر حمـار • يتزوج بنتا أصغر من ابنتـه ويريدها أن تظل شريفة خوفا من شريطه الأحمر •

وهأنذا أتزوج وأنـا صغير حتى لا تستطيع فتاة أن تميلنى • ونعمات جميلة ••• قمر • ودمها زى الشربات أليس من حقها على أن تجدنى رجـلا كاملا تحتمى فى ظـله وتركن اليه فتجد عنـده الأمن والطمأنينة • ومن آياته أن خلق لكم من أنفسـكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة • وكيف تسكن الى اذا أنـا بقيت خادم مقهى •

لا ••• لن أستطيع ••

أضحى بكل هذا الذى أنعم به ؟

وما الحياة اذا لم سمع فى أركانها ونبحث عن أنفسنا فى أنحائها ؟

وان عملى مع لمبرو سيجعلنى أتعرف على بيوت الأعيان الكبار فى المديريـة لا فى القريـة • واذا كان فى وجهى القبول فمـن يدرى . ربما وجدت بوجهى هـذا عملا خيرا من عمل لمبرو • أو ربما أتقنت العمل مع لمبرو ، وعاد على هذا الاتقان بنفع كبير •

على أى حال العمل مع لمبرو اليوم أحسن لاشـك من العمـل بالمقهى • واذا لم أضح بستعتى فلست خليقا أن أكون رجلا ذا زوجـه وبيت ومسئولية •



لا يعرف الحاج محمدين الطوخى عن عائلته الا أنهم طوال حياتهم فى القاهرة ويعملون فى بيع القماش ، وكل التغيير الذى يذكره عن أجداد الأجداد أنهم كانوا يعملون فى الحرائر فقط حتى تولى المحل جده أبو أبيه الحاج المدبولى الطوخى الذى ارتأى أن يتوسع فى التجارة ، وأصبح يعمل فى الحرائر والأصواف وجميع الأنواع الأخرى من مخرمات الى شفائف • ويذكر الحاج محمدين أن التجار الآخرين غضبوا من جده لأنه اعتدى على ما تخصصوا فيه من تجارة ولكن الحاج المدبولى دعاهم جميعا الى العشاء واسترضاهم وصفت النفوس ويذكر الحاج محمدين بفخر أن جده قال لهم على العشاء :

ــ وماذا كنتم تصنعون اذا جاء شخص غريب عليكم لا تعرفونه ولا يعرفكم وفتح محلا أو محلات ؟

ونظر بعضهم الى بعض وقال الشيخ اسماعيل الحريرى لصديقه أبو العلا الصواف :

ــ ماذا جرى لنا يا أبو العلا هل أصابنا الكبر • لماذا لم نفكر فى هذه المسألة من قبل أن يفحمنا بها أخونا المدبولى ؟

وحكايات الحاج محمدين كلها لا تخرج عن السوق وأحواله رابطا دائما بين تجارته والسياسة والاختلال .

ولم ينجب الحاج محمدين الا ولدا وبنتا أما البنت عائشة فقد تزوجها يوسف العقاد ابن صديقه زينهم العقاد وتعيش مستورة وقد أنجبت بنتين وولدا .

أما ابنه فؤاد فهو حزين من أجله غاية الحزن . فقد تزوج من كريمة بنت الشيخ اسماعيل الحريرى وحملت منه ولكنها ماتت فى الولادة ومات معها ابنها . ومنذ ذلك الحين وفؤاد مضرب عن الزواج يقول كلما فاتحه فى الأمر :

ـ يا أبويا جربت حظى وعرفته .

ويدمى قلب أبيه :

ـ يا ابنى ليس لى غيرك .

ـ البركة فى أبناء عائشة أختى ..

ـ أبناء البنت لأبيهم وأبناء الابن لجدهم .

ـ ربنا يقدم ما فيه الخير يا أبويا ..

ويدرك الحاج محمدين أن أبنه يريد أن ينهى الحديث .

ويرى فى محيا ولده ما يتكتمه الابن وتبيحه ملامحه . لقد أحب كريمة وكبر الرجال فيه يمنعه أن يعلن حبه .

حين عرف سويلم الحاج محمدين كان الحاج قليل العمل يكتفى بأن يجلس فى الدكان تاركا البيع والشراء جميعه لفؤاد .

فقد أصبح لمبرو يرسل سويلم وحده ليشترى الأقمشة من الحاج محمدين وكان فى أول الأمر يوصيه أن يترك اختيار الألوان

للحاج محمدين أو لفؤاد ، ومع التجربة ترك لسويلم التصرف جميعا فقد أصبح يحسن الاختيار كما أصبح على دراية تامة بأذواق السيدات اللواتى يشترين .

صار سويلم قريبا الى نفس الحاج محمدين وولده فؤاد فهما يأنسان اليه ويقبلان على حديثه يجدان النقاء بغير زيف ، والرضى بغير شكوى . وقبول الحياة بغير شروط ، فقد تعود كلاهما ألا يجدا عند الناس الا التذاكى مع الغباء . والسخط بغير جهد ، والشروط يضعها كل ابن آدم فى عقده مع الحياة وكأن الحياة أمه التى لم تنجب سواه .

فى يوم ذهب سويلم الى محلات الحاج محمدين فلم يجد فؤاد . فاشترى الكسية التى يريدها وجلس الى الحاج .

ــ آبا الحاج .

ــ خير يا سويلم ؟

ــ أريد أن أقبل يدك .

ــ أستغفر الله لماذا يا ابنى ؟

ــ ربنا استجاب لدعواتك لى .

ــ خيرا ؟

ــ نعمات حامل .

ــ صحيح ؟

ــ والختمة الشريفة .

ــ ألف مبروك يا ولد ..

ثم نادى :

ـ يا سليمان هات ثلاثة أمتار حرير يابانى فستقى وقيد ثمنها على حسابى ولفها واعطها لسويلم ٠

وأشرقت الفرحة فى عينى سويلم ٠ فرح بحب الحاج أكثر من فرحه بالقماش وصاح :

ـ والله عندى نداؤك السريع على سليمان يساوى مال الدنيا كلها ايدك أبوسها ٠ أبى مات وأنا عندى سبع سنوا تولحقت به أمى بعد سنتين ٠ وقد يجد الانسان المال عند الناس ٠ ولكن الحنان الذى أجده عندك يجعلنى أنسى يتمى ٠٠

ـ أترضى بى أبا يا سويلم ؟

ـ وأين أنا من هذا ؟

ـ يا ابنى أنت طيب ولك قبول وريحك خفيفة وربنا سيوفقك لأنك تجمع الى كل هذا الذكاء والمهارة ٠

ـ يا أبا الحاج الناس قد يخرجون المال ولكنهم يكنزون الحنان لأولادهم ٠

ـ وأنت منذ اليوم أخ لفؤاد ٠

ـ فأنا أعظم الناس حظا ٠ لأن ربنا عوضنى عن أبى بأبوين ٠٠

ـ الخواجة فوكيون رجل طيب يا سويلم ٠

ـ يا سلام يا أبا الحاج ٠ والله لو كان خلفنى ما كان يعاملنى هذه المعاملة الطيبة ٠ بعد كم شهر أصبحت أنا الذى أبيع وأشترى وأعمل كافة الأشياء ٠ وبعد الشهر الأول لم يعد يحاسبنى قط ٠

ـ الأمانة عمرها طويل يا سويلم يا ابنى ٠٠٠

ـ ان يكن أبواى قد ماتا وأنا طفل الا أنى يا أبا الحاج

تعلمت وحفظت القرآن وربنا أكرمنى كل الاكرام حين عرفت الخواجة الذى عرفنى بك ..

ــ أرضاك الله يا ابنى ..

ــ ألا قل لى يا أبا الحاج ..

ــ نعــم ؟

ــ هو حبيبنا فؤاد عمره كم الآن ؟

ــ آه ... لا تذكرنى يا سويلم .

ــ قارب الأربعين ..

ــ يفوتها السنة دى ..

ــ ولا زال ...

ــ ويرفض حتى أن أكمل معه الحديث فيه .

ــ وذا جعلته يتزوج ؟

ــ كيف ؟

ــ هذا شغلى ..

ــ والله يا سويلم أعطيك مائة جنيه ..

ــ حد الله . لمــاذا تشتمنى يا حاج . أتسحب منى أعز ما أملك فى لحظة اعطائه ؟ ألم تقل أننى أخو فؤاد ؟

ــ صدقت .

ــ فأنا الذى سأزوجه ..

ــ من ؟

ـ اسمع يا أبـا الحاج • الزبائن اللواتى يجئن الى هنا بنات يحاولن أن يوقعنـه ويتزوجنه وبهذا يجعلنه ينصرف عنهن فهو تاجر لسابع جد ولا يمكن أن يضحك عليه أحد • واما سيدات من بنـات الأثرياء يجئن فى السيارات الفخمة ومعهن السائق والزفة • وغالبا يكن مخطوبات أو غالبا تكون قلوبهن مع أصحاب النصيب •

ـ والله يا ابنى كلامك كبير ••• استمع اليه وكأننى أنـا الشاب وأنت الشيخ • انما يبدو أن عملنا فى التجارة يجعلنا لا نفكر الا فيها • قل يا سويلم •

ـ العمدة فى بلدنا الفؤدية •

ـ اسمها الفؤادية ؟

ـ كان اسمها شقلبان وسعينا حتى أسميناها الفؤادية ••

ـ عجيبـة •

ـ كأننا أسميناها الفؤادية ليتزوج فؤاد ابنى ابنة عمدتها ••

ـ كم عمرها ؟

ـ ستندهش ••

ـ كم ؟

ـ خمسة وعشرون سنة •

ـ وما الذى جعلها تنتظر ؟

ـ أكملت تعليمها فى الجامعة •

ـ الجامعة وهى ابنة العمدة ؟

ـ عقلها يزن بلدا بأكمله •

ـ ولمـاذا لم تتزوج زميلا لها ؟

ـ القسمة • زملاؤها كن يخفن منها ••

ــ اهى ••• ؟

ــ ان لم تكن قمرا فى تمامه أكون غير جدير أن تقول لى ابنى • لقد صمم أبوها أن يلازمها فى ذهابها الى الكليـة والعودة منهـا ، الرجل الذى رباها عم حسنين أبو سعفان • وأقامت والدتها فى مصر طوال دراستها فى الجامعة •

ــ أليس عند العمدة غيرها •

اسم الله عليك ••• وأرادها أن تتعلم كما لو كانت ولدا ••

ــ وهل تقبل ؟

ــ فؤاد متعلم ••

ــ ولكن لم يتخرج فى الجامعة ••

ــ بل تخرج فى أحسن جامعـة •• جامعـة محـلات الحـاج محمدين الطوخى وولده •

ويضحك الحاج محمدين :

ــ وكيف سيراها ؟

ــ دع هـذا لى ••

ــ هل أنت جاد ؟

ــ سأخبرك بالموعد فى التليفون حتى تحرص على وجود فؤاد بالمحـل •

ــ أنـا لن أخبره بشىء •

ــ اياك يابا الحـاج أن تخبره سنجعل الموضـوع وكأن ابنـة العمدة قادمة لشراء لوازمها لا أكثر ولا أقل ••

ونادى الحاج محمدين مرة أخرى :

ـ يا سليمان •

ـ وصاح سويلم فى غضب صادق ·

ـ اياك يا أبـا الحاج • انما أسعى سعى أخ لأخيه فلا تفسـد على سعادتى وانشراحى •

ـ ربنـا يا بنى يكتب لك فى كل خطـوة سـلامة وتوفيق • أدخلت الأمل الى نفسى بعد أن تملكنى اليأس •

***

قـال سويلم :

ـ يا خواجة أنـا عندى فكرة •

قـل •

ـ الآن المحلات تملأ الزقازيق والستات ان كن تعودن الشراء منك فهن لن يلبثن أن يذهبن الى هذه المحـلات فهن طبعا يردن أن يخرجن وأن يكون مجال الاختيار عندهن أوسع •

ـ أنـا فاهم هـذا •

ـ اذن لمـاذا لا تذهب الى القرى • نستأجر سـيارة ونذهب مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع الى البلاد ؟

ـ فكرة عظيمة يا سويلم • ولكن كيف سنحصـل مستحقاتنا ونمر على بيوت البندر ؟

ـ وبيوت البندر أين ستذهب • انها موجودة ولك على أمر عليها بعد الظهر فى الأيام التى نذهب فيها الى البلاد •

ـ اسمع سـويلم • أنـا يا بنى كبرت • أنـا أشـتغل حتى لا أكون عاطلا • أنت تذهب الى البـلاد ومعك البضـاعة والمكسب بالنصف •

ـ لماذا النصف هل اشتكيت لك • أنت لا تؤخر عنى طلبا وأنا راض هكذا •

ـ المكسب بالنصف يا سويلم • أنا عندى فلوس كثيرة ولكن أخشى أن أمرض مرضا أكثر من فلوسى • ولا أريد أن أحتاج لأحد • والناحية الثانية لا تنفع فيها الفلوس • أنا أريدك •• أريدك أنت ونعمات فى البيت لأننى رأيت فيكما الوفاء والأمانة وأنا أعلم أننى اذا مرضت لن تتركانى للمرض •

ـ يا رجل أعوذ بالله • من الذى أتى بسيرة المرض الآن يا خواجة؟

ـ الوحيد لا يخاف شيئا الا المرض سويلم •

ـ وهل أنت وحيد يا خواجة فوكيون ؟

ـ من يوم مجيئك لم أصبح وحيدا ••• اسمع سويلم أنت من بكره خذ البضاعة الى البلاد • طبعا أول بلد سيكون الفؤادية •

***

ـ صباح الخير يا حضرة العمدة •

ـ أهلا يا سويلم وبسيارة سويلم ••• أتكون قتلت الخواجة وسرقت فلوسه ؟

ـ لا قدر الله يا حضرة العمدة • الخواجة لمبرو رجل طيب مثل سعادتك يا حضرة العمدة •

ـ وما هذه الأشياء التى تحملها ؟

ـ بضاعة جئت أعرضها على الست الحاجة والأستاذة وهيبة •

ـ ادخل • الحاجة أمك ووهيبة أختك ••

كان سويلم قد انتقى أقل الأقمشة شأنا وتوقع ألا يعجب الحاجة أو وهيبة شىء مما سيعرضه •

الحاجة سيدة وقور لم تتعد الخامسة والخمسين من عمرها ، معتدلة القوام تميل الى النحافة فى وجهها اشراق ترسل به اليه نفس لم تعرف الحقد يوما ولا الكراهية ، يحبها أهل القرية حب أم وأخت . لم تتأخر عن خير تستطيع أن تقدمه .

أما وهيبة فهى فتاة طويلة القامة صبيحة الوجه بيضاء البشرة ذات شعر مسترسل ينسكب انسكاب الحرير على كتفيها ، وعلى شفتيها ابتسامة تمسكها أن تبقى على رغم أنفها . فكأنما تجد الابتسامة نفسها فى غير مكانها فهى تريد أن تهرب وتولى الأدبار كأنها لا تعرف لوجودها على هذا الثغر معنى ولا سببا . وفى عينيها الواسعتين الوديعتين قلق يريد أن يعلن الدنيا بوجوده فترده وهيبة فى كبرياء الشريفات وفى ثقة المثقفات . وفى وجهها انسياب حلو فلا هو بالمستطيل ولا هو بالمستدير . لها اطلالة تأمر من يراها أن يشعر بالاكبار والاحترام .

ـ أهلا .. أهلا يا سويلم .

ـ أطال الله عمرك يا ست الحاجة .

ـ ان شاء الله تكون مبسوطا ..

ـ بركة دعائك يا ست الحاجة ..

وأفرجت وهيبة ثغرها عن ابتسامة مرحبة مضيئة .

ـ لك وحشة يا ولد يا سويلم . والله أحسسنا بفراغ كبير من يوم أن تركت البلد . وكيف حال نعمات ؟

ـ تسلم على ست الحاجة وعليك وكانت تريد أن تأتى معى لولا أنها ...

ـ ماذا ؟ قل ؟ ..

ـ لا تكسفينى يا ست وهيبة ..

ـ لعنة الله عليك . وفيم العجلة يا ولد ؟

ـ قلنا نربيهم ونحن شباب ..

وقالت الحاجة :

ـ على بركة الله . مبروك يا ابنى ألف مبروك ..

ثم نادت :

ـ يا نوادر ..

وجاءت نوادر وقالت الحاجة :

ـ مائة بيضة وبرطمان عسل أبيض وضعى متردين فشددة فى صفيحة وضعى كل هـذا فى قفة صغيرة وأعطيها لسويلم وهو مروح .

وقالت نوادر :

ـ اذن نعمات حامل ... مبروك يا سويلم . يا خويا هل كان العيل واقفا على الباب ... النهاية تقوم بالسلامة ان شاء الله ..

ـ ربنا يبقيك يا ستى الحاجة . أفضـالك سابقة والله لا أنسى عطفـك على وبرك بى منذ تركنى أبى وأمى كنت أحس فى حضرتك بالأمن الذى لا أشعر به فى أى مكان آخر .

وبدأ سويلم يعرض البضاعة . وصح ما توقعه الا أن الحاجـة قـالت :

ـ والله القطعة هذه لا بأس بها آخذها .

وقـال سويلم :

ـ طول عمرك طيبة وقلبك من ذهب . القطعة هـذه لا تنفعك

لا تنفع الست وهيبة ولا تنفع نوادر حتى انما أنت أردت أن أنصرف من عندك مجبور الخاطر .

وضحك الجميع وقال سويلم :

ــ هــذا القماش لا ينفعكم . وأنــا جئت به عندكم لأراكم . انما القماش الصحيح موجود .

ــ أين ؟

وقطبت الحاجة وجهها :

ــ أتخون صاحب عيشك يا سويلم . ليس هــذا ما أعرفــه فيــك .

ــ الله يعلم المقاصد يا ستى الحاجة . تأكدى أننى أنــا كما أنــا لم أتغير ، فهذا القمــاش هو ما تبقى من اختيار السيدات ونحن نعرف زبائنة ولكننى أفكر فى الست وهيبة وقعدتها فى البلد لا تجد شيئا تفعــله .

ــ لا تترك الكتاب من يدها .

ــ ونعم . ولكن النفس تحب التغيير . قلت أعملهــا حجــة واستأذن حضرة العمدة ، ونذهب الى محــلات مصر وتشترين حضرتك لوازمك والأستاذة وهيبة لوازمها . وزيارة وتجارة .

وأشرق وجه الأم وابنتها .

ــ والله يا ولد فكرة ... والحاج مسعود لن يرفض .

ويدخل الحــاج مسعود :

ــ ما هذا الذى لن أرفضه ؟

وحين علم قــال :

ـ وماله .

وقال سويلم :

ـ أحضر سيارة وآتى يوم الاثنين الساعة السابعة صباحا . نكون فى مصر فى التاسعة .

ـ وهو كذلك .

***

حين تقدم فؤاد لخطبة وهيبة أدرك الحاج مسعود أبو عطوان ما صنعه سويلم ورحب العمدة بالحاج محمدين وبفؤاد ترحيبا طبيعيا عن سليقة مواتية وقال :

ـ والله يا حاج من جهتى أنا لا مانع عندى فأنت تاجر معروف والرجل حين يكون له مثل اسمك فى التجارة لابد أن يكون شريفا يعرف أصول الناس وأصول المعاملة .

ـ أكرمك الله يا حضرة العمدة .

ـ ولكنك تعلم أن وهيبة تحمل الليسانس .

وقاطعه الحاج محمدين :

ـ والله يا حضرة العمدة أنا الذى جعلته يقعد بجانبى فى المحل بعد أن حصل على البكالوريا فنحن عائلة تجار من جدود والعلم عندنا هو التجارة .

قال العمدة :

ـ ونعم الكلام يا حاج ولكننى أسأت التعبير وليس هذا ما أقصد اليه . فانه لا عيب فى ابننا فؤاد والتعليم وسيلة للثقافة .

وقاطعه الحاج محمدين :

هذا كلام الكبار والله •

ـ وواصل العمدة حديثه :

ـ والتجارة تجعل صاحبها أعظم فى عمله من الذى حصل على الدكتوراه • وانما ما قصــدت اليه أننى لابد أن أسأل وهيبة وأجعلها توافق عن اقتناع •

وقال الحاج محمدين :

ـ ونعم الكلام •

ـ نحن يا حاج لا نستطيع أن نحمل مسئولية أولادنا وهم كبار يكفينا مسئوليتهم وهم صغار • ولقد أرادت أن تتعلم وأردت لها ذلك فى نفس الوقت • وأنــا ليس عندى غيرها • وقلت العــلم يجعل من عقلها عقل رجل والآن وقد تعلمت أصبح من حقها على الأقل أن تختار شريك حياتها •

ـ لقد أوصى النبى بذلك فى وقت لم يكن الفتيــات فيه عرفن الجامعة ولا حتى المدرســة ••• متى نرجع يا حضرة العمدة ؟

ـ أسبوع واحد •

ـ وهو كذلك •

***

قالت وهيبة :

ـ أكون ليسانس فى الآداب وزوجى رجل البيت بلا شــهادة جامعيــة ؟

وقالت الحاجة :

ـ يا بنتى هذا زواج وليس جامعة •

ـ يا نينا البيت يجب أن يكون جامعة للأولاد •

ــ البركة فيك أنت • علمى أولادك علوم المدرسة وأبوهم يعلمهم علوم الدنيا •

وقال الحاج مسعود :

ــ يا بنتى لقد تقدم لك الكثيرون من أهل البلد حاملى الشهادات وللأسف وجدتهم جميعا طامعين فى القرشين أو يريدون أن يتزوجوا بنت العمدة • والمال زائل والعمودية زائلة • لقد كنت مصرا أن يتزوجك من يريدك أنت • وأنت وافقتنى ورفضت كل الذين تقدموا • فى هذه المرة العريس عاقل وفى غنى عن مالنا وعرف الدنيا • وجاء يخطب وهيبة • لا يهمه مالها ولا عمودية أبيها • والأمر من قبل ومن بعد لك • قومى يا حاجة واتركيها تفكر •

***

وفيم أفكر • أخطأنى الحب • زميلى عزام أحببته وأحبنى لم يزد الكلام بيننا عن جمل تعد على أصابع اليدين وتركنى بعد أن ضاقت به السبل • والحمد لله أنه تركنى لقد تزوج بعد ذلك من ابنة عمه فهو شاب لا شخصية له أمره أبوه أن يتزوج فتزوج • ورجل بلا شخصية كالكلام بلا معنى ، والأيام تجرى وان كنت أخفى القلق عن الناس فهو يمور فى نفسى ويثور • يفترسها ينهشها • يقض مضجعى • يحيل ساعات أيامى رعبا وهلعا • أى مصير يمكن أن ألقى اليه اذا لم أتزوج ولا أخ ولا معين على الحياة بعد أبى أطال الله عمره • هذا زواج منطقى لا عاطفة فيه • والعاطفة لا تغتصب ولا يستطيع أن يخلقها الا بادىء النفوس • وأين أنتظر العاطفة وأين منى الطرف الآخر فيها وأنا حبيسة البيت فقد رفض أبى أن أعمل بالليسانس وهو محق • فقد سبق عصره حين جعلنى أتعلم وهو الفلاح القح تحكمه القرية بكل أوضاعها • وقد ارتضى على نفسه تشنيع أعدائه • وأى عمدة بلا أعداء ومن المستحيل عليه بعد ذلك أن يجعلنى أعمل أيضا •

وكيف كان يمكن أن أعمل ؟ ألم يكف أنه شتت بيته أربع سنوات من أجلى وسمح لأمى أن تلازمنى فى القاهرة . وهل يمكن أن يشتت بيته عمره كله . أنا لا أستطيع أن ألومه . وليس من المعقول أن أضع ما أصابته منى ظروف المجتمع على كتف أبى . ان تعليمى كان فى ذاته شذوذا عن طبيعة الأمور فى حياة مصر . فهل يقبل المنطق أن ألوم أبى اليوم لأنه حقق رغبتى فى التعليم . أعرف أنها كانت رغبته أيضا لأنه يريد أن يشعر أن ابنته لا تختلف عن الرجال فى شىء أو يحسب هذا له أم عليه .

ترى هل استطعت أن أخفى قلقى عن أمى ؟ هيهات . ان قلقها هى أشد وأبى أيضا يريد أن يطمئن الى وجود رجل الى جانبى ، وفؤاد يكبرنى بعدة سنوات ولكن أليس هذا هو الرجل الذى يطمئن اليه والدا البنت الوحيدة . انهما يريدان رجلا عرف الحياة وعركها ليكون زوجا وسندا ولا يهمهما كثيرا أن تتمتع ابنتهما بضع سنوات بزواج شاب يجرب الحياة ولا يدرى من أمرها شيئا فهو يقدم عليها أقدام الجهلاء الذين يخيل اليهم أنهم أعلم الناس بكل شىء . أما أنا فقد كنت أتمنى شابا نتعرف معا على الحياة ونخطىء فيها ونصيب . فأغلب الأمر أن فؤاد على الرغم من عدم حصوله على الشهادة العالية سيكون بالنسبة لى أقرب الى المعلم ، فأحسب أننى قرأت ما يكفى لأن يجعلنى أعرف أننى فى علم الحياة لن أدرى الألف من الباء .

أيهما خير لى . أن أدلف الى الحياة معصوبة العينين لا أحمل الا علم الكتب أم أن أسعى اليها ويمينى معتمدة على رجل تمرس بها وعرفها وعرفته . أيهما خير ... ؟

وهل يدرى أحد أين الخير ... اننا نتحسب ونقارن ونزن الأمور بقدر ما تسمح لنا عقولنا ثم يقع الغيب كما قدر له الله أن يقع .

***

وتم الزواج .

٥

مرت سنوات وعرفت الشيخوخة طريقها الى لمبرو ، وأصبح سويلم يقوم بكل العمل . واكتفى لمبرو بتسلم النقود والجلوس فى محل مارك أخى زوجته المرحومة أتينا . ثم بدأ يتخلف عن الجلوس يوما أو يومين فى الأسبوع ثم ثلاثة . فرحا بمداعبة مجدى بن سويلم. وحين ذهب مجدى الى المدرسة كان لمبرو حزينا فى وحدته على رغم وجود نعمات بالبيت فقد تركت العمل ببيت عدلات هانم قبيل ولادتها . ومالها أن تعمل خادمة وقد أصبح العيش ميسورا لها غاية اليسر .

لقد جعل لمبرو منها ومن زوجها أسرته ، وكان فرحه بمجدى أعظم من فرحة أبيه وأمه. فقد حقق صراخ الطفل فى بيته أملا لم يتصور فى يوم من الأيام أنه سيتحقق . كان مجدى بالنسبة لأبويه فرحة الشمس تهم بالشروق وكان بالنسبة الى فوكيون لمبرو أمل الشمس تهم بالغروب فهى تودع الحياة ولا تنتظر منها شيئا .

كان مجدى لأبويه أمرا طبيعى الحدوث ، وكان لفوكيون أمرا مستحيل الوقوع . وان لم يكن ولده ... نعم وان . وقد أسماه

هو مجدى لافهما منه للاسم ولكن ليكون نطقه سهلا على لسانه الأعجمى .

تحمل لمبرو ذهاب مجدى الى المدرسة فى ضيق شديد ، ثم ما لبث المرض أن داهمه وأصبح من العسير عليه أن يترك الفراش . ولكنه هانىء البال مطمئن فسويلم يقوم بالعمل ونعمات مقيمة بالبيت لم يفكر واحد منهما أن يتركه وحيدا مع مرضه .

وفى يوم عاد سويلم الى البيت مبكرا بعض الشىء فلم يجد الخواجة فى حجرته .

ـ نعمات أين الخواجة ؟

ـ أليس فى حجرته ؟

ـ ما هذا الغباء . أكنت سألت ؟

ـ لا أدرى .. أنا فى المطبخ من الصبح .

ـ هل تناول افطاره ؟

ـ نعم وتناول الدواء وكانت صحته طيبة وترك السرير ليجلس على الكرسى . وتركته أنا وذهبت لشراء الغداء وعدت الى المطبخ مباشرة وقلت فى نفسى اذا أراد شيئا سينادينى .

ولم يطل النقاش فما لبث لمبرو أن جاء وسأله سويلم :

ـ أين كنت ؟

ـ كنت فى البنك أسحب قرشين .

ـ ولماذا لم ترسلنى مثل كل مرة ؟

ـ اشتقت أن أرى أصدقائى هناك ووجدت نفسى أريد أن أخرج .

ـ أرجوك يا خواجــة اذا أردت أن تخــرج مرة أخرى أخبر نعمــات •

ـ طيب • ولو أننى لا أظن أننى سأخبرها •

***

مر على هذا النقاش شهر وبضعة أيام ثم نادى الخواجة سويلم قبل أن ينزل فى الصباح :

ـ أين ستذهب اليوم ؟

ـ اليوم لن أمر على بلاد سأمر على زبائن الزقازيق •

ـ ليس مهما •

ـ لمــاذا ؟

ـ أنــا أريدك •

ـ فيم ؟

ـ اجلس •• خذ •

ـ ما هذا •• هذا شيك أبيض • لمــاذا لم تكتبه ؟

ـ فى هذه المرة أنت ستكتبه •

ـ لمــاذا •• أكتبه •• أنــا فى حياتى كلها لم أكتب شيكا •

ـ اليوم ستكتب •

ـ انحبس •

ـ لن تنحبس •

ـ أنــا يا خواجة لولاك ما ذهبت الى البنك فى حياتى أبدا •

ـ ستذهب بعد هذا كثيرا •

ـ لا أفهم •

ـ اسمع •• أنـا ذهبت الى البنك آخر مرة لأضع أموالى كلها باسمك يا سويلم •

ـ مـاذا ؟

ـ ولا كلمـة •

ـ ربنا يا خواجة يبقيك أنت لا تجعلنا نحتاج لشىء •

ـ ولمـا أموت ؟ ! •

ـ علمتنى السوق ويكفيك هذا •

ـ ومن يأخذ فلوسى ؟

وألجم السؤال سويلم وراح يتهته ••

ـ أنت تأخذ هذه الفلوس ، هذا حقك • أنـا ليس لى أحد فى الدنيا • خمسة وعشرون ألفا وأربعمائة جنيه •

ـ يا خبر أسود •• أبيض •• وماذا أصنع بهذا جميعة ؟

ـ هـذا شأنك • وان كان لى رأى فأنـا أرى أن تذهب الى مصر ••وربنا ان شاء الله سيفتح عليـك • أنت معك فلوس وتعرف السوق •

ـ ربنا يطيل عمرك •• والله أكذب عليك ان قلت أننى لست سعيدا • ولكن هذا كله لا يعوضنى عنك يا خواجه •• يا أبويا لمبرو •

***

وبعد أيام لم تكتمل شهرا مات لمبرو •

٦

كان طبيعيا أن تزداد الصلة توثقا بين سويلم والحاج محمدين وفؤاد وأسرته الجديدة . وهكذا لم يكن غريبا أن يفرح سويلم فرحا صادقا حين أنجبت وهيبة ولدها الأول فكرى بعد تسعة أشهر من زواجها ، وحين حمل الهدية الى بيت الحاج محمدين حيث يقيم فؤاد ووهيبة لم ينس أن يقول :

ـ بينه وبين مجدى عام واحد ، وان شاء الله الحب الذى بيننا يستمر فى ولدينا .

وحين مات الخواجة لمبرو بعد ذلك بسنوات لم يكن سويلم قد أطلع الحاج محمدين بما صنعه معه الخواجة لمبرو .

صفى سويلم أعماله بالزقازيق وأقفل شقة الزقازيق مستبقيا لها لتكون سكنا له ان جاء الى الزقازيق . وقد نقل العقد الى اسمه دون أن يجد أى عراقيل من الخواجة مارك صاحب العمارة . واستنتج من ذلك أن الخواجة لمبرو لم يخف عن مارك ما فعله .

وفى القاهرة نزل مع زوجته وابنه فى فندق ، وتركوا الحقائب

واتجهوا من فورهم الى بيت الحاج محمدين وحين أستقرت بهما الجلسة قص سويلم على الحاج فؤاد ووهيبة ما صنعه الخواجة . وكان الحاج فى شيخوخته ومن العسير على أحد أن يجعله ينبهر لشىء او يندهش . ولكنه لم يستطع مع حديث سويلم الا أن يسفر عن ذهول ساطع .

ـ ألف مبروك يا سويلم . ولماذا أخفيت على هذا . أنت تعلم كم يفرح له هذا البيت ؟

يا ابا الحاج الأمور تلاحقت كأنما حلم متصل . أنا لم أكن أدرى شيئا على الاطلاق . ولم أكن أتصور . الى أن فاجأنى المرحوم بهذا الخبر قبل وفاته بأيام لم تكتمل شهرا . ومرضه جعلنى ألازمه ملازمة تامة وربما احتاج العمل أن أحضر الى القاهرة ولكننى امتنعت خشية أن يظن الرجل أننى لم أعد أعنى به بعد أن تنازل لى عن أمواله . وربما خشيت أيضا أن يظن أننى تركته لأحضر اليك خصيصا وأخبرك بما كان فيشعر كأننى كنت أنتظر ما صنعه أو أتوقعه . والحقيقة يا حاج أننى منذ قال المرحوم ما قال وأنا فى ذهول . أنا رجل فقير يا ابا الحاج وهذه المبالغ نسمع عنها ولا نتصور أن نتعامل معها أبدا .

وقال الحاج :

ـ أنت رجل طيب يا سويلم . وقد بقيت وفيا للرجل . وقدر هو معروفك وأمانتك .

وقال فؤاد :

ـ والله انك تستاهل أكثر من هذا .

وقالت وهيبة :

ـ الوفاء والأمانة فى هذا الزمن يستحقان ما نلته يا سويلم .

قــال سويلم :

ــ الرجل قال لأقاربه حتى لا يسألنى أحد . وكتب ورقة قال فيها أنه لا يملك شيئا على الاطــلاق يحمينى بهــا من الضرائب ومن الجميــع .

وقــال فؤاد :

ــ وماذا تنوى أن تفعل ؟

ــ وهل فكرت .. وهل أدرى .. ها أنذا جئت لكم وأنــا ليس لى أهل الا أنتم ..

ونظر فؤاد مليا الى سويلم ودار بعينيه فى الجالسين . كان الطفلان يلعبان فى حجرة أخرى فقال فؤاد فجأة :

ــ وهيبة ألا تأخذين قريبك وزوجته الى حجرة مكتبك وتأمرين لهما بفنجان قهوة آخر .. واجعليه سكر زيادة مثل الشربات .

وضحكوا وفهمت وهيبة الاشــارة التى لم تخف عن ســويلم ونعمات . وقام ثلاثتهم وانفرد فؤاد بأبيه ولم يطل انفراده به ثم نادى:

ــ وهيبة .. تعالوا ..

وحين جلسوا قال فؤاد :

ــ أبوك الحاج سيأخذ منك خمسة آلاف جنيه ..

وابتسم سويلم :

ــ والمبلغ كله والله العظيم وأنــا الكسبان وهذا هو الشيك .

وضحك الحــاج محمدين فى سعادة وانشراح وقــال له : اكتب الشــيك ..

وفعلا كتب سويلم الشيك وسلمه للحاج . وأمسك الحــاج به وراح يهزه :

ــ هكذا دون أن تسأل لمــاذا .. أو فيم أو تطلب ايصالا ؟

ــ أتريد أن أكتب شيكا ببقية ما أعطــاه لى الخواجة وبدون ايصال أيضا وحياة مجدى .

وضحك الجميع وقال فؤاد :

ــ أطال الله لك عمره .. مالك كسلت بعده ولم تأت بأخ ؟

ــ أخ ... أفهم من هذا أن الست وهيبة حامل .

ــ العقبى لنعمات .

ــ ألف مبروك .

ــ ألف مبروك ... ســويلم لا يريــد أن آتى لمجــدى بأخ أو أخت .

وقــال الحاج :

ــ ربما غير رأيه الآن بعد أن صار من الأغنياء .

وقــال سويلم :

ــ لا والله يا حاج الأمر وما فيه أننى أريد أن أكرس حيــاتى كلها لمجدى . وبالعكس بعد ما جاءتنى هــذه الثروة أصبحت أتصور أنها حقه هو ولا يجوز أن يشاركه فيها أحد .

ــ ربنا يبارك فيه . اسمع اذن الكلام المفيد . بجانب محلاتنا أنــا وأخوك فؤاد مخزن بابه مقفل لم يعد له لزوم عندنا الآن بعد أن اشترينا مخزنا كبيرا واسعا فى السيدة زينب .

ــ شىء لله يا رئيسة الديوان .

ــ ربنا يجعلنا من بركاتها . هــذا المخزن وصل ثمنه أمس الى ستة آلاف جنيه ، أنــا بعته لك بخمسة آلاف . وأنت وفؤاد تتحدثان بعد هــذا على مهنكما فى كيفية فتح محل لك بجانب محلاتنا ، وبذلك تكون محلاتنا قد زادت بابا . فمحلك محل جديد لنا ... وعلى بركة الله اكتبى العقد يا ست وهيبة .



بدأ سويلم تجارته الثابتة واحتفل به الحاج محمدين وابنه فؤاد، وبذلك أعلنا للحى أجمع أن التاجر الجديد ليس منافسا وانما هو واحد من الأسرة .

ولكن الأيام تأبى أن تمضى فى مجرى واحد لها . ولكل حياة غاية . وكانت حياة الحاج محمدين قد بلغت غايتها واختاره الله الى جواره قرير العين بابنه وبحفيديه فكرى والهام وبعائشة ابنته وأبنائها وبناتها الذين أصبحوا أربعة نفر .

قريرا بذلك الفتى الذى عرفه فلاحا قادما كعود أخضر من بلده بالشرقية حتى صار أحد تجار المنطقة موفور المال عزيز النفس كريما على نفسه وعلى الناس .

ذهب الرجل فى موعده الى لقاء الحى القيوم وترك الدنيا وقد حققت له من المال ما نظر اليه ..

***

البيت منذ اللحظة الأولى لم يعجب وهيبة ، ولكنها لم تشأ أن

تدخل بيتنا فتشتت شمله وتفرق جمعه . وسويلم أقـام بعد أيام من قدومه فى شقة صغيرة اعتبرها مسكنا مؤقتا فلم يكن غريبـا أن تدعو وهيبة سويلم وزوجته الى الغداء حين الطفلان الكبيران فى المدرسة . وبعد الغداء يتضح ما نبيته وهيبة .

ـ صلوا على النبى جميعا .

ـ وعليه ألف صلاة وألف سلام ..

ـ هذا الغداء غداء عمل ..

وقف فؤاد فى حركة سريعة ذكية :

ـ الله أكبر ... ستغير بيتك يا سويلم .

وصفقت له وهيبة :

ـ ما هذا الذكاء ؟

وضحكوا جميعا وقال سويلم :

ـ هل سأغير بيتى وحدى ؟

وقال فؤاد فى استسلام :

ـ أنـا كنت أعرف مصيرى وليس فى الأمر مفاجأة لى ، أما أن تدعوك أنت ونعمات فهى اذن قد بيتت أمرا لى ولك ووقعتنا ...

ويقاطعه سويلم :

ـ بيضاء ان شاء الله ... قولى ..

وقالت وهيبة :

ـ أنتما تاجران .. أليس كذلك ؟

ويقول فؤاد :

ـ المقدمة مخيفة يا والد يا سويلم ..

وتقول نعمات :

ـ يا أخي انتظر حتى نرى ماذا تريد الشابة أن تقول .

وتقول وهيبة :

ـ قولى له والنبى . بدلا من أن ننتقل الى شقة بالايجار أنا وجدت عمارة بأكملها فى المعادى .

ويرين الجد على الحاضرين ويأخذ الرجلان فى التفكير . وبعد صمت ليس طويلا يقول سويلم :

ـ لمن العمارة هذه ؟

وتقول وهيبة :

ـ نشتريها معا ..

ويقول سويلم :

ـ أما أننا اخوة فهذا لاشك فيه . لكن المشاركة فى الملك ليست مشاركة بيننا نحن وانما مشاركة بين أبنائنا ، مثلا أنا شايف أصدقاء فكرى غير أصدقاء مجدى ، ونحن حين نشترى ملكا انما نشتريه لهم .

ويقوم فؤاد ويقبل سويلم :

ـ أنت رجل بعيد النظر وصادق الأخوة وربنا أعطاك الذكاء من عنده .

وتصمت وهيبة لحظات ثم تقول :

ـ وأنا أيضا يا ستى فؤاد لا يقل عنه ذكاء وكنت عارفة أنه سيقول هذا ، وانما خشيت أن أقول أن العمارة لك وحدك فيظن أننا نبعده عن صفقة تجارية رابحة ، وعلى كل حال أنا دبرت الأمر .

أو أعتقد أن ربنا دبرها من عنده أحسن تدبير . عمارة كبيرة بها شقتان متجاورتان سنفتح احداهما على الأخرى ويكون هـذا سكننا نحن يا ابا فكرى وابا أخته الهام وفى الشارع الذى خلفها مباشرة عمـارة صغيرة محندقة لأبى مجدى .

ويصيح فؤاد :

ـ بكم ؟

وتقول وهيبة :

ـ أنت ستبيع البيت وتعطى عائشة نصيبها . وأنت يا سـويلم تستطيع شراء العمارة المحندقة بكل سهولة ان شاء الله .

ويقول سويلم :

ـ ما رأيك يا نعمات ؟

وتقول نعمات فى ايمان .

ـ توكل على الله .

وتصيح وهيبة :

ـ يحيـا التوكل على الله . وقد عزمت على بركة الله أن أتولى تعليم مجدى مع فكرى طول فترة الدراسـة حتى الثانوية . هـذا بالنسبة لمن يختار منهما القسم الأدبى . ما دمنا قد أصبحنا جيرانا فى البيوت فمن حق مجدى هـذا .

ويصيح فؤاد :

ـ أنت اشتريت وبدأت تعطى دروسا ..

وتقول وهيبة :

ـ نعـم ..

ويقول فؤاد فى تحد مازح :

ــ طيب روحى ادفعى الثمن اذن ..

وتصيح وهيبه :

ــ وهل كنت أنتظر أوامرك ؟ ... لقد دفعت العربون وحياة والدك .

ويذهل فؤاد :

ــ من أين ؟

ــ مهري الذى دفعته لأبى . ربنا يطيل لى عمره أعطاه لى جميعا ولم أنفق منه شيئا ودفعته عربونا .

ويضحك الجميع ويقول فؤاد :

ــ تجعلينني مدينا رغم أنفى .

وتقول وهيبة :

ــ خيرك سابق يا أبا فكرى لا ترد الدين اذا شئت وما البأس أن يكون لى طوبه فى عمارتك دفعت ثمنها ولا يهمك .

ويعم نوع من روح الأسرة الأمين على الجالسين ويسارع فؤاد :

ــ اسألها يا ولد يا سويلم ربما تكون قد دفعت لك العربون أنت الآخر .

وتقول وهيبة :

ــ يا ليت والله لو كان عندى ما تأخرت .

ويقول سويلم :

ــ وأين هاتان العمارتان من المعادى ؟

ــ أليست سيارتك هنا يا فؤاد ... هيا بنا نتمم كل شىء ... معك دفتر شيكاتك يا سويلم ؟

ــ توكلنا على الله



يمر اليوم بطيئا وتجري السنوات سراعا . تمضى الدراسة بفكرى ومجدى متزاملين سنوات قليلة ثم ما يلبث فكرى أن يتخلف . ثم يتخلف حتى يصبح التخلف ديدنه وطبيعته . ومنذ تخلف أول مرة توقف مجدى أن يذهب الى عمته وهيبة كما كان يناديها ، ولكنها هى أصرت أن تستمر فى المذاكرة له .

ـ واحد خائب لا داعى أن يخيب اثنان ..

وربما استطاعت أخته الهام أن تخفف بنجاحها المطرد وطء خيبة فكرى .

وكانت وهيبة تقول :

ـ الخيبة هذه لا قاعدة لها ولا أصول ، أنا ربيت فكرى ومجدى والهام . وربما كنت أكثر اهتماما بفكرى فهو ولدى الأول والانسان انسان وليس ملاكا . ومع ذلك فاز هو بالخيبة والآخران ناجحان والحمد لله .

وعلماء التربية يقولون البيت وثقافة الآباء والاهتمام والبيئة ووجع الدماغ . كلام كله فارغ والا فليفسر لى أعظم عالم فى التربية سبب خيبة فكرى ونجاح أخته وقريبه الذى يعيش معهما نفس الظروف ، وحياتك يا أختى الخيبة موهبة من عند الله . أنا عندى ليسانس آداب وكان المفروض أن أصبح مدرسة .. كل كلام علماء التربية لا يساوى قرشا .

ولم يكن كل هذا وغيره كثير ليؤثر فى حرص فكرى على التخلف فى الدراسة مع الذكاء العقلى المفرط . فقد كانت المذاكرة بالنسبة اليه كارثة من الكوارث الكبرى وفى غير ذلك هو فتى مولع بكل ما يولع به أبناء سنه من رياضة وألعاب وبنات وفسحة ، قريب الى قلوب أصحابه يحبون صحبته ويسعون اليها .

ومن بين هؤلاء تعرف على حمدى الفنجرى وعلى هشام درديز . أما الأول فأبوه كان نجارا وله محل صغير للموبيليا والتنجيد . وأما الآخر فأبوه مدير عام بالسكة الحديد . وكون هذا الثالوث وحدة لا تنفصم ، ولم يقطع فكرى صلته بمجدى كل القطع الا أن انصراف مجدى الى المذاكرة فى أوقاتها جعل الصلة بينهما هينة ، فمجدى صديق الثالوث كلما أراد أن يروح عن نفسه أو يذهب الى السينما أو الى النادى .

وحين وقعت أحداث ٦٧ كان أثر الأحداث على مجدى مروعا . أما الثلاثة الآخرون فان الأمر لم يهز لهم أى كيان وانما اضطر ثلاثتهم أن يتظاهروا بالحزن مع الحزن العام الذى زلزل الجميع .

وفى انتصار ٧٣ كانت الدنيا كلها اشراقا فى عينى مجدى بينما الدنيا كلها لم يتغير منها شىء عند الثالوث الآخر . . . . . .

انهم جميعا أبناء جيل واحد . ولكن هيهات أن تتوحد المشاعر فى أبناء أى جيل ، حتى وان توحدت بينهم الظروف البيئية . انما تتشابه هذه المشاعر اذا كان الوعى الثقافى متقاربا فى أفراد الجيل . فالذى شعر به مجدى شعر به أصدقاؤه فى كلية الهندسة لا يكاد يشذ عنهم الا قلة نادرة تقاذفتها آراء متطرفة أو أفكار لا استواء لها . ولكنهم يظلون مع ذلك قلة نادرة لا تكاد تذكر .

أما فكرى وصاحباه ومن كان مثلهم فهم فى عالم خاص بهم بعيد كل البعد عن دنيا الوطن . وعن فرح زملائهم فى المدرسة .

يبدو أن الأجيال ليست سنوات ينتسب اليها أبناء الفترة الواحدة ولكنها قدر من التثقيف اذا تقارب فيه الأفراد كونوا وحدة الجيل .

***

كانت الهام فى السنة الثانية من كلية الآداب ، وكان من الطبيعى أن تسبق أخاها الأكبر . فهى لم تتخلف مطلقا فى دراستها . وقد أخذت الفتاة عن أمها شعرها الناعم المنساب وأضافت اليه عينين واسعتين سوداوين وقواما دقيقا ، فهى رقيقة القسمات وادعة الملامح عيناها تطلع هانىء مطمئنة الى المستقبل . لا يعرف القلق الى نفسها سبيلا الا ذلك القلق الجميل الذى يصاحب تلك السن التى تنهد من المراهقة الى الشباب .

كانت الهام تشعر أن أمر ما تدبره أمها مع نعمات أم مجدى . ولم يكن هذا بالذى يخفى عليها . ولكنها كانت تتظاهر أنها لا تفهم شيئا . وهى تتغابى فى ذكاء نافذ عن الاشارة من أمها أو التلمحة من خالتها نعمات .

***

حين سكن سويلم عمارته الجديدة كان من بين شققها شقة مفروشة كان صاحب العمارة يؤجرها لخبير ألمانى • وحين انتهى عقدها اتفق سويلم مع زوجته على أن يمدا العقد لخمس سنوات أخرى ثم يجعلا هذه الشقة سكنا لابنهما بعد تخرجه وزواجه •

وكان بالعمارة أسرة توطدت صلتها بنعمات وسويلم • كان الوالد موظفا كبيرا فى البنك الأهلى وكان له ابنة توفيت عنها والدتها منذ خمس سنوات وتزوج هو بعدها زوجته الحالية • أما البنت فاسمها سميحة ، وكانت فى سن ناهد وكانت زميلتها فى الكلية • أما زوجة أبيها فهى الست فوزية وكانت طيبة النفس تعامل ابنة زوجها أحسن معاملة • وقد أنجبت لزوجها الأستاذ فريد عبد القادر ابنه على وألحقه بابنته الطفلة هناء •

تعرفت الأسرتان وتزاورت السيدات ونقل سويلم حسابه الى فرع البنك الأهلى بالجيزة حيث يعمل فريد عبد القادر •

***

كيف ينشأ الحب ولماذا • انه مشاعر لا منطق لها ولا عقل ولا مقدمات • كانت سميحة صبيحة الوجه ولكن الأمر الذى لا يختلف فى شأنه اثنان ان الهام كانت أجمل منها بكل مقاييس الجمال • هذه المقاييس التى تواضع الناس أن يجعلوا منها قواعد يعطون على أسسها جوائز الجميلات • ولو أن انسانا رأى الفتاتين دون أن يكون فى نفسه هوى الى واحدة منهما لحكم من فوره أن الهام أجمل • كانت سميحة مستديرة الوجه فى براءة وطيبة فى عينيها حزن يكسبهما الحنان الانسانى الشريف ، وكانت رشيقة القوام تميل الى الطول بعض الشيء •

حين رآها مجدى أول مرة رآها فى العمارة أحس نحوها باعجاب ، وقد كانا طفلين معا فلم يكن غريبا أن يضم ملعبهما أطفال العمارة جميعا وفى سن الطفوله الناعمة هذه يبدأ نوع من الحب الذى لا مثيل لطهره على الأرض . كنسمة من نسائم الجنه ، أو كنبضة من نبضات الايمان . أو كتسبيحة متبتل فى محرابه او كهيام متصوف فى نجواه ، الابتسامة عند الطفل المحب دنيا ، والهمسة حياة ، والحدب خطرة من روح الله ، فاذا خلا الطفل بحبيبته فهذا جميعا وأكثر ، ويشب الحب مع الطفل لحظة بلحظة وهمسة بهمسة فاذا بلغ الشباب اندلع الهوى براكين وهزيم رعد ورياح عواصف لولا الحياء والدين والخلق لاجتاح لا يبقى ، ولاندفع لا يتوقف ، ولأعلن عن نفسه للعالم أجمع .

نشأ هذا الحب بين مجدى وسميحة . قالاه وهما طفلان فى كرة يختارها هى لها حين كانا يتراميان بالكرة . وقالاه ابتسامة لقفتها ابتسامة فى خفية عن عيون الصبية . وقالاه سؤالا عن امتحان لقية سؤال عن امتحان فى همسة خبيئة عن الآذان ، وقالاه وهما شباب أحبك استقبلتها أحبك . واندلعت ألسنة الهوى وتعالت أمواجه . والفتاة على أبواب الجامعة ، والفتى فى السنوات الأولى منها . وفى كل عام يمر يزداد الهوى اشتعالا ، فالأمل كلما اقترب من التحقيق ازدادت ملامحه قوة وتبينت معارفه حتى كأنه تم وتوضحت معالمه فهو بعد ليس أملا وانما فعل حدث ان لم يكن فعلا ماضيا فهو فعل حال يتشكل واقعا .

تخرج مجدى فى كلية الهندسة . وأقام أبوه ليلة فرح كبرى ، ودعا كل أصدقائه من التجار ومن سكان العمارة ومن الجيران .

وشاء الله الرحيم بعباده أن يحصل فكرى فى نفس العام على الثانوية العامة ، فكان فرح فؤاد به أكثر من فرح سويلم بتخرج ابنه .

فقد كان فؤاد واثقا أن الثانوية العامة هى نهاية المطاف بالنسبة لفكرى ، وكان يكاد يقطع أن ابنه لن ينالها عمره كله ، وقد هدأت نفسه الى هذا واطمأنت اليه لا يداعبها أمل مهما يكن ضعيفا أن يخيب فكرى ظنه ويحصل على الثانوية العامة • وقد كان يريده ان يكون تاجرا مثله • لكن التجارة لم تعد مثل هذه الأيام الناعمة التى بدأ فيها هو ممارسته التجارة • ان التجارة أصبحت مسبعة وحوش ضارية. وصارت أيامها فتاكة تلتهم الغافل التهاما حتى لا تبقى فيه من باقية أو ترفعه الى سماوات لم يحلم تجار الأزمان الماضية مجتمعين أن يصلوا الى جزء ضئيل منها • وأين العشرات والمئات التى كانت تلقيها الأفواه من التجار فى حرص شديد وبعد أخذ ورد وتفكير وتدبير من كلمة مليون وعشرة ملايين ومائة مليون يلقيها تجار ما بعد أكتوبر وكأنهم يلقون تحية سلام فاترة لا تعنى شيئا •

اذا لم يكن فكرى على قدر مهما يكن ضئيلا من العلم النظرى فكيف يمكن أن يكون له مكان أى مكان فى ميدان الوحوش هذا •

ان فؤاد بدأ حياته فى السوق صغيرا وعرف الخوافى البعيدة من أسراره فحين استشرى السوق ودخلته النسور الضارية كان هو قد أصبح حاد الأظافر مثلهم يجرح ان جرحوا ويهادن ان هادنوا •

وقد أدرك فى ذكاء واع أنه لو ترك تجارته التى تعلمها منذ شبابه الباكر أصبح أعمى وسط مبصرين لنام فأصر أن يبقى فى تجارته لا يتركها الى أى نوع آخر من التجارة •

ولكنه يعلم علم يقين أنه ان كان قد ازداد مع الأيام خبرة فى التجارة ومراسا بالسوق الا أن هذه الأيام نفسها قد جعلته شيخا لا تهب له من الصحة ما كنت تهب ولا من النشاط ما تعود أن يجده • وقد كان يريد من ابنه أن يعينه على سنه وصحته • واذا ابنه يزيد

سنه ثقلا وصحته وهنا . واذا الرعدة لا تتولاه الا حين يذكر ولده .
وقد حاول بالعنف فأخفق وباللين فازداد اخفاقا . فقال لنفسه اعمل
وما عند الله يكون . وعمل ، واذا بالسوق ينقلب من هذا الميدان
الذى مرن عليه وعرف دروبه ومنحنياته وكل مرفق من مرافقه أو ثنية
من طرقاته . الى ميدان آخر قاتل سفاك لا يبقى ولا يذر ، واذا
الأثمان تشتعل فهى حريق ما تسامع الناس بمثله ولا تصور أحد أنه
سيسمع بمثله أبدا . وكما تصبح السوق فاجرة متوحشة يصبح الغنى
فاجرا متوحشا .

ولا يتخلف فؤاد وما تخلف سويلم عن هذا الغنى ، ولكن
كليهما أدرك فى ذكاء أنهما اذا تخطيا عتبة ميدان الأقمشة الذى يعرفانه
أصبح كلاهما عدما . والربح كما يكون بالملايين تصبح الخسارة
بالملايين أيضا .

قال فؤاد لابنه فكرى :

ـ مرحبا بك فى دكان أبيك وأجدادك .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد أننا عائلة ربنا خلقنا للتجارة وليس لنا مهنة غيرها .

ـ ولكن الجيل اختلف يا بابا .

وتدخلت وهيبة :

ـ يمكن أن يختلف الجيل ولا نختلف نحن ، واضح أن ليس
لك أى ميل للتعليم يا فكرى .

ـ يا نينا أنا حصلت على الثانوية العامة وفى الجامعة الأمر
يختلف .

ـ المسألة ليست مسألة ثانوية عامة وجامعة يا فكرى . المسألة أهم من هذا بكثير أنت لا تحب القراءة .

ـ كل زملائي لا يحبون القراءة .

ـ اذن فلمن يكتب الكتاب يا ابنى ؟

وقـــال فؤاد :

ـ يا ابنى نحن عائلة تجار .

ـ أتكون أمي من حملة الليسانس و ...

قاطعته وهيبه :

ـ المسألة استعداد يا فكرى .

ـ نجرب يا نينا .

ـ نجـــرب .

واسرع فؤاد متدخلا :

ـ نجرب ماذا يا وهيبة ؟

ـ انتظر يا فؤاد . ماذا تريد أن تجرب يا فكرى ؟

ـ أدخل الجامعة .

ـ أى كلية تريد ؟

وانقطع الحديث ولم يجد فكرى شيئا يقوله الا :

ـ ليكن معهدا مثلا ،

وقالت وهيبة :

ـ أى معهد تقصد ؟

ـ أى معهد •

ـ اذن فانت لا تهوى دراسة معينة •• انت تريد مجرد شهادة ؟

ـ حتى أكون مثل زملائى •

ـ أيمكن أن يكون هذا هدفا فى ذاته •

ووجد فؤاد الفرصة سانحة :

ـ فكرى يا ابنى أتريد حقا أن تكمل الدراسة وتذاكر ؟

ووجم فكرى لحظات ثم قال فى لعثمة :

ـ كنت أقول أجرب •

ـ كنت تلف علينا يا بنى حتى تقول لنا بكره أننا نحن اللذان منعناك من الجامعة أو التعليم العالى ؟

ـ لا والله أبدا يا بابا •••

ـ لا ••• اذن فاسمع • أنا مستعد أن أوافق على دخولك الجامعة • بل أنا أرحب بذلك كل الترحيب • وأكثر من هذا اذا كان مجموعك لا يدخلك جامعة فى القاهرة فالعالم كله مفتوح أمامك ، اختر أى كلية فى العالم تريد أن تدرس فيها وأنا مستعد أن أقدم كل ما تريد من أموال •

ـ فى الخارج ؟

وقالت وهيبة فى استنكار :

ـ فى الخارج يا فؤاد ؟

وقال فؤاد :

ـ فى الخارج ، فقط بشرط واحد •

وقـــال فـكرى :

ــ أى شرط ؟

ــ كل المصاريف التى ستنفقها ستخصـــم من التركة . ما ذنب الهام أن تـكلفها أنت الألوف ؟

وصمت فـكرى قليلا واستمر فؤاد :

ــ اسمع .. أنت لاشــك يتهيأ لك أننى أكسب الملايين مثل تجار اليوم لأنك تعيش عيشة مستريحة وتسمع الأرقام الخيالية عن مكاسب التجار . ولكن الأمر بالنسبة لى مختلف كل الاختلاف . أنــا أتاجر بشرف ، ولم أدخل فى عملية واحدة خارج عمليــات القمــاش التى أعرفها فأنا أكسب والحمد لله ، ولكن المكسب الطبيعى ، وأنت منذ الآن تستطيع أن تطلع على حساباتى .

ــ حضرتك غلطان .

ــ أترى هــذا ؟

ــ كل التجار اليوم يعملون فى كل ميادين التجارة .

ــ مجانين والمستقبل أمامهم مظلم وبكره أفكرك .

ــ الحقيقة يا أبى أنك شريف أكثر من اللازم .

ــ الحقيقة انه ليس هنــاك شريف أكثر من اللازم وشريف أقل من اللازم . هناك شريف وغير شريف .

ــ تعرف رفعت الفنجرى أبو حمدى ..

ــ نعم أعرف ماذا ستقول . بل ان مصر كلها تعرفه . اعلاناته تملأ التليفزيون ، وأصبح له أربعة محلات موبيليا . أنــا لا أستطيع أن أحكم على طريقة تجارته ولكن يجب أن نعترف أنه لم يترك مهنته الأصــلية .

ــ نعم هــذا صحيح •

ــ وبالمناسبة أين حمدى الآن ؟

ــ يعمل مع أبيه •

وتسأل وهيبة :

ــ هل نال شهادة ؟

ويقول فؤاد دون أن ينتظر اجابة ابنه :

ــ لم يأخذ الاعدادية •

ويقول فكرى :

ــ وهل أنت راض عن ذلك ؟

ــ اذن كان ناجحا فى معاونة أبيه فلماذا لا أرضى •

قالت وهيبة :

ــ قل لنا أنت ••

ــ ماذا أقول ؟

ــ الحقيقــة •

ــ الحقيقة أنه لا يعمل شيئا •

قالت وهيبة :

ــ اسمع يا فكرى ، العلم لا يفيد فى مجرد حمل اللقب ، ولكنه يفيد فى كل نواحى الحياة ، والذى يعرضــه عليك أبوك اليوم يقطع قلبى ويجعلنى حزينة كل الحزن ؛ ولكن أنــا تناقشت طويلا مع أبيك وحجته قوية وأنــا حجتى ضعيفة ، أنت لا تريد أن تتعلم من الكتــاب وهو المصدر الحقيقى للثقافة فلم يبق الا أن تتعلم من العمل • وأنــا

وأبوك نعلم أنك لا تريد أن تكمل الدراسة وأنك تناقشنا لمجرد المناقشة • وأنت الآن فى سن تسمح لك باختيار مستقبلك فاذا كنت تنوى أن تعمل مع أبيك بحيث تتيح له الفرصة أن يعلمك التجارة والتجارة الشريفة فأنا عن أبيك أقول أهلا وسهلا •

وقاطعها فؤاد قائلا :

ــ ألف أهلا وسهلا •

وأكملت وهيبة :

ــ وان كنت لا تريد أن تصبح تاجرا مع أبيك فقل لنا ماذا تريد وربنا يساعدنا أن نحقق لك ما تريد •

وصمت فكرى صمتا تاما • أنا فعلا لا أعرف ماذا أريد • أعود للمذاكرة مصيبة • اذا عملت مع أبى سيحاسبنى على الذهاب الى المحل وعدم الذهاب • أنا ماذا أريد •• ماذا أريد ؟

ــ الحقيقة يا نينا أنا أعرف ما أريد •

وسارع فؤاد قائلا :

ــ الحمد لله قل لنا ماذا تريد •

ــ أنا أريد أن أتعلم التجارة •

ــ ألم نقل هذا أول الأمر ؟

قالت وهيبة :

ــ انتظر يا فؤاد •• انه لم يكمل ••

وأكمل فكرى :

ــ أنا فعلا لم أكمل • لا أريد أن أجلس فى محل • أنا أريد

أن أنزل السوق اشتغل فى عمليـــات تجارية حرة ، ولك أن تحاسبنى كل عام .

وصاح فؤاد ملهوفا :

ـ الله أكبر ... تنزل السوق هكذا وأنت لا تعرف فيه شيئا ؟

ـ ابن تجار وعندى الموهبة وعندى المخ ..

ـ وماذا أيضا ؟

ـ ألا يكفى هذا .

ـ والتجربة ؟ !

ـ تأتى فى السوق ..

ـ أتعرف كم يمكن أن تكلفك . أقصـــد أن تكلفنى هــذه الكلمـــة . ربما كلفتنى ثروتى كلها وفوقها مثلها عشر مرات ...

ـ ألا تريدنى أن أتعلم ؟

ـ عندى فى المحل . فى الجامعة التى تخرج فيها أجداد أجدادك حتى تخرجت فيها أنـــا ...

ـ ولكن الدنيا تتطور .

وتقول وهيبة :

ـ اذن فأنت تريد ...

ويقاطعها فؤاد :

ـ أنـــا أعرف ماذا يريد يا وهيبة وأنت تعرفينه ..

وتقول وهيبة :

ـ نعم أعرفه ولكنني أريده هو أن يقول ...

ويقول فكرى :

ـ أنـا لن أقول شيئا ..

ويقول فؤاد :

ـ ولا مليم واحد ...

ويفزع فكرى :

ـ مـاذا ؟

ـ أنت تريد مبلغا من المـال ، الله أعلم أين ستنفقه ، ثم تقول تاجرت وخسرت ... أليس كذلك ؟

ـ وماله ؟

ـ انه مالى .. انه جهدى وجهد أجـدادى .. حين أموت أنـا أنت حر فى نصيبك أما وأنـا على قيد الحياة لايمكن . ما رأيك ؟

ـ سأعمل معك يا أبى ولكن ستعرف أننى لست كما تظن ..

ـ أهل بك .ومكافأة لك على عملك معي خذ هـذه المفاتيح لسـيارة جديـدة اشتريتهـا لك ليعرف أصـدقاؤك أن أبـاك فرح بعملك معه .

ـ أطال الله عمرك يا أبى . ربنا يجعلك راضيا عنى دائما .

١٥

سميحة مخطوبة لابن عمها وجدى عبد الراضى منذ هما طفلان ، وقد تخرج وجدى فى عامه هــذا فى كلية التجارة وأعد أبوه له شقة للزواج بعد أن باع عشرة أفدنة من العشرين فدانا التى يملكها ، وتقدم الأخ رسميا الى أخيه يطلب يد ابنته لابنه وقبل الأب الخطوبة وهلل بها ونادى :

ــ سميحة ..

وكانت سميحة قد أحست من مجىء عمها المفاجىء ما سيتأدى اليه الحــديث . وقد كانت صلتها بابن عمها واهية فهو يســكن فى الاسكندرية مع أبيه الذى يعمل هنــاك فى وزارة الكهرباء ، وكانوا هم يصطافون فى رأس البر . فلم تكن ترى ابن عمها الا فى مناسبات قليلة وزوجة أبيها لم تكن تذكره لها مطلقا ، فهى لا تنسى أن عمهــا وزوجته جليلة لم يكونا راضيين عن زواج أبيها منها وكيف لهما أن يرضيا وقد كانا سيرثان نصف ثروة فريد اذا هو لم يتزوج ولم ينجب ولــدا .

فوجدى هذا كان بعيدا عن تفكير سميحة كل البعد ، وهى تعلم أن أمه مزحت مع أمها وهما أطفال وخطبتها له ولكن الطريقة التى روى أبوها بها هذه القصة كانت لا تنبىء عن أى جد .

ولكنها مع ذلك حين علمت أن وجدى تخرج لم تستطع أن تمنع وساوس خوف أن تداخلها . واليوم وعمها فى حجرة الاستقبال مع أبيها . وأبوها يناديها يتحقق خوفها .

وينادى الأب مرة أخرى .. يا سميحة .. ولكن ليس له مجيب ...

ويقول فريد :

ــ قومى يا فوزية ناديها ..

ويقول العم عبد الراضى :

ــ قومى يا ست فوزية الله يرضى عليك ..

وتقوم وتدخل وقبل أن تقفل الباب تقول سميحة :

ــ لا ..

ــ أى لا ؟

ــ لن أذهب ..

ــ وهل عرفت فيم ؟

ــ عرفت كل شىء .. المسألة لا تحتاج الى ذكاء ...

ــ وماذا نقول لعمك ؟

ــ هذا شأن أبى .. لا شأنى .

ـ اسمعى يا سميحة أنت تعرفين أننى لا أحب عمك عبد الراضى، وهـذا يا بنتى شيء طبيعى فهو لم يرحب بى فى الأسرة ولكن حتى أكون عادلة هو معذور . كان طامعا ولم يصبح الطمع اليوم سفالة . الدنيا أصبحت مطالبها كثيرة . وطبيعى أن يفكر كل انسان فى مصلحة نفسه .

ـ ومن أين كان يعلم أنه سيرث أبى ؟ ولمـاذا لم يفكر أن أبى قد يعيش بعده ؟ انه أكبر من أبى .

ـ مع الطمع لا منطق يا سميحة .

ـ ولكن يا تنت أنـا لا أعرف وجدى .. أنـا لم أره فى حياتى الا مرات قليلة تعد على الأصابع .

ـ ولكنه مع ذلك ابن عمك . وماذا نستطيع أن نقول الآن ؟

ـ لا أعرف وانما أنـا أرفض ..

ـ لقد أحضر الشبكة معه ..

ـ اذن فهو يعتبر الأمر منتهيا ..

ـ عم يخطب ابنة أخيه لابنه المتخرج فى كلية التجـارة . ماذا يمكن أن يكون المـانع ؟

ـ وهل ابنة الأخ هذه ليست انسانة ؟

ـ سميحة ... اسمعى أنـا بالنسبة اليك ...

ـ والله يا تنت أنـا أعتبرك مثل ماما وأكثر . لأن الأم تحب ابنتها بالغريزة ولو كانت أمى موجودة كان لايمـكن تقدم لى أكثر مما تقدمين أنت ...

اذن فاسمعى يا بنتى أنـا الآن فى مركز حرج اذا خرجت وقلت

أنك رافضـــة أو تريدين أن تفكرى أو أى كلمة من الكلمات التى تقال فى مجـــال الرفض هــذه سيظن عبد الراضى أننى أنــا التى أغريتك بهــذا ...

ــ وهــل تقبلين أنت يا تنت أن أضيع حيــاتى من أجل حرج مؤقت ؟

ــ لك حق يا بنتى . فعلا هــذا ليس عدلا ... الآن لابد أن يحمل كل انسان مسئوليته ...

وفتحت الباب ونادت :

ــ يا فريــد .

ــ نعــم ؟

ــ تعال أريدك فى كلمة ..

وهمست سميحة :

ــ ربنا يطيل عمرك يا تنت . قلت أريدك ولم تقولى سميحة ..

ويدخل فريد :

ــ مــاذا ؟

ــ أنــا لن أتزوج وجدى ..

ــ ماذا هل جننت ؟ !

ــ هل أصبح مجنونة حين أرفض شخصا لا أريده ؟

ــ ولمــاذا لم تقولى هذا من قبل ؟ !

ــ وهل سألتنى ؟

ــ ألم أقل لك أن أمه خطبتك من المرحومة ...

ـ أتعتقد بهذا أنك قلت لى ؟

ـ وحين كنا نلتقى ألم تسمعى الاشارات التى كانت أمه تقولها ؟

ـ هل تعنى هـذه الاشـارات أنك سألتنى ووافقت ؟ انهـا اشارات تتناثر كلما اجتمع شاب وشابة ..

ـ والآن ماذا أعمل ؟ وجدى هنا وأبوه وأمه ومعهم الشبكة ويريدون أن يتفقوا على تحديد يوم الخطبة .

ـ أترضى لى يا بابا زواجا بهذه الطريقة ؟

ـ يا بنتى نحن لم نرفض .

ـ ولكننى لم أسأل حتى أقبل أو أرفض ..

ـ وماذا أعمل الآن ؟

وقالت فوزية :

ـ أنت طبعا لن تجبر البنت على زواج لا تريده ..

ـ أنـا مرغم ..

ـ ماذا تعنى ؟

قالت سميحة :

ـ اسمع يا بابا نحن فى جيل لم تعد الفتاة فيه تتزوج رغم أنفها ، وأنـا معى الثانوية العامة ...

وأدرك الأب كل شىء . وأدرك أيضا أن صـوتها بدأ يعلو فقال :

ـ طيب ... طيب ... اسكتى ..

وقالت فوزية :

ـ اتتصور أنك ستزوج فتاة جامعية رغم أنفها ؟

وقال فريد وقد أدرك الموقف تماما :

ـ لا يمكن ٠

ثم نظر الى ابنته نظرة عميقة وقال :

ـ وحتى لو أردت لا أستطيع ٠٠

وقالت سميحة وقد ارتجفت كل مشاعر البنوة فيها :

ـ بابا ٠ أنا ليس لى غيرك ٠ وعندى الموت خير من لحظة غضب منك على ٠ ولكن الموت أيضا أهون من زواج لا أريده ٠ انها حياة بأكملها كيف سأعيشها مع شخص لا ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ لا أوافق على الزواج منه ؟

وقالت فوزية :

ـ اسمع يا فريد ، اخرج أنت الآن وأنا سأمنع عنك الحرج وستكون سعيدا ان شاء الله ٠ فقط اعلم أن سميحة لن تتزوج وجدى ٠٠

ـ لن تتزوج الا اذا ٠٠٠

ـ لن أقبله مطلقا اذا لم يبق من الرجال الا هو ٠٠٠

ـ اذن لن تتزوج وجدى ٠٠٠

وقالت سميحة :

ـ اتفقنا ٠ اخرج أنت الآن ٠٠٠

ـ ماذا أقول لهم ؟

ـ قل لهم سميحة آتية حالا ٠

وتصيح سميحة :

ــ تنت .

وتقول فوزية فى حسم :

ــ اسكتى أنت .. اخرج يا فريد ..

ويخرج فريد وتقول فوزية :

ــ أنت تعرفين الآن أنك لن تتزوجى وجدى ..

ــ كيف أعرف ؟

ــ ان الأمر فى يدك وحدك وقد أوضحت هذا لأبيك ولم يعد شيئا خافيا الآن . أنت وحدك تملكين مصير نفسك .

وتبتسم سميحة وتنعم النظر فى عينى زوجة أبيها :

ــ أنت فى غاية الذكاء ...

ــ وأنـا معجبـة بك . حقك وتمسكت به ولكن يبقى شىء هـام ...

ــ بابا ...

ــ ما رأيك ؟

ــ موقفه صعب ...

ــ أترضين له هذا أمام أخيه وابن أخيه وزوجة أخيه ..

ــ لا ... أنـا مضطرة ..

ــ الى مـاذا ؟

ــ الى الرقص ..

ـ هذا أمر اتفقنا عليه ..

ـ اذن ..

ـ ألم تفهمى ؟

ـ اتظاهر بالقبول ..

ـ والشبكة ليست كتب كتاب ...

ـ موافقة .

ـ البسى ..

***

١١

قالت له فى اليوم التالى وهما سـائران على شاطىء النيـل فى المعـادى :

ــ لقد خطبت أمس ..

ووقف . ثم جلس على الحجارة ثم التقط شهيقا مروعا . ونظر اليهـا :

ــ ماذا ... ماذا قلت ؟

وانفجرت ضاحكة :

ــ أمزاح فى مثل هذا ؟

ــ أنـا والله لا أمزح ..

وروت له كل شىء وأدرك أنـه لابد أن يتحرك من فوره وان كانت سبيحة تقول له فى هدوء :

ـ ان الذى حدث أمس كان من المنتظر حدوثه . وربما كان وقوعه خيرا لنا وأنت لا تدرى ...

ـ ربما ... ولكن كيف ؟

ـ لقد أدرك أبى اليوم أن مصيرى بيدى وحدى وأنه لا يستطيع أن يرغمنى على زواج لا أريده ...

ـ هذا حق والآن جاء دورى ...

ـ لا تتعجل .

ـ أترضين لى أن تقفى أنت هـذا الموقف الحر وأسوف أنـا ؟

ـ اسـمع يا مجدى أنـا لست جاهلة . وأنـا حين أحببتك عرفتك على حقيقتك ، وأنـا لست ساذجة لأحبك أولا ثم أضعك بعد ذلك فى موضع الاختبار .

ـ هل تتصورين السعادة التى أشعر بها وأنـا أسمع هـذا الحديث ؟

ـ نعم أتصورها لأنى أحس بهذه السعادة وأنـا أقول ما أقول.

ـ كنت أحسب أنك أحببتنى لأننا نشأنا معا ونشأ الحب بيننا وليدا ثم كبر ، العاطفة وحدها هى التى تحكمه ...

ـ مثل هذا الحب يكون حبا مخيفا لا يعرف واحد منا عواقبه. أنـا كنت أراقبك فى كل مراحل حياتك منذ بدأت أعى وتذكرت وأنـا عاقلة ما كنت تصنعه ونحن أطفال و ... و ... وأحببتك . وأعلم أنك صنعت معى نفس هذا الصنيع .

ـ أنـا أحببتك ؟

ـ ودرستنى كما درستك . لست أنسى ونحن أطفال يوم قذف

سيد المدبولى الكرة بقدمه فكسرت زجاج بيت جميل بك فتقدمت أنت الى البواب وقلت له أنك أنت الذى كسرت الزجاج وأنك ستدفع ثمنه لأنك تعلم أن والد سيد المدبولى سيضربه وأنه لا يطيق أن يدفع ثمن الزجاج ..

ــ ياه أمازلت تتذكرين هذه الحكاية البسيطة ؟

ــ ربما كانت بسيطة لو صنعتها الآن ، أما ونحن أطفال فهى ليست بسيطة .

ــ وأنا لا أنسى حين نزلت من قطار المعادى ولم تكونى تعرفين أننى فيه ولا كنت أدرى أنا أنك معى فى القطار وتقدم منك فكرى يريد أن يحمل كتبك ويسير معك حتى البيت فاذا انت ترفضين وتتركينه يمضى .

ــ أكنت وراءنا ؟

ــ تخفيت عنكما ورحت أرقبه وهو يمضى ، ورأيتك أنت تمشين على الرصيف فترة ثم تأخذين وجهتك الى البيت . أدركت أنك قلت له أنك لن تذهبى الى البيت حتى لا تخجليه ، وفى نفس الوقت رفضت أن تسيرى معه وحدكما .

ــ وأشياء كثيرة رأيتك فيها انسانا ورجلا ، لم تحاول أن تحقق ذاتك بشعارات وانما حققت ذاتك بالدراسة . ولك آراؤك الوطنية ولك ايمانك الدينى ، لم تحاول أن تتطرف أو تتظاهر بالعلم أو بالبطولة وتتكلم فأعلم أنك تقرأ كثيرا دون أن تدل على الناس أو على أصدقائك بأنك تقرأ ..

ــ وأنت ألا تفعلين هذا ؟

ــ وأعرف أنك تعرف ..

ـ ويصدق علينا قول الشاعر :

فـلم تك تصـلح الا له ولم يك يصـلح الا لهـا

ـ وشعر أيضا ؟

ـ بيت واحد من نفسى ..

ـ نعود الى البيت ..

ـ أمرك ...

***

مر يومان على هـذا الحديث ، وكان مسـاء جلس سويلم فيه ونعمات يشاهدان التليفزيون ومعهما مجدى صامتا . وفجأة قـال لأبيـه :

ـ ما رأيك يا أبى فى وظيفة معروضة على بالسكة الحديد ؟

وفوجىء سويلم بالخبر وقالت نعمات :

ـ ألف مبروك ... ألف مبروك يا باشمهنـدس ... أزغرد ، ابنى أصبح مهندسا فى السكة الحديد ..

وأتاحت الجملة لسويلم أن يفكر قليلا ثم قال :

ـ متى عرضت عليك ؟

ـ اليوم طبعا ... وهل يمكن أن أخفى عنك شيئا هاما كهذا ؟

ـ وأنت ما رأيك ؟

ـ أريد أن أعرف رأيك أولا ...

ـ ألم تقل أنك تريد أن تفتح ورشة ؟

الآن ... لايسكن ... أنا سأعمل بعد الظهر فى ورشة الأسطى داود الميكانيكى بالمعادى ..

ــ أنت يا باشمهندس تعمل بورشة مع أسطى !

ــ الذى تعلمناه فى الكتب شيء والحياة شيء آخر . أيرضيك أن أتعلم الهندسة فى سيارات خلق الله ...

ولم يملك سويلم نفسه وقام الى ابنه وهو يقول له :

ــ قم ... قم ... قف على حيلك .

وظنت نعمات أن زوجها غاضب فصاحت :

ــ انتظر يا سويلم بالهداوة ... بالراحة يا سويلم ...

وأعاد سويلم الجملة :

ــ قم قلت لك .

ووقف مجدى ذاهلا واذا سويلم يقول له :

ــ ادخل فى حضن أبيك . أنا اليوم عرفت أننى خلفت رجلا لا طفلا .

وزغردت نعمات دون أن تدرى لماذا واستطرد سويلم :

ــ كنت أخاف أن تظن أنك ما دمت حصلت على شهادة الهندسة ستحتقر الأسطوات وتقول فى نفسك أنك مهندس وأنهم لا يعرفون ما تعرف . أنا الآن مطمئن اذا مت هذه اللحظة .

وتقاطعه نعمات :

ــ يا اخويا بعد الشر ان شاء الله العدو ... أهذا وقته .

ويضحك ثلاثتهم ويعودون الى مجلسهم ثم يقول مجدى :

ـ ما دام الأمر كذلك فأنا أريد أن أتزوج ..

وتسارع نعمات وتضع يدها فوق شفتها العليا متهيئة لزغرودة أخرى فيقفز مجدى فى هـذه المرة ويضع يده على فم أمه :

ـ فى عرضك يا ماما الذى لم يسمع الأولى قد يسمع الثانية ..

ويقول سويلم :

ـ وماله ... خلى الدنيا كلها تسمع .

ويجلس مجدى فى هدوء وهو يعلم أنه سيقول كلاما لن يرضى أبويه كل الرضا .

ـ فقط اسمعا الحديث لآخره ..

ـ وماله يا نعمات انتظرى بعض الشىء بزغرودتك ، يبدو أن فى الأمور أمورا .

قال مجدى فى هدوء :

ـ ما رأيـك ؟

ـ وهل قلت شيئا ؟

ـ قلت أنى أريد أن أتزوج ..

ـ الشقة موجودة والمهر موجود والعروسة .

وهنا قاطعه مجدى :

ـ ليست موجودة ..

وصاح الأبوان كلاهما معا :

ـ مـاذا ؟ !

واسترسل مجدى :

ـ أتنما لا أنـا خطبتما الهام . وأنـا لا أريد أن أتزوج الهام..

وصاح الأبوان مرة أخرى :

ـ مـاذا ؟

وقال مجدى فى هدوء :

ـ هل قلت لك يا بابا أو قلت لك يا ماما أنى أريد الهام أو أننى معجب بهـا ؟

ـ حسبنا أنك ...

ويقاطع مجدى أباه .

ـ انك حسبت يا بابا ليس هذا ذنبى ...

ـ يا بنى هذه عشرة عمر وأبوها أكثر من أخ وجدها له فضل على وعليك . لولاه الله وحده يعلم الى أى مصير كنت أسير ..

وتقول نعمات :

ـ أين أودى بوشى منك يا وهيبة ؟

ويلحق بها سويلم :

ـ ووهيبة هذه ابنة عمدتنا وأنـا الذى زوجتها ..

ويقول مجدى :

ـ وهل ترى أنك ما دمت زوجت الأم لابد أن تزوج ابنتهـا أيضـا ؟

ـ لا أقصـد ...

وتقول نعمات :

ــ ولماذا لم تقل هذا من زمان يا ابنى ؟

ــ وهل سألنى أحد منكما ؟

وينظر سويلم الى نعمات، وتنظر هى اليه ويقول سويلم :

ــ ألم تسأليه ؟

فتقول فى ذهول يحتويها :

ــ وأنت ألم تسأله ؟

ــ كنت أظن الأمر منتهيا ...

وتقول نعمات :

ــ أنا كنت أظن الأمر منتهيا ..

ويقول مجدى :

ــ أيصلح الظن فى هذا ؟

ويقول الأب فى جد وعيناه مفتحتان والدهشة لا تفارق وجهه :

ــ أظن لا ...

ــ فأنا لا ذنب لى اذن .

وتقول نعمات :

ــ ماذا أقول لوهيبة ؟

ويقول سويلم :

ــ وأنا ماذا أقول لفؤاد ؟

ويقول مجدى :

ــ ألست تحبين عمتي وهيبة يا ماما ؟

ــ روحى من جوه ..

وينظر مجدى الى أبيه :

ــ وأنت يا بابا ألا تحب عمي فؤاد ؟

ــ أنت تعرف ..

ــ أيرضيكما أن تزوجا ابنتهما لرجل لا يريد الزواج منهـا ؟ اتعتبران هــذا حبا أم كرها لعمتي وهيبة ولعمى فؤاد ؟ . ماذا كنتما تصنعان لو أردتما الانتقام منهما أكثر من ذلك . افرضا أنني وافقت من أجلكما ومن أجل الصــداقة التى تربط بينكم أيرضيكما هــذا لالهام نفسها . لو كان لكما بنت أترضيان لها هذا ؟

وساد صمت مطبق ثم قال سويلم :

ــ فى هذا الزمان الأب لا يستطيع أن يزوج ابنته فكيف يمكن أن يتدخل فى زواج ابنه . نحن نربى ونكبر ثم لا رأى لنا بعد ذلك . نحن لا لزوم لنا . نحن نصنع فلوسا فقط . نحن عقليــات أكل عليها الدهر وغسل يديه . ما دام الولد أخذ الشهادة فما حاجته الينا . تقدم له المــال بضع سنوات أخرى ثم يستغنى عنا وعن مالنا جميعا . والى الجحيم آراؤنا والى ستين جحيم صــلاتنا بالناس وحسبنا الله ونعم الوكيل . قومى يا نعمات نروح حجرتنا ...

وتقوم نعمات وهى تقول :

ــ حسبى الله ونعم الوكيل .. عين وأصابتنا والأمر لله من قبل ومن بعد .. حسبى الله ونعم الوكيل ..



كان فرح هشام دردير وحمدى الفنجرى بسيارة فكرى أعظم من فرحته هو . ولم يدر سبب ذلك فحمدى عنده سيارة هو أيضا ..

ـ الليلة لابد أن نحتفل بك ..

ـ الليلة سنسهر للصبح ..

وصاح فكرى :

ـ لا ... كونا عاقلين . السيارة جديدة لو سهرت بها من أول ليلة يسحبها هو فى صباح هذه الليلة . الأمور لابد أن تكون بالعقل ..

وقال هشام :

ـ هو ما قلت . تذهب معنا اذن الى صديق لنا ونعرفك به ..

ـ صديق جديد ؟

ـ عرفناه وأنت مشغول بالمذاكرة ..

ـ من هو ؟

ـ ستعرفه ... اصـبر ... لو تعرف ما فعلنـاه لأدركت أن أبواب السماء فتحت لك ..

ـ خـيرا ؟

ـ هيا بنا ..

لم يكن بعيدا عن حياة الليل فقد طالمـا تعرف ببنات الهوى . ولكن ذلك فى بيوت يعرفها أصدقاؤه . النفقة فيها يطيقها ما يناله من أبيه . وكان بذلك يظن أنه عرف من الحياة كل الحيـاة . وأن أحدا لا يستطيع أن يدرى من شئون الدنيا أكثر مما يدرى هو .

وكان بظنه هذا قانعا كل القناعة . وحين كان يسمع عن الكباريهات والأموال التى تنفق فيها كان تقديره ان هـذه الحياة ما هى الا ما عرف ولكن بصـورة علنية فالذين هنـاك لا ينفقون مما يجود به عليهم آباؤهم .

وظل على ظنه هذا حتى ذهب مع صديقيه هشام درديو وحمدى الفنجرى الى ذلك الرجل الذى قالا عنه أنه صديقهما وهنـاك رأى فكرى عجبا .

البيت فى شـارع الشيخ فواز بالمهنـدسين والعمارة شاهقة لم يستطع أن يعرف عـدد أدوارها الا حين قرأ رقم ١٢ فى المصـعد ، والصديق الذى ذهبا اليه يسكن هـذا الرقم ، فهو فى أعلى العمارة فيها شقتان متصلتان تطلان على ما كان سطحا ثم أصبح جنة من جنات الأرض . فالأنوار فيه باهرة والأركان نوافير والجدران حلى وتهاويل كلها أشكال تنير وتثير فى وقت معا .

وحتى يبلغ السطح أو الذى كان سطحا كان قد اخترق بعض غرف أحس وهو يخطو اليها من الباب الخارجى ثم وهو يخطو فيها أنه فى فتحة الباب قد انتقل من انسان يحيا فى القاهرة المعزية الى ممثل فى أروع ما أنتجته السينما الأمريكية من تجميل للبيوت .

لقد تولاه البهر والذهول منذ اللحظة الأولى ، وما فكرى بفقير وانما هو ابن تاجر موفور ويسكن أيضا شقتين متصلتين . ويحيا حياة لا تعرف الا الرغبة المجابة فى المآكل والمشرب والملبس . ولكن أين هذا جميعا مما هو رائيه الآن . دنيا غير التى عرف وحياة غير التى يحيا . واستقبله بالباب خادم واضح أن صاحب البيت رسمه ليكون جزءا من هذا الابهار ووضح له أن الخادم يعرف صاحبيه فهو يقول فى ألفة :

ـ تفضلا البك فى الروف ..

ويخطو فكرى معهما ذاهلا واعيا شاردا منتبها لا يفكر فى شيء الا سؤال ظل يتردد فى ذهنه ويدق مشاعره : ما هذا .. ؟ أين أنا .. ؟ أين أنا .. ؟ وكان ذهوله قد بلغ منتهاه . حين خطا خطوته الأولى الى السطح وأدرك صاحباه ما ألم به فهما أيضا مرا بما يمر به اليوم حين صحبهما الى هذا الحلم المحقق زهران قدرى زبون رفعت الفنجرى والد حمدى الى صديقه صاحب هذا البيت .

لقف كل من الصديقين ذراعا لفكرى وقاداه ذاهلا واعيا وأوقفاه وجاء الى أذنيه صوت كان عنه تائها وخيل اليه أنه صوت حمدى :

ـ أهلا علوان بك . هذا صديقنا فكرى بن فؤاد محمدين صاحب المحلات المشهورة بالحمزاوى .

ورأى فكرى نفسه واقفا أمام شخص قصير القامة أصلع الشعر أو هكذا خيل لفكرى على الأقل . وصاح حمدى :

ـ مالك التهبيت هذه اللهوة الكبرى • أفق وسلم على علوان بك سلطان • لا مؤاخذة يا علوان بك أنت طبعا تعرف حالة الواحد منا حين يأتى الى هنا لأول مرة •

وقـال علوان :

ـ مرحبا ••• مرحبا فكرى باشا • كلمنى عنك حمدى وهشام كثـيرا ••

ـ مرحبا سعادة البك •

ـ اسمع أنـا أعرف أنك لن تستريح حتى ترى البيت كله • خذه يا حمدى وفرجه على البيت •

ورأى وازداد ذهولا •• كل غرفـة مصنوعة خصيصـا لتجعل الداخل اليها يكاد يغيب عن الوعى •

وحين عاد الى مجلس علوان كان الاعجاب الحـائر واضحا عليه، وأراد علوان أن يجتذبه من دواره :

ـ مبروك الثانوية العامة ••

وانتبه فكرى الى الواقع ودار فى الجالسين ••• ثلاثة رجـال وامرأتان رائعتا الجمال ثم سارع يقول :

ـ الله يبارك فيك يا سعادة البك ••

وقـال حمدى :

ـ والأهم من ذلك يا علوان بك أن فكرى أصبح الآن مساعدا لأبيه فى المحل وقرر أن ينزل الى الحياة العامة ••

ـ هكذا ••• هذا هو الكلام ••• أليست الشهادة وسـيلة للغنى فما دام عندنا الغنى والحمد لله فما لزوم الشهادة ؟

وقـال هشام :

ــ ونحن اليوم نحتفل بركوب أول سيارة يملكها فكرى .
وصاح علوان فى تظاهر بالفرح :

ــ أهكذا ... ألف مبروك ... وما ماركتها ؟

وصمت فكرى وقال هشام :

ــ اشتراها صغيرة حتى يربيها على يديه ..

وضحك جميع الجالسين وقالت احدى الفتيات :

ــ تتربى فى عزك ان شاء الله ..

وقال علوان فى جد :

ــ لا ، ستتربى فى عزى أنـا ان شاء الله . أنـا أحب الشباب الجرىء الذى لا يبحث عن المظـاهر والشـهادات فـكرى ابنى منذ اليوم .

ودهش فـكرى أن يصبح ابنا هكذا فى لحظـة من زمن ولم يملك الا أن يقول :

ــ ألف شكر ..

ويقول علوان :

ــ اسمع يا فكرى أنـا لى زملاء وصـلوا الى وزراء وأعلم أنهم لولا الخجل لجاءوا الى ليستلفوا منى . أنـا أخذت الابتدائيـة وبدأت العمل الحر . لو كنت أخذت الدكتوراه كان مرتبى الآن أقل من نصف مرتب متولى الخـادم الذى قدم بكم الى هنا . هـذا واحد من خمسة يعملون عندى هو أقلهم مرتبا لأنه آخر واحد عينته عندى .

ستصبح مثلى يا فكرى وسترى ..

وازدادت حيرة فكرى .. كيف .. كيف ؟ .. وقال علوان :

ـ أنت الليلة ضيفى الى الصبح ..

وارتج على فكرى وقال هشام :

ـ يا أخى كلم والدتك وقل لها أنك ستسهر معنا الليلة ..

وقــال فكرى :

ـ أرنى التليفون يا حمدى ..

وضحك الجميع وصاحت الفتاة الثانية :

ـ يابنى هنا تليفون على كل كرسى . الكرسى الذى تجلس عليه الآن بجانبه تليفون .

وقال جالس آخر :

ـ هنا خمس نمر بخمسة عشر خطا ..

قــال علوان :

ـ يا جماعة على مهلكم . الرجل أول مرة يأتى الى هنا ، والذى لا يعرفــك يجهلك . ثم هو لم يغلط .. انه يريد أن يــكلم والدته أتريدونه أن يكلمها أمامــكم . قم يا حمدى خذ صاحبك الى حجرة المكتب ..

وفى الطريق الى المكتب قال فكرى :

ـ يابنى أنــا كنت أسهر وأقول لها أننى أذاكر . .الآن ماذا أقول لها ؟

وصاح فيه حمدى :

ـ يا رجل أفق الى نفسك ، أنت اليوم أصبحت حرا تسهر كما تريد وتعود حين تريد . ألا تعرف الآن قدر نفسك ؟

وضحك فكرى وهو يقول :

ـ معقول معقول فقط ليس من أول ليلة هكذا ..

ـ بل يجب أن يعرفوا حدودهم من أول ليلة ..

ـ من هؤلاء ؟

ـ أبوك وأمك ..

ـ أترى هذا ... سنرى ..

وطلب فكرى التليفون وقال :

ـ ماما أصحابى يريدون ان يحتفلوا بالسيارة الجديدة وسنسهر الليلة معا .. لا لن تتأخر كثيرا ... نعم ناموا أنتم ... معى المفتاح نعم ... لا لم أنسه مع السلامة ..

وبدأت الليلة .

أما الويسكى فيعرفه فكرى وما هو بجديد عليه . وأما المخدر فقد جربه ولكنه لم يستجب له . وأما الفتيات اللواتى يشربن ويسمرن فهو أيضا يعرفهن . كانت الفتاتان قد أصبحتا ثلاثا فقد قدمت الى البيت فتاة فى عشرينات عمرها فتن بها فكرى منذ لحظة قدومها . وقد أعجب فيها بمظهر برىء . كانت نبتا أخضر جديدا على مثل هذه الحياة . بيضاء الوجه سوداء العينين متوسطة القامة فى طولها تسيل الى النحافة ، كثيرة المرح ولكنه مرح ساذج لم يتمرس بعد ، وأحست الفت باعجاب فكرى فراحت تلقى شعرها عليه وهى ترقص وتكثر من الوقوف أمامه ، ويصخب الجميع مدركين اللقاء المتبادل الذى تم على مشهد منهم . وصاحت سعدية أقدمهم فى العلم :

ـ الكونتاك جديد عند الأثنين . هزى وسطك يا ألفت . سيارته جديدة بشوكها .

ولم يلحظ شكرى علوان وهو يغمز لحسدى الذى تبعه الى حجرة المكتب .

ـ هذا الولد سينفعنا .

ـ ألم أقل لك ؟

ـ وسيارته الجديدة هذه مهمة جدا .

ـ أعلم .

ـ لا تظن أننى أختاركم وأنا لا أعرف ماذا أفعل . أمثالكم بعيدون عن كل شبهة .

ـ أنا سأتركه بعض الوقت ولا تذكر أنت أو هشام له شيئا . أنا لى طريقتى الخاصة .

ـ لا يمكن أن نعمل شيئا قبل أن تفول ..

ـ أنا أريده الليلة فى الكباريه ..

ـ يذهب ..

ـ وأريد ألفت تذهب معه الى شقة جاردن سيتى ..

ـ قل لها ..

ـ لا شأن لك بها ولكن هيئه أنت لهذا وخذ . اجعله يعطيها هذه المائة جنيه وأنا لى معها شأن . قل له أن الفلوس منك أنت ..

ـ أمرك ..

وعادا الى مكانيهما وبعد دقائق قال علوان :

ـ والآن الى العمل ..

وصاح فكرى :

ـ عمل ... أى عمل ؟

ـ أتظن أن ألفت وسعدية وسميرة يكسبن عيشهن من انبساط سعادتك ..

ـ اذن !!

ـ هن ذاهبات الى الكباريه. ونحن سنذهب معهن ، الساعة الآن فاتت العاشرة ... هيا بنا ..

وشهد فكرى الكباريه ورأى رأى العين كيف تصبح الجنيهات من فئه المائة والعشرين والعشرة عقودا فى نحور الراقصات . ورأى آلاف الجنيهات تلقى على الموائد وكأنها قروش .

وكان من المقرر أن ترقص ألفت أول الراقصات ، وحين بدأت الرقص لم يلتف حول نحرها سوى عقدين أحدهما من ذوى العشرة والآخر من ذوى العشرين . جديدة .

ومال حمدى على أذن فكرى :

ـ البنت تموت فيك .

ـ حلوة كالقمر .

ـ ما رأيك نخرج معها الآن ؟

ـ هل أنت جاد ؟

ـ اتفقت معها فعلا ..

ـ ولكن أنا ... أنا ..

ـ خذ هذه مائة جنيه أعطيها لها ..

ـ يا نهارك أسود .

ـ ماذا جرى لك ؟

ـ من أين ؟

ـ الأعمال الحرة تجعل المـائة جنيه هـذه عشرة قروش .

ـ ومن أين أردها لك ؟

ـ قسطها لا شأن لك .

ـ وأين سنذهب ؟

ـ أيضا لا شأن لك هى تعرف .

ـ وان طلبت آكثر ... أنـا ليس معى الا عشرة جنيهات ..

ـ خذ عشرين لتكون مطمئنا ..

ـ أقـوم ..

ـ اركب سيارتك وقف بها أمـام الباب وستجدها بعد خمس دقائق بجانبك ..

***

شقة جميلة نظيفة ، كل شيء معد لتمضية سهرة وللاقامة أيضا ، عرف فكرى أنها من شقق علوان ، وفهم أن حمدى هو الذى صنع له هذا المعروف .

***

ـ خـذى ..

ـ ما هـذا ؟

ـ ألا تعرفين ؟

ـ أعرف طبعا ..

ـ اذا لمـاذا تسألين ؟

ـ لأنى لن آخذ منك شيئا ..

ـ مـاذا ؟

ـ أليس من حقنا أن نعجب ببعض الناس ونحبهم !

ـ من حقك طبعا . ولكن يبدو أنك تحتقرين المبلغ الذى أقدمه لك بعد أن أخذت العقدين من المعجبين فى الصالة ..

وانفجرت ألفت تضحـك فى قهقهة عالية بعيدة عن التظـاهر ، ثم ما لبثت أن أوقفت ضحكتها وقالت فجأة :

ـ أهذه أول مرة تذهب الى كباريه ؟

ـ لاحظى أننى قبل اليوم كنت تلميذا ..

ـ آه ... معقول . اسـمع أولا أنـا لا أعرف المبـلغ الذى تعرضه على حتى احتقره أو أحترمه . وثانيا كيف تصـورت أن هذه العقود كلها لنا ..

ـ مـاذا ؟ !

ـ اننا لو أخذنا منها عشرها تكون نعمة . انها تقسم على جميع العاملين فى الصـالة ... وحين تكون الراقصـة جديدة مثلى يكون نصيبها عدما أو قريبا من العدم ..

ـ اذن لمـاذا ترفضين ؟

ـ أحببتك ..

ـ ثانيـة ..

ـ وأنت أيضا أحببتنى ..

ـ الحقيقة أنـا ... أنـا معجب بك جدا ..

ـ وستحبنى ..

ـ يتهيأ لى ... لن أسألك ماذا رماك الى هذا العمل .

ـ يا حبيبى هـذا السؤال كان يصلح أيام زمان . الآن لا أحد يسأل هـذا السؤال . اللواتى لا يقمن بهذا العمل علانية يقمن به سرا فى بيوتهن ، ولهذا لم يصبح اسمه المقدر أو النصيب كما كان يسـمى فى أفلام المـاضى . وانما أصبح عملا محترما مثل كل الأعمال . ودخله أصبح أعظم من أى دخـل ، ويوم أريـد الزواج ألف يتمنون تراب رجلى . منهم تسعمائة وتسعون يستفيدون من خبرتى ويجمعون المـال من ورائى ، والعشرة الباقون ليجعلوا منى أم عيالهم .

وفوجىء فكرى بالاجابة . وصمت طويلا ثم قال :

ـ ألفت .

ـ نعـم ..

ـ أنـا أحببتك ..

ـ اذن أدخل هذه الفلوس فى جيبك ..

ـ ولكنى أحب أن أقدم لك شيئا ..

ـ قدم لى هدايا عندما تريد ..

ـ قد تكلف أكثر ..

ـ هدية بعشر جنيهات منك تساوى عندى الكثير . أننا من سن واحدة ندخل الحياة من باب واحد ويبدو أن الصلة بيننا ستطول ..

ـ ومن يدرى ربما تدوم ..

ـ يارب .

ـ كل شيء بأمره ..



قالت الهام لأبويها فجأة :

ـ ألم تلاحظ يا بابا وأنت يا نينا اننا مقصرون جدا مع عمى سويلم ومجدى .

ونظرا اليها ثم تبادلا النظرات ، وفهمت الهام تماما ما تحويه نظراتهما ، وربما أحست أن كلا منهما يقول فى نفسه ما كل هذه الجرأة من الفتاة ، ولكنها أكملت حديثها متظاهرة أنها لم تفهم شيئا على الاطلاق ...

ـ أليس عمى سويلم هذا ابن بلدك يا ماما وهو الذى زوجك من بابا وأنت يا بابا أليس أقرب اليك من أخ . كيف ينجح مجدى فى بكالوريوس الهندسة ولا تدعوان العائلة الى عشاء على الأقل ؟

وتبادل الأبوان النظرات مرة أخرى واضطر فؤاد أن يقول :

ـ والله يا بنتى الك حق .. ولكن ..

وقالت وهيبة :

ـ ولكن ماذا يا فؤاد ؟ كان يجب أن نفعل هذا فعلا ..

وقالت الهام :

ـ بل اننى حتى أراكما تأخرتما . ان المناسبة الآن ستكون مناسبتين .

وصاح الأبوان فى دهشة حاولا ألا تبين :

ـ ماذا ؟ !

ـ طبعا ..

ـ وكيف ؟

ـ ألم يعين مهندسا فى السكة الحديد . أليست هذه مناسبة أيضا ؟

ـ واسترد الأبوان هدوءهما وقالت وهيبة :

ـ والله لك حق ..

ـ وماذا تنتظرين ؟

ـ ما رأيك يا فؤاد ؟

ـ ادعيهم على العشاء .

ـ متى ؟

ـ متى شئت ..

ـ اليوم الاثنين ... أيوافقك الخميس ؟

ـ يوافقنى طبعا ..

وقامت وهيبة الى التليفون وأرادت أن تتكلم فقال فؤاد :

ـ انتظرى يا وهيبة ..

ـ مــاذا ؟

ـ أنــا سأقابل ســويلم اليوم وسأسأله ان كان يوم الخميس يوافقه وبعد ذلك كلمى أنت نعمات ..

وقالت الهام :

ـ يا ســلام ... وفيم كل هــذا وكأنك تدعو شخصــا لأول مرة . انهم فى كثير من الأيام يأتون بلا عزومة .. على كل حــال أنــا قلت رأيى وأنتما حران ..

وقامت الى حجرتها ، وقال فؤاد :

ـ ما هذا الذى تقوله ابنتك ؟

ـ ربما يا أخى زهقت وتريد أن تعرف راسها من رجليها .

ـ أيعنى هذا أن نقول لهم تعالوا اخطبوا بنتنا .

ـ والله أنــا الأخرى زهقت ..

ـ ومن أجل هذا جريت الى التليفون .. ؟

ـ اذا كانت البنت تكلمت ألا تتحرك نحن ؟

ـ فكرى قليلا فى الأمر ..

ـ والله لو كانوا أغرابا علينا لكان كلامك هــذا معقولا ، ولكن سويلم ونعمات أخوات .

ـ مهما يكن الأمر اذا كان هما لم يتكلما ...

ـ والله لك حق ، ما الذى جعلهما لا يتكلمان ...

ـ كل بيت له أسراره ..

ـ الا بيت سويلم . فليس فيه أسرار علينا أبدا ..

ـ لكل بيت أسراره .

ـ على كل حال نحن وعدنا الهام أن تكلم وندعوهما ..

ـ ألا نفكر قليلا ؟

ـ اسمع ..

ـ مـاذا ؟

ـ ما رأيك لو جعلناها مكالمـة عادية ؟

ـ ما معنى عادية أنـا أكلم سويلم يوميا وأنت تكلمين نعمات يوميا . ما عادية هذه ؟

ـ أقصد دعوة عادية ..

ـ كيف ؟

ـ سترى ..

قامت الى التليفون ولكن فؤاد يقول لها :

ـ يا شيخة انتظرى ... انتظرى حتى نتفاهم ..

ـ نتفاهم فى ماذا ... أى عجيبـة أن ندعو سويلم ونعمـات ومجدى على العشاء . انتظر سترى ..

وطلبت الرقم ..

ـ آلو ... نعمات ... كيف أنت اسمعى . فؤاد وأنـا قلنا مرة واحدة كدا فى نفس واحد ، لكم زمان لم تتعشوا معنا . هـل عندكم حاجـة يوم الخميس. تتعشى معا ، وقولى لمجـدى اذا لم يكن

مرتبطا يأتى يتعشى معنا أم ترى نفسه كبرت بعد أن أصبح مهندسا .
مجدى ابنى أكثر منك . أنـا أمه وأستاذته . سـويلم بجانبـك .
اسأليه . عال ... نحن فى انتظاركم ..

وأقفلت التليفون وهى تقول لفؤاد :

ــ هيه ما رأيك ؟

ــ لا بأس ... والسلام ..

***

قـال سويلم :

ــ ماذا سنقول لهم ؟

ــ وهل أعلم ..

ــ الجماعة يستعجلون الخطبة ..

ــ لهم حق ... الولد أخذ الشهادة وعين أيضا ماذا ننتظر ؟

ــ وماذا قالت لك عن مجدى ؟

ــ بعيد عنك كلام جعلنى فى نصف هدومى . ابنى وأنـا أمه وأستاذته وكلام يجعل اللقمة تقف فى الزور ..

ــ نعتذر ..

ــ أمرك ..

ــ وافرضى اعتذرنا هذه المرة ماذا سنفعل المرة القادمة ؟

ــ والله لا أعلم ..

ــ اسمعى نحن نذهب ونقول لمجدى يأتى معنـا وكأن الأمور طبيعية وبعد ذلك أكلم مجدى مرة أخرى وربنا يعمل ما فيه الخير ..

ـ أمرك ..

***

كانت الهام تعلم أن سويلم وزوجته يناماان فى القيلولة ومجدى لا ينام . طلبت فى القيلولة من حجرتها متحرية ألا يسمعها أبواها ..

ـ مجدى ؟

ـ نعم .. من الهام ... أهلا الهام ...

ـ اسمع يا مجدى أنتم مدعوون عندنا يوم الخميس ...

ـ نعم أعرف ..

ـ أريدك أن تأتى ..

ـ هل هناك شىء ؟

ـ أنا أريدك أنت بالذات، أن تأتى . أرجوك من أجل خاطرى لا تعتذر ..

ـ أنا كنت آتيا على كل حال ...

ـ أعرف وانما أردت أن أتأكد . أرجوك لا تعتذر لأى سبب ..

ـ يا سلام يا الهام أنت تعرفين مكانتك عندى ولا أستطيع أن أتأخر عنك مطلقا ..

ـ أعرف هذا . شكرا يا مجدى هذا ما كنت أنتظر فعلا ...

***

جلس الجميع فى انتظار العشاء وكانت تعده لهم الحاجة رشيدة التى لا يغيب عنها خبر فى بيوت المنطقة كلها . فمطبخها منتدى الخدم الذين يجاورون العمارة جميعا . وفى هذا المطبخ عرفت قصة

سبيجة كاملة بكل تفاصيلها • والحاجة رشيدة هى التى ربت الهام منذ هى رضيع فهى لا تخفى عنها شيئا ••

كانت الأسرتان اذا اجتمعتا لا يجد الكلام فرصة يهدأ فيها • فالأخبار تتوالى بينهم والتعليقات لا تكف عن كل شخص وعن كل موضوع •

أما فى هذه المرة فالكلام يتعثر قبل أن يخرج والصمت يجد لنفسه مكانا متسعا وبعد كل فترة يصيح سويلم وكأنه صاحب بيت :

ـ يا أمه رشيدة متنا من الجوع يا امه رشيدة ••

وفؤاد يتصايح معه فى مزاح لا يجرؤ أن يكون طبيعيا ، وتختلس الهام وهى مدركة للموقف كل الادراك نظرة الى مجدى فتجده متحرجا غاية فى الحرج ، فعلى وجهه وجمة تتشح لتكون تظاهرا بالسرور ، وعلى فمه ابتسامة يحاول أن يثبتها على شفتيه فتنفلت منه تريد أن تغوص فى أعماقه مرة أخرى • ونعمات فى سذاجتها الطيبة حائرة لا تعرف كيف تتصنع أى شىء ومن ينعم النظر اليها يجدها مستسلمة فى خضوع لما يجرى حولها لا تملك حولا ولا قوة • أما وهيبة فداخلة خارجة من حجرة الاستقبال توهم الجميع أنها تساعد رشيدة فى اعداد العشاء وهى فى الواقع لا تصنع شيئا الا المشى بلا غاية تحاول أن تجعله يبدو كأنه اهتمام بمن عندها من أعزاء فتفشل محاولتها فشلا ذريعا •••

ويأتى العشاء أخيرا ويتناولونه ازدرادا بلا حديث الا تعليقات متناثرة تؤكد الجو الحرج الذى يخيم على الجلسة كلها وعلى من فيها جميعا •

ويعودون الى الصالون وفى اهتمام شديد تقول الهام :

ـ قهوة عمى سويلم يا داده رشيدة وشاى مجدى وقهوة بابا ...

ويقول فؤاد فى محاولة تظرف :

ـ حسبتك نسيت بابا ..

وتقول الهام فى تلحين مازح :

ـ أنا أنسى الكل ... أنسى الكل علشانك ...

ويضحكون .

وتصيح الهام :

ـ أخيرا ..

وتقول وهيبة :

ـ أخيرا ماذا ؟

وتقول الهام :

ـ أخيرا ضحكتم ..

فتعيد هذه الملاحظة الوجمة الى وجوههم جميعا ... وجمة ذاهلة فقد تبين كل منهم أن تصنعه كان مكشوفا ..

وتقول الهام :

ـ أنا منتظرة هذه الضحكة من الصبح لأتكلم ..

ويقول فؤاد :

ـ تتكلمين ؟

ـ وأنتم جميعا ولامؤاخذة تصمتون . أولا يا عمى سويلم أنا

التى عملت هـذه العزومة لأن المسألة بينكم أصبحت مضحكة محزنة بشكل لا يمكن السكوت عليه ٠

وتصيح وهيبة :

ـ بنت ٠٠٠

وتقول الهام :

ـ أرجوك يا ماما هذا الوضع لابد أن ينتهى الآن وفورا ، ولن أتكلم كثيرا حتى لا أعذبكم أكثر من عذابكم ٠ أى عفريت وسواس خناس جعلك أنت يا عمى سويلم وأنت يا خالتى نعمـات وأنت يا بابا وأنت يا ماما تظنون أن مجـدى يريد أن يتزوجنى أو أننى أريـد أن أتزوج مجدى ٠٠

وتصيح وهيبة :

ـ الهـام ٠٠

وتمضى الهام فى حديثها كأنما لم تسمع شيئا :

ـ هل خلقتم أخشابا أم آدميين ٠ أليس من حقنا ونحن من بنى الانسان الذى حمله ربه أمانة الاختيـار أن يختار مجدى عروسـه وأختار أنـا زوجى ٠ من قـال لكم أن اتفاقكم الهامس يسرى علينا ويجعل مجدى يختـارنى ويجعلنى أنـا أختـار مجدى ٠ مسـكين يا مجدى ومسكينة يا أنـا ، ظللنا عمرنا كله نتحمل اشاراتكم الخفية والابتسامة ترتسـم على وجوهـكم اذا سألت مجـدى عن امتحانه أو قدمت له برتقالة على طعام أو طلبت له فنجان شاى وكنت أنـا وهو نلاحظ هذا وتلتقى منا العيون رغم أنفينا ونصمت فى ألم ونتحمل فى صبر ٠ وهو يعلم وأنـا أعلم سخافة هـذا الذى تصنعونه ٠ والحرج عنده أشـد ألف مرة مسكين ٠ فهو رجل ولولا أنه يعرف مشاعرى لكان لا يدرى ماذا يفعل ٠ فهو رجـل عظيم وانسـان حساس وكل

المزايا فيه ولكننى أنـا لم أختره وهو لم يخترنى • ربما كان يختارنى أو أختاره لو لم يشعر كل منا أنه مفروض على صاحبه • أنتم باتفاقكم السرى واشارتكم التى كنتم تظنونهـا فى غاية الذكاء وهى لم تكن كذلك ••• أنتم الذين باعدتم بيننا • ثم كيف يخطب هو أو أقبل أنـا أن نتزوج ونحن نحس عمرنا كله أننـا اخوة • بيته بيتنـا أطلب فيه ما أشاء من أكل وشرب وهو أيضا يشعر أن بيتنا بيته • ليست الأخوة صلة رحم فقط وانما كثيرا ما تكون أقوى بطبيعة الصـلة بين الناس بعضهم وبعض مثل الأخوة التى بينكم أنتم الأربعة • كيف تتصورون أن يتعلم مجدى فى الجامعـة وأتعلم أنـا فى الجامعـة ثم تتحكمون أنتم فينا • النهاية أنـا ومجدى متفقان اتفاقا له الآن سنوات بعيدة لا أذكر منذ متى ودون أن نتكلم أننا لن نتزوج فاذا كان عندكم وسيلة لتزويجنا غصبا عنا فالأمر لكم ••

وساد الصمت ولم ينبس أحد بكلمـة وقالت نعمات فى رعونة وفى محاولة انقاذ :

ـ مجدى قل شيئا ••

وفى رجولة وثبات قال مجدى :

ـ لقد قالت الهام كل شىء وان كان هنـاك ما أقوله فهو فعل لا قول •

وقام مجدى وأمسك بيد الهام وصافحها قائلا :

ـ أنت أشجع منى • وأنـا أعرف أخلاقك العظيمة كل المعرفة وانما لم أكن أتصور أنك رائعة الى هـذه الدرجة أنـا أحييك ••

وقـال سويلم :

ـ ولكن يا بنى ••

وقال فؤاد وقد أحس أن الصـلة بينه وبين سـويلم عادت الى طبيعتهـا :

ــ ولا كلمة يا سويلم • العيال علمونا درسا كان يجب علينـا نحن أن نعلمه لهم • ولكن يا أخى لابد أن نعترف أن العلم شىء عظيم والثقافة قيمة كبرى • وأنـا وأنت لم تتخرج فى الجامعة • فأن يعلمنا أولادنا أكرم لنا ألف مرة أن يعلمنا الأغراب • •

ويضحك الجميع ويقول مجدى لأمه :

ــ الآن يا نينا تستطيعين أن تزغردى ••

ــ تدهش نعمات •

ــ أزغرد •• أزغرد على أى خيبة ••

ويقول مجدى :

ــ زغردى أنكم أخوات كما كنتم دائما وأن أصغر عضـو فى الأسرتين حلت المشكلة بكل عقل وبكل شرف ، وحياتى عندك يا ماما زغردى ••

ــ وتزغرد نعمات ثم تقول :

ــ الأمر لله •

وتعود الأسرتان الى مألوف عاداتهما من الضحك والتعليقـات ، ويحس الجميع أن السحابة أمطرت ماءها ولم تصب أحدا بالبلل •

١٤

قال علوان سلطان :

ــ حمدى ما أخبار فكرى وألفت ..

ــ يلتقيان كل ليلة ..

ــ أتظنني لا أعرف هذا أما أنك عبيط ، انما يلتقيـــان فى شقتى يا أســـتاذ ..

ــ لا مؤاخذة ... اذن فأنت تسأل عن ... عن ..

ــ عن مدى تعلقه بها ..

ــ أظنه متعلقا بها كل التعلق ..

ــ أنـــا أريده يجن بها ..

ــ لقد قارب على هذا .

ــ اذن اسمع ..

ــ تحت أمرك ..

***

قال حمدى لفكرى :

ـ ألم يأت الأوان أن تقدم هدية لألفت ؟

ـ نعم لكن من أين . أنت تعرف، البئر وغطاه .

ـ البئر الذى تتكلم عنه لا ينفعنا .

ـ لقد ذكرتنى ... من أين لك كل هـذه الأموال . بالأمس ألبست سعدية عقدا بألف جنيه . وأنـا أعلم أيضا أن أباك يعطيك مائتى جنيه كمرتب ..

ـ مرتب أبى هذا يصلح لليلة واحدة ناشفة .

ـ فمن أين ؟

ـ أنـا أشتغل ..

ـ فيم ؟

ـ لا شأن لك .

ـ لا شأن لى أنـا يا حمدى ..

ـ ألم يقل لك هشام شيئا .

ـ لا .

ـ انه يساعدنى .

ـ منذ متى ؟

ـ من زمان حتى وهو فى المدرسة .

ـ أيساعدك فى الفراغ عند أبيك يا ابن المنجد ..

ـ قبل أن تقل أدبك اسأل .

ــ أنت لا تريد أن تجيب .

ــ الليلة نلتقى عند علوان بك ..

ــ وهو كذلك .

ــ قل لى ... هل كلمك أبوك أو كلمتك أمك عن السهر ..

***

قالت وهيبة :

ــ أمعقول هــذا يا فــؤاد ... الولد ســهران كل ليلة لوش الصبح .

ويضحك فؤاد :

ــ أى ولد ؟

ــ عجيبة ..

ــ حسبتك تقصدين فكرى ..

ــ يا رجل أتستعبط . طبعا أقصــد فكرى . وهل عندنا ولد غــيره ..

ــ اذن فأنت العبيطة .

ــ أنــا ؟

ــ فكرى لم يصبح ولدا . فكرى زملاؤه تخرجوا فى الجامعــة وهو الآن يعمل تاجرا . وفكري ليس متزوجا ولا هو مرتبط بمذاكرة فان لم يسهر فماذا يصنع ؟ هذا هو الطبيعى ..

ــ الطبيعى ... هــذا هو الطبيعى ... لقد ظللت بعد زواجك الأول الى سن الأربعين أعزب فى بيت أبيك أكنت تسهر كل ليلة ؟

ـ لو لم تكونى خريجة جامعة لما دهشت لما تقولين ...
الزمن غير الزمن . أنا ظللت الى أن مات أبى لا أجرؤ على التدخين أمامه ، وكنت رجلا وتجاوزت الأربعين وعندى المحروس فكرى . الآن الآباء يصبون الويسكى لأولادهم .

ـ ولكننى أخاف عليه ..

ـ أتخافين على رجل مكتمل ..

ـ أتصدق أننى لا أستغرق فى النوم الا اذا جاء هو ؟

ـ أصدق لأننى مثلك ولكن ماذا نفعل ؟

ـ نقول له ..

ـ واذا تبجح فى الكلام وقال أنا رجل وأنا حر ؟

ـ ألا يأخذ مصروفه منك ؟

ـ طظ . انه يستطيع من بكره أن يعمل مع حمدى الفنجرى ولا يحتاج الى ولا الى مصروف . اسمعى يا وهيبة . التجارة علمتنى أن العملية التى لا أقدر عليها أتظاهر بأننى لا أعرف عنها شيئا .

ـ تقصد ..

ـ أقصد أن تتظاهر أننا نظن أنه يأتى الى البيت بعد نومنا مباشرة .

ـ أيصلح هذا ؟

ـ أولا يصلح وهل نملك شيئا آخر ؟

وتطرق وهيبة فى أسى وهى تقول :

ـ لا ... فعلا لا نملك شيئا آخر ..

***

قـال علوان :

ـ أهلا فكرى باشا ..

ـ اذا قلت لى أنت يا باشا فماذا أقول لك ؟ يا سمو الأمير !

ويضحك علوان ملء فمه ويقول :

ـ أنـا أريدك باشا فعلا ..

ـ أنـا طوع أمرك .

ـ أنت تذهب كل ليلة الى الكباريه ..

ـ نعـم .

ـ لا تعجبنى جلستك هناك ..

ـ لمـاذا يا سعادة البك هل عملت شيئا ..

ـ الذى لا يعجبنى أنك لا تعمل شيئا ..

ـ مثل مـاذا ؟

ـ عقد ورق لهذه الراقصـة .. هدية لهذه المغنية . تحية لهذا . كأس ويسكى لآخر .

ـ ولكن يا سعادة ... ولكن ..

ـ أعلم . اسمع .. أنت وحمدى ستذهبان غدا فى عمليـة من أجلى ستتم وتعال قابلنى بعدها .

ـ أمرك ..

ـ واسمع ..

ـ نعـم ..

ـ خذ هذا أبقه معك .

ـ ما هـذا يا سعادة ... ؟

ـ مفتاح الشقة التى تذهب اليها كل ليلة دون رحمـة أو شفقة لدرجة أن الشقة كادت تقدم لى استقالة فهى ليست متعودة على العمل يوميا . أبق المفتاح معك . فقط اسمع ..

ـ نعـم ..

ـ يكون معك دائما لأنك لا تأمن أن أطلبـه منك على غـير انتظـار ..

ـ أمرك يا سعادة البك وألف شكر ... أطال الله عمرك .

ـ مع السلامة .

***

فى السيارة قال فكرى :

ـ علوان بك بحاله يحتاج الى سيارتى المسكينة هذه ..

ـ كل الحاجة ..

ـ أنـا أعتقد أن عنده بدلا من السيارة عشر سيارات .

ـ وعشرين اذا أراد ..

ـ اذن فما حاجته الى ...

ـ سيارة لا يعرفها أحد ..

ـ مـاذا ؟

ـ ألم تسمع ؟

ـ سمعت ولكن مازلت مندهشا ..

ــ سيارتك باســم شخص ابن تاجر كبير واســمه لايمكن أن يتطرق اليه شك ••

ــ شك فيم ••• الى أين سنذهب ؟

ــ ألم تفهم ؟

ــ الآن أكاد أفهم ••

ــ اذن •

ــ مصيبة •••

ــ وأى مصيبة فى هذا ؟

ــ جناية •• أشغال شاقة مؤبدة ••

ــ كلام فارغ ••

ــ استعملتهــا كثيرا وعــلوان بك يريدهــا أن تختفى بعض الوقت ••

ــ ألا تخاف يا حمدى ؟

ــ اذا خفت أحرم من هــذه الحيــاة التى أعيشــها والتى لم يصــل اليها أبى أو أبوك الا بعد أن شاخ كل منهما وأصبح لا يعرف كيف يعيش ••

ــ ولكن أبى وأباك يعيشان فى أمان ••

ــ الدنيا مغامرة والفلوس اذا لم تأت اليك وأنت فى عز الشباب فلا داعى لها •

وسكت فكرى لحظات ثم قال :

ــ عندك حق •

ـ أتدرى كم آخذ فى العملية الواحدة ؟

ـ كم ؟

ـ خمسة آلاف جنيه ..

ـ يا نهار أسود .

ـ وأنـا ؟

ـ ستأخذ مثلى وربما تأخذ أكثر فى أول عملية ..

ـ لم أمسك مثل هذا المبلغ فى حياتى ..

ـ ستمسكه وترميه أيضا .

ـ قل لى أين هشام ؟

ـ لا أدرى . له أيام لم يكلمنى وكلما سألت عنه قال أبوه أنه مسـافر ..

ـ عجيبة . أنـا أيضا لم أره منذ بضعة أيام ..

١٥

حين عين مجدى بالسكة الحديد كان طبيعيا وقد عرفوا أنه يسكن المعادى أن يعمل مهندسا بخط حلوان ، وكان طبيعيا أن يلتقى بالأستاذ درديرى اسماعيل المسئول الادارى عن قطع الغيار التى لا يستطيع مهندس أن يعمل بدونها . وكان طبيعيا أيضا أن يتحدثا معا عن الأصدقاء المشتركين لكليهما . وعرف الأستاذ درديرى أن مجدى يعرف ابنه وأنهما كانا فى مدرسة واحدة . وأحس مجدى الفجيعة التى يشعر بها الأستاذ دردیری أن ابنه يتعثر فى المدارس ، وأنه حين نال الثانوية العامة نالها بلا مجموع وأنه اما أن يعيد السنة أو يبحث عن معهد . ويقول دردیری :

ـ بعيد عنك يا باشمهندس التأم مع اثنين صائعين لا يتركهما ولا يتركانه .

ويقول مجدى :

ـ تقصد فكرى فؤاد وحمدى الفنجرى .

ـ قطعا .

ــ ولكن هــذين لهما أبوان يستطيعان أن يجعــلاهما يعملان بالأعمال الحرة .

ــ ولهــذا جاءنى منذ كم يوم يقول لى أنه ســيعمل مع الولد الفنجرى فانفجرت فيه يا باشمهندس وأقسمت بالطلاق أننى ان سمعت اسم واحد منهما فى البيت سأطرده وأجعله يضيع فى الشوارع ..

وقــال مجدى :

ــ ألم تتعجل بعض الشىء يا عم درديرى ؟

ــ مطلقا ..

ــ ألا تخشى أن يعمل مع الفنجرى ويترك البيت فعلا ؟

ــ يا نهار أســود ... فعلا ... الولد لم يطلب حتى مصروفا منذ أكثر من شهر ... فعلا .

ــ خففت الوطأة عليه بعض الشىء .

ــ لا حول ولا قوة الا بالله . اذن من أين يأتى بالفلوس ؟

ــ ألا تعرف . أغلب الأمر أنه يعمل مع صديقه . وأى بأس فى ذلك ؟ المسألة لا تستاهل كل هذا الغضب .

ــ يعمل مع صديقه ؟ وهل صديقهِ يعمل ... انه ضائع يأخذ مرتبا من أبيه بلا عمل ، هــذا لأنه أبوه ... أتراه سيعطى ابنى هو أيضا بلا عمل ؟

ــ ولمــاذا بلا عمل يا عم درديرى ... قد يكون حمدى رجــا أباه من أجل صديقه واشترط الأب أن يعمل هشام .

ــ على الله ... على الله ... على كل حال بلاء أخف من بلاء .

١٦

أقيم فرح رائع للمهندس مجدى أبو الروس نجل الوجيه الأمثل سويلم أبو الروس على ذات الصون والعفاف الآنسة سميحة فريد كريمة السيد الأستاذ فريد عبد القادر وازدحم المكان بالمدعوين يستقبلهم فريد وسويلم وفؤاد وزوجاتهم • فوهيبة ما زالت تعتبر أن الفرح فرح ابنها • وتمت الزفة ودقت الطبول والمزامير وقدم الفنانون ما لديهم • ولكن فى هذا الزحام رجل يجلس لا يحس من حوله شيئا ، الدنيا حوله دوار والفرح ضجيج والحياة يأس والغد سواد وهو يريد أن يقول ما جاء من أجله ويمضى ولكن هيهات وكيف له أن يصل الى ما يريد •

زحام هو الفرح ، والعريس والعروس دمى تحركهما أيد يعرفانها ولا يعرفانها ، وكل من فى الفرح يجد له شأنا يلهيه •

يتصل الحديث ان هدأت الموسيقى وينقطع اذا هدرت الا ملحوظة عابرة أو نكتة رفضت أن تنتظر الهدوء ، ولكن الرجل لا يكلم أحدا ممن حوله ولا حتى زوجته فهى لا تدرى أنه جاء لمهمة وانما تظن أنه

لبى دعوة زميله فى العمل وأبى أن يتخلف • وكلما ازداد الفرح امعانا فى السعادة ازداد الرجل امعانا فى الشقاء • والأستاذ درديرى اسماعيل لم يأت من أجل الفرح ولا من أجل أن يهنىء زميله مجدى ولا ليرفه عن زوجته التى لا تكاد تخرج • لشىء آخر بعيد كل البعد عن هـذا جميعا جاء دردير وكان شأنه عجبا كيف تصورت أننى سأستطيع أكلمه اليوم أهـذا معقول • أيمكن أن أكلمه فى أمر كهذا فى فرح هو فيه العريس • أليس الأجدى أن أقوم الآن • يا ليلة سـوداء أقوم الى أين • واذا قمت أين أجده بعد هـذا • لا يعقل أن أكلمه الليلة وهو عريس فالمستحيل المؤكد أننى لن أكلمه غدا • وأين يمكن أن أكلمـه غدا ثم هو بعد ذلك فى شهر العسل • عسل أسود • والرجل ما ذنبه • أكان لابد أن يتزوج الليلة • الليلة بالذات • الليلة التى عرفت فيهـا الحقيقة السوداء • كله أسود والدنيا كلها سـواد • فى أفراحها سواد وفى صباحها سواد وفى مستقبلها سواد • أهذا جزائى • كل هـذه السنوات من الطهارة وعفة اليد والسمعة الكريمة •

نحن جيل لا مثيل له فى سوء المصير • استقبلنا شبابنا فى الظلام حين فرضت الحرب منع الاضاءة • وحين انتهت الحرب العالمية دخلنا نحن حرب ٤٨ وحين انتهت جاءت الثورة فتعلقت بها آمالنا فاذا هى تخذلنا فى الحرية أعز آمالنا ، ثم أفقرت الأغنيـاء ولم تغن الفقراء • وهاجمت السرقة وعدم الأمانة وكان رجالها من أكبر رجال العصابات فى السرقة وعدم الأمانة • وقلبت القيم عند أبنائنا وأصبحت عفة اليد والسمعة الكريمـة التى أتغنى بها خرافـة عند ابنى مادمت لا أستطيع التغنى بالشرف بالأموال الطائلة • وجيلنا نحن أغلبه عرف الشرف قيمة يلتزم به لأنه جزء من كيانه وخلقه لا يتصنعه أو يرغم نفسـه عليـه بل هو جيل فى أغلبه يتصـور أن الشرف هو الأصـل والجريمـة استثناء فى خلق المجتمع لا أصل فيه • ويضحك أبناؤنا من أفكارنا ، وتتقزز نحن من أفكارهم فلا هم قادرون على قبولنا ولا نحن قادرون

على فهمهم • وكنت تعلقت بأمل أن يتثقف ابنى ويعرف أن الشرف غاية فى ذاته وليس من الحتم أن يكون وسيلة وأن الشريف يستطيع أن يكون شريفا دون أن ينتظر على شرفه جزاء أو شكرا • لأنه نال الجزاء براحة الضمير وهدوء النفس وأمن المشاعر • ولكن ابنى رفض الثقافة أيضا وكان أملى الوحيد أن تنقذه من السمات الغالبة على جيله • وكان هذا الذى جئت من أجله الى هنا • وكان مجيئى نوعا من السذاجة فقد ظننت فى سذاجة أن الانسان يمكن أن يكلم عريسا فى يوم فرحه • انها على كل حال تجربة لم أحاولها من قبل ، ففى كل الأفراح التى حضرتها أخيرا كنت أدخل مع الداخلين وأخرج مع الخارجين ولا يدور بذهنى أن أكلم العريس • فمنذ قرابة عشر سنوات لم أحضر فرحا العريس فيه هو الصديق الداعى • انما يكون الداعى دائما أبوه • فكيف كنت أتصور أننى سأفشل هذا الفشل • وما العمل الآن • لا شىء الا الصبر • وهل أستطيع • وهل نملك شيئا آخر • فما بقائى الآن • أما الفرح فلا يصلح لى وأما الضجيج فكارثة بالنسبة لى ، وأما العريس فلن أستطيع محادثته وحسبى الله ونعم الوكيل •

ـ قومى يا روحية ••

ـ الى أين يا درديرى ؟

ـ الى بيتنا •

ـ وتترك الفرح •

ـ وهل سنرقص فيه • لقد دعينا فأجبنا وجاملنا زميلنا •

ـ ففيم كان لبسى وتجميلى ؟

ـ اغسلى وشك يروح كل شىء لحاله • قومى بنا • •

***

كانت ألفت ضمن الراقصات فى الفرح واستطاع فكرى أن يخلو اليها لحظات .

ـ متى سترقصين ؟

ـ الآن .

ـ ثم ..

ـ سأذهب الى الكباريه .

ـ الليلة أبى وأمى سيسهران هنا حتى الصباح أنتظرك فى الشقة ..

ـ الليلة لا يمكن .

ـ لماذا ؟

ـ عندى موعد آخر .

ـ ماذا ؟

ـ ماذا ؟

ـ ماذا تقولين ؟

ـ لاشك سمعت ..

ـ ألا تخجلين ؟

ـ مم ؟

الا تقدرين هذا الذى تقولين ؟

ـ أولا لا ترفع صوتك . وكلمة أخرى سأتركك أو سأفضحك .

وهمس فى غضب مجنون :

ـ أمعقول هذا ؟

ــ ألم تعرف صنعتى من أول يوم ؟

ــ راقصــة .

ــ وحين ذهبت معك الى الشقة كنت راقصــة ... اسمع .. الكلام هنا مستحيل .

ــ لا يمكن أن تذهبى الى موعد الليلة .

ــ أكنت تعتقد أنك الوحيد طوال هــذه المدة . أما عجيبة . غدا ... غدا ألقاك فى الشقة .. مع السلامة .

وتركتــه ومضت . بنت الكلب كيف تجرؤ . منــذ يومين فقط أحضرت لها هدية بخمسمائة جنيه . وتقول أنها تحبنى . أى نوع من الحب هــذا . بنت الكلب . لا أراها بعد ذلك أبدا . النسوان أمثالها على قفا من يشيل . بنت الكلب ولكنى أريدها هى . أحبها . وهى تعلم . كيف سأراها غــدا ؟ لن أذهب اليها . وماذا يهمها هى . ان ذهبت أو لم أذهب . ما بقــائى فى الفرح الآن . انــه عندى أصبح مأتم حبى ... عامــل لى أديبا يا حبيبى . حبك لم يمت ولكنــك لم تعرف الغيرة قبل اليوم والله لايمكن . لايمكن أن أسمح لها أن تلعب بى مطلقا . كيف أستطيع أن أتحكم فيها . أقتلها . هائل . وماله ألم تصبح مجرما محترفا . ترقى ونصبح قتلة أيضا . هائل . سترى .. سترى بنت الكلب .

***

هذا الفرح وهذه السعادة على وجه العروسين أنــا التى صنعتها . أنــا وحدى التى جعلت هــذا الفرح قائما معلنا لا يتخفى ولا يحزن فيه أهله ولا أهلى .. لم يكن مجدى بالنسبة لى حبيبا .. كان يمكن أن يكون عريسا ولم أرفضــه فى أول الأمر ولم أقبله لأننى مع أهلى أخذت الأمر قضية مسلما بها . ولكن ما لبثت أن أفقت على الحقيقة ..

لقد كنت أرى تقربــه لسميحة وتقربهــا له وانتظرت لأن الكلام فى الزواج كان فى غير موعده على كل حال • وحين نال مجدى الشهادة أدركت أننى لابد أن أعلن رأيى •• فقد كنت أصبحت موقنــة أنه يحب سميحة وأنها تحبه • ولم أشعر أنــا نحوه الا بمثل حبى لفكرى أخى لا أكثر ، ولا أظــن أن الحب يمــكن أن يــكون كذلك • ان ما صنعته لم يسمع أحد بمثله • وما أظن أننى سأكون سعيدة فى يوم فرحى سعادتى اليوم بنظرات العروسين لى كلما التقت منا النظرات • أرى فى ضيائها الوضىء الشكر والحب والعرفان والاعجاب • أى شىء أجمل من كل هذا •

١٧

قبل أن تجلس سألها :

ـ هل ذهبت الى موعد الأمس ؟

وجلست فى هدوء وأشعلت سيجارة وقالت :

ـ اسمع أنـا لم أذهب الى موعد الأمس لأننى أحبك ولم أرض أن أكسر كلامك •

ـ هل متأكدة أنك لم تذهبى ؟

ـ أنت غبى ••

ـ هل جننت ؟

ـ لو كنت أكذب عليـك ما قلت لك بالأمس أننى ذاهبـة الى موعد • هناك آلاف الأعذار •• أستطيع أن أختلقها ••

ـ لك حق ••• ربنا يطيل لى عمرك ••

ـ لا ••• انتظر ••• الأمر لم ينته بعد •

ـ كيف ؟

ـ أتظن أننى لن أذهب الى مواعيد أبدا ..

ـ اذن تنوين أن تذهبى ؟

ـ لا شك فى هذا .

ـ أهذا معقول ؟

ـ هذا أكل عيش .

ـ ألا يكفيك الكباريه ؟

ـ فكر فى الكلام الذى تقوله . أى شىء يمنعنى الآن أن أقفل فى وجهى بابا من رزق مفتوحا على مصراعيه .. ما الذى يمنعنى ؟

ـ الحب .

ـ المـاذا ؟

ـ الحب طبعا .

ـ وما شأن الحب بهذا . الحب فى القلب وأنـا أحبك الآن ولكن لا أدرى غدا ما مصير هذا الحب .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعنى أنك ما دمت لست بزوجى فأنا عرضـة لأن أحب غيرك طبعا . حبى لك الآن هواية ، ولكن أنـا امرأة الحب عندى حرفـة ولا أدرى ربما أجد هوايتى مع شخص آخر .

ـ اذن فأنت تريدين الزواج ؟

ـ اذن أنـا الذى أريد ؟

ـ نعم أنت .

ـ أنـا ؟

ـ طبعا أنت .

ـ هل يمكن هذا ؟

ـ هذا شأنك ... يمكن أولا يمكن هـذا شأنك أنت فأنا لم أطلب منك شيئا .

ـ وهذا الذى تقولينه ؟

ـ الحقيقـة .

ـ حقيقة سوداء .

ـ سوداء أو بيضاء .

ـ ما هى هذه الحقيقة ؟

ـ الحقيقة أننى لا أمانع أن تستمر علاقتنا على ما هى عليه .

ـ وتمتنعين عن لقاء غيرى ؟

ـ أقول لك على ما هى عليه . وأنـا ألتقى مع غيرك لأن هذه هى طبيعة حياتى ، اذا أردت أن تغير حياتى فلابد أن يكون هنـاك سبب معقول .

ـ أتزوجك كيف ... ماذا أقول لأبى ولأمى ؟

ـ هذا ليس شأنى .

ـ اسمعى اتركى لى فرصة لأقول لهما .

ـ أنـا تحت أمرك لكن الى أن تقول لهما تظل العلاقـة على ما هى عليه .

ـ لا يمكن ... مستحيل .

ـ اسمع يا فكرى كن عاقلا وفكر كما يفكر الرجال • اذا أردت الصلة بيننا تستمر كما هى نلتقى كلما سنحت فرصة وبعد ذلك أنا حرة وأنت حر أنا تحت أمرك • تريدنى أن أكون لك فقط لابد أن يكون هناك سبب أبرر به لنفسى انقطاعى عن مورد ضخم من مواردى •

ـ الا أقول لأبى وأمى ؟

ـ ماذا ستقول لهما ؟

ـ أننا سنتزوج •

ـ وماذا سيقولان • حين تقول لهما سأتزوج راقصة أعاشرها معاشرة الأزواج دون زواج • ماذا تنتظر أن يقولا • ألف مبروك ربك يهنيك بها ونريد منكما الأحفاد •

وصمت فكرى فترة ثم قال :

ـ طبعا لا يمكن •

ـ اذن ••

ـ اذن ••

ـ اذا كنت أنت مقتنعا بالزواج تتزوج ثم نجعلهما أمام الأمر الواقع •

ـ وهو كذلك قومى بنا •

ـ الى أين ؟

ـ تتزوج •

ـ وأين سنعيش •

ـ أليس عندك شقة ؟

ـ افرض • اترضى أن تعيش فى شقة كنت ألتقى فيها بغيرك ••

ـ مؤقتـا •

ـ وبعد ذلك ؟

ـ اسمعى • أنـا عندى فكرة •

ـ ما هى ؟

ـ قومى بنا •

***

ـ سـعادة البك •

ـ نعم يا فكرى باشا ؟

ـ أنـا عرفت ألفت فى بيتك فمن حقك على اذا أردت الزواج منها أن أخطبها منك •

ـ صحيح ألف مبروك •• ألف مبروك يا فكرى • هـل أنت موافقة يا ألفت ••• طبعا موافقـة والا لمـا كنت أتيت معه • الليلة تتزوجان هنا ، وأقيم لكما الفرح وتعتذرين الليلة عن الكباريه • أنـا الذى سأعد الفرح بنفسى • والشقة تحت أمرك •

ـ أطال الله عمرك ••

ـ حتى تعد لنفسك شقة • أنت الآن تكسب ألوفا ••

وتقول ألفت :

ـ وأنـا سأؤجر شقتى مفروشة ••

ـ لا يخشى عليك يا بت ••• كيف استطعت أن توقعى الولد فى هذه الفترة البسيطة لا تقولى شيئا • هو الملعون الحب • عرفته •

ويقول فكرى :

ـ انك يا بك تصنعه على يدك . وهـل فى العالم من يعرفـه مثلك ؟

***

تم الزواج وحين رجع فكرى الى البيت كان صوت المؤذن يصيح بالناس « الصـلاة خير من النوم » ولحقت به أمـه بعد أن خـلع الجاكتـة .

ـ سهران للفجر يا فكرى ؟

وفى سرعة وذكاء وجد نفسه يقول :

ـ أنـا أبدا . انتى ألبس لألحق بصلاة الفجر ..

وفغرت وهيبة فاها :

ـ ماذا منذ متى ؟

ـ منـذ الآن يا ماما . كنت بالأمس فى حضرة وتبـين لى أن صلاة الفجر تنشط الانسان وتجعله مبروكا فى كل ما يقوم به من عمل أثناء يومه .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـ وهل قالوا لك فى الحضرة أن صـلاة الفجر جـائزة بغـير وضـوء .

وضحك فكرى ضحكة مغتصبة . وأسعفه ذكاؤه :

ـ أهذا كلام يا ماما . سأتوضأ فى الجامع حتى لا تفوتنى صلاة الجمـاعة .

وأدركت وهيبة كذبه ولكن حلا لها أن ينزل بنفسه ما أراد لها من عدم النوم فقالت :

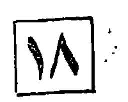
ـ يا بنى ألف مبروك • سأوقظك كل يوم لتصلى ان شاء الله ••
وصرخ فكرى :

ـ لا ••• فى عرضــك • أنــا سأضبط المنبــه فى الأيام التى لا أكون منهكا فيها ••• ان الله غفور رحيم ••

هــذه هى الصفة الوحيدة التى تعرفها •• على كل حال لا بأس ما دمت تعرف صفة من صفات الله • مع السلامة يا بنى ••

ـ مع السلامة يا ماما •

***



مر على فرح مجـدى عشرة أيام ثم لم يستطع دردير انتظـارا وطلب سويلم بمحل تجارته :

ـ صباح الخير يا أفندم أنـا دردير اسماعيل ٠

ـ أهلا وسهلا سعادة البك ٠ أنـا أعرف سعادتك من مجدى ٠٠ أهلا وسهلا ٠

ـ مجدى أخذ أجازة خمسة عشر يوما ٠٠

ـ نعم يا أفندى ٠٠

ـ أينوى أن يقضيها كلها بالاسكندرية ٠٠

ـ والله هو ينوى ذلك انما ان كنت تريده نطلبه ٠٠

ـ لا أبدا شكرا ٠ أنـا فقط أردت أن أطمئن عليه ٠ طبعا ٠ هو بيكلم سعادتك ٠٠

ــ كل يومين أو ثلاثة •• عريس كمـــا تعلم ســـعادتك والعقبى لأبنائك ••

ــ ربنا يهنيه ويسعده ويبارك لى فيه ••

ــ ألف شكر يا سعادة البك ••

المكالمـــة لا تحتمل أكثر من هـــذا ولكنه لم يخرج منهـــا بشىء اضطر أن يبحث عن شىء فوجد نفسه يقول :

ــ المسألة ان فيه ورقة هامة كنت أريد أن يوقع عليها ••

ــ وماله تحت أمرك • أرسلها الى وأنـــا أرسلها مع أحد عمـــال المحـــل ••

لا حـــول ولا قوة الا بالله مـــاذا أقـــول له الآن ••• النهايـــة الأمر لله ••

قـــال درديرى :

ــ أبدا أبدا • حضرتك فقط قل لى اسم الفندق وأنـــا أرسل ساعيا من عندنا ••

ــ هو فى فندق فلسطين بالمنتزه •

ــ ألف شكر يا سيدى ألف شـكر • السلام عليكم ••

***

كان مجدى يستعد للقيلولة حين دق جرس التليفون فى حجرته وأخبره الفندق أن الأستاذ درديرى اسماعيل يريد أن يكلمـــه ، وحين أوصله به :

ــ أهلا درديرى بك مرحبا ••

ــ لا عليك يا مجدى يا ابنى أنــا أقلقت راحتك • ألف مبروك مرة أخرى ••

ودهش مجدى • أيطلبه من القاهرة ليقول له ألف مبروك وهو قد حضر الفرح • أدرك أن الأمر أكبر من هذا بكثير •

ــ يا أفندم أطال الله عمرك •

ــ أنــا أريدك يا مجدى •

ــ أجيء الى القاهرة ••

ــ أنا يا ابنى هنا عندك فى الفندق وأريد أن أكلمك وحدنا ••

ــ لحظات وأكون معك •

***

ــ أكذب لو قلت لك أننى جئت الى الفرح لأهنئك ••

ــ خير يا درديرى بك ؟

ــ بل ليس خيرا مطلقا ••

ــ ماذا •• ماذا حدث ؟

ــ يوم فرحك كنت أبحث لنفسى عن رباط عنق يليق بالفرح لم أجد عندي قلت فى نفسى طبعا هشام عنده كل أربطتى • ذهبت الى دولابه وفتحته بمفتــاح معى فانفتح • وأخذت رباط العنق وهممت أن أقفل الدولاب ولكننى وجدت قمصانه مرتبة ترتيبا غير منسجم فوضعت يدى عليها بصــورة عفوية فسمعت صــوتا لا يتأتى من قمــاش • المهم • وجدت فى دولاب هشام سبعمائة جنيه يا مجدى يا ابنى ، ربنا يعلم ما ألم بى • لم أستطع أن أقول شيئا لأمه • ولم أستطع أن آخذ المبلغ وأسأله لأنه سيكذب على • وجئت لك الفرح خصيصا لأسألك

عما تعرفه عن نشاط فكرى وزفت الآخر لم أستطع أن أنال لحظـة معك ..

ــ أنـا آسف يا عم درديرى ..

ــ وأنت ما ذنبك . رجعت الى البيت ولم يغمض لى جفن حتى الصباح : وتركت العمل وتبعت الولد دون أن يشعر المهم عرفت أنه وفكرى وحمدى متصـلون بشخص فى غاية الثراء . لى ابن عم فى الشرطة تظـاهرت أننى أزوره لغير غرض فعرفت أن الشخص الذى يعرفونه واسمه علوان سلطان من أكبر تجـار المخدرات ، وأنه يستغل الشباب الذى لا يدل مظهره على أية شـبهة وعلمت أيضـا أنه يعمل تاجرا فى الرقيق الأبيض .

ــ يا خبر أسود ..

ــ من جهتى أنـا رجعت الى البيت ووجدت الفلوس فى مكانها. انتظرت الولد حتى جاء وضربته .

ــ ضربتـه ؟

ــ بالحـذاء .

ــ وهو ماذا فعل ؟

ــ هددته أننى سأبلغ عنه وعن عـلوان ، ورأى فى عينى الجد وفعلا كنت أنوى أن أفعل ذلك ، أنـا عشت عمرى كله أضيق على نفسى وعلى زوجتى وعلى ابنتى والولد لأكون شريفا ، اذا كان هـذا الولد سيلوث اسمى ليذهب فى ستين داهية ، شرف ومستقبل أختـه وسلام بيتى أهم منه . أمرته أن يذهب الى البلد ويعيش مع عمتـه حتى أرسل له .

ــ وأطـاع ؟

ــ لو لم يكن يخشى أن ابلغ عنه ما أطاع • الفلوس فى متناول يده وعلوان عنده • أطاع غصبا عن عينيه وسافر ••

ــ لا حول ولا قوة الا بالله ••

ــ لا حول ولا قوة الا بالله أتظننى اجهل هــذا • أتظن أننى جئت اليك من مصر خاصة لمجرد أن أحكى لك •

ــ أنــا تحت أمرك ••

ــ الولدان الآخران ••

ــ ما شأنهما ؟

ــ فؤاد أبو فكرى طبعا لا يعرف شيئا وكذلك الولد الآخر • وأنــا لا أعرفهما • وأخشى أن يضبطا ويذكرا اسم هشام •

ــ الله ••• لقد نبهتنى •

ــ ألم تكن تنبهت •• اذا أنــا ذهبت الى فؤاد وأخبرته ما الذى يجعله يصدقنى ، وحتى لو صدقنى كيف أجابه الرجل على غير معرفة وأفجعه هــذه الفجيعة ؟

ــ لا عليك ••• ربنا معك • أترك الأمر لى ••

***

قــال لزوجته :

ــ لابد أن نسافر الى مصر ••

ــ خير يا مجدى ؟

ــ ستعرفين حين أجد الوقت مناسبا ، ولكن من حقك أن تعرفى أنها مســألة لا تمسنى شخصــياً ولا تمس أى شخص يهمــك وكل ما أرجوه منك أن تثقى فى •

ـ أأعطيك حياتى كلها ولا أثق فيك • أنـا تحت أمرك ••

دهش سويلم وهو يرى ابنه وزوجته داخلين الى البيت وحـاول أن يخفى دهشته ولكن نعمات لم تستطع :

ـ حسبت أنك ستمد الأجازة خمسة عشر يوما • خيرا يابنى • خيرا يا سميحة ••

وضحكت سميحة وقالت :

ـ ابنك رجـل مهم كل الأهميـة رئيسـه طلب منه أن يقطع الأجـازة ••

وقال سويلم وهو يحاول أن يجد سببا لهذه العودة المفاجئة :

ـ فعلا لقد كلمنى فى المحل •

وقالت سميحة :

ـ ألم أقل لك يا ماما ؟

ولم يستطع مجدى أن يقول لأبيه شيئا وانما صعد الى شـقته وقضى الليلة •• وفى الصباح ذهب الى أبيه فى المحـل وروى له كل ما عرفه من درديرى • ولم يتكلم سويلم وانما أخذ ابنه فورا الى محل فؤاد وانتحى به ناحية •

***

وجد فؤاد فى دولاب ابنه ألفا وخمسمائة جنيه • ولم يعد فكرى فى الظهيرة وظل ساهرا خارج البيت حتى الثانية صباحا • وحين عـاد فوجىء بأبيه وأمه جالسين فى غرفة المعيشة ينتظرانه وتوجس •

ـ خير يا بابا ••• خير يا ماما ؟

وأخرج فؤاد النقود وألقى بها على المنضدة أمامه •

ـ ما هذا يا فكرى ؟

وارتمى فكرى على أقرب كرسى وصمت قليلا ثم استجمع شجاعته لقد كان ينوى أن يخبرهما بزواجه والآن جاء الوقت :

ـ أعيب أن أتاجر ؟

ـ فى المخدرات .

ـ فى أى شىء .

وصاحت وهيبة :

ـ فى أى شىء يا فكرى . حتى فى البشر ..

ـ الفلوس فلوس مهما يكن الطريق الذى جاءت منه .

ـ اذن تعمل قوادا .

ـ لا أحتاج الى هذا ..

ـ الذى يتاجر فى السموم يتاجر فى البشر . مثل علوان سلطان سيدك ..

ـ أنا ليس لى سيد ..

ـ اذن السهر حتى الصباح فى التجارة والكباريهات ..

ـ أنا متزوج ..

وصعق الأبوان وتمالكت وهيبة نفسها وقالت :

ـ ماذا ؟

ـ أنا متزوج ..

ـ عاهرة طبعا والا كنا خطبناها لك • عاهرة ••

ـ ان الله غفور رحيم وقد تابت ••

ساد صمت طويل ثم قال فؤاد :

ـ تخرج الآن من هـذا الباب • ولا تعد اليه الا فى واحدة من اثنين • اما أن تكون طلقت زوجتـك وتركت تجـارتك الى الأبد • واما أن أكون أنـا ميتا •

وفى حسم قالت وهيبة :

ـ وأكون أنـا أيضا مت • لست أما لقواد ••

وقـال فؤاد :

ـ أسمعت ؟

وأطرق وهو يقول :

ـ نعـم ••

ـ ففيم انتظـارك • اخرج • واذا مت قبل أن تعود أنت الى الطريق الذى سرنا جميعـا فيه والذى يسـير فيه خلق الله الأشراف فستجد أننى لم أترك لك مليما واحدا من مالى •

وأكملت وهيبة :

ـ ولا مالى أنـا أيضا ••

وصاح فؤاد فى لهجة حاسمة قاطعة :

ـ امش لا تدخل هـذا البيت ولا تجلس فيه لحظة واحدة ••

وقام فكرى وخرج •

***

بعد أيام ثلاثة كان سويلم ومجدى يجلسان الى فؤاد ووهيبة فى بيتهما •

وقال فؤاد :

ـ أنا كتبت نصيب فكرى باسمك يا مجدى •

ووقف مجدى صائحا :

ـ ماذا ؟

وقال فؤاد فى هدوء :

ـ اقعد واسمع • اذا حدث لى شىء وظل فكرى على ما هو عليه يظل المال باسمك ولا تعطيه منه مليما واحدا ، واذا عرفت وتأكدت أنه رجع عن المصيبة التى هو فيها لك أن تعطيه المال والريع • والغالب أنه لن يرجع والغالب أيضا أنه سيقبض عليه • فى هذه الحالة اذا كان عنده أولاد من العاهرة التى تزوجها تنفق على الأولاد من المال وتحاول أن تشترط على هذه العاهرة أنك لن تعطيهم شيئا الا اذا دخلوا مدرسة داخلية وابتعدوا عنها فما دمت قد فشلت فى ابنى فلعلى أوفق فى الجيل الذى يجىء بعده • بعد عشر سنوات من وفاتى ، اذا ظل الحال على ما هو عليه تعيد المال جميعه بيعا وشراء الى الهام فهى أحق به •

وقال سويلم :

ـ أنت تحمل مجدى فوق ما يطيق •

ـ ماذا تقول يا سويلم • اذا لم يقف مجدى ابنك معى فى مصيبتى هذه فمن يقف ؟ أنا ليس لى الا أنت ••

وقال سويلم :

ــ بشرط واحد •

ــ أعرفــه •

ــ ما هو ؟

ــ لقد أعددت ورقة ضد سأحتفظ بها الى أن أموت فان شعرت بقرب الأجل سأقطعها واذا لم أستطع ستقوم وهيبة بهذا •

والتفت سويلم الى وهيبة :

ــ أنت موافقة على هذا يا ست وهيبة ؟

وابتسم فؤاد وابتسمت وهيبة فى مرارة :

ــ أنــا التى دبرت هذا التدبير •

وقال سويلم فى دهشة :

ــ أمعقول هــذا ؟

ــ والدليــل على ذلك أنتى سجلت نصيبى من مــيراث أبى فى الشهر العقارى اليوم لمجدى ، والذى سيفعله مجدى مع فؤاد سيعمله معى • وجهزت ورقة أيضا •

وأطرق سويلم ومجدى وقال سويلم :

ــ اذن فلا حديث لنا ••

وقالت وهيبة :

ــ فى كل جيل الشرفــاء وغير الشرفــاء • الأمر لله من قبــل ومن بعد •

وقــال مجدى :

ــ ألا تظنين يا عمتى أنكما تعجلتما بعض الشىء ؟

وأطرقت وهيبة :

ــ أنــا أم يا مجدى ولكنى أيضا مثقفة • العضــو الفاســد اذا لم يبتر يقتل • ونحن أسرة لها بنت واستطعنا والحمد لله أن نحيطها بسمعة كلهــا شرف ونقــاء • قررنا أنــا وفؤاد هــذا الذى قررناه لنحافظ على سمعتنا ••

وقــال سويلم :

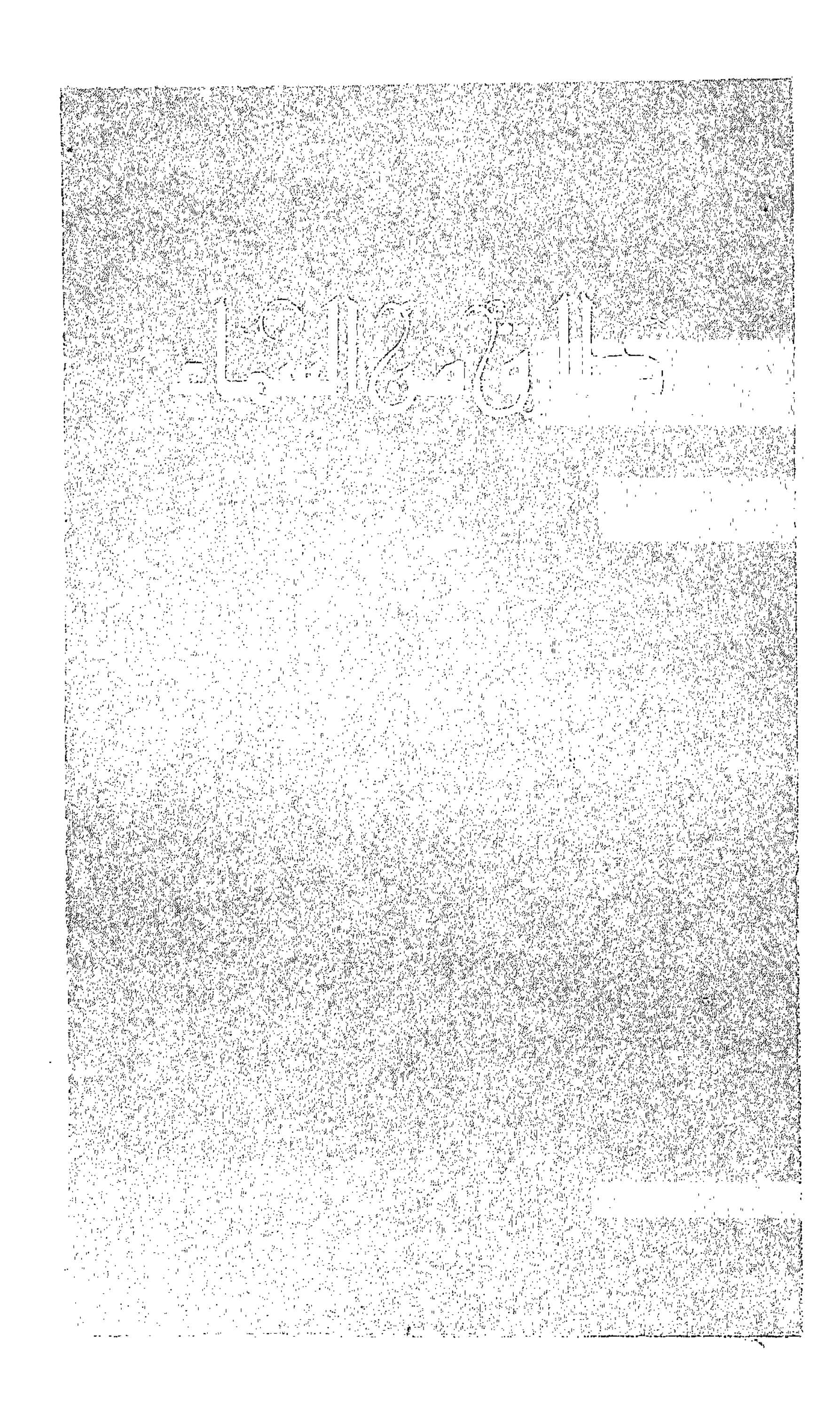
ــ ولكنه مع ذلك ينظل ابنكما •

وقــال فؤاد :

ــ لم ننس هذا وانما نصنع ما نصنع حتى اذا قبض عليه أو عرف الناس أمره عرفوا أيضا أننا بترناه من أسرتنا ونستطيع أن نقول ما قاله سبحانه وتعالى لنوح « انه عمل غير صالح » فحتى الأنبياء يمتحنهم الله فى أبنائهم •

وحسبى الله ونعم الوكيل •

***



طارق من السماء

١

كانت ولادة لم يشهد التاريخ لها مثيلا . القلوب واجفة والنفوس هالعة والعيون زائغة والأم تكتم صرخات الوالدات التى تطلقها كل أم تلد لتعلن الى العالم قدوم انسان جديد الى الحياة . وعملية الولادة تقوم بها جدة الطفل القادم فمجىء القابلة اعلان وهم يحرصون على الكتمان غاية الكتمان .

الصمت يضرب بخيامه على المنزل جميعا فالحديث همس والخطى تلمس الأرض لمسا ولا تجرؤ أن تطأها وطأ .

وحول البيت رجال شداد غلاظ يتسمعون ويراقبون فهم يعلمون أن موعد الولادة قد حان . فان يكن أهل بيت الوليد يتكتمون فى يوم مولده خبر الولادة فان مقدمات الولادة هيهات لها أن تتخفى فى قرية كل نبأ فيها معلن وكل همسة صيحة ، وكل حركة خبرها ذائع شائع . فكيف لأم حامل أن تخفى حملها .

انها قرية نائية عن الدنيا وتكاد تبتعد عن الزمان . من قرى الصعيد القاصية من أرض مصر اسماها الذين نزلوا بها فى أول نشأتها

بنى عمران • وليس فيها من العمران شيء • جهلها التقدم الذى عرفه العالم وظلت على حالها من يوم نشأتها منذ قبل الميلاد الى يوم ميلاد الطفل الجديد • تكاد لاغراقهــا فى الجمود اذا الأرض دارت بهــا لم تدر •

أما الطفل الذى يجيء اليوم فأبوه ابراهيم آدم • نال أبوه ثأر ابنه وهــدان الذى قتلته أسرة حمدان لتثأر هى أيضا لقتيل لها اتهموا فيه وهــدان • واضطر • آدم أن يقتل سليم حمدان ليرفع رأســه فى القرية وما كاد يرفعه حتى قتلته أسرة وهــدان ولم يستطع ابراهيم أن يسكت عن ثأر أبيه فسارع الى زعيم أسرة حمدان فقتله •

وقبل أن تقتل أسرة حمدان ابراهيم عاجلته السماء بموت ربانى فوت على أسرة حمدان ثأرها فأقســم رجــال الأسرة أن يقتلوا وليد ابراهيم المنتظر ان كان رجلا وهكذا تحلق رجال أسرة حمدان حول بيت ابراهيم ينتظرون الولادة بآذان مرهفة وعيون طلعة تكاد تخترق الجدران اختراقا •

فكان لابد لأسرة ابراهيم أن تعيش الأيام السابقة على الولادة منعزلة عن العالم تجهز لليوم الموعود سرا •

وكان لابد للولادة نفسها أن تتم فى هــذا الصمت المطبق الذى تمت به • وقد كانت كل خشيتهم أن يعلن المولود الجديد ما تجــاهد أمــه فى كتمــانه • وما تبذله من ألم يفوق طــاقة البشر فى ســبيل هذا الكتمان •

وولد الطفل وقبل أن يطلق الصرخات التى يلقيها كل طفل فى وجه الحياة سارعت أخته عزيزة ووضعت يدها على فمه فحرمته أن يعلن الحياة بقدومه •

تمت الولادة فى صمت كما أراد لها بيت ابراهيم آدم • ولكنهم

كانوا يعرفون أن ما يسـتترونه اليوم وما قـد يخفونه يومين آخرين أو ثلاثة لابد أن ينكشف • ولكنهم كانوا قد أعدوا للأمر عدته •

***

فى الموهن الأخير من الليل خرجت عزيزة تحمل أخاها وهى تضع يدا لها على فمه وتلفه باليد الأخرى بخمارها الذى يغطى رأسها ويغطى أخاها فى آن معا •

وركبت عزيزة مركبا صغيرا أعدته منذ أيام وأخفته فى الأحراش الكثيفة التى تحيط بترعة الرادين • وجرت المركب فى المـاء مجرى وانيا هامسـا كأنه وشوشـة أمواج لشاطىء فقد كانت عزيزة تلمس المـاء بمجدافيها لمسا هينا لا يعلو لها صـوت حتى اذا بلغت مشارف قرية التمرة أرست مركبهـا وتلفتت حواليها فى حذر وخشية ونزلت الى الشاطىء • وفى الخص الذى اقامته فى الصباح وجدت الحمـار حيث تركتـه فركبته وهى تحتضن أخاها فى حدب حريصـة دائمـا ألا يصدر عنه بكاء يفضح هربها به •

الليل ستار • والناس بعد نيام فلا بأس عليها أن تخترق شوارع القرية وهى آمنة بعض الأمن وكان بيت العمدة فى جوف القرية والطريق اليه يخترق الكثير من الدروب • وكلما أوغلت فى الطريق اقتربت من الأمن حتى بلغت بيت العمدة وقلبها يوشك أن يقف من الخوف •

وطرقت الباب طرقا رقيقا فكأنها طارق من السـماء مرة واثنتين وثلاثا • ثم انفتح الباب واستقبلها العمدة •

ـ هل أتيت به حسنا

ـ هـل أدخـل

ـ بل انتظرى

ـ مـــاذا

ـ ان زوجتى سافرت الى أسوان عند أختى منذ اتفقنا بعد أن أعلنت هنا انها حامل .

ـ اذن

ـ اذن لابد أن نسافر بالطفل الى أسوان لتعود به زوجتى ونعلن أمره الى الناس .

ـ ولكن الطفل يحتاج الى رضاعة .

ـ ادخلى فارضعيه هل معك ما ترضعينه به .

ـ نعـــم .

ـ اذن فارضعيه واسرعى حتى أنادى سائق السيارة ونسافر .

وسرعان ما أخذت السيارة طريقها الى أسوان وكان الفجر يرسل أشعته الأولى الى الطريق .

وصلت السيارة الى أسوان والنهار يملأ الدنيا وقـال العمدة لعزيزة :

ـ ابقى حيث أنت .

ـ لمـــاذا .

ـ لآتى بزوجتى ونعود .

ـ ألا تعرف أختها بالأمر .

ـ بـل تعـرف .

ـ فمالى لا أنزل بالطفل حتى أرضعه وأريحه بعض الشىء ونعود به وقتما تشاء فلم يعد فى الأمر عجلة .

ـ معك حق .. انزلى .

وجاءت الأم المزيفة واستقبلت ركب ابنها الذى لم تلده ورفعت عن وجهه الدثار وأشرق وجهها بابتسامة عريضة .

ـ بسم الله ما شاء الله ... حلو هو كالقمر ... وقال العمدة .

ـ ارينى ابنى هـذا الذى لم أنجبـه ... سبحان الخـلاق العظيم فى وجهه سمو وسارعت زوجته قائلة :

ـ واسمه سامى . ان شاء الله .

ثم نظرت الى أخته .

ـ هل ستبقين معه .

ـ اذا أردت .

ـ حسنا ولكن هل سبق لك أن رعيت طفلا ؟

ـ الحقيقة لا .

ـ اذن !

ـ هل تريدين له من ترضعه ؟

ـ ياليت .

ـ أعرف فى بنى عمران اما فقدت رضيعها وهى فقيرة وأستطيع أن آتى بها لترعاه وترضعه .

ـ على بركة الله . ولكننى أحببتك لمـاذا لا تبقين مع المرضعة وتساعدينها فى رعاية سامى .

ـ وأنـا والله أحببتك يا ست هانم منذ رأيتك أول مرة حين اتفقنا على احضـار الطفل لك . وما أحب الى أن أبقى فى بيتـك .

فنحن لم يعد لنا فى بنى عمـران شىء يستحق أن نبقى الى جانبـه • الفـدانان سيزرعهما خالى ••• المهم اننى أحب أن أبقى معك ومع المحروس سامى •

وعاد الركب الذى خرج متخفيا من التمرة فى باكر الصـباح وبلغ بيت العمدة • قبل أن تغرب الشـمس وأعلن عن عودته بالزغاريـد وبالدفوف وبالمزمار •

لقد أنجب العمدة ولدا بعد أن ظل عشر سـنوات محروما من النسـل •

وكما استطاعت عزيزة أن تهرب بالطفل استطاعت أن تدبر لأمها مهربا ولكن بطريقة مختلفة كل الاختـلاف • فقد أدركت أن أمهـا بعد الولادة التى لم يعرف بأمرها أحد أصبحت هيئتها غير تلك التى يعرفها عنها المترصـدون لها • وامعانا فى التنكر ألبست أمها ملابس خالها وخرجت بها بعد غروب الشمس بقليل حتى ليرى الرائى فيهـا جسما ولا يستطيع أن يتبين وجها • وجازت الحيلة وبلغت الأم مأمنها لترضع وليدها الذى أصبح ابن العمـدة • أصبح اسمه سـامى زين الرفاعى • فاسم العمدة زين واسم أسرته الرفاعى •

ولكن الأم تعـلم أن الذى ترضـعه هو وليدها وهى بهذا قريرة العين هانئة • وليكن اسـم أبيه بعد ذلك ما يكون مادام قد نجا من أعداء أبيه وكتبت له الحياة •



عاشت رتيبة أم سامى عيشة هانئــة فى بيت العمدة قريبــة غاية القرب من زوجته حميــدة • وكانت عزيزة فى البيت هى مديرته التى تقوم بكل شأنه • وسرعان ما أصبحت الأم وابنتها صديقتين لأهــل القرية جميعاً وقد اتفقت الأم وابنتها أن ينتسبا الى قرية المهاجرة التى تدخل فى اطار محافظة المنيا البعيدة كل البعد عن محافظة أســوان • ولم يحاول أحد من نساء القرية ولا من رجالها أن يستقصى أمرهمــا فما دار بذهن أحد أنهما تكذبان • واستقر الحــال على هــذا ومضت الأيام رخاء • رتيبة ترضع وليدها وحميدة ربة البيت تقربها اليها فى حب وحدب وعطف وهما يقضيان وقتهما فى أحاديث لا تنفد ويمدهما سيدات القرية بمدد من أسباب الحديث لا ينقطع •

والعمدة أصبح لا يرى زوجته الا وفى رفقتها رتيبة • ولم تستطع رتيبة أن تغفل النظرات الراغبة التى كانت تطل فى اصرار من عينى العمدة زين الرفاعى • وكان كيانها يضطرب أشــد الاضطراب حين تلح عليها هــذه النظرات فقد كانت تخشى كل الخشية أن يتجــاوز العمدة النظرات التى تصدر عنه على رغم أنفه الى محاولات أخرى

تفسد عليها هـذه الحياة الهانئة التى تحياها والتى لم تكن تتمنى خيرا منها • وماذا يمكن أن تأمل أم ابنها مهدد بالثأر أكثر من هـذه الحياة التى تحياها مع ابنها وابنتها فى ظلال كريمة من عطف الست حميدة • وقد كانت رتيبة تحمل لها مع الاعتراف بالفضـل حبا لا ينتهى مداه • فقد كانت أخلاق حميدة رضية سلسلة لا عنف بها ولا كبر • وكانت طيبة عن سجية مواتية فى غير افتعال ولا من • وقد أحبت سامى حب أم لوليدها حقا • وكانت رتيبة من الذكاء والفطنة بحيث لم تذكرها قط بأن سامى ربيبها وليس وليدها • ولم يجر هـذا على لسانها حتى ولو كانتا فى مأمن كامل من العيون والآذان •

وكانت رتيبة تحرص دائما أن تضـع الطفل فى حجر أمه فى غير أوقات الرضـاع آملة أن يعمق احتضان حميـدة له مشاعر الأمومة الفطرية التى لم تعرفها حميدة فهى لم تكن له أما • فلا هى حملتـه ولا ولدته ولا أرضعته وهى مع ذلك هى أمام العالم أجمع أمه •

ومع الأيام أوشكت حميدة أن تنسى أنها ليست أمه بل وأوشك زين الرفاعى أن ينسى أنه ليس أباه • لم يكن ينغص حياة رتيبة الا هذه النظرات الهاربة من عينى العمدة والتى كانت تتقيها بالتجاهل التام • وكان ينغصها أيضـا ما تقوله لها النسـوة اذ تجلسن اليها بعيدا عن حميدة •• فقد عرفت رتيبة أن العمدة ظالم جبار • جشع غاية الجشع فى معاملته للنـاس نهـاز للفرص فى جمع المـال • وكانت رتيبـة تدهش مما يفعله العمـدة • أيكون جمع المـال غاية فى ذاته • لمن يجمعه • لطفل هو يعلم حق العلم أنه ليس ابنه ولا هو أبـاه • كاذب ذلك الذى يقول ان الانسان يحرص على المـال من أجل أبنائه • انما هو النهم فى جمع المـال مرض قائم بذاته يصيب الانسان فيخرب نفسه حتى وان لم يكن له ولد • وما الولد عند هؤلاء الا حجه منهارة لا صحة لها • وان جازت هـذه الكذبة على الناس الذين يشهدون

سعادة زين الرفاعى فى جمع المال فما كانت هذه الكذبة لتجوز على رتيبة التى ولدت سامى والتى تعرف من سره ما لا يعرفه فى القرية أحد .

***

كانت حجرة رتيبة فى جناح من البيت قصى وكانت عزيزة تبيت معها فيها . وما كان أحد يعرف أن عزيزة ابنتها . وهكذا قضى الله على رتيبة أن تكون أمومتها ــ وهى أمومة شرعية ــ مستورة مستسرة عن الجميع لا يعرفها أحد من البيت الذى تعيش فيه أو من القرية التى تحتوى هذا البيت .

وفى يوم بينما كانت الشمس ترسل شواظا من نار على القرية وفى فترة الظهيرة التى لا يطيق أحد فيها أن يترك السقف الذى يحميه من سعير الحر ، وكانت رتيبة وابنتها عزيزة تنالان قسطا من الراحة فى فترة القيلولة وكان العمدة فى حجرته مع زوجته . وكان سامى فى سريره بالغرفة المجاورة لهما .

بلغ أذن رتيبة صوت طرق واهن على شباك حجرتها . وتعجبت فهى لم تتعود أن يطرق أحد شباكها . بل ولم تتصور أن أحدا يجرؤ أن يطرق شباكا فى بيت العمدة بهذه الطريقة الهامسة . صمتت حينا فتوالى الطرق . أيقظت عزيزة . وساد الصمت لحظات ثم عاد الطرق وسمعتاه معا ... ما هذا .

ــ من ؟

قالتاها معا وجاءهما صوت مرتعد

ــ أنـا

ــ انت من

ـ أنـا صميدة

وقالت رتيبة وصوتها فى طريقه الى الارتفاع

ـ صميدة ؟ ! صميدة من

ـ أنـا فى عرضـك . اخفضى صـوتك ... أنـا صميـدة الدلهونى

ـ ماذا تريد

ـ أنـا واقع فى عرضك يا ست رتيبة

ـ من أين تعرفنى أيها الرجل

ـ من سيرتك فى البلدة . الجميع يمتدحك . وأنت أقرب واحدة من الست حرم العمدة

ـ ماذا تريد

ـ أختى

ـ مالها أختك

ـ يريد العمدة أن يزوجها غصبا عنها

ـ والعمدة ما شأنه بأختك

ـ الرجل الذى يريد الزواج منها دفع له مبلغا كبيرا

ـ مبلغا كبيرا من هذا الرجل

ـ الشيخ دهشور الملوانى سمعنا انه دفع له ثلاثمائة جنيه .

ـ وأختك لا تريده ؟

ـ انه رجل عجـوز تخطى السـبعين من عمـره وأختى فى

السادسة عشر من عمرها • وابن عمها خطيبها منذ هما أطفال • أختى ستموت منى يا ست رتيبة أنـا فى عرضك •

ــ وماذا يستطيع العمــدة أن يعمل •• زوجها لابن عمها ولن يستطيع العمدة أن يصنع شيئا •

ــ ست رتيبة • ألا تعرفين ماذا يستطيع العمدة أن يعمل •

وجدت رتيبة الفرصــة مواتية لتتأكد مما يرويه لها النسوة عن العمــدة

ــ ومن أين لى أن أدرى

ــ لك الآن معنا فترة ليست قصيرة ولا تدرين

ــ أنت تعرف اننى لا أترك بيت العمــدة ولا أزور أحــدا من نسوان البلد

ــ ولكن نسوان البلد جميعا يزرن بيت العمدة ويأنسن اليك ولابد أنهن قلن لك ماذا يستطيع العمدة أن يعمل

ــ كلام نسوان لا أصدقه

ــ ان لم أزوج أختى من دهشور الملوانى فمعنى هــذا أن تقتل أختى صبيحة ويقتل ابن عمها شملول القط ثم أقتل أنــا

ــ ماذا تقول

ــ ما سمعت ياست رتيبة

ــ هل يعقل هــذا

ــ أتريدينني أن أفهم أن الست حميدة وأنت لا تعرفان شــيئا عن رجال العمدة القتلة

ــ أتتصور أننا نعرف

ــ اما نت فنعم • يخيل الى أنك تعرفين

ــ وافرض • فهل أجرؤ أن أقول هذا لزوجته

ــ طبعا لا

ــ اذن ففيم مجيئك الى

ــ كلمى العمدة نفسه

ــ هل أجرؤ

ــ انك مرضعة ولده • وهو يعلم أن الست حميدة تحبك كل الحب وقد يخشى أن تكشفى للست حميــدة ما يحــاول أن يستره عليهــا

ــ أنــا أكلم العمدة

ــ حياة أختى بين يديك ياست رتيبة

ــ نحاول يا صميدة • امش أنت الآن واترك لى الموضوع

ــ أمرك

قالت لها عزيزة

ــ ماذا تنوين أن تفعلى

ــ والله لا أدرى يا بنتى

ــ الرجل وضع أمله فيك •

ــ ســأرى

***

صحا العمدة من نومه وذهب الى حجرة ولده يتناول قهوته هناك وترك زوجته فى سريرها بين نائمة ومتيقظة • كانت رتيبة جالسة على الأريكة وســامى فى حضنها يحرك أطرافــه فى جذل بعد أن رضــع

وأرتوى • رنا زين الرفاعى الى جمال رتيبة كان يرى فى وجهها نورا واشراقا ورأى فى عينيها وهى تنظر الى سامى نظرات ساجية هائئة ووجد نفسه ينظر اليها كامرأة بعد أن كانت عنده مرضعة سامى • طويلة القامة موفورة الجسم فى غير استرخاء هادئة السمات تشعر من يراها بالطمأنينة •

نظر اليها لحظات ثم قال لها :

ـ هل رضع ؟

وقالت فى سعادة :

ـ ألا ترى سعادته

ـ اعطيه لى

ـ تفضل

وحمل سامى وقامت هى واقفة فقال لها :

ـ بل اجلسى مكانك يا ست رتيبة

وجلست وراح هو يناغى سامى ويداعب وجهه وانتهزت هى الفرصة

ـ سيدى العمدة

ـ نعم ياست رتيبة

ـ قصدتنى امرأة برجاء عندك

ـ من هى ؟

ـ طلبت الى ألا أذكر اسمها عندك

ـ وماذا تريد

ـ أن تتزوج صبيحة من ابن عمها شملول القط

وانقلب وجهه الضاحك الى أنواء عاتيـة من الغضب والسخط وصاح دون أن يرتفع صوته

ـ من تلك التى طلبت منك هذا

ـ لا تغضب يا سيدى العمدة • كأنى لم أقل شيئا

ـ هل عرفت حميدة شيئا عن هذا الموضوع

ـ لا وشرفـك

ـ اذا عرفت فستكونين أنت التى قلت لها

ـ لن تعرف

ـ ولا أسمع شيئا عن هذا الزواج منك

ـ أمــرك

ـ خذى الولد

ـ أمــرك

وأعطاها الولد وخرج دون أن يشرب قهوته

***

مشاعر شتى متباينة داخلت قلب رتيبة • هـذه النظرات الجائحة أرهبت جوانها • وهـذا الوجه الحديدى الملامح الذى ارتمى على جبين العمدة • وهذه الأنياب المكشرة ••• ما هـذا ؟ أيمكن للانسان أن يكون عدة آدميين فى كيان واحد • ألقت الى وجه ابنهـا نظرات فارغة ساهمة تحمل فى طواياها حيرة ورعبا من المستقبل • وما لبثت أن فكرت فى ابنها هـذا الذى يبتسم فى سعادة غامرة • ماذا يحمل

الك الغد مع أب هــذه سماته تنقلب الى خوالج ذئب وهــذه خلته ينشب فى أرواح الآدميين فى قريته يدا فراســة تعتصر دماءهم فى غير رحمة ولا مهادنة .

تائهة هى حائرة خائفة . يثقل على قلبها أن رجاءها فى شــأن صبيحة قد خاب . ما لهذه الدنيا تجور على أبنائها . وما لقوم كأن أكبادهم من فولاذ جامد .

وقبل أن تفيق سمعت فى البيت ضجيجا وأصــواتا متســارعة وانقضت عليها ابنتها عزيزة .

ــ أمى

وذعرت رتيبة فى هلع آخذ وقد أخطأت ابنتها فى ندائها وأوشكت أن تكشف المستور من علاقتها بها ولم تملك نفسها أن صاحت بهــا فى غير وعى .

ــ اخرسى

وفى لمحة تنبهت عزيزة الى خطئها وتلفتت حولها وعادت تقول فى بهرها لاتزال

ــ الحقى يا أمة رتيبة

ــ هل جننت

ــ جاءت سليمة . لم يسمع أحد . اسرعى الى الستت حميــدة انها فى حالة سيئة

وهمت رتيبة فى جد

ــ مالها ألف سلامة لها . ماذا بها

كانت حميدة شاحبة اللون لاهثة تصيح

ـ هـواء .... هـواء

وقالت لها رتيبة :

ـ ألف سلامة ياست حميدة

ـ صدرى يا رتيبة . كأن يدا تقطع فيه بسكاكين حادة

ـ بعد الشر عنك . العمدة .. أين العمدة

وما لبث العمدة أن دخل وقبل أن يسمع شيئا صاحت به رتيبة

ـ نريد طبيبا من البندر فورا .. فورا يا حضرة العمدة

***

وجاء الطبيب وأعلن

ـ انها أزمة قلبية



الليالى الحالمة والأيام المشرقة المعطرة بأريج الحب منذ هما طفلان فى مرح الصبا الغض ويدها فى يده وهو يذهب بها الى كتاب القرية ثم الى مدرستها وكانت تعطيه يدها فى بلاهة الطفولة ونصاعتها ومع مرور السنين أحست أن يده بدأت تضغط على يدها ثم تواتر الضغط وأحست يدها أن جديدا لا تدريه يشب بين يدها ويده . شيئا ثالثا استشعرت له فى قلبها وجيبا غريبا على القلب البرىء . ثم سمعت من لقاء يدها بيده حديثا حلوا ونغما ذا أغاريد ومعانى كلها عذب فهى نشيد وكلها طروب فهى رقص ودفوف وناى وعود .

وفجأة قال أخوها صميدة :

ــ منذ الغد لا مدرسة لك يا صبيحة

وانعقد لسانها ... أيكون قد سمع همس يده الى يدها . أتكون الأناشيد العذاب قد بلغت أذنيه . لم تجادل . فقد خشيت أن تطالعها من أخيها الحقيقة . انطوت على أسى . وصمتت على قلب واله . وأطرقت رأسها فى تخاشع . وان كانت فى نفسها ثورة عارمة . وفى الصباح جاء شملول ليصحبها الى المدرسة وفاجأه أخوها

ـ كفى ما تعلمت

وقال شملول وكأنما مسته جمرة

ـ كيف ؟ !

ـ أنـا أخوهـا

ـ وأنـا ابن عمهـا

ـ أنـا صاحب الولاية عليها

ـ لم أقل شيئا • ولكنها مازالت صغيرة • ماذا تعمل فى البيت

ـ كما تعمل بنات القرية تساعد فى عمل البيت

ـ انها مازالت فى الرابعة عشر

ـ كان يجب أن تبقى فى البيت منذ سنتين

ـ صميدة

ـ نعم يا شملول

ـ أنـا أخطب اليك أختك

ـ أجننت • انك قلت منذ لحظة انها فى الرابعة عشر

ـ أتزوجها عندما تبلغ السادسة عشر

ـ أسـألها

ورأى صميدة فى عينيها السعادة أعلى صوتا من الحديث

وقال صميدة لشملول :

ـ أوافـق

وقـال صميدة :

ـ نقرأ الفاتحة غدا فى جمع من الرجال

***

وحين بلغت السادسة عشر انقض عليهم دهشور بسنواته السبعين وأمواله وأفدنته العشرة وقدرته على رشـوة العمدة ٠ وحاول صميدة محاولته تلك ٠ وبدلا من أن يعود الى رتيبة يسألها عن شفاعتها بلغته الأنباء عن مرض حميدة وبينما هو جالس الى أخته التى أصبحت كعود جف، عنه المـاء ٠ وهى مطرقة تحـاذر آن يرى آخوها ما علا وجهها من قترة وعبوس ٠ دق الباب وقامت صبيحة اليه تمشى وكأن بالأرض أشـواكا أو جمرات وفتحت الباب ودخل محمود القط ووراءه آخوه الأصغر شملول ٠ ولم يلق آحد منهما السـلام وانما صـاح محمود فى همس

ـ صميدة

ـ أهلا يا محمود ٠٠ أهلا يا شملول

وأكمل محمود

ـ اسمع يا صميدة ماذا لك فى هذا البلد

ـ ألا تعـرف

ـ أرضـك ؟

ـ حيـاتى

ـ اشتريها منك

ـ ماذا تقول

ـ اشترى أرضك وخذ أختك وأخى واذهبوا الى مصر ٠ وأرض الله واسعة ٠ ولا الذل الذى نحن فيه

وبهت صميدة لحظات واعمل ما سمعه فى ذهنه وكأنما يريد أن ينال مزيدا من الوقت ليفكر وجد نفسه يقول فى صوت ذاهل :

ـ ماذا تقول

ـ ان لك ولأختك أربعة أفدنة وعشرين قيراطا ٠ ولكما هذا البيت ٠ وكلها ثمنها معروف ٠ هذا هو ٠ واجمعوا ملابسكم وتوكلوا على الله ٠ كان الاشراق يعود الى وجه صبيحة طوال الفترة التى تسمع فيها هذا الحديث وكأنه صعود الشمس الى سمتها فى السماء ٠ وأطرق صميدة هنيهات ثم رفع رأسه الى محمود

ـ أتظن العمدة سيسكت عنك

ـ بل لن يسكت ٠ لقد بعت أرضى أنا أيضا ٠ بما فيها أرضك ٠ بعتها كلها

ـ لمن

ـ الا تدرى لمن

ـ لعوض أبو عوف

ـ طبعا ٠ انه يكره دهشور الملوانى ويكره العمدة

ـ اذن

ـ سافروا أنتم الليلة الى مصر وهو مشغول بمرض زوجته

ـ وأنت ؟ !

ـ سأبقى يومين أو ثلاثة حتى آبيع بيتكم وبيتنا

ـ والله لا بأس

ـ وقع هذه العقود ••• الأرض باسم عوض أبو عوف والبيت باسمى حتى اتصرف فيه

ووقع صميدة وصاح محمود

ـ ألف مبروك • هيا لا تضيعوا وقتنا • اسمع يا صميدة • خذ هذا ثمن أرضى • ابقه معك

ـ لمـــاذا

ـ لو حاول العمدة أن يرغمنى على دفع مبلغ له يجدنى لا أملك شـيئا

ـ معقول ••• هات المبلغ • ولكن لا تتأخر • اذا لم تبع البيتين فى يوم أو يومين دعهما • ولهما عودة

ـ توكلوا على الله • انزلوا على بيت مسـعود الصـاحب • أو اجعلوه يعرف عنوانكم مع السلامة •

***

ورأت حقول التمرة ثلاثة نفر يشقون ظلمات الليل وكأنهم قطعة منه يتركون وراءهم ذكريات أعمارهم وماضى أيامهم وملاعب طفولتهم ورفات أبائهم وأجدادهم ومع دمعة فى عيونهم كانت تتراءى لهم فى ظلمات الليل أضـواء أمل فى الغد • واشراقات مستقبل يرجون الله أن يكون هانئا سعيدا •

***

٤

أطال المرض مكوثه فى قلب حميدة • وكان البيت جميعه مشغولا بها • حتى العمدة لم يكن يجلس مع الناس فى السلاملك الا ساعة أو بعض الساعة ثم يرتد الى داخل بيته يراقب حميدة • فمهما يكن جبارا صلب المشاعر الا أنه مع ذلك يظل انسانا •

وبينما زين الرفاعى جالس بالخارج مع بعض زواره من أعيان التمرة قدم اليه خطاب وفى محياه جهامة لا تخطئها العين • وعلى شاربيه الكثيفين غضبه •

ـ أريدك فى كلمتين يا حضرة العمدة •

وكان الجالسون جميعا يعلمون ما صنعه شملول وصميدة ومحمود ولكنهم كانوا يحاذرون أن يعرضوا لهذا الحديث حتى لا يثيروا من العمدة ثائرا الله وحده يعلم ماذا هو مدمر فى اشتعاله •

وقام العمدة وأدرك الجالسون ما سيلقيه خطاب الى أذن العمدة فقام بعضهم يلوذ بالفرار من الاعصار المنتظر وأقام بعض آخرون وقد تغلب حب الاستطلاع فى نفوسهم على الخشية •

وعاد العمدة وهو كظيم يحــاول أن يضــع على وجهه قناعا من الجمود فتخونه عروق نافرة ونأمات نابضــة ونظرات ملتهبة • ولا يقول العمدة شيئا •

***

كان محمود جالسا فى بيته متنمرا فقد كان لا ينام الليل متربصا بما قد يصنعه العمدة • حتى اذا لاحت تباشير الصباح كان يختبىء من القرية فى مكان مستور وينام •

كان فى ليلته تلك جالسا يصنع لنفسه كوب شاى يعينه على السهر فاذا هو يسمع حفيف ثوب يحاول ان يتخافت فتحصن وتطلع واتنظر • وفجأة فتح الباب وانطلق الرصــاص فسارع محمود يجيب الرصاص برصاص واحتدمت المعركة • وأدرك رجال العمدة أنهم لو استمروا فى المعركة فانهــا قد تدور عليهم دوائرهــا فأمرهم خطــاب أن يتوقفوا واستداروا قافلين الى حيث جاءوا • وانتظر محمــود حتى اشرقت الشمس وقام الى ملابسه جميعها فوضعها فى جوال وأخذ سمته الى القاهرة • فليذهب بيته وبيت ابن عمه بددا ولينج هو بحياته •

لم يحاول حتى أن يمر بعوض أبو عوف ليبيعه البيتين أو يوكله فى بيعهما •

انتظر القطــار وركبه الى القــاهرة وليدبرهــا كريم قيوم على عبــادة •

بلغ صوت الرصــاص آذان حميدة • وجزعت وأدرك زين أن أوامره تنفذ فأجابها حين سألت :

ــ لابد أنهم الخفراء يريدون أن أعــرف انهم ســاهرون على الأمــن •

ــ الخفراء يطلقون رصاصة أو اثنتين •

ـ لعل أحدهم قد أخذه الحماس .

وصمتت حميدة غير راغبة فى اتصال الحوار .

***

عرف العمدة أن المهمة التى كلف بها خطاب لم تنجح فأصــدر أوامره ان يصبح البيتــان مخزنين لمحــاصيله حتى لا يفكر أحــد فى شرائهمــا .

٥

لم يمض طويل وقت حتى لاقت حميدة ربها • وأصبحت رتيبة مشرفة على البيت • وسارت الأيام فى طريقها على عادتها فما تعنى الأيام بمن يموت ومن يقيم وانما هى تمضى فى طريقها • وقليلا ما تمضى حتى وجدت رتيبة نفسها فى مواجهة توقعتها منذ وقت طويل وأعـدت لها عدتهـا •

ـ ياست رتيبة أنت الآن مسئولة عن سامى ولا يستطيع أحد أن يحل مكانك

ـ أعرف ذلك

ـ وأنـا رجل احتاج الى زوجة واخشى ان آتيت بأخرى أن تضيق بالولد أو تضيقى أنت بها •

ـ لا بأس أن تجرب

ـ ولمـاذا لا تتزوجيننى

ـ الحقيقة اننى لا أفكر فى الزواج مطلقا

ـ هل أنت على استعداد أن تتركى سامى

ودون أن تفكر فزعت قائلة :

ـ لا ... الا هـذا

وفى دهشة باغتته لحظة ثم

ـ نعم أعرف أنك تحبين انولد ولكن لم أتصور أنك تحبينه الى هـذا الحد

وعادت رتيبة الى ثباتها

ـ لقد حملته أكثر مما حملتـه آمه وأرضعته ولا أعرف لنفسى الآن عملا آخر الا أن أكون المسئولة عنه

وصمت زين قليلا ثم قال وقد أدرك أنه أصبح يملك الموقف

ـ فاذا جاءت سيدة أخرى فاننى لا أستطيع أن أحميك منهـا أو أحمى سامى

واطرقت وقد أوشكت على الهزيمة

ـ انك العمدة ... ولست مثل أى عمدة . انك تحكم بلدك بيد من حديد أتعجز عن أن تحكم امرأة فى بيتك

وفهم زين كل ما ترمى اليه ولكنه قال :

ـ اننى عمدة فى خارج بيتى ولكننى فى البيت زوج ولا يستطيع زوج مهما يكن عمدة أن يفرض مرضعة على زوجته فى بيته

ـ ولمـاذا لا تحسن الاختيار

ـ قد تكون قبل الزواج هادئة حليمـة ثم تنقلب بعد الزواج جبارة طاغية . وأنت تعرفين المرأة اذا وجدت ابن غيرها هو موضـع

الرعاية فى بيتها حينئذ ستعمل أول ما تعمل أن تخرجك أنت من البيت لأنك تؤثرين الطفل عليهما ثم هى بعد ذلك تنفرد ...

وقاطعته رتيبة

ــ نعم ... نعم أعرف

ــ اذن

واطرقت . لقد تركت بيتها وبلدتها من أجل ابنها هــذا . وهى لا تحب هــذا الرجل وهى تكره خلقه كل الكراهية . فالظلم هو الذى قتل زوجها وشتت شملها وأخراجهــا من بين أهلها وذويها ليرمى بهــا الى قوم غير قومها وناس غير ناسها .

انها كامرأة تدرك أن حياتها لم تصبح شيئا الا أن تكون اما لهذا الطفل . وقد ضحت من أجله بكل حياتها المــاضية فهــل ترى كتب عليها أن تضحى أيضا بحياتها الآتية . وأى مصير يمكن أن تنتظرها به الأيام . فاذا ولدت لهذا الرجل وليدا آخر وصاحت دون أن تدرى .

ــ لا

وصاح زين

ــ هذا جوابك

ورجعت الى نفسها واطرقت

ــ ألا تترك لى فرصة للتفكير

ــ أنــا لم أتعود أن أفعــل ذلك . ولكن من أجــل خــاطرك سأقبل

وفــكرت . ولم تجد لنفســها مهربا . انها الآن اذا رفضــت فسيطردها هو من بيته دون أن ينتظر زوجته المقبلة لتطردها . فاذا كان

يرى فى مطلبه أن ينظرها انتقاصا له فهيهات أن يرضى من أجيرته أن ترفضــه زوجا وهو بعد لن يكون حريصا على مستقبل طفل ليس ولده أكثر من حرصه على كبريائه .

انما طلبت منه فرصــة للتفكير حتى لا تتداعى أمامه فى نفس الجلسة التى طلب اليها فيها الزواج .

لم يكن هناك خيار لرتيبة فهى بين اثنين لا ثالث لهما . اما أن تترك وليدها نهبا لمستقبل لا يعلمه الا الله وأما أن تقبل الزواج من زين الرفاعى الذى قدر الله أن يحمل وليدها اسمه فأصبح أبــا لابنها الذى ليس له بعد الله غيره .

وتزوجت رتيبة من زين بعد أن مر على وفــاة حميدة ثلاثة أشهر وحملت رتيبة فى الشهر الثانى من زواجها وما لبثت أن ولدت ولدا اسماه مأمون وكانت رتيبة فى رعب أن يحل الابن الحقيقى عند زين مكان الابن المصطنع ولكنها أخفت رعبها ولم يناقشها زين فى الأمر فهو واثق أنها لم تعلم من أمر سامى شيئا فهو متصور أن سامى عندها هو ابنه وابن زوجته المتوفاة حميدة .

وقد خشى أن تبوح عزيزة بالسر الدفين فانتهز فرصــة خلت به وبعزيزة غرفة

ــ عزيزة لا أحد الآن يعرف سر سامى الا أنت .

ــ نعم يا حضرة العمدة

ــ أخت حميــدة التى كانت تعــرف السر ماتت ولم يبق الآن الا أنت فاذا عرف السر فجزاؤك سيكون رهيبا

ــ أعرف يا حضرة العمدة

ــ لا تلومى غير نفسك

ـ أتصور يا حضرة العمدة أن أعرض نفسى لغضبك وأعرض أخى للتشريد

ـ رتيبة لا تعرف شيئا

ـ ومن أين لها أن تعرف لقد أتيت بها يوم أتيت بها لترضع ابن عمدة التسرة بعد أن مات وليدها

ـ فليظل الأمر كذلك

ـ سيظل كذلك يا حضرة العمدة . ولايمكن الا أن يظل كذلك .

***

وحين تأكدت عزيزة أنها فى خلوة بعيدة بأمها نقلت اليها هذا الحديث ففرحت رتيبة به وقرت به عينا وزايلها أو كاد رعبها الذى داخلها أن يفوز مأمون بالأمن وينتهى دور سامى كابن لزين . ذلك الدور الذى فرضته عليه الأقدار دون أن يكون له أى رأى فى قبوله أو رفضه .

وهكذا كان البيت مكونا تكوينا عجيبا . أم تعلم أنها أم الابنين والفتاة التى تقوم بشأنهما أيضا . وأب ليس له فى الثلاثة الا ولد واحد والأب يخفى سر ابنه المتبنى والأم تخفى سر ابنها وابنتها .

وهكذا يستطيع الظلم والجبروت أن يطمس معالم الحياة ويخلط نتائج الأرحام ويخسف عن حياة الناس الشموس التى لا معنى للحياة بغير اشراقها .

وكان أمر زين أمام رتيبة عجبا . فهو فى خارج بيته ذلك الجبار القاسى يقتل وينهب الأموال فى يسر وطبيعة مواتية وهو فى البيت أنيس

لين العريكة دمث الحديث شديد الحدب على ولديه لا يفضـل واحدا منهما على الآخر . وتعجب رتيبة .. ان تكن غريزة الأب ترغمـه على حب مأمون فأى نبضـة فى قلبه تجعله يرعى سامى بهذا البر وذلك الحب والحنان . سبحانه . لا يملك أحد أن يجعل قلب هـذا الرجل يلين لغير ابنه الا الله وحده وان له فى ذلك لحكمة لا يعلمها الا هو ان له لغاية يطويها سبحانه فى خفايا السنين .

٦

بدأ سامى يذهب الى الكتاب ولم يمض سوى عام وبعض العام حتى لحق به مأمون ٠

وقليلا ما مكثا فى الكتاب فما ذهبا اليه الا تنفيذا لرغبة انشبت براثنها فى نفسه أن يتعلم ولداه القرآن ٠ وازداد عجب رتيبة وان كان صدرها قد انشرح لتمكن هذه الرغبة من زوجها وازداد يقينها أن الله يهيىء الابنين لقدر بعيد كل البعد عما يسير فيه أبوهما ٠

وعجب زين الرفاعى من سرعة حفظ سامى ومأمون للقرآن واستجابة كل منهما استجابة نورانية لآيات القرآن الكريم ٠ وكان سامى يمتاز بشىء لم يشهد له زين ولا أحد من أبناء القرية مثيلا ٠

فقد كان يحلو لأبيه أن يطلب اليه أن يرتل شيئا من الذكر الحكيم وكان سامى يسارع الى الاستجابة ٠ وكان الأب يجد نفسه يحس فى صوت ربيبه خشوعا تحف به أجواء الهية سامقة ولا يملك ذلك الجبار السفاح دموعه فاذا هى تتبادر مترسلة من عينيه ٠

وقد كان زين يحسب أن هذه الدموع لا تطفر الا من عينيه

وهو يرى ربيبه قد كبر وأصبح يقرأ القرآن الا أنه فى يوم كان يجلس بالدوار وكان الديوان مليئا بالزوار مكتظا بالقادمين اليه للتحية أو للسمر أو لحاجة لهم عند العمدة ٠ وقدم اليهم سامى ومأمون يشاركان الجمع الجلسة ويستمعان الى ما يدور من حديث ٠

وفجأة وجد زين نفسه يقول دون أن يملك زمام تفكيره أو عنان لسانه ٠

ــ سامى ٠ اقرأ لنا عشرا مما حفظته ٠

وعجب الجالسون أن يعرف زين الله أو يهفو الى سماع كلماته ٠ وتهيأ جميعهم للنفاق يعلقون به على تلاوة سامى ٠

وبدأ سامى يقرأ ٠٠ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم « بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وانشق القمر » ومضى فى قراءته مرتعش الصوت بايمان عميق عربى اللسان يبن الحروف ينطقها فى حب وخشوع واخبات يحسب سامعه أن صوته يسجد بالقراءة لمالك الملك ٠ والصوت خفيض ولكن الصمت حوله مرهوب يكاد كل سامع منهم يمسك أنفاسه لا يعلو منه شهيق أو زفير ٠ لحظات ربانية هومت على الجمع ٠ ويمضى سامى فى القراءة ٠ فاذا القلوب كلها وجيب والنفوس متعلقة بالسموات العلا بعيدة غاية البعد عن الأرض وما فيها والدموع من الجمع سواجم هاملات لا يطيق فرد منهم أن يمسكها لا تهمى بل ان أحدا لا يحاول أن يذودها ٠٠٠ لقد كانت كل دمعة تسبيحة مرفوعة الى رب العرش وأحس الجمع احساسا واحدا انهم جميعا أصبحوا عند سدرة المنتهى قريبين غاية القرب من العرش وسامى يقرأ لا يلتفت آمر الجمع حوله آنه هو فى الملكوت الأعلى هناك عند الملك القدوس فى الساحة العلوية التى لا يبلغها الا ذو حظ عظيم ٠

وحين قال سامى صدق الله العظيم ٠ شمل الصمت الذاهل المكان

وتملكت الرهبة قلوب الحاضرين فهزهم هزا ثم علا فجأة نحيب مأمون واندفع الى أخيه يقبله ويحتضنه وصحا الجمع من البهر الذى لفهم وراحوا يحيطون بسامى تتعالى أصواتهم ما هذا بصوت بشر سبحان من أعطاك • ماهذا الذى ترتله • كأننا نسمع القرآن لأول مرة • وتوالت التعليقات • والتفت سامى الى أخيه مأمون •

ـ مأمون اقرأ

ـ بعدك

ـ نعم

ـ هيهات

ـ بل تقرأ

ـ أمرك

وجلس مأمون جلسة القارىء وبدأ « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم • ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » •

ومضى فى القراءة • سبحان الوهاب • اذا كان صوت سامى سجودا فصوت مأمون ركوع ورجاء ودعاء • وصوت كليهما ايمان أو فناء فى حروف الكلمة الربانية التى يرتلانها وكأن كلا منهما أصبح حرفا من الكلمة أو كلمة من الجملة أو جملة من الآية أو آية من السورة •



كانت رتيبة تراقب ولديها وتشهد بقلب الأم وعين البشر هـذه المعالم العجيبة التى ينفردان بها عن سائر من عرفت من البشر .

وكلما شبا ازدادت هـذه المعالم قوة ووضـوحا . كان سـامى هادىء السمات مطمئن القسمات واثقـا فى تصرفاتـه وفى خطواته ، خاشعا فى غير مذلة ، هادئا فى غير ضعف . وكان مأمون دائما مأخوذا بأخيه ، معجبا به ، يطيعه طاعة أب لا أخ لا يكبره بأكثر من سنتين . وشىء آخر كان يذهل الأم هو تلك القوة الجسدية التى يتمتع بهـا سامى . تلك القوة التى بهرتها فى طفولته الباكرة . فقد مشى قبل السن التى يمشى فيها أترابه وليست تنسى يوم كانت جالسة تريد أن تقوم الى المكواه الحديدية الثقيلة . وكان سامى جالسا بجوارها . ورآها وهى تمد عينيها الى المكواه ولاحظ أنها أوقدت نار وابور الجـاز ووضعت عليه تلك القطعة من الصفيح التى تضعها عادة تحت المكواه . وفوجئت رتيبة بالطفل الصغير يقوم من جلسته وقد أدرك ما تريد من نظرتها ومما أوقدت من نار . قام الفتى وحمل المكواه . وقفزت مشفقة أن يقع الطفل من ثقل الحديد ويأخذها الدهش البالغ أن الطفل حمل

المكواه وكأنه يحمل لعبة من لعب الأطفال ويقدمها الى أمه ويجلس الى جوارها وكأنه ما صنع شيئا •

وكان مما تلاحظه أنه له يحـاول أن يتفاخر بهذه القوة مطلقـا وكأنه لا يعرفها فى نفسه •

وكان الأطفال فى ملعبهم اذا تعاركوا ابتعد عنهم وكأنه يخشاهم • الا مرة واحدة وكان أخوه مأمون يلعب مع صحابه فاذا بأحدهم يعدو عليه ويضربه ويوقع به وسامى متباعد لا يحـاول أن يتدخل حتى اذا أمعن الصـديق فى عدوانـه وارتمى فـوق مأمون وراح يكيل له الضربات تقدم سامى فى هدوء وفى ثقة وقد فرغ صبره الطويل وفوجىء الأطفال جميعا بسامى يرفع الطفل وكأنه يرفع قطعـة من القمـاش المتهرىء ويلقى به بعيدا ثم يحمل أخاه الى البيت • ومنذ ذلك اليوم لم يحاول أى طفل أن يعارض سامى أو مأمون • والأطفال فى الملعب لا يخشون الآبـاء فكلهم فى مراح الطفولة سواسية لا تقف مناصب الآباء أمـام أعينهم فهم لا يدرون عن هـذه المناصب شـيئا وهى لا تعنيهم فى قليل أو كثير •

***

كبر الاخوان وانتظما فى سـلك الدراسـة الابتدائيـة وكان بالقرية مدرسة ابتدائية • وكان كلاهما نابغة فى فصله • وكان كلاهما حبيبا الى المدرسين والتلاميذ معا • ولكن سامى مع السنين لاحظ أن شيئا ما فى عيون التلاميذ والمدرسـين جميعا غير الحب • لم يدركه سامى أول الأمر ثم شعر كأنما هو طائف من خوف ولم يدر سـامى مأتى هـذا الطائف ولا مبعثه • حتى كان يوما جالسا بالفصل وحده وسمع اثنين من المدرسين يتحدثان من خارج الحجرة وهما لا يعلمان أنه بهـا •

ـ عجيب شأن سامى ومأمون

ـ تقصد ابنى العمدة

ـ ألا تعجب معى

ـ كأنهما ابنا قطب من أقطاب الله الصالحين

ـ كلاهما مثال نادر فى الأدب والهدوء مع ذكاء غير طبيعى

ـ أتراهما يعرفان ماذا يفعل أبوهما

ـ مطلقـا

ـ لابد أنهما لا يعرفان ٠ لايمكن أن يكونا على علم بما يصنعه أبوهما بأهل القرية من رعب وقهر وظلم وجبروت

ـ على فكرة هل عرفت أنه رفع الاتاوة

ـ حقـــا

ـ وحاول فرهود أن يحتج فأحرق له قمحـه وهدده أن يفقـد بهائمـه

ـ وبعـد ؟

ـ رضخ طبعا وقدم الاتاوة كما قررها العمدة

ـ طيب اسكت وحياة والدك لا يسمعنا أحـدهما وينقل الى أبيه حديثنا

ـ أعوذ بالله لاقدر الله ... ان أطفالى مازالوا صغارا اذا قتلت أنـا لن يجدوا أحدا بعدى ٠

وأدرك سامى فى مكمنه الهول الراعد الذى سيدخله الى نفس الأستاذين اذا هما علما أنه سـمع ما سمع فاختفى تحت الدرج وحين سمع أصوات الطلبة القادمين تظـاهر لزملائه وكأنه يبحث عن قـلم

سقط منه حتى اذا دخل المدرس وجـده جالسا فى مكانه وهجس فى نفس الأستاذ هاجس .

ـ سـامى

ـ نعم يا أستاذ

ـ لم أرك تدخل الفصل مع أخوانك

ـ بل كنت معهم

ـ حسـنا

واطمأن الأستاذ الى ما فى صوت سامى من نبرة طبيعية .

***

تأكد سامى أن المكان خال به وبأخيه وقص عليه ما سمع من الأستاذين وقال مأمون :

ـ وبعـد ؟

ـ ما رأيك ؟

ـ ما رأيك أنت ؟ .

ـ الآن عرفت سر هذه النظرات فى عيون الزملاء والمدرسين .

ـ ومـاذا نفعل ؟

ـ أنـا وأنت لم نسىء الى أحـد فلمـاذا نحتمـل كراهيـة الناس لنا .

ـ انـه أبونـا

ـ ألا نخبر أمنا ؟ .

وقال سامى بعد ريث تفكير

ـ واحـدة من اثنتين اما انها تعرف ولا تستطيع أن تصـنع

شـيئا واما أنها لا تعرف وحينئذ لن تستطيع أن تصنع شـيئا أيضا

ــ أنت محق فماذا ترى ؟

ــ أرى أن نصبر حتى تتم هـذا العام الدراسة فى المدرسـة الابتدائية ونطلب الى أبينا الذهاب الى المركز للدراسة فى الاعدادية

ــ وأنـا ... مازال أمامى عامان

ــ سأطلب من أبى أن نذهب أنـا وأنت فمادام سيفتح بيتـا هناك فمن الطبيعى أن يذهب كلانا

ــ معقـول

***

٨

رحب مسعود الصاحب بأبنـاء بلدته • وأنزلهم أهلا • وحين تداولوا أمرهم معه أفسح لهم من الآمال ما لم يخطر لهم على بال •

ــ توكلوا على الله • الصعيدى منا ينزل مصر لا يملك الا صحته ويعيش أحسن عيشة فكيف وأنتم تحملون ما تحملون من مال

ــ اسمع يا مسعود نحن لم نخرج من بلدتنا الا هذه المرة

ــ أعرف ذلك

ــ ونحن نترك لك الأمر كله

ــ لنبدأ أولا بزواج صبيحة وشملول

ــ أترى هـذا

ــ حتى يتاح لهما أن يعيشا معا • وزواجهما فرصـة أن يعرفا أبناء بلدتهما وتقول صبيحة :

ــ وكيف أتزوج قبل أن أعد المنزل

ويقول مسعود :

ـ سأترككم فترة صغيرة من الزمن لأهيىء لك ولزوجك المنزل

ويقول صميدة :

ـ هل الأمر ميسور الى هذا الحد

ويقول مسعود :

ـ هو أمر فى غاية الصعوبة على جميع الناس الا علينا نحن أبناء الصعيد • فنحن بيننا معاملات قوية ومشكلة الفرد منا مشكلة الجميع• فأترك الأمر لى أدبره • ألا يكفيك حجرة بمنافعها

ويقول شملول :

ـ يا عم مسعود اننا نبدأ حياة جديدة والله وحده يعلم كم من الوقت سنقيم فى هـذا البيت وأنت تعلم اننا اذا كنا اليوم نجد عطفا من أصـدقائك فسرعان ما نصبح منكم ونهتم معكم بمشاكل الآخرين ويستعصى علينا أن نجد من يهتم بمشاكلنا فكلما كان البيت متسـعا كلما كان هـذا أنسب • حجرة لا تصلح • طبعا • وخاصة ومعنا الآن صميدة ونحن ننتظر أخى محمود أيضا •

ـ يا ابنى كلامـك معقول ولكننى قدرت طبعـا أن صميدة ومحمود سيعيشان فى بيت آخر • انما علينا أن نهيىء مكانا لأبنائكما دع الأمر لى • سلام عليكم •

وحين عـاد مسعود بعد سـاعتين كان قد وطـأ لهم كل العقبات ووجـد فى روض الفرج شقتين • وما أن سمع ضيوفـه هـذا حتى شملهم الفرح والعجب معا • ولكن عجبهما زال حين عرفا أن العمارة لسـليم الخشت وهو من قريـة الدميرة المجـاورة لقريتهم أثرى من العمـل فى سـوق الفاكهـة وظل شديد الانتمـاء لقريتـه والقرى المجاورة لها •

واتنقل الركب الى البيتين الجديدين • وبدأ الجميع فى الصباح

يشترون الأثاث بصحبة مسعود الذى كان على صلة وطيدة بكل متجر دخلوا اليه •

وما هى الا ثلاثة أيـام حتى كان البيتان صالحين للاقامة غاية الصلاحية • ولم يجد محمود صعوبة فى الوصول اليهم •

وبات محمود ليلته مع شملول • وباتت صبيحة مع أخيها صميدة ودعا محروس الى الفرح بعد أسـبوع من مجىء محمود ولم يكلفهم هذا الفرح شـيئا فقد تعاون أبناء الصعيد بروض الفرج فى اقـامة الفرح • وعرف الجميع العروسين الجديدين وعرف العروسان أبنـاء الصعيد فى المنطقة •

ومر أسـبوع آخر ترك فيه محـروس العروسـين يستمتعـان بعرسهما ثم •

ـ وبعد يا شملول

ـ نعـم

ـ نفكر فيما نحن مقبلون عليه

وقال صميدة :

ـ أنت رئيسنا هنا

ـ اسمعوا نحن قيمتنا هنا بعملنا

ـ طبعـا

ـ الفلوس تذهب الآن الى البنك ونودعها

ـ كلهـا ؟ !

ـ تقريبـا

ـ وبعـد

ـ أعددت لكل منكم عملا

ـ لكل منـا

ـ شملول سيعمل فى محل سليم الخشت لبيع الفاكهـة بالزمالك حتى يتعلم هـذه الحرفة •

ويقول محمود :

ـ ونعم العمل • خاصة وهو يجيد القراءة والكتابة

ويقول محروس :

ـ وأنت يا محمود وأنت يا صميدة ستعملان معى فى المقاولات • فأنا لن أجد أحـدا أطمئن اليه مثلكما • وبعد وقت قليـل سأجعل كلا منكما يتولى مقاولاته الخاصة به •

وهكذا استقر المقـام بالقادمين وعرف كل منهم طريقه الواضح فى الحيـاة •

٩

حين حصل سامى على الابتدائية جلس الى أبيه جلسة عرف بهـا الأب أن فى نفس ربيبــه أمرا يريد أن ينفضــه على مسامعه • ولم يعجب الأب من تلك النظرة التى اتسمت بها عينا سامى منذ فترة فقد تعود عليها • كان سامى اذا جلس الى أبيه نظر الى السماء حذرا أن تلتقى عيناه بعينى أبيه • ولم يعد الأب يعجب ولكنه لمـا يزل جاهـلا ما تعنيه هذه النظرة ولا يجد لها سببا •

منذ عرف سامى ما عرف من أمر أبيه انشطرت نفسه شطرين • فهو ابن يكن لأبيه أو لمن يظن أنه أبوه كل العواطف التى تجيش فى نفس ابن قبل أبيه من حب وشكر وولاء • وهو كانسان تعلقت روحه بأسباب السـماء • وأحب الله حتى تفـانى فى هـذا الحب يرى أن ما يصنعه أبوه بالناس اجراما واعتداء على حقوق الله وعلى انسانيـة الانسان الذى جعله الله أكرم مخلوقاته • وكان فى نفسه يتساءل لمـاذا يمتحنه ربه هـذا الامتحان العسير ويمزق مشاعره هذا التمزق والله هو العدالة المطلقـة • وهو سبحانه المطلع على القلوب وهو سبحانه يعلم كم يفنى سامى فى حب الله اللطيف الرحمن •

وفى هذه الحيرة كان سامى يتحرى دائما اذا جلس الى أبيه ألا ينظر اليه عينا بعين فقد كان يمثل فى نظره تناقضا غير منسجم مع طبيعة الأمور كيف يكون أبا حانيا وزوجا بارا فى بيته وكيف يدمر حياة الناس الذين هم مثله آباء وأزواج وأخوة وأبناء .

قال زين لابنه :

ـ أراك تريد أن تقول شيئا

وقال سامى ونظرته معلقة بالسماء لم تزل :

ـ نعم يا أبت

ـ فقل

ـ أريد أن أتلقى تعليمى الاعدادى بالمركز

ـ ولماذا

ـ اننى أعد نفسى لأكون صاحب شهادة عالية وأريد منذ هذه المرحلة التى أنا فيها أن أتلقى تعليمى على أحسن المصادر المتاحة

ـ وترى أن المدرسة الاعدادية هنا لا تصلح لذلك

ـ اننى هناك سأكون متفرغا للدراسة كما اننى سأكون قريبا من المكتبة وأستطيع أن أحصل على ما أشاء من كتب . والمركز قريب على أية حال

ـ ولكنك بهذا ستكون وحدك

ـ اذا سمحت لى صحبت معى أخى مأمون فكلانا لا يترك صاحبه وهو أيضا هناك سيكون تعليمه خيرا من هنا

ـ ومعنى ذلك أن تصحبك أمك

ـ هذا اليك

ـ أتريد أن تتركني وحدى ؟

ـ يا أبى أنت مشغول بعملك

ـ أليس من حقى أن يكون لى بيت

ـ انك لا يمر عليك أسبوع دون أن تذهب الى المركز مرة أو مرتين • والتليفون موجود تستطيع أن تطلبنا وقتما تشاء •

ـ هل أنت مصمم ؟

ـ أما أنا فمصمم نعم ولكن الأمر الأخير لك •

عجيبة تلك المشاعر التى كانت تداخل نفس زين من ربيبه سامى• انه كان يحس نوعا من الرهبة وهو يتحدث اليه أهى رهبة المخطىء أمام النقاء • أم أن فى سامى هذا سرا خفيا يفرض الاجلال على من يتحدث اليه حتى ولو كان هذا المتحدث أباه الذى ان لم يكن قد ولده فهو الذى تلقفه وليدا وشمله برعايته حتى أصبح هذا الفتى المهيب فى هدوء • الجليل فى تواضع • كان زين واثقا أنه لن يستطيع أن يرفض طلب ولده وكل ما استطاع أن يفعله •

ـ اذن أرسل معكما خادمة ترعى شأنكما وتتركان أمكما لى

ـ هذا اليك

ـ ولكن والدتك لن تقبل

ـ أحسب هذا

ـ فلنسألها

***

وذهبت الأم وابناها الى بيت استأجره لهما زين واستقرت بهما الحياة هناك وصحب الجميع فواز الشيمى الذى ظل يرافق سامى

الى المدرسة منذ اليوم الأول لدراسته . والذى يحبه سامى ويرعاه حتى أصبح معروفا فى بيت العمدة أنه مخصص لسامى ثم لمأمون كليهما . وقد ارتأت رتيبة أن وجود فواز معهم هام حتى يشترى لهم مطالب البيت . وصحبت معها طبعا ابنتها عزيزة . واستقر بهم البيت الجديد فى المركز وركب لهم التليفون أيضا ففى المراكز مشكلة التليفون ليست فى عسرها بالبنادر والمدن.واستطاع سامى أن يحصل على ما يشاء من كتب وجعل أخاه مأمون يقرأ معه فأصبح كل منهما نسيجا وحده بين التلامذة . وأحس التلاميذ أن سامى وأخاه مأمون من صنف آخر غيرهم . وساد بينهم هذا الشعور الذى يختلط فيه الاعجاب والاكبار بالغيرة والحسد والشعور بالتنقص . ولكن التلاميذ على كل حال لم يكن يبدر منهم الا الود وان طفر الحقد على وجه بعضهم فما يلبث أن يمحى ويعود ادراجه الى خفايا الضمائر ويستتر هناك لا يعلم أمره الا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

حصل سامى على الاعدادية بتفوق وانتقل الى المرحلة الثانوية . وحاله تجاه أبيه على ما هى عليه وحيرته من العذاب الذى ألقاه أبوه اليه كما هى . يسأل ربه كل حين لماذا يا الهى هذا العذاب الذى أنا فيه . يسأل ربه كل حين . أنت تدرى يا الهى كم أحبك وكم أطيعك وكم أفنى فى حبى فلماذا .

وفى ليلة أخذه النعاس وهو فى هذه الحال من التهجد والمساءلة . فرأى فى منامه عجبا .

رأى شيخا مهيبا وجهه كله صلاح وتقوى ونور يركب البحر ولكن مركبه فيه ليس سفينة ولا هو قارب . وانما حوت ضخم يشق به العباب ويأتمر بأمره . ولم يكن حين يأمره يحدثه وانما كان الحوت يدرى ما يريد سيده فيأتمر بأمره بصورة تلقائية لا يعرف الناس لها مثيلا .

ويظل الشيخ النورانى سائرا فى البحر وسامى معه يصاحبه وقد اطمأنت نفسه وأصبح فى سعادة سماوية لا يحسها الا حين يقرأ القرآن .
وبينما الشيخ النورانى على حوته يشق المــاء شقا . عرضت له سفينة ضخمة فــاذا هو يخطو خطوة فيصبح فوق السفينة والحوت يســير بجانبها . ولاينظر ركاب السفينة الى الشيخ وكأنه ما شاركهم مركبهم بل هم حتى لا يرون الحوت ولا يحسون من أمره شيئا . واذا الشيخ النورانى يصنع صنيعا يذهل له سامى ذهولا مفجعا . ان الشيخ الربانى يخرق السفينـــة ويتلفها وحينئذ فقط يتنبه الركاب الى ما حــدث بمركبهم دون أن يروا الشيخ أو يشعروا به .

ويصيح به سامى

ــ أتخرق السفينة لتغرق أهلها ... آهــذا عدل ... أيعقل أن شخصا فى عظمتك يصنع هذا الصنيع .

وينظر اليه الرجل الربانى ولا يكلمه وان كان يبدو عليــه أنه سمعه . ويلح سامى فى استنكار ما رأى .

ــ انك رجل نورانى ... انك رجل ربانى ... أمعقول هــذا الذى تفعله وكان الشيخ قد استقر على الحوت فنظر الى ســامى نظرة هادئة مطمئنة وابتسم له فكأنمــا أشرق عن فمه ضياء فجر ومشى به الحوت وسامى معه لا يدرى كيف يتسنى له أن يكون فى رفقته .

ورسا الحوت الى أرض مدينة وخرج الشيخ النورانى ومضى فى طريق بين بيوت واذا بغلام مقبل عليه حتى اذا أقترب منه وأصبح بين يديه اذا به يضربه ضربة صاعقة فيقتله . ويحيط الهول الآخذ بسامى ويتملكه الذهول وتكاد الدهشــة أن تعقد لسانه ولكنه جاهدها حتى استطاع أن يصيح بالشيخ فى استنكار شديد :

ــ أتقتل نفســا زكية بغير نفس . أهــذا عمل يرضــاه الله . أهذا معقول . لقد كنت أحسبك ربانيا .

ولم ينظر اليه الشيخ وكأنه ما سمعه وصاح سامى ثانية وثالثـة ورابعـة • فنظر اليه الشيخ وابتسم تلك الابتسامة المشرقـة بالنور وصمت سامى •

وركب الشيخ حوتـه ومضى طريقه حتى بلغـا قرية نزل بهـا الشيخ واختفى الحوت • ورأى الشيخ جماعة كبيرة من الناس فاقترب منها وقال فى مسألة وفى اعتزاز لم يزل يحتفظ به :

ــ الا أجد عندكم طعاما فقد مسنى التعب ولا أجد هنا طعاما•

فأشاح عنه الناس وكأنهم ما سمعوا مسألته •

وانصرف الشيخ عنهم ومضى طريقه من القرية فى هدوء من يعرف مقصده • وبلغ الشيخ جدارا يهم بالسقوط فراح يصلح شأنه ويقومه حتى أصبح ثابتا قويا •

فقـال سامى :

ــ هذه أول حسنة أراك تصنعها ولكنها أيضا عجيبة أيرفض أهل القرية اطعامك فتصلح لهم حائطا يوشـك أن ينقض ألم يكن يجدر بك أن تطلب منهم أجرا جزاء ما صنعت •

ونظر اليه الرجل وابتسم ثم رجع الى الحوت فركبه وبلغ صخرة رسا عندها الحوت فنزل الرجل النورانى وجلس عليها واشـار الى سامى فقدم اليه والذهول ما يزال يحيط به وأومأ اليه الرجل فجلس سامى وأراد سامى أن يعود الى استنكاره ولكن الرجل النورانى سارع قائـلا :

ــ اسمع حتى يطمئن قلبك • أما السفينة فهى لقوم مسـاكين لا حياة لهم الا بالعمل فى البحر •

ــ أو هذا سبب يجعلك تخرقها وتغرقها

ــ بل انى أنقذها

ــ لا أحسب أن مع الخرق انقاذا

ــ بل هو الحق • فانى أردت أن أعيبها عن عمد لأن ملكا ظالما كان قادما من خلف السفينة بأسطوله وكان يستولى على كل سفينة يجدها غصبا • وأمرنى الله أن أخرق هذه السفينة حتى براها الملك الطاغية وكأنها ستغرق فيتركها لأصحابها المساكين •

ــ وهل سلمت السفينة

ــ ولم يأخذها الملك اللص

وهم سامى أن يفتح فمه فاذا بالشيخ يقول :

ــ تريد أن تسأل عن الغلام

ــ أمعقول هذا

ــ أن أبويه مؤمنان قريبان الى ربهما كل القرب

ــ أصبحت المصيبة أعظم

ــ بل انتظر ••• ان هذا الابن كان سيرهقهما ويسىء اليهما ويلاقيان منه الشقاء والعقوق والعدوان فأردنا أن يهب لهما ربهما خيرا منه ابنا زكيا بارا يصل الرحم ويكون لهما على الحياة عونا ولا يكون عونا للحياة عليهما •

ــ ولكن الأبوين سيحزنان لموت ابنهما فهما لا يدريان أنهما كانا سيجدان من ابنهما هذا عقوقا ونكرا •

ــ ان حزن عام أو عامين خير من نكد الدهر كله • وما أدرانى وما أدراك لعل الله يكتب لهما مزيدا من الخير جزاء صبرهما على الجزع الذى أحاط بهما لموت الغلام •

ـ أصبت و

ـ تريد أن تسأل عن الجدار

ـ نعـم

ـ أتخيلت انني أريد من الناس طعاما وأنـا فى حمى الله

ـ دهشت لهذا

ـ أنـا أردت أن أمتحن كرم هؤلاء الناس فكانوا عندما توقعت منهم بخلا وشحا

ـ والحائط الذى أقمته

ـ انه لغلامين يتيمين فى هـذه المدينة وان تحته كنزا وقد كان أبوهما رجـلا صالحا • فشاء ربك فى علياء سمائه أن يبلغ الفتيـان أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك واكراما لعباده المؤمنين • وأنـا يا بنى لا أفعل ما أفعل مختـارا فما صنعت شيئا مما صنعت عن أمرى

ـ باركك الله أيها الشيخ الربانى سلام عليك

ـ الى أين

ـ أعـود

ـ بل انتظر

ـ اذا أمرت

ـ فاجلس

ـ أمـرك

ـ ألم كنت تسأل ربك لمـاذا جعلك شـقيا بأبيك وأنت على ما أنت عليه من حب الله وطاعته

ـ لا أعجب الآن حين أجدك تعرف هواجس نفسى

ـ أعرفت الآن

ـ ان قلت نعم عرفت أنت اننى لم أصدقك القول

ـ يابنى ان عدالة السماء لا صلة لها بعدالة الأرض • ان الانسان فى دنياه هذه الضيقة لا يستطيع أن يصل الى عدالة السماء • ولكن الانسان حين يؤمن ايمانك يثق أن الله وهو العدالة المطلقة لا يريد بالناس الا خيرا • وقد رأيت المركب قد خرقت ولكن الله أنقذها من السلب • ورأيت الغلام قد مات والموت ليس عقابا لمن مات وقد نقله الله الى جواره قبل أن يسىء الى والديه وقبل أن يصبح جبارا شقيا فموته اذن رحمة به وثواب لوالديه أهذا النوع من العدالة المطلقة يعرفه البشر • والجدار حفظ به للأسرة المؤمنة كنزا أراد سبحانه أن يظهر فى الوقت الذى قدر سبحانه أنه أحسن الأوقات لهما • فعدالة السماء يابنى هيهات لبشر أن يدركها وانما علينا فقط أن نؤمن بها ونؤمن أنه الرحيم الرحمن اللطيف الخبير • هيه يابنى أوجدت جوابا لسؤالك •

وصحا سامى من نومه وعيناه تفيضان بالدمع وتوضأ وصلى ثم صلى ثم صلى • يدعو ربه ويشكر آلاءه عليه • سبحانك ربى فأنا اذن أثير عندك قريب منك • عبدك أنا أعاهدك يارب العالمين أن أكون حتى ألقاك العبد الشاكر العامل فى طاعتك أصحب أبى بمعروف وأرد ظلمه عن الناس بكل ما أملك من الايمان والقوة التى وهبت لى • اللهم أعنى على اتباع أوامرك وعلى رفع الظلم عن المظلوم • وعلى رد الحق الى أصحابه انك أنت العزيز ذو القوة المتين • اللهم لقد بلوتنى لتختبرنى بما يفعل أبى اللهم أنت القائل « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » اللهم فاجعلنى من أولئك الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس فقد قلت عنهم سبحانك « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » •

١٠

ما لبثت صبيحة أن أنجبت لشملول ابنهما الأول فالثانى وما لبث شملول أن أصبح صاحب متجر خاص به فهو ذو ثراء عريض . ولم يمض كثير وقت حتى أصبح صميدة ومحمود من المقاولين الواسعى الثراء وأصبحت الحياة بالنسبة للمهاجرين جميعا واضحة المعالم بينة السمات .

ودخل ماهر ومختار ولدا شملول الى المدرسة وانتظما فى السلك الدراسى وسارا خطواتهما الدراسية فى توفيق .

***

وازداد سعار العمدة زين الرفاعى وفشا رجاله فى المنطقة جميعها يفرضون ما يشاء زين من أوامر . وكان زين ذكيا فهو يجزل العطاء لمعاونيه ويعاملهم فى كرم باذخ واسماح .. لماذا هذا المال ... لمن ... لولدى سامى ومأمون ... ماذا ... ماذا ... ما قلت ... سامى .. اتختلق الكذبة وتصدقها . وهل سامى ابنك . هكذا أثبته فى شهادة الميلاد ... أتساوى اذن بينه وبين ابن دمك ... وماذا

بيدى أن أصنع • وكيف أفرق بينهما فى المعاملة ••• لا أحد يعلم أن سامى ليس ابنى الا عزيزة وقد حافظت على السر لم تخنه ••• وهى تعلم سطوتى وجبروتى ولن تفكر يوما أن تخون سرى ••• اذن كيف أستطيع أن أفرق فى المعاملة بين سامى ومأمون ••• لا سبيل أمامى••• ومن أين كنت أعلم أننى سأرزق بطفل من رتيبة • وهل كنت أتصور حين جاءت رتيبة الى بيتى لترضع سامى انها ستصبح زوجتى وأم ابنى الحقيقى • عجيب أمر رتيبة ••• انها تعامل سامى كما لو كان ابنها شأنه شأن مأمون • بل انها أحيانا تفضل سامى فى المعاملة بمقولة أنه الأكبر • ان شأن سامى هذا عجيب هو أيضا • أى سر فيه يجعلنى وأنا لست أباه أشعر كأننى حقا أبوه حتى أننى كثيرا ما أنسى أننى اصطنعته اصطناعا واستجلبته من حيث لا أدرى محاولا أن أرضى غريزة الأمومة فى زوجتى • وقد تلقفته طفلا فى يومه الأول ثم أنا بين يديه أحس رهبة وتروعنى من حوله هيبة لا تطالعنى من أحد • وأنا رجل لم أعرف الخوف من أحد • لقيت من لقيت من كبار رجال المديرية بل والدولة فما استطاع أحد منهم أن يلقى فى نفسى لمحة من رهبة • وأنا فى منطقتى جميعا أنا الرهبة والخوف يرتجف أشجع رجالها هلعا اذا سمع اسمى فأى شىء فى هذا الفتى الذى شهدته رضيعا وطفلا وصبيا • يجعلنى أخشى أن أواجهه وأحاذر كل الحذر أن يعلم عنى ما أشيعه من الهول والذعر فى أنحاء الربوع التى تجاور بلدتى • وما له وهو أمامى وهو واثق كل الثقة أننى أبوه وليس له من أب غيرى • ما له لا يتولاه هو الرهب ويتولانى أنا وما له لا يخشانى بينما أحس أنا أننى أخشاه • أيكون هذا لنقائه وعلمه وصدقه وثباته وايمانه العميق بالله ووثوقه بنفسه ثقة لا تتاح الا لمن عرف الطريق وسار عليه •

كم من صادقين لقيتهم ولكنهم لم ينالوا ما يناله سامى فى نفسى من اجلال • بل ان مأمون أيضا ينال منى هذا الاجلال وهو ابن

دمى • ولكنه لصيق بأخيه لا يكاد يفارقه فهو يتشبه به فى كل شيء حتى فى اشاراته ولفتاته وحتى لقد اكتسى وجهه بهذا الوقـار الذى يكسو وجه أخيـه • وهو يقدس كل ما يفعله أخوه فكأن الفـارق بينهما عشر سنوات وليس سنتين • ما شأن هـذين الأخوين وما لى أحس من كليهما رهبة تجعلهما غريبين عنى • واحدهما جزء منى والآخر ربيبى الذى لا يعرف لنفسه أبـا غيرى •

أيكون ما أصنعه من مال لأجلهما ••• لا ••• ما أظن ••• ربما خادعت نفسى وقلت اننى أكون لولدى ثروة ولكننى أعلم فى البعيد فى نفسى أننى أصنع ما أصنع عن رغبة عاتية فى السـلطان والجبروت • والمـال أساس خطير من أسس الجبروت ونتيجة محتمة للسلطان اذا جاء من البطش والطغيان • وقد استطعت بقوتى أن أقتل فى نفسى كل شفقة الا على أهل بيتى • ومادمت قد تخلصت من ضعف الشفقة فأنا قادر أن أصنع ما أريد لا يردنى شيء •

ان رغبة السـلطان الجارفـة التى تموج بين أضالعى هى التى ترسلنى كالاعصار فى ارجاء الحياة • وليس ولدى •

أيقاوم الانسان قدره ••• أيحارب الانسان سجيته ••• هكذا أنـا • وهكذا أحب أن أكون •

١١

كان سامى قد بلغ نهاية المرحلة الثانوية وأدى امتحان الشـــهادة وفى يوم ظهور النتيجة ذهب مع مأمون ليتعرفا عليها • وكان فنـــاء المدرسة حاشدا بالطلبة والجلبة شـــديدة والتلاميذ فى حلقـــات منها المتسعة ومنها قليلة العدد • وسامى بين رفـــاق له يجرى بينهم الحديث هينا وهو يسمع أكثر مما يتكلم • وفجأة رأى سامى حلقات تنضـــم واثنين متماسكين فى معركة عنيفة • وأنعم النظر فـــاذا مأمون أحـــد المتعاركين وخصمه يكيل له الضربات ويهم سامى الى أخيه وقبل أن يصله يكون مأمون على الأرض وقد ارتمى خصمه عليه يضربه فى غير هوادة ولا رحمـــة ويصل سامى الى مكان المعركة ولا يسأل ولا يفكر وانما يرفع ذلك الخصـــم فى ثبات ويحمله وكأنه يحمل ورقة ويلقى به وكأنما يلقى حصاة اعترضت طريقه ومال على أخيه فاقامه وهو يسأل فى هـــدوء وكأنه لم يصـــنع ما جعـــل الطلبـــة متجمدين من الهول والذهـــول •

ــ ماذا حدث ؟

ويقول مأمون لاهثا :

ـ راح يذكر أبى بسوء دون أى سبب

وقبل أن يجيب سامى يتصايح الطلبة

ـ الحقوا ••• اسرعوا ••• منيب ••• منيب

ويلتفت سامى الى الصائحين

ـ من منيب ؟

وتتكاثر الأصوات وتتقاطع الكلمات ويفهم سامى بصعوبة أن منيب هو اسم الفتى الذى ألقى به عن أخيه •

ـ ما لـه

ـ مـات

ـ مـاذا

ـ مـات

ويؤخذ سامى على غرة ولا يتريث • بل سرعان ما يشق جموع الطلبة الزاحفة وكأنه يزيح شخوصـا من هباء ويصل الى باب المدرسة بين حيرة المشاهـدين وذهولهم ويخرج يجرى فى سرعة الومض حتى يصل الى محطة السكك الحديدية • ويسأل سائق التاكسى الواقف فى انتظار القادمين •

ـ ما أول قطار الى مصر

ـ بعد دقيقتين

ـ لمـاذا لم يصل اذن الى المحطة

ـ سلامتك يا أستاذ ها هو ذا واقف على •••

وقبل أن يكمل السائق جملته يكون سامى فى القطار دون أن يشترى تذكرة ودون أن يفكر ان كان ما فى جيبه يكفى ثمنا للتذكرة أم أن ما معه لا يكفى ويتحرك القطار •

ــ الى أين ؟ ما هذا الذى فعلته ؟ اقتل انسانا وأهرب ! ؟ كأنى اذن أبى ما الفارق بينى وبينه ؟ لمــاذا نلوم الناس ونفعل فعلهم ! ألم يكن الأجدر بى وأنــا الذى أوثق أســبابى بالســماء وأقرأ ما أقرأ أن أكون أكثر هدوءا وروية ؟ نعم أعلم أننى لم أتمالك نفسى وأنــا أرى أخى يكاد يموت تحت هول الضربات ولكن أى فارق بينى وبين الحيوان اذا أنــا تركت مشاعرى تتحكم فى دون أن أحيطها بسياج التعقل والتفكير ؟ أليس بالعقل وحده فضل الله الانسان على ســائر المخلوقات فما فائدته اذن اذا لم يجعلنا نتروى عند غضب ، ويعصمنا عند ثورة ، ويدرأ عنا عادية المعاصى ؟ وهل هنــاك أكبر من القتل ؟ اننى كأننى قتلت الناس جميعا ؟ ويل لى أى ويل . ويل لى من الله فوحق الاله سبحانه اننى لا أخشى غير سخطه . واننى وحــق الاله سبحانه لا أخشى الموت وانما أخشى الله فأنا كادح اليه فملاقيه سبحانه وانه ملق بى الى حيث العصاة ؟

أكنت حين جريت وهربت عبدا تائبا ؟

أنــا لم أبدأ فى أعمال العقل الا حين تحرك القطار . أى انسان أنــا ؟ بل اننى أنــا الانســان الذى قال عنه خالقــه قتل الانسان ما أكفره . أنــا الانسان بكل شروره وطغواه وجبروته ؟ ان صــلاتى ونســكى وصيامى وحبى لربى وعلمى وثقافتى كل هــذا لم يجعلنى اتصرف كما ينبغى أن يتصرف العقلاء . غائب العقل كنت حين ألقيت بالفتى وغائب العقل حين جريت وغائب العقل حين ركبت القطــار . والآن ها أنذا أعود الى عقلى ويعود الى ... افترانى أستطيع أن أنزل عند أول وقفة للقطار وأقفل عائدا الى حيث كنت لأتحمل نصيبى من العقاب ولأواجه آثار ما قدمت يداى .

هل أستطيع !

ولم لا ؟

وما لى لا أفعل

اذن فهلم

هــلم

ووقف وكان القطــار سائرا فقعد ينتظر وقوف القطــار . وحين استقر به المقام الى أين .. وكيف أعود الى قوم ثائرين ؟

وما لى لا أفعل .

ليس مع ثورتهم منطق

وفيم تريد المنطق .

أو ليس هو الحكم الطبيعى بينى وبينهم ؟

أى حكم ؟ انك قتلت وعقوبة القتل هى القتل ففيم تريد المنطق ؟ لا تخفيف فى عقوبة القتل .. لا تخفيف فى عقوبة القتل اذن أعود . واذن أقتل ... واذن ... وألقى عليه النوم بقوة لا قبل له بها ولا يد له فيها . وتجلى له الشيخ النورانى صاحب الحوت .

ــ لا تعــد

ــ أليس من الطبيعى أن أواجه عقابى

ــ أى عقــاب

ــ عقاب القاتل

ــ أقتلت عن عمد

ــ لا ... لا طبعا أعوذ بالله

ــ اذن فلست القاتل الذى يعاقب بالاعدام

ـ ولكننى أعلم أننى أملك قوة جسمانيـــة خارقة وهبها الله لى. وكان ينبغى أن أتحسب حين أضطر الى استعمالها •

ـ هل كنت فى تمام وعيك حين فعلت ما فعلت

ـ كان انقاذ أخى هو كل ما أفكر فيه

ـ وقد تصرفت بما أنقذ أخاك

ـ نعـــم

ـ ولم تتصور انك قد تقتل زميلك

ـ لا

ـ اذن فلابد من مناقشة هذا جميعا قبل أن يقع بك العقاب.

ـ مع من أناقشه

ـ مع كل الذين يسائلونك

ـ صاحب الثأر لا يسأل

ـ اذن لا تعد

ـ ولكننى أنـــا أسائل نفسى

ـ هل كنت تريد قتله ؟ !

ـ أعوذ بالله العلى العظيم

ـ اذن لا تعد الا حين تعـــلم انك تستطيع أن تجـــادل الذين سيواجهونك

ـ لا جدال معهم

ـ اذن لا تعد

ـ أظل هاربا

ـ وما تعلم نفس ماذا تكسب غدا

ـ ولكنى قتلت

ـ عن غير عمد

ـ الموت شىء فظيع

ـ ليس كما تظن

ـ ألم يجعل الله منه قصاصا

ـ ان القصاص ليس فى الموت نفسه وانما فى العلم به

ـ انه قصـــاص

ـ ان الساعات التى يعلم فيها القاتل انه سيقتل جزاء ما فعل هى القصاص الحقيقى أما الموت نفسه فشهيق لا يعقبه زفير أو زفير لا يعقبه شهيق . انما الموت لحظة . لمحة . ومضة لا أكثر ولا أقل .

ـ وحزن الأهـــل

ـ أســـف وتشـــوق . ولكنهم يعلمون انهم جميعـــا لاحقون بعزيزهم

ـ ألا يطهرنى القصـــاص من الخطيئة .. ألا يجعلنى احتمـــال العقوبة مغفورا لى عند ربى

ـ انه سبحانه كتب على نفسه الرحمة وهو وحده من يعـــلم أين يضعها . قد يغفر لك دون أن يقع بك القصاص وقد لا يغفر لك وان وقع بك القصاص وهو وحده الذى يغفر وهو العدالة المطلقة .



بلغ سامي القاهرة ونزل من القطار لا يعرف مقصدا ولا متجها • وانما هو يسير على الرصيف ويخرج به الى الساحة ويقف لحظات على سلم المحطة وتتناوشه الأيدى والأكتاف وخطوات الآخرين الذى يعرف كل منهم طريقه ووجهته • ويزوغ منه البصر ويعلو به وجيب قلبه حتى ليطغى على السمع منه والبصر • وتتدافعه الأيدى فى عنف يزداد فى لحظة عن اللحظة السابقة ويجد نفسه آخر الأمر قد نزل السلم ويحاول الوقوف على الرصيف ولكن حركة الركاب تجرفه ويضطر آخر الأمر أن يفيق وينتزع نفسه انتزاعا من مجرى الزحام وينتحى من ساحة المحطة ناحية هادئة بعض الشيء •

ماذا أنا صانع • والى أين بى المسير فى هذه القاهرة الضخمة وكل علمى بها أن ساكنها ضائع فيها فما خطبى أنا وأنا لم أرها الا اليوم • وهل رأيت منها شيئا الا دفاع أقدام ينتهبون الأرض بخطاهم كأن الانسان منهم يجرى وراء عمره خاشيا أن يضيع منه فى الزحام •

كل ما معى عشرون جنيها ماذا أنا صانع بها • أترانى ضعت

من الحيـاة • سـبحان الله ••• أعـوذ بالله من الشـيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » صدق الله العظيم •

ان معى ايمانى بالله ويقينى به يقينى • ومعى قوة الجسم • ومعى شجاعة القلب • ومعى ثقتى أن الله لا يضيع عباده المخلصين • وأى سلاح أقوى من هـذه الأسلحة التى أتحصن بها •

وما لى لا أمشى فى مناكبها • وأرى ماذا هى صانعة بى ومـاذا أنـا صانع فيها • هلم المسير •

ومشى وعبر الساحة وخرج من البـاب وترك قدميه تختـاران الطريق يتبعهما ولا يأمرهمـا وقد أحس أن العقل لا عمـل له الآن وانما النظرة وحدها هى التى تتحكم فى كيانه ••• وفى لحظـة أحس أنه يتبع شيئا لا يدريه وان خطواته استقامت على طريق من الهـدى لا يدرى مأتاه • سارع فى شـارع ابراهيم وكأن قوة عليـا تحركه والغريب فى أمره أنه لم يحـاول أن يتعرف معالم الطريق ولا الاسماء التى تحملها اللافتات على جانبى الشارع انما هو يمشى وكأنمـا ولد بهذا الشارع وكأنه يعرف كل خافية من خوافيه • وطـال به الطريق وهو يحس طوله ذاهل هو عن المكان والزمان وانما يمشى ثم وقف •

ثم نظـر

لافتة كتب عليها شركة تعمير سيناء • صعد السلم ودلف فى شقة ذات بهو واسـع عريض يجلس فى صـدره على مكتب صغير رجل فى أواسط العمر قصد اليه •

ـــ السلام عليكم

ـــ وعليكم السلام يا ابنى ورحمة الله وبركاته

ـــ أليست هذه شركة تعمير سينا

ـ نعم هى

ـ لا شك انكم تريدون عمالا

ـ هو ما قلت

ـ فهل أصلح

ـ ماذا تريد أن تعمل

ـ أى عمـــل

ـ نحن لا نحتاج الى أعمال مكاتب

ـ وأنـــا لم أقل أننى أريد عملا فى مكتب

ـ أمعقول هذا يابنى

ـ ماذا تقصـــد

ـ ان هيئتك تدل على أنك متعلم وعلى جانب من سعة العيش

ـ وحدسك صادق فى النظرتين

ـ وتقبل أن تعمل فى أعمال البناء الشاقة

ـ وأرحب بهـــا

ـ يا ابنى لن أناقشك فلكل انسان ظروفه ... هل معك بطاقة

ـ ها هى ذى

ـ متى تريد أن تسافر ؟

ـ ان كان هناك عمال سيسافرون اليوم فما أحب الى أن اسافر اليوم .

ـ اذن فأنت ستسافر اليوم

ـ أكرمك الله

ـ اقعد هنا .. فأنت ستسافر بعد ساعة

***

اذن فأنا فى سيناء فى رحاب الوادى المقــدس . ما أعظم هــذا الذى اختاره لى الله .

نام مع العمال وسمع الى أحاديثهم فى صمت منه مطبق لا يجيب الا اذا سأله منهم محب للاستطلاع .

وفى الصباح بدأ العمل وتوالت الأيام حتى اكتملت أسبوعا وهو يقوم بعمله فى طاعة وفى عزم وفى قوة واضحة تفوق عشرات الرجال .

وكان اذا انتهى يوم العمل ترك اخوانه وراح يوغل فى المنــير بجانب الجبل ونفسه ترف من الخشوع والسعادة وترقى به الى مدارج من النورانية الوضاءة المتألقة . وكان منذ اليوم الأول قد اختار مكانا أنس اليه يجلس فيه وتسبح روحه طليقة وهو يقرأ القرآن مخافتا حينا أو مجــاهرا .

لم يكن يعرف الأجر المقرر له ولم يسأل ولكنه وجدهم يعطونه فى نهاية الأسبوع الأول عشرين جنيها فرح بها كل الفرح . فالطعــام يقدم اليهم مجانا والمبيت أيضا فهو لا ينفق شيئا .

ومضت به الحياة وهو فى سعادة أنسته منيب ذلك القتيل الذى تركه بأعمــاق الصعيد وأنسته أيضــا أبــاه ذلك الطاغيــة العاتى وأنسته أمه أو التى يظن أنها حلت مكان أمه والتى كان يحس منهــا الحنان الدافق يفوح منه عبير الأم السماوى . وأنسته أخاه مأمون وقد كانت علاقته به أقوى من أى أخوة بين أخوين . فقد كان يشعر أنه جزء منه لا يتجزأ .

نسى هذا جميعه فى غمرة العمل عند الصباح وقد كان يبدأ مع

شروق الشمس • ونسيه أيضا فى ساعات البهجة الروحية الكبرى التى كان يحسها فى مسيره بجانب الجبل وفى جلسته التى أنس اليها وأنست اليه •

ومضى عليه فى عمله وفى أثباج سبحاته العلوية شهر وأربعة أيام • وكأنه فى حلم يحرص أن يحلمه وأن يطول مكوثه فى رحابه •

وفى يوم طال به الجلوس فى مكانه الأثير وغابت الشمس فلم يحس لها غيابا فالنور فى داخله أعظم اشراقا من نورها • ومضت الساعات حتى أحس كأن هاتفا يوحى اليه أن يقوم •

فنهض وأخذ طريقه الذى تعود أن يسير فيه • وهو يقلب ناظريه فى كل ما يحيط به • وفجأة رأى نارا على مدرجة من الجبل عالية فعجب من ذلك الذى يشعلها هناك • وتملكه حب التعرف فراح يصعد الجبل يؤم النار فهى سمته وأحس بالجهد ولكنه واصل الصعود دون محاولة منه للتفكير فيما يصنعه • لقد صمم أن يعرف معنى وجود النار فى هذا المكان تصميما ليس له فى دخيلة نفسه سبب واضح • وصعد • ونال منه الجهد كل منال ولكنه صعد • وأخيرا بلغ النار •• مشتعلة هى ولكن النور الذى يخرج منها أقوى من جذوتها فراح ينظر اليها ويطيل النظر مبهورا دهشا • وجلس وكان الليل باردا قارس البرودة فنشر يديه فوقها عله أن يصيب بعض الدفء وما هى الا لحظة حتى ملكه النعاس • فنام فى جلسته ويداه ممدودتان فوق النار تمدان كيانه بالدفء والطمأنينة •

وفجأة بدا له فى المنام ذلك الشيخ النورانى

ـ الام بقاؤك هنا يا سامى

ـ وما الضير فى ذلك

ـ أهكذا تريد أن تقضى حياتك

ـ وهل مازالت لى حياة بعد الذى صنعت

ـ انك لست علام الغيوب

ـ استغفر الله العظيم

ـ اذن فأمامك الحياة كلها

ـ فى السجن

ـ هذا ليس من شأنك

ـ وهل فى هذا شك ؟

ـ ان الله وحده الذى يعرف ما الذى يخفيه الغد

ـ أولا تخبرنى

ـ استغفر الله العظيم

ـ اذن كيف أعود الى الحياة وقد قتلت نفسا بغير نفس

ـ انك عائد لا محالة . ان لم يكن اليوم فغدا . فهذا البناء الذى تشارك فى بنائه لن يستغرق من حياتك الا وقتا ضيئلا

ـ هذا حق

ـ عد من غدك وانظر فى أمرك

ـ والسجن

ـ واجه حياتك

ـ بما فيها أبى

ـ ربما كنت أنت خير من يواجه أباك

ـ أنا

ــ أنت تحفظ القرآن وأنت عظيم الايمان وقد وهب الله لك قوة لا مثيل لها فمن يواجهه اذا لم تواجهه أنت

ــ وتهمه القتل التى تلاحقنى

ــ أنت لم تقتل عمدا ولئن تسجن فترة ثم تخرج الى الحيــاة خير من أن تحكم أنت على نفســك بالسجن داخل نفســك مدى الحيــاة

ــ أهل أعود اذن

ــ واجــه مصــيرك

ــ وأبــى

ــ وماذا عن أبيك

ــ انه أبى

ــ وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهمــا فى الدنيا معروفا واتبع ســبيل من أنــاب الى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون

ــ أو مشرك هو

ــ لقد أشرك مع الله نفســه وثأله فى الأرض وافشى الظــلم بين الناس وأصاب منهم الأموال والأرواح

ــ وماذا أنــا مستطيع قبله

ــ بالايمان ستواجهه وبالعلم

ــ وأخــى

ــ ماذا ترى فيه ؟

ـ انه قطعة منى

ـ ففيم خشيتك !

ـ سيؤازرنى

ـ فتوكلا على الله

ـ انه نعم المولى

ـ وانه نعم النصير

وصحا سامى من غفوته ونظر الى النار فوجد الجذوة فيها أقوى من النور • فراح يردد كلمات الله سبحانه وتعالى « فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » صدق الله العظيم •

١٣

وصل الى القاهرة والشمس تميل الى الغروب وركب السيارة العامة التى تؤدى الى الجيزة وكان قد عرف كيف يركبها من زميله سلمان المعسرانى الذى اشار عليه أن ينزل فى شقة بعمارة بشارع رستم بالجيزة تعود صاحب البيت أن يؤجرها لطلبة الجامعات •

نزل فى ميدان الجيزة منفذا تعليمات سلمان وبدأ يسأل المارة عن شارع رستم وراح كل واحد يدله عن طريق يتضارب مع الطريق الذى دله عليه الآخر • وتلوى به السبيل وتشابكت الشوارع والسبل وأقبل الليل وحل الظلام الا قليلا من نور يتلصص من نوافذ المنازل وفى عتمة من طريق سمع أصوات قوم تأتى اليه خافتة ولكنها حاسمة • وكان سامى ذا سمع حاد فاقترب قليلا ثم رأى ثلاثة نفر ملتفين حول فتاة وسمع أحدهم •

ـ ستأتين معنا شئت أم أبيت

ولم يسمع سامى اجابة

وسمع صوتا آخر يقول :

ـ لو علا صوتك ستجدين هذه المطواة فى صدرك .

واختبأ سامى ثم ألقى النظر خفيــة فرأى أحدهم ممسكا برأس الفتاة وهى تقاوم مقاومة عاجزة . ونفض سامى الطريق بعينيه فوجـد النور المتهافت قادما من شباك يقع فى الناحية التى يختبىء فيها ووجد ما يقرب من سعة متر على طول المسافة التى تفصـل بينه وبين المجرمين معتمة تماما فالتصـق بالحـائط وراح يخطو خطوات جانبيـة الى المعتدين لا يرونه حتى انقض فجأة على ذلك الذى يطوق وجه الفتاة ورمى به الى الأرض وفى لمحة خاطفة كان الاثنان الآخران على الأرض مع زميلهما وحاذر سامى أن يضرب بكل قوته حتى لا يصل الأمر الى جريمة أخرى . فقد كان وهو يخطو خطـاه المتئدة المخـاذرة يفكر فى روية أنقذت المعتدين وأنقذته أن يرتكب جريمة أخرى .

قـال للفتـاة :

ـ لا تخـاف

ـ الله يحميـك

ـ لن أترك هؤلاء حتى أذهب بهم الى الشرطة ... أين الشرطة

ـ قريبـة من هنـا

ـ فهيـا بنـا

ـ وكيف ستثبت للشرطة

ـ تقولين الحقيقـة

ـ وماذا يجعلهم يصدقون

ـ سيعترفون

ـ لن يعترفوا

ـ سأجعلهم يعترفون

ـ لن تصدق الشرطة شيئا . ولن تصدق أن شخصا واحدا تغلب على ثلاثة مجرمين وسوف تظن أنك أنت الذى هددتهم بالسلاح

ـ اذن اتركهم ؟؟

ـ هـذا رأيى

ـ وحق المجتمع

ـ منهم الى الله

ـ لقد قلتها . ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم لابد أن أذهب الى الشرطة . هلم أرينى الطريق الى الشرطة .

وعجبت الفتاة وهى ترى سامى ممسكا بالثلاثة وهم مستسلمون له فى غير عناد ودون أن يستعمل سلاحهم بل انه أمر الذى كان ممسكا بالسلاح أن يطويه ويضعه فى جيبه ففعل . وازداد عجب الفتاة وهى ترى المجرمين الثلاثة ينقادون لسامى وكأنهم واقعون تحت سيطرة قوة عليا لا يملكون منها فكاكا . وسار الركب الى قسم البوليس وألقى سامى بحمله أمام المسئول وأدلت الفتاة باسمها وعرفه سامى . انه رشيدة مسعود النبوى . طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب وتمت كتابة المحضر . وحجز المتهمون الذين وجدوا ألفسهم يعترفون بجريمتهم دون أى مقاومة فقد كانت نظرات سامى كافية لتجعلهم يفقدون كل سيطرة على عقولهم . وقع سامى فى حيرة حين سأله المحقق عن عنوانه الا أنه سرعان ما قال الحقيقة عن عودته من سيناء ومن أنه فى طريقه الى شارع رستم . وحين سأله المحقق أين نخاطبك ان أردنا شهادتك تطوعت رشيدة بالقول :

ـ خاطبوه عندنا فسوف أعرف عنوانه

وخرج سامى ورشيدة

ـ لا أعرف كيف أشكرك

ـ انها الصدفة وحدها

ـ أين أنت ذاهب ؟

ـ كما سمعت

ـ وهل تضمن وجود مكان بهذه الشقة

ـ على أن أجرب

ـ تعال معى الى أبى

ـ الآن ؟

ـ لابد أن يتعرف بك ولابد أيضا أن أروى له ما حدث حتى يعرف فيم تأخرت .

ـ اذن هيـا .

وبلغا العمارة ... كانت عمـارة متوسطة الحـال وفى أواسط العمر بناها صاحبهـا قبل أن يدمر الحـاكم الصـلات بين المـالك والمستأجر بتلك القوانين التى أوقفت البنـاء فى مصر تماما . كانت رشيدة تسكن مع أبيها فى الطابق الثانى من العمارة . وكان السـلم معتما ولم يستطع سامى أن يرى شيئا واضحا من ملامح رشـيدة فقد كان لقاؤهما فى الظـلام . وكان النور خافتا كل الخفوت فى قسـم الشرطة فكان كل ما يعرف عن كيان رشيدة أنها فتاة نحيلة ذات وجه ضامر مع أن معرفتـه بها كانت قد تجـاوزت عدة ساعات قضاها فى صحبتهـا .

وحين بلغا الشـقة فتحت رشيدة الباب بمفتـاح معها ودخلت

وأوقدت النور فى البهو ورآها ، فتاة صبيحة الوجه هادئة القسمات زكية العينين تحكم وثاق شعر لا يثور ولا يتمرد تلبس فستانا جميلا فى تواضع وغير بهرجـة ، ورأت هى فيه فتى مطمئن الملامح حـاد القسمات فارع الطول فى عينيه سماحة حاسمة وفى فمه هدوء الايمان وقوته فى آن واحد .

فى لمحة من لحظة عرف كل منهما وجه الآخر وصـوب الأب يعلو من احدى الحجرات .

ــ أهذا أنت يا رشيدة

وتجيب رشيدة فى حب واحترام

ــ نعم يا أبى

ــ تأخرت تعالى

وتقول رشيدة فى صوت هادىء لسامى :

ــ تعـال

وتقصد الى الباب المواجه لباب الدخول وتدخل ثم تردد لسامى

ــ تفضـل

ويسمع سامى الأب وهو يقول :

ــ مـين ؟

وقبل أن تجيب رشـيدة تضمهم جميعا غرفـة مكتب يجلس فى صدرها رجل واضح الطيبة زكى الطلعـة يلبس نظـارة سميكة تدل دلالة واضحة على مقدار ما يعانى من ضعف البصر ، وتقول رشيدة :

ــ أبى هذا سامى زين الرفاعى

ويقول الأب ذاهــلا :

ــ أهلا وسهلا يا ابنى . تفضل . اقعد

وقعد وتقول رشيدة :

ــ أنقذنى يا أبى من هلاك محقق .. كنت فى طريقى الى المكتب بعد أن سلمت أوراقا كتبتهــا على الآلة فى شــارع رستم فاذا ثلاثــة رجــال ...

وراحت رشيدة تقص على أبيها فى أمانة وفى اسهاب كل ما وقع لها فى ليلتها تلك وسامى يرقب وجه الأب الذى بدا له وكأنه صفحــة نقية يرتسم عليها كل ما يعتمل فى نفس الأب من خوف ومن غيظ ومن اعجاب ومن سعادة . حين انتهت رشيدة من قصتها التفت الأب الى ســامى

ــ شكر الله لك يابنى وكافأك أحسن ما تكون المكافأة

وتقول رشيدة وكأنها تستدرك :

ــ يا سامى أبى الدكتور مسعود النبوى أستاذ تاريخ بكليــة الآداب

ــ أهلا يا أستاذنا ... أهلا وسهلا

ــ أهلا بك يا ابنى

ثم التفت الى ابنته

ــ أمازلت مصرة على العمل فى مكتب الآلة الكاتبة هذا

ــ اذا لم تمنعنى يا أبى فأنا أحب أن أعمل ولكننى أعدك أننى لن أذهب بعد اليوم الى أحد بأوراقه

ــ وهل تذهبين عادة

ـ لهذا الزبون فقط فهو مقعد وأنــا أشفق عليه • وهو يعيش مما يكتبه للاذاعة ومرتبط بمواعيد ولكن هــذا جميعه لن يجعلنى أسير فى الشوارع المظلمة وحدى بعد الليلة أبدا •

والتفت الدكتور الى ســامى

ـ يا ابنى لا تعجب فأنا أعمل أستاذا متفرغا كما يقولون وهى من اسماء الاضــداد فقد خرجت على المعاش من سنة تقريبا ولا احاضر الا ثلاث محــاضرات فى الأسبوع وأنــا أحاول أن أكتب كتابا عن تاريخ التحضر فى الشرق الأوسط فأنا منصرف اليه • ودخلنا لا يكفى أدويتى ومراجعى ونفقاتنا ولهذا رأت رشيدة أن تستعين على الحيــاة وتعيننى •

ـ أنعم بكما واكرم ••• أب عظيم وابنة عظيمة

ـ أكرمك الله يا ابنى ••• وأنت من أين

ـ أنــا ••• أنــا من الصعيد • ووجئت الى مصر وذهبت الى سيناء وقدمت منها الليلة بأمل البقاء هنا وكنت فى طريقى الى شــقة للطلبة سمعت عنها فى شارع رستم •

وأدرك الدكتور الذكى أن هــذا فقط ما يريد محدثه أن يقوله عن نفســه فلم يسأل ســؤالا واحدا يجعله يقول ما لايريد وانمــا قــال له •

ـ وهل سكنت فى هذه الشقة التى تقول عنها قبل اليوم

ـ أنــا لم أحضر الى القاهرة قبل هذه المرة

ونظر الدكتور الى رشيدة

ـ رشيدة الحجرة التى كان يسكنها عبد السلام ما شأنها

ـ خالية يا أبى

ـ هل أخذ عبد السلام ما له فيها

ـ نعم فقد حصل على الليسانس وأحسب أنه لن يعود فى العام القادم

والتفت الدكتور الى سامى

ـ أقم بهذه الحجرة وبها حمام أيضا وتصلح لك

وارتبك سامى قليلا وهم أن يقول شيئا ولكن الدكتور يعاجله

ـ اسكن بهـا أولا • وسنتحدث عن الأجـرة فى الغد بعد أن تستريح اليوم من عناء السفر والعراك وحماية ابنتى من الذئاب •

خذيه يا رشـيدة الى الغرفة ولا أوصيك به ففضله علينا كمـا تعرفين عظيم •

وصعد سامى الى الغرفة ومعه رشيدة تحمل ملاءات نظيفة فرشتها له على السرير وتركته بعض الوقت وعادت له بالعشاء • واستقر به المقام بعد يوم طويل عصيب •

***

فى الصباح الباكر كان سامى بمقر التليفون العمومى وطلب منزل أبيـه فى البلدة مقدرا أن الاجـازة الصيفية لم تنته بعد وأن مأمون ووالدته سيكونان بالقرية •

وأجاب مأمون على التليفون وما أن سـمع صـوت أخيه حتى صـاح

ـ سامى أين أنت • منيب لم يمت • كان مغمى عليه فقط

ـ أحقا ••• احقا

ـ اننا نبحث عنك فى كل مكان أين أنت

ـ أنـا فى مصر

ـ عنوانك ••• ما هو عنوانك

ـ ما أخبار نتيجتى

ـ أحرزت تسعين فى المـائة من الدرجات وقدمت لك فى كليـة الآداب قسم التاريخ كما كنت تريد ••• عنوانك

ـ تعال الى اليوم أو غدا يا مأمون واكتب عنوانى

خمسة وخمسين ميدان وجدى بالجيزة

ـ كلم يا سامى كلم

وتكلمت اليه الأسرة جميعا وهو يكاد يطير من الفرح • وتنتهى المكالمـة ويخرج الى أقرب جامع ويروح يصـلى ركعات لا عدد لها شكرا لربه ••• لقد كان ينتوى أن يظل هاربا من الحياة كلها من أجل جريمة توهمها ولم تقع •

وحين انتهى من صلاته انتحى من الجـامع ركنا وراحت الدموع تنسكب من عينيه راوية بالسعادة وكأنما أراد أن يغمر بهذه السـعادة كل جارحة من جسمه لا يكتفى بها هادرة صاخبة فى القلب وحده •

عاد الى البيت • وصعد الى غرفته قفزا ••• فوجد رشيدة تنظم الحجرة •

ـ وبعد يا ست رشيدة

ـ أين ذهبت

ـ تعالى معى

ـ الى أين

ـ هل صحا الدكتور

ـ نعـم

ـ اذن فتعالى معى

وقصدا الى الدكتور وراح يقص عليه قصته جميعا لم يخف عنه حتى ما عرفـه عن أبيه من طغيان وظلم . والدكتور يسمع فى هـدوء لا يقاطعه وانما يلاحقه وسامى يحس أن الرجل يشـعر بكل خلجة فى صوته أو فى صدره حتى اذا انتهى من الحديث جاءه صوت الدكتور وكأنما يتصاعد اليه من أعماق بئر بعيد الغور .

ـ بارك الله فيك يابنى ووفقك فى كل ما تسعى اليه

وظلت رشيدة فاغرة فاها فى دهشة بالغة وكأنما لم تكن تتصـور أن هـذا الفتى الحدث يستطيع أن يدرك معانى الخير والجبروت بكل هذا الصدق والايمان والوضوح .

***

فى اليوم التالى كانت غرفة سامى تغص بأبيه وأمه ومأمون وفواز جميعا لا يصـدقون عيونهم أنهم يرون سامى ثم يقول الأب :

ـ منذ الغد أبحث لك عن شقة مفروشة تليق بك

ويقول سـامى :

ـ ان هذه الغرفة هى التى تليق بى

ويقول الأب فى غضب :

ـ ماذا تقول ... أتريد أن تشـهر بى بين الناس ويقولوا انه تارك ابنه فى حجرة فوق السطح

ـ أى ناس يا أبى . اننا هنا فى القاهرة ولا أحد هنا يعرف الآخر وهذه الحجرة تكفينى بل وتكفى معى مأمون أيضا . وفواز

ــ مــاذا

ــ ليس من المعقول أن يتعــلم كل منا فى ناحيــة ... القاهرة تستطيع أن تعلمنى وتعلم مأمون وقد علمت العرب أجمعين

ويلتفت زين الى الأم

ــ أيعجبك هذا الكلام

وتقول الأم فى فخر :

ــ انه خير كلام . انه يريد أن يتعلم ولا يريد المظــاهر الفارغة ولا يحتاج اليها

ــ فان جئنا لزيارته

ــ نزوره ونبيت فى الفندق الذى سنبيت فيه الليلة

وأحس الأب بالخذلان ثم التفت الى سامى

ــ ألا تأتى معنا حتى تنتهى الاجازة

ــ بل أنــا الذى سأبقى مأمون معى وفواز حتى تنتهى الاجازة ثم أدخل أنــا الى الجامعة

ــ وفيم بقاؤكم لبداية الدراسة

ــ لأقدم لمــأمون فى مدرسة السعيدية القريبة من الجامعة ونعد أنفسنا للقاهرة وتتعرف عليها ... فهى مقامنا الجديد .

وأطرق الأب قليلا . ثم قال :

ــ خــذ

وأخرج حافظتــه وراح يعد ثم أعطى سامى مبلغا من المــال . ونظر سامى الى المــال وخيل اليه أنه يقطر دما وأوشــك أن يرفض

ولكنه فى لحظة رأى نورا يحيط بالمال وأزمع أمرا ومد يده وتناول المبلغ الذى لم يتبين عدده وقال الأب :

ــ هذا المبلغ مائتا جنيه وسوف أرسل لك كل شهر مثل هذا المبلغ لك ولأخيك وأوشك سامى أن يقول هذا كثير ثم ما لبث أن قمع الجملة فلم تخرج وانما نطق بدلا منها كلمة واحدة •

ــ شكرا

ونظرت الأم نظرات عميقة فى عينى ابنها وكأنما تبينت ما فيهما فقد كانت تنتظر أن يطلب الى أبيه أن ينقص المبلغ الى الربع أو النصف • ودهشت من هذا الشكر المستسلم الذى أبداه حتى اذا أنعمت النظر فى عينى ولدها حل الرعب مكان الدهشة وتعالت أنفاسها ولم تقل شيئا •

وخرج الأبوان ليسافرا وخرج معهما فواز ليعود بحقيبة مأمون وحقيبته وما أن خلت الغرفة بمأمون وسامى حتى وجد كلا الأخوين نفسه مندفعا الى أحضان أخيه وراح كل منهما يضم الآخر وكأنما يريد كل منهما أن يصبح جزءا من كيان الآخر • وانهمرت دموع فرح وشوق وحنين •

وحين جلسا قال مأمون :

ــ سامى انك تضمر شيئا

ــ نعم

ــ قله

ــ بل انتظر

ــ اتخفى عنى

ـ لو أخفيت عن نفسى ما أخفيت عنك

ـ اذن

ـ هى فكرة بدت لم تتضح معالمهـا لن أطلعك عليها الا حين تصبح صالحة أن أفكر فيها .

ـ وأنـا قبلت .

***

١٤

قال الدكتور لسامى :

ـ سامى ماذا أنت صانع فى وقتك

ـ تقصد أوقات الفراغ

ـ هذا ما أقصد ••• وأنت منذ الآن فى فراغ حتى تفتح الجامعة ثم أنت بعد أن تفتح الجامعة لن تحتاج الى وقتك كله للمذاكرة •

ـ أعلم ذلك •••

ـ اذن

ـ قل لى أنت يا دكتور ما الذى جعلك تسألنى هذا السؤال

ـ ربما كان لى فى ذلك مأرب

ـ انه أمر عجيب

ـ ومن أين العجب

ـ أننى كنت قادما اليك من أجل هذا

ـ كنت قادما من أجل ماذا ؟

ـ لأبحث عن عمل لى وعمل لأخى

ـ ولكن كيف

ـ كيف ماذا

ـ ألا يرسل أبوكما لكما ...

ـ انه فى الحقيقة يعطى كلا منا مبلغا كبيرا أكثر مما نحتاج اليه ولكننى لا أريد أن أمس هذه الأموال

ـ تريد أن تعتمد على نفسك

ـ نعم

ـ وماذا أنت صانع بهذه الأموال ... هل ستردها الى أبيك

ـ بصورة أو بأخرى

ـ ونعم الأبناء أنتما

ـ رعاك الله

ـ اذن فاسمع ... أنا أريدك أن تعمل معى وتقرأ لى فأنت لاشك قد لاحظت ضعف بصرى

ـ ما أعظم هذه الوظيفة

ـ أما أخوك مأمون فسأجعل رشيدة تعلمه الكتابة على الآلة الكاتبة ويعمل معها فى المكتب الذى تعمل به

ـ أعجز عن شكرك

***

مر عام وانتصف العام الآخر ولم يذهب سامى ولا مأمون الى

البلدة بحجة أنهما فى القاهرة يعمــلان • ولكن الواقــع أنهما كانا لا يريدان أن يذهبا الى القرية قبل أن يتما تعليمهما • وكان الأب كثيرا ما يزورهما فى القاهرة وكثيرا أيضا ما كانت أمهما تأتى معه •

نما حب ناعم نضير طهور بين سامى ورشيدة • لم يجرؤ أن يظهر الا فى نظرة عين تطفر فلا يستطيع أن يكبح جماحها • أو فى ابتسامة معها تلاقيها ابتسامة منه لا تطيق أن تحجبها ويعجز عن اجابتها وحزم أمره بعد روية وتدبر :

ــ دكتور لى كلمة

ــ قلهــا

ــ أعلم أننى طالب ما أزال

ــ قل ما تريد ولا تطل فأنا لم أتعود منك أن تقول كلمــة الا فى موضعهــا

ــ اننى أحب رشيدة كل الحب

ــ وهى ؟ !

ــ ما كنت لأسألها

ــ باركك الله

ــ اذا قبلت ••• أكون •••

ــ واذا لم تقبل

ــ سأترك البيت • فأنا أدخل بيتك كثيرا

ــ لا تكمــل

***

ــ ما رأيك يا رشيدة

ـ ما رأيك أنت

ـ لا أستطيع أن أقول الا اذا عرفت مكانه منك

ـ أبى ••• انى أحبه • وانى أقدره

***

وجاء الأبوان وتزوج سامى من رشيدة وأصبح سامى يقيم مع عروسه فى شقة أبيها وترك الحجرة لمأمون • وانقضت سنوات الدراسة ونال سامى ورشيدة ليسانس الآداب • وبقيت سنتان دراسيتان أمام مأمون ليتخرج فى كلية الحقوق •

وكان على سامى أن يؤدى الخدمة العسكرية • فذهب الى المكان العسكرى الذى حدد له وتمت الاجراءات وبدأ سامى يبيت فى المعسكر حتى يتم توزيع القادمين على مختلف الأسلحة •

وكان الوقت صيفا وكان سامى وزملاء له كثيرون يتحلقون حلقات فى ضوء القمر • وكان سامى يستمع بينما كل منهم يروى ما تعن له روايته ••• فمن حكايات ضاحكة الى مآسى الى قصص أخرى لا تضحك ولا تبكى وانما تروى لينقطع بها الوقت وتهون ملالته • وفى لحظة صمت الجميع كأنما لم يجد أحد منهم شيئا يقول • كان السكوت لحظة أو أقل • واذا بواحد منهم يقول أليس بينكم من يحفظ القرآن أو شيئا منه • وقال سامى :

ـ أنا احفظه أو احفظ الكثير منه والحمد لله

وسأله آخر

ـ أتستطيع أن تجود

وقال سامى :

ـ أظن ذاك

وقــال آخــر :

ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اسمعنا أكرمك الله وتهيأ سامى وبدأ •

ــ أعوذ بالله من الشـيطان الرجيم بســم الله الرحمن الرحيم « سبح اسم ربك الأعلى • الذى خلق فسوى • والذى قدر فهدى • والذى أخرج المرعى فجعـلـه غثـاء أحوى • سـنقرئك فلا تنسى • الا ما شاء الله انه يعـلـم الجهر وما يخفى • ونيسرك لليسرى • فذكر ان نفعت الذكرى • سيذكر من يخشى • ويتجنبها الاشقى • الذى يصلى النار الكبرى • ثم لا يموت فيها ولا يحيى • قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى • بل تؤثرون الحيـاة الدنيـا • والآخرة خير وأبقى • ان هـذا لفى الصحف الأولى • صحف ابراهيم وموسى • » صدق الله العظيم •

كان سامى حين يقرأ ينصرف بجميعه الى آيات الله فلم ير الذهول من حوله وصموت الكون وخشـوع الكائنات جميعا حتى كأن القمر والأنجم قد اقتربت تتسمع الى صوت لم يسمعه الخلق من قبل • ومن كل حدب وناحية أقبل من فى الثكنات مبهورين يسيرون هونا لا يصدر صـوت من خطواتهم يشوب هـذا الجمـال الالهى الجرس الربانى النغـم •

وحين انتهى سامى من قراءته هوم الصمت المـأخود على الجميع وازداد القمر تألقا وبدت الأنجم وكأنمـا ترسـل كل واحدة منهـا شعاعا فيه عطر السماء تحية للصوت المتخشع الرخيم • فلم تكن روعة الصوت وحدها هى التى أخذت بكل هـذه المخلوقات وانما خشوع الرنين واخباته وكأنه متبتل يصلى فى محراب وفجـأة ارتفعت أصوات الاعجاب • وقال قائد الثكنة :

ــ سبحان المعطى الوهاب ما اسمك يا ابنى

وذكر سامى اسمه ورقم تجنيده وقال القائد :

ـ أنت معى فى مصر ان شاء الله

ـ أمـرك

ـ وفى أى سلاح تريد أن تتم خدمتك

ـ تمنيت يا سيادة القائد لو اننى اتقنت التصويب

ـ ولك ما تريد بعون الله

وهكذا أصبح سامى من خيرة الذين يصوبون

وأتم سامى الخدمة العسكرية بأحسن ما يتاح لمثله فكان يبيت معظم الأيام مع زوجته ويذهب الى الثكنة فى باكر الصباح .

***

وعين سامى بمدرسـة فى الزمالك وعينت رشـيدة بمدرسة فى الجـيزة .

١٥

شملول وصبيحة هذان الحبيبان اللذان أبيا الظلم • وأبى معهما أهلوهم أن يستضعفوا فى أرض قريتهم فهاجروا الى أرض الله الواسعة ليجدوا مراغما كثيرا وسعة وقد وجدوا ذلك الملجأ الفسيح عند أقاربهم فى القاهرة • وانفتحت أمامهم أبواب الرزق يمثلون الانسان حين يستكبر ان يعتو عليه انسان مثله ويمثل العاشقان منهما اسمى ما فى الحياة من معانى الحب تلك النسمة من نسائم الجنة التى شاء الله فى عالى سمائه أن يرسلها مع آدم وحواء حين أمر بهما أن يتركا جنته الفيحاء الى هجير الأرض •

فاذا ذلك الحب يصبح موئل البشرية وملاذها ومراحها ونداها يرطب به سبحانه وتعالى عداوات البشر فى تلك الحياة الدنيا التى تشابكت فيها المطالب وتصاخبت فاذا أبناء آدم بعض لبعض عدو الى يوم الدين •

حين احتجب الحب بين قابيل وهابيل قتل الأخ أخاه وحين عاد الحب يتنفس فى احناء قابيل واري سوأة أخيه • وهكذا بدأ الحب

مع البغضاء فى الأرض نسمة من نسائم الجنة لولاه لفنيت البشرية منذ عصورها الأولى وانتهت الحياة •

شملول وصبيحة زوجان يشد كل منهما الى الآخر منبت القرية والمهجر الى القاهرة ثم الزواج فكانت بينهما مع الحب المودة كل المودة والرحمة كل الرحمة وسكن شملول الى صبيحة وأنجب لهما الزواج ماهر ثم مختار • وكان شملول يعمل بالزمالك فى متجر الفاكهة ثم ما لبث أن أصبح صاحب المتجر جميعا • فكان يصحب ولديه الى المدرسة الاعدادية بالزمالك ويعود بهما فى الظهيرة وحين يعود هو الى دكانه يتركهما بين يدى صبيحة ترقبهما فى المذاكرة ثم يصحبان التليفزيون ان راق لهما أن يصحباه أو ينزلان الى أصدقائهما بينهم زملاء دراسة وجيران وبينهم جيران غير زملاء •

وصبيحة حريصة دائما أن تعرف منهما فى ملاينة ودون أثقال كل أبناء المدرسة واسماء المدرسين •

وأخبرها ماهر ثم أخبرها مختار بأسماء المدرسين الجدد الذين وفدوا الى المدرسة وذكر اسم سامى فيمن ذكر ولم تول الاسم أى اهتمام وما كلمة سامى بالنسبة اليها • وكم من « سامى » فى الحياة •

والعجيب أن سامى حين دخل الفصل الذى به ماهر وسأل الطلبة عن اسمائهم وقال ماهر اسمه ماهر شملول القط لم يلتفت سامى الى الاسم على الرغم من أنه اسم ليس مثل كل الاسماء ولكنه عبره دون التفات وكذلك كان شأنه فى فصل مختار أيضا ومرت الأيام فلا بيت ماهر ومختار علما أن ابن الذى أخرجهم من ديارهم يدرس لابنيهما ولا سامى يعرف أن من بين تلاميذه ذرية قوم عتا عليهم أبوه كل عتو •

وفى يوم • بينما كان سامى يدرس للفصل الذى فيه ماهر وحين

كان موليا ظهره للفصل يكتب على السبورة تعالت الى أذنه ضجة هامسة فالتفت فجأة فوجد ماهر محور هذه الضجة فاستدعاه .

ـ تعال أنت

فقد كان ناسيا لاسمه

وتقدم ماهر وجلا حتى وقف ازاءه

ـ ما هذه الضجة

ـ لا شيء يا أستاذ

ـ بل هناك شيء

ـ أنا لا ذنب لى

ـ ربما ولكن اللغط يدور حول مقعدك

ـ اسألهم سيادتك

ـ ماذا هناك يا أولاد

وساد صمت فاشار سامى الى التلميذ الجالس بجواره ونظر اليه نظرة عميقة ووجد الطالب نفسه يقول كل شيء

ـ ماهر

وقال سامى

ـ ماهر من

ـ ماهر هذا

والتفت سامى الى ماهر

ـ هل اسمك ماهر

ـ نعم يا أستاذ

وعاد سامى الى التلميذ الآخر وسأله

ـ هه • ماذا فعل ماهر

ـ أحضر معه بعض حبات من المشمش وراح يأكلها فى الفصل

ـ مشمش ! ؟

ـ نعـم

ـ وبعـد

ـ راح التلاميذ يطلبون منهم أن يعطيهم شيئا مما يأكل

ـ هذا كل ما فى الأمر

ـ نعـم

ـ لمـاذا تأكل المشمش فى الفصل يا ماهر

ـ أكلت حبة واحدة يا أستاذ

وقال سامى فى محـاولة أن يزيل الخـوف عن ماهر الذى رأى علامات الرعب بادية فى عينيه •

ـ هل اشتريت المشمش وأنت قادم الى المدرسة ؟

وازدرد ماهر لعابه من الخوف وتعالت فى الفصل ضجة سمع منها سامى كلمة أبوه ولم يتبين ما يليها فرفع يده الى التلاميذ وساد الصمت والتفت الى •

ـ ما اسمك كله يا ماهر

ـ ماهر شملول القط

وأعاد الاسم كل ما يحيط باسم شـــملول من ذكريات وتذكر قصة ذلك الفتى الذى أوقع أبوه بأهله أفدح الظلم وشك أن يكون شملول أبو ماهر هو نفسه شملول الذى سمع قصته فيما ســـمع عن مظالم أبيه . وأعاد الاسم على مسامع ماهر .

ـ ماهر شملول القط

ـ نعم يا أســـتاذ

ـ ما صناعة أبيك

وعلت أصوات التلاميذ حتى ابتلعت صوت ماهر وهو يقول فى صوت خفيض . فقد قالوا جميعا صناعة أبيه فى أصـــوات مختلطة لم يتبينها سامى

ـ فاكهى

وأشار سامى الى الفصل أن يصمت فصمت التلاميذ . وسأل ماهـــر

ـ مـــاذا

وقال ماهر :

ـ فاكهى

ولم تكن صناعة الأب ذات شأن فيما ثار بنفسه من شـــك حول اسم شـــملول

ـ ومالك لا ترفع صوتك لا تخف يا ماهر أنت لم تصنع شيئا يستحق منك هـــذا الخوف . قل لى يا ماهر هل أبوك من مصر أم من الأريـــاف

ـ أنـــا يا أســـتاذ ولدت بمصر ولكننى أعـــرف أن أبى من الصعيد وبدأ خيط من نور يخترق الشك الغامض

ـ ألا تعرف من أى بلدة فى الصعيد

ـ أظن يا أستاذ من بلدة اسمها التمرة

وانقطع الشك باليقين • لاشك اذن • وجلس سامى وصمت طويلا ثم قال لماهر

ـ لا بأس عليك يا ابنى لن أمسك بأى سوء • اهدأ • اهدأ تماما واذهب الى مكانك

وأكمل سامى الدرس حتى اذا دق الجرس وبدأ التلاميذ يخرجون الى الفسحة نادى سامى تلميذه ماهر وسأله :

ـ أين دكان أبيك يا ماهر ؟

وتلجلج ماهر وهمس أحد التلاميذ الى الآخر « الظاهر الأستاذ يريد أن يتعشى فاكهة الليلة » وضحك الذين سمعوا التعليق ولم يلتفت سامى الى ضحكهم وانتظر حتى خلا الفصل به وبماهر وقال له :

ـ لا تخف أنا أريده فى شىء خاص بعيد كل البعد عنك

واطمأن ماهر وقال :

ـ فى شارع حسن صبرى يا أستاذ

ـ وهل يذهب أبوك بعد الظهر الى الدكان

ـ نعم

ـ اذن فأخبره أننى قادم اليه اليوم فلينتظرنى

ـ أمرك يا أســتاذ

ـ هل أنت وحيد أبيك

ـ بل لى أخ وهو تلميذ هنا فى السنة الثانية واسمه مختار

ـ احضره لى غدا فى غرفة المدرسين لأتعرف عليه

ـ أمرك يا أســتاذ

ـ مع السلامة يابنى

١٦

صحب سامى رشيدة وذهب الى شـــملول • واشترت رشـــيدة بعض الفاكهة • وفجأة قال سامى دون أن يوجه الحديث الى آحد بعينه من الواقفين بالدكان •

ــ من شـــملول

وتقدم اليه فتى سمهرى القامة طيب الملامح بادى الوسامة

ــ أنــا شملول

ــ أنــا سامى مدرس ابنيك ماهر ومختار

ــ مرحبا أهلا وسهلا • شرفت هات كراسى يا درويش

وجلس ثلاثتهم أمام الدكان وبدأ سامى

ــ أنت من التمرة

ــ أتعرفهــا ؟

ــ كل المعرفــة

ــ لا أحسب انك سامى الذى نعرفه

ـ من سامى الذى تعرفه

ـ سامى زين الرفاعى

ـ أيغضبك أن أكون هو ؟

ويصمت شملول فترة ويقول سامى

ـ وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه

ويقول شملول فى استسلام

ـ صدق الله العظيم

ـ اسمع يا شملول لقد وقع عليك من أبى ظلم فادح

ـ اذن فأنت تعرف أنه ظلم

ـ الظلم الذى وقع على من أبى أشد

وظهرت الدهشة على ملامح شملول وقال

ـ عليك أنت

ـ الظلم الذى وقع عليك من أبى ظلم واحد أما الظلم الذى وقع على فهو كل ما أوقعه بالناس من قهر ومن اغتصاب لحقوقهم

ـ أو تشعر أنت بمعنى تحمل القهر

ـ أشعر كأننى أنـا الذى ارتكبت كل هـذه المظالم أو أشعر كأننى أنـا الذى وقعت عليه

ـ أو تريد أن تعتذر عن أفعال أبيك

ـ بل أريد شيئا أكبر من هذا

ـ مـاذا ؟ !

ونظر شملول الى رشيدة مندهشا فأومأت برأسها أن نعم وقال سـامى

ــ هذه زوجتى رشيدة وهى مدرسة أيضا

وقالت رشيدة

ــ صدقه يا شملول

ــ أمعقول هذا الذى يقوله يا ست

ــ انه يعيش فى جحيم مما يصنعه أبوه بالناس

ــ اذن فهو ليس ابنه

وتقول رشـيدة

ــ أنت تعرف أمه

ــ كانت أشرف الناس

ــ اذن فاعـلم أن أخـاه مأمون أيضـا يعيش فى جحيم مثـله مما يصنعه أبوهما بالناس

ــ أيصدق أحد هذا

وتقول رشـيدة

ــ وما لك لا تصدقه

ــ انه لا يدخل العقل

ــ ففيم تظنه قد جاء اليك وصحبنى معه

ــ لا أفهم ... ربما ... ربما

ــ نحن فى القاهرة . نبعد عن التمرة مسافات ومسافات ما كان أحراه أن يخفى أمره عنك وعن ولديك

ـ آمنت بالله ...

ويقول سـامى

ـ جل شأن الله

ـ فهل أطمع أن تعتبرنى صديقا لك

ـ هذا أمر يسير وقد تم فعلا ولكن أيكفى هذا

وينعقد لسان شـملول وينفتح فمـه فى ذهول ويجمع الحروف لتصبح كلمات ويقول

ـ الى أى طريق تسير بالحديث ياسى سامى

ـ الى طريق الحق والنور والعدالة ان شاء الله

ـ ان قلبى يوشك أن يقف من الخوف

ـ بل قلبـك سينتعش بالفرح ان شـاء الله . من كان مثلك لا ينبغى أن يعرف الخوف

ـ ماذا تريد أن تفعل

ـ اننا كلنا سنفعل ان شاء الله

ـ أنـا أريد أن أعيش حياتى

ـ وحقك الذى تركته هناك

ـ لقد مرت سنوات طوال

ـ مرور السنين لا يسقط الحق

ـ لقد أعدت الى الحياة ما أماتته السنوات

ـ ان العدالة ينبغى أن تكون أساس الحياة

ـ أتريد أن ننتقم من أبيك

ــ استغفر الله .. ليس الثأر ولا الانتقام مما يرضى الله عنه

ــ أنا فى حيرة مما تقول ... ماذا تريد أن تفعل أو ماذا تريدنا أن نفعل

ــ أنا قادم اليك فى بيتك

ــ أهلا بك وسهلا

وقالت رشيدة

ــ وأنا قادمة معه

ــ يا مرحبا

وقال سامى

ــ وسيأتى معى أخى مأمون ونريد أن نلتقى بصبيحة ونتعرف عليها . ثم نجلس معك أنت وصميدة ومحمود

وقال شملول فى بعض دهشة

ــ كأنك تعرفنا جميعا

ــ وأعرف عن أموالكم التى فى التمرة ما لا تعرفون جميعا

ــ اكاد لا أصدق

ــ اكتب هنا عوانك

واعطاه ورقة وكتب شملول عنوانه وهو يقول

ــ حسبتك تعرف عنوانى أيضا

ويبتسم سامى فى جذل ويقول

ــ ما كان أسهل على أن أعرفه من ولديك

ويضحك شملول وهو يقول

ـ آه صحيح ... نسيت هذا

ـ متى يناسبك أن تأتى

ـ الأمر اليك

ـ خير البر عاجله

ـ والأستاذ مأمون ماذا يعمل

ـ أستاذ كما ذكرت

ـ مدرس أيضـــا

ـ بل تخرج فى الحقوق هذا العام

ـ على بركة الله

ـ أيناسبك أن نأتى فى الغد

ـ تشرف فى أى وقت

ـ غدا فى السادسة ان شاء الله . السلام عليكم

ـ مع ألف سلامة



اجتمع أهل التمرة جميعا وانضمت اليهم رشيدة زوجة سـامى وفوزية زوجة صميدة التى تزوجها فى القاهرة وروحيـة زوجة محمود التى تزوجها فى القاهرة أيضا وكان الجمع كبيرا ولكن غرفات شملول لم تضق بهم • وقد بدأ الاجتمـاع بترحاب مصرى صادق حتى وان كان القادمون يلف قدومهم الكثير من الغموض المبهم غير الواضح • ومر الشاى على الجلوس • حتى اذا أنتهوا منه بدأ سامى فتعرف على أعمال صميدة ومحمود • ثم بدا الحديث •

ـ بسم الله الرحمن الرحيم

وقالوا جميعا بسم الله الرحمن الرحيم

وقـال سـامى

ـ ان الصمت على الظلم ضعف • وأنتم قد ظلمتم • وكنتم رجالا وأبيتم أن تذعنوا للظلم وخرجتم من دياركم وقدمتم الى مصر •

وهوم الصمت على الجميع فيه كثير من الذهول وكثير أيضا من التشوق وانتظار الحديث المقبل •

ـ ربما تكونون الآن فى خير حال • بل انكم لاشك قد استطعتم أن تجعلوا الحياة تستقر بكم استقرارا ما كانت لتستقره فى التمرة •

ـ وترددت الحمد لله • وأكيد • واما بنعمة ربك فحدث • واستأنف سامى حديثه •

ـ الحمد لله • ولكن أنا وأخى هذا وقع علينا الظلم ولا نستطيع له رفعا الا بمعونتكم •

وترددت ماذا • وكيف • وعجيبة • من المستمعين وأكمل سامى •

ـ انكم خرجتم من التمرة ولم تخسروا هناك الا البيتين الذين خرجتم منهما وبنيتم حياتكم هنا جديدة مشرقة أما نحن أنا ومأمون فنعتبر كل ظلم وقع من أبينا على انسان كأنه وقع علينا • وأنا وأخى وزوجتى أيضا نرى أن سكوتنا على ما يصنعه أبى أمر لا يرضاه الله بل انه يقول ان الشرك لظلم عظيم فالظلم العظيم اذن هو عند الله شرك •

ـ وقال محمود

ـ أتريد أن تحارب أباك

وقال سامى

ـ معاذ الله • ما كنت لأحارب أبى

وقال شملول

ـ عجيب أمرك يا أستاذ سامى ماذا تريد أن تصنع

وقال صميدة

ـ لا وسيلة لك الا محاربة الظلم

وقال سامى فى بساطة

ـ بل هناك وسيلة أجدى وأقوم

وصمت الجميع فى سكون وقالت روحية فى حب استطلاع

ـ كيـف

قـال سـامى

ـ منع الظلم أن يقع

وسـأل شـملول

ـ وكيف تستطيع

وقـال سـامى

ـ بل قل كيف نستطيع • فاننى بغيركم لا أستطيع أن أصنع شيئا • اما أن تنضموا الى أو أترك الأمر كله •

وتصايحت أصوات الجميع من نساء ورجال وتناثرت الألفاظ والجمل واختلطت وتشابكت وركب بعضها فوق بعض • كيف • هل هذا معقول • نذهب للنار بأرجلنا • ونحن ما شأننا • أبعد أن أنقذنا الله نرجع مرة أخرى •

وعلت الابتسامة وجه سامى ومأمون ورشيدة وانتظر ثلاثتهم حتى لم يجد أصحاب البيت بدا أن يصمتوا وقال محمود :

ـ ان ما تقوله عجيب يا أستاذ سـامى • انك تأتى الينا فى مستقرنا بمصر وتطلب الينا أن نعود مرة أخرى للتمرة وقد حاول أبوك أن يقتلنى هناك واغتصب بيوتنا • ونحن قانعون بما نحن فيه اليوم • فنحن نعيش حياة آمنة لا نحتاج الى مال ولدينا أبناؤنا

ونريد أن نربيهم وتطلب الينا أن نعود الى رجل طاغية معه الرجـال والسلاح • وقلبه ــ ولا تغضب ــ بلا رحمة على الاطلاق • أهـذا معقول •

ــ ان لم تردوا الظلم عن أهل قريتكم فمن يرده

ويقول صميدة

ــ فليقع الظلم ما شاء له أن يقع ما شأننا نحن

ويقول سـامى

ــ شأنكم أنكم نجوتم من هـذا الظلم وأنكم رجـال وأنكم تملكون المـال • وأنتم مسلمون والله يقول : « والذين اذا أصـابهم البغى هم ينتصرون » •

ويقول محمـود

ــ ولمـاذا لا تحاول قرية التمرة برجالها أن ترد هذا الظلم •

ويبتسم سامى ويقول

ــ انهم يعيشون فى جوف الهول ولا يتصورون أن هنـاك طريقا لمقاومة الظلم أن يقع • وهم جهلاء وأنتم أصبتم ونحن أصبنا شيئا من العلم • وهم فقراء وأنتم ونحن أصبنا شيئا من الغنى •

ويقول محمـود

ــ أستاذ سامى لا تؤاخذنى • هـذه أول مرة نراك منذ كنت طفلا ولا نعرف عنك شيئا • وأنت تطلب منا شيئا لا يتصـور أحد أن ابنا يقوم به ازاء أبيه فكيف يمكن أن نطمئن أنك لا تجرنا الى مكيدة يدبرها لنا ــ ولا مؤاخذة ــ أبوك •

وقبل أن يستطرد يقول شملول

ـ أستاذ سامى اسكت آنت فأنا الذى سأتكلم • محمود أنت أبعد ما تكون عن الصـــواب • هل تتصور اننا عظمـــاء لدرجة أن يرسل لنا زين الرفاعى ابنيه وزوجة ابنه الأكبر ليدبروا لنا مكيدة بعد هذه السنوات الطوال التى تركنا فيها التمرة • ما الذى يجعله يهتم بنا كل هذا الاهتمام •

ويقول محمـــود

ـ ولمـــاذا لا يكون الأســـتاذ سامى مختلفا مع آبيه ويريد أن يستغلنا •

ويقول صميدة

ـ أمرك عجيب يا محمود يستغلنا فيم • انك ســـمعته مثلمـــا سمعناه وهو يرفض كل الرفض محاربة آبيه • وسمعته مثلما سمعناه وهو يقول أنه يريد أن يمنع الظلم •

ويقول شـــملول

ـ يا محمود نحن تجـــار وصناعتنا أن نعرف الناس من سيماهم التى فى وجوههم آوجه الأستاذ سامى هـــذا يوحى اليك بانه رجل يريد أن يخادعنا •

وتقول صبيحة

ـ استغفر الله العظيم • وقد نسيت شيئا آخر يا محمود •

ويقول محمود وقد بدأ يقتنع بالحجج المنهالة عليه •

ـ خـــيرا •

وتستطرد صبيحة

ـ اننا على اتصال دائم بقرية التمرة • ونعرف وتعرف معنا أن العلاقة بين زين وابنيه على أحسن ما يكون •

ويقول سـامى

ــ اسمعوا أنـا سأترككم لتفـكروا وتتدبروا الأمر حتى اذا اطمأنت نفوسكم تماما ارجع اليكم • وشملول يعرف كيف يجدنى •

وقال محمود فى حسم عجيب •

ــ بل انك لن تقوم من مكانك هـذا الا وقـد اتفقنا على كل التفاصيل •

ويقول شـملول

ــ الآن يا محمود قلت ما يجب أن يقال •

ويقول صميدة

ــ ان الذى يراك ولا يطمئن كل الاطمئنان الى صـدقك يكون غبيا غير جدير بأن يكون انسانا •

وتقول صبيحة

ــ اننا كلنا معك • واذا لم يعاونك رجالنا عاونتاك نحن ثما رأيك ،ا روحية • وأنت يا فوزية •

وتقول روحيـة

ــ نحن معك يا أستاذ سامى •

وتقول فوزيـة

ــ ليس آدميا من لا يقاوم الظلم•

ويضحك الجميع ويقول صميدة

ــ أرأيت يا أسـتاذ سـامى لم يصبح لنا بعد قولهم أن نقول شـيئا •

ويقول شملول

ـ لم يبق الا أن نعرف علام عزمت •

ويقول سـامى

ـ لقد كان أبى يرسـل لى كل شهر مائة جنيه ويرسـل مثلها الى أخى مأمون •

وتتعالى ألفاظ الدهشة ويستطرد سامى •

ـ لم ننفق منهـا على أنفسـنا شـيئا فقد كنت أنـا ومأمون ورشيدة نعمل الى جانب الدراسة • كل ما جمعناه مرصـود لمـا ننوى أن نفعل •

وتعالت أصوات تتساءل :

ـ اشتريت بكل النقود سلاحا •

ـ سـلاح وسيارة • أما السيارة فلها عملها أما السـلاح فلن نطلق منه رصاصه واحدة على انسان •

ماذا ••• ماذا تقول ••• كيف ••• ومانفع السـلاح اذن ••• ما لزومه •

ويقول سامى فى هدوء

ـ سنرد به الظالمين عن ظلمهم •

وتتعالى كيف مرة أخرى •

ـ أنتم جميعا تعرفون فواز الشيمى •

ـ نعـم •

ـ لقد رتب لى عيونا فى رجال أبى •

واذن •

ويقول ســامى

ــ حين نذهب جميعا الى المركز نتكلم فى التفاصيل ٠

ويقول محمــود

ــ جميعــا ؟

ويقول ســامى

ــ جميعا ٠٠٠ لقد رتبت كل شىء ٠

ويهوم الصمت على الجميع ٠٠٠ صمت فيه سعادة غامرة وفيه تشوق وتطلع الى المستقبل ورضى عنه واطمئنان أيضا ٠

١٨

كان من أيسر الأمور على سامى أن ينتقل الى مدرسة المركز فمن ذاك المدرس الذى يعمل فى مدرسة بأقصى الصعيد ولا يتمنى أن ينتقل الى القاهرة خاصةاذا كان هو نفسه من أبناء القاهرة وهكذا تم البدل بينه وبين وصفى عبد القوى فى سهولة بالغة ٠ وكذلك كان يسيرا على رشيدة أن تطلب اجراء البدل مع تفيدة السلامية ٠

أما مأمون فقد اختار مكتب لطفى مصطفى المحامى ليقضى به مدة التمرين وقد رحب به لطفى كل الترحيب وكيف لا وهو ابن زين الرفاعى ووجوده بالمكتب سيجعل أهالى قرية التمرة والمنطقة المحيطة بها يتدفقون على المكتب فى جميع شئونهم القانونية ٠

أما صميدة وشلول ومحمود فقد تركوا زوجاتهم بالقاهرة ورجعوا الى المركز يتجمعون تحت الراية التى رفعها سامى من نص الآية الكريمة « والذين اذا أصابهم البغى هى ينتصرون » ٠

***

وهش زين الرفاعى حين رأى ابنيه ومعهما رشيدة يدخلون البيت على غير توقع وبعد غياب سنوات عن البلدة أما أمهما رتيبة فقد راحت

تحتضن ابنها ومعهما رشـيدة والدموع تهمى من عينيها كما لقفتهم أختهما عزيزة بشوق صـادق متدفق . وحين هـدأت بهم الجلسـة قال زين :

ــ يا أهلا ... يا مرحبا ... لقد أصبح غريبا على أن أراكم فى البلدة .

وقالت الأم وهى تجتذب نفسا مطمئنا من أعماق أمومتها :

ــ يا أخى بركة ... البيت من غيرهما ليس بيتا .

ويضحك الأخوة الثلاثة وتقول عزيزة :

ــ أمى رتيبـة لها حق . الحيـاة بعيدا عنكما لا تستحق أن تعاش . أظن هذه أول مرة تأتين فيها البلد يا رشيدة .

وتبتسم رشيدة وتومىء برأسها أن نعم وتقول رتيبة

ــ أهذا كلام يا أهلا بك فى بيتك يا بنتى ... يا أهلا يا مرحبا ألف أهلا .

ويقول زيـن

ــ ولكننى فقط أريد أن أطمئن ... أهى زيارة .

ويبتسم مأمون ورشيدة ويقول سامى

ــ بل اقامـة .

وتختلط الدهشة بالخوف فى وجه رتيبة ويقول زين

ــ مـاذا ؟ !

وتلحق به رتيبة فى سرعة متوجسة .

ــ وشـغلكم .

ويضحك سامى ورشيدة ومأمون ويقول مأمون

ـ أتخشين أن نخرج من أعمالنا كل هذه الخشية ••• من يسمع هذا يحسب أنكم تعيشون من مرتباتنا •

وتقول رتيبة فى جدية

ـ الانسان بغير عمل كارثة •

وتقول رشيدة ممعنة فى اخافة حماتها •

ـ وماذا يجرى اذا أنا ساعدتك فى البيت وساعد سامى ومأمون عمى ق •••

وتقاطعها رتيبة وقد كادت آن تشعر بالمزاح فى الحديث •

ـ يا بنتى لا قدر الله لا أنا ولا عمك نحتاج الى مساعدة •

ويقهقه سامى ومأمون ورشيدة ويقول سامى

ـ لا تخافى ••• اننا فى أعمالنا لا نزال •

ويقول زين

ـ أهذا معقول ••• أجاد أنت فيما تقول •

ويقول مأمون

ـ كل الجد • سامى ورشيدة انتقلا الى مدرسة المركز وانا ذهبت قبل أن أجىء الى هنا واتفقت أن أقضى سنوات التمرين فى المحاماة بمكتب لطفى مصطفى •

ـ متى جئتم ؟

ويقول سامى

ـ بالأمس •

وتقول الأم

ـ وأين قضيتم ليلتكم •

وتقول رشـيدة

ـ أنت ست عظيمة ••• بيت المركز كأنه لم يترك •

وتضحك رتيبة •

ـ كنت أرسل عزيزة ومعها خادمتها سعدية ينظفانه كل أسـبوع وكأنى كنت انتظر أن تجيئوا اليه فى أى لحظة •

ويقول سـامى

ـ ظللت كل هذه السنوات تنظفين البيت كل أسبوع •

وتقول رشـيدة

ـ بحاسـة الأم •

وتقول رتيبـة

ـ الأمر لا يستأهل كل هذه الدهشة • من الطبيعى أن نحتاج الى أشـياء من المركز كل أسبوع فما البأس أن تذهب عزيزة ومعهـا سعدية بالسيارة ويمران بالمنزل تنظفانه •

وتقول رشـيدة

ـ كنت أظن أننى سأجد مشـقة كبيرة لأجعله صالحا للمبيت فوجدته أنظف من أى بيت يسكنه أصحابه •

ويقول زين وقد خالجه بعض الدهش •

ـ ولكن ما الذى جعلكم تقررون هـذا القرار وتنتقـلون الى هنا بغير مقدمات •

ويبتسم سامى وهو يقول

ـ المقدمات كانت فى نفسى منذ عرفت اننى لم ارتكب جريمة وأن زميلى منيب والحمد لله لم يصب بسوء ٠

ويقول زين

ـ ياه ٠٠٠ أمازلت تذكر ٠

ـ وهل أستطيع أن أنسى ٠

ـ لقد جعلت من هذه الحكاية التافهة أمرا خطيرا ٠

ويطرق سامى قليلا ويقول لأبيه متوخيا الا يتخذ موقف الواعظ ٠

ـ يا أبى لو كان زميلى هذا قد مات لما رأيت أنت وأمى وجهى مدى الحياة ٠

وذهل زين وقالت رتيبة

ـ بعد الشر ٠

وقال زين

ـ الى هذه الدرجة ٠

وقال سامى فى حسم ٠

ـ وأكثر ٠

وتقول رتيبة

ـ ألف حمد وشكر لك يارب ٠

قضى سامى ومأمون ورشيدة ثلاثة أيام بالقرية ثم أخذوا ستهم الى المركز وصحبوا معهم فواز الشيمى الذى تمكن فى هذه الأيام الثلاثة أن ينفذ كل ما أمره به سامى ٠

١٩

عرف فواز الشيمى فيما عرفه أن زين أعطى أمره الى رجاله بسرقة بهائم كدوانى البرقوقى . وكان رجال زين فى انتظار أن يحدد لهم العمدة موعد هجومهم على بهائم الكدوانى .

وقد رتب فواز أن يأتى اليه نجيب رسلان بالموعد الذى تعين لهم .

وما أن استقر سامى وزوجته وأخوه بالمركز حتى كان قد أعد سكنا ملائما للقادمين من مصر وقد هدأ بهم المقام فى مسكنهم الجديد وكانوا يجتمعون كل مساء فى بيت سامى . ويتبادلون شتى الأحاديث . فقد كان ما ينتوون القيام به متفقا عليه ولم يعد محتاجا لأى حديث جديد . بل انهم شعروا أن الحديث فيما هم مقبلون عليه سيجعل اتفاقهم مائعا . فكثرة الحديث تفتر عزيمة العمل .

فى احدى الأمسيات بينما هم مجتمعون عند سامى طرق الباب وقام اليه فواز . وفتحه . وهم ينظرون . ما لبث أن خرج فواز من

الباب لحظات ثم دخل وأقفل الباب وقال فى هدوء حازم :

ـ الموعد غدا .

***

كان رجال زين الرفاعى مدربين على أعمالهم غاية الدربة . وكان كل منهم يعرف دوره وكان يؤديه فى اتقان وبراعة حتى أصبح كبيرهم خطاب الضبع فى غير حاجة أن يعطى أوامره عند بدء العملية بل يكتفى بجملة واحدة تعودوا أن يسمعوها فى صوته الهادىء المنخفض الواثق :

ـ كل واحد منكم يعرف ما سيعمله .

ولم يكن من المحتم أن يجيب كل فرد منهم جملته وقد يكتفى أحدهم أن يقول :

ـ توكل على الله .

أو يقول آخر :

ـ توكل .

ثم يمضى خطاب الى غرفة السلاح فى بيته . فيفتحها ويدخل كل منهم الى سلاحه الذى يعرفه . وهم جميعا يصرون الا يستعملوا الا السلاح الذى مردوا عليه . وقد كان بعضهم يقول فى فخر ان بينه وبين سلاحه لغة لا يفهمها الا هو وسلاحه .

وكانوا ستة نفر لهم عند هجومهم طقوس غير مكتوبة وانما هى تكونت بطول الدربة وبكثرة العمليات فكان لكل منهم ملبسه الذى خصصه لليالى العمل . وكان كل منهم يستبشر بملبسه هذا . فكان لا يلبسه الا فى الليلة التى يعمل فيها حتى لا تهلكه كثرة الاستعمال . وكانوا اذا ساروا الى مهمتهم ذهبوا اليها أزواجا وكان كل واحد منهم

يعرف رفيق عمله . وكان خطـاب يخبرهم فى كل مرة بمكان تجمعهم يقصدون اليه من طرق شتى ومن منافذ متفرقة .

***

كان كدوانى البرقوقى قد تاجر فى البهائم فى عامه هـذا وعادت عليه التجـارة بربح يتجاوز العشرة آلاف جنيه وقد عرف زين بهـذا النبأ فاستقدمه اليه .

ــ مرحبا يا كدوانى .

ولم يكن كدوانى ليغبى السبب الذى استدعاه زين من أجـله ولكنه شأن الدهـاة من أبناء القرى يعرف كيف يخفى مشاعره فهو يقول لزين وكأنه مطمئن :

ــ رحب الله بك يا حضرة العمدة .

ــ لنا زمان لم نرك .

ــ علم الله يا حضرة العمدة كم أنـا مشوق اليك .

ــ فماذا منعـك يا أخى أن تزورنا . هـل نسيت الطريق الى بيتنـا .

ــ يا حضرة العمدة نحن نعتبر بيتك بيتا لنا جميعا والانسـان لايمكن أن ينسى الطريق الى بيته .

ــ فما الذى شغلك عنا يا ترى .

ــ لم تفلح زرعة القطن فاضطررت أن أرقعها فكنت أقضى يومى كله فى الغيط وأعود الى البيت بعد المغرب مهدودا لا أكاد أصيب من الطعام شيئا وأوشك أن أسأل أهل بيتى أن يحملونى الى الفراش .

ــ كان الله فى العون .

ـ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة ٠

ـ اذن فالذى سمعناه ليس صحيحا ٠

ـ خيرا يا حضرة العمدة وما الذى سمعت ٠

ـ لا داعى لقوله ما دام الأمر كذلك ٠

وأدرك كدوانى أن الحديث قد بلغ الغاية المقصــودة منه ومن الاستدعاء أيضا فهو يقول :

ـ وما البأس أن تقول يا حضرة العمــدة ٠ والأمر كله كلام ابن عم حديث وها نحن أولاء نسمر ٠

ـ كنت سمعت انك ـ فيما يقولون ـ تاجرت فى البهائم ٠

ويبتسم كدوانى وكأنه لا يعير الحديث التفاتا ٠

ـ آه ٠٠٠ أتقصــد الى هــذا ٠٠٠ لا وشرفــك لا تجــارة ولا يحزنون ٠٠٠ الأمر لا يزيد عن كم رأس اشتريتها وأطعمتها بضعة أشهر وبعتها ٠ وشاء الله أن يكرمنى فى قرشين اشتريت بها كم بهيمــة أخرى لأتاجر فيها ٠

ـ أحد عشر ألف جنيه لا يقال عنها قرشان ٠

ـ أنت تعرف كم يبالغ الناس يا حضرة العمدة ٠

ويستعيد العمدة صوته الآمر المتسلط بعد أن ظل طوال حديثــه يعمل صــوتا هادئا منسابا يكاد من يسمعه يظن أنه ينبعث عن نفس طيبة شفيفة لا أثر فيها لقهر أو عدوان ٠

يقول العمــدة فى نغمته الأصيلة التى يعرف أهــل القرية معنى صدورها عنه :

ـ بل أنت تعرف يا كدوانى أنك اذا شربت شربة مـاء فى بيتك فأنا أعرف تماما كم قطرة مـاء شربت •

ـ ليس هذا بجديد علينا يا حضرة العمدة •

ـ فمكسبك اذن أحد عشر ألف جنيه وخمسون جنيها أيضا حتى تفهم اننى مازلت أعرف كم قطرة شربت فى بيتك •

ـ واذا فرضنا يا حضرة العمدة أن ما تقوله صحيح •

ـ يكون عليك أن تدفع لى خمسة آلاف جنيه •

ـ فى أى شرع هـذا •

ـ شرع زين الرفـاعى •

ـ ولكنه ليس شرع الله يا حضرة العمدة •

ـ ألست أنـا الذى أحمى تجارتك • وأنـا الذى آمنع عنك اللصوص أن يسرقوا بهائمك جميعا •• وآمنع الخراب أن يحل بك •

ويقول كدوانى فى نفسه وهل هناك خراب أكثر من الذى تصنعه• ويصمت ولكن خاطرا عجيبا يلح عليـه • كيف يستطيع اللصـوص أن يجعلوا اجرامهم شرعيا له منطقه وكيف يلبسون الباطل أثواب الحق فتطمئن نفوسـهم أن ما يصنعونه بالناس عدل لا عدوان فيه ولا افتئات ولا تدمير فيه لانسانية الانسان •

يصمت كدوانى ولكن قليلا ما يصمت فالعمدة لا يترك للسكون فترة أن يخيم عليهما فهو يقول فى صوته الجبار :

ـ ألست أنـا الذى يمنع محصولك أن يحرق أو يسرق وبيتك أن يهدم أو يحرق أيضا •

ويطرق كدوانى ويقول فى مخادعة وفى غير اقتناع :

ـ وهل يستطيع أحد أن ينكر يا حضرة العمدة ؟

ويعود العمدة الى مواصلة جبروته .

ـ ألا أحتاج الى رجال لأحميك وأحمى أهل القرية معك وهؤلاء الرجال ألا يحتاجون أن يعيشوا وقد تركوا أعمالهم وتفرغوا للمحافظة على أرواحكم وأموالكم . من أين انفق عليهم ومن أين ينفقون هم على عيالهم اذا كان كل واحد منكم سيربح ما طاب له الربح ولا يدفع لنا ما نحافظ به على رأس ماله وأرباحه . بل اننا أيضا نحافظ على حياتك وحياة كل الذين يقومون بأعمال تعود عليهم بالربح فلولا الرهبة التى يحسها المجرمون حولنا لقتلوكم واستولوا على ما تحملون من أموال .

ولا يتكلم بلسانه كدوانى ... ولكن ... يا ابن الكلب ان أحدا لا يسرقنى الا أنت وأحدا لن يقتلنى الا أنت وأحدا لن يحرق زرعى أو بيتى أو بهائمى الا أنت . اذا أنت حميتنى من نفسك فأنا فى غير حاجة الى حماية . فليس هناك مجرم الا أنت ولا عاتية ظالم الا أنت .

وحرك كدوانى لسانه فى فمه :

ـ أمرك يا حضرة العمدة

وفى حسم قاطع يقول زين :

ـ خمسة آلاف جنيه

ـ أهذا معقول يا حضرة العمدة

هذا هو المعقول الوحيد

ـ أنا لا أستطيع أن أدفع أكثر من ألفين

وفى صوت آمر يقول زين :

ـ خمسة

ـ اذن فاصبر على

- حتى متى

- حتى أبيع البهائم التى عندى

- ولماذا لا تبيعها الآن

- أخسر فى بيعها كل ما ربحته ولا أستطيع أن أدفع حتى الألفين

- متى تستطيع الدفع

- بعد ستة أشهر

- ماذا

- خمسة أشهر

- اسمع • أنا سأمهلك هذه الأشهر الخمسة ولكنك اذا تأخرت يوما واحدا تكون الجانى على نفسك •

***

وتأخر كدوانى وتحدد الموعد • وخرج رجال العمدة • وقصدوا الى بيت كدوانى والقمر ينير لهم الطريق فهم لا يخشون أن يراهم أحد وكان بيت كدوانى متسعا وقد حرص منذ بدأ يتاجر فى البهائم أن يسد باب الحظيرة الخارجى بالطوب ويجعل البهائم فى دخولها وخروجها تمر عبر باحة البيت • ولكن شيئا من هذا لم يقف عائقا دون رجال زين • ما هى الا دفعة حتى كان باب البيت مفتوحا على مصراعيه وكان كدوانى وزوجته شفيعة وأبناؤهم الثلاثة سعداوى وبغدادى ونبيل جالسين اليهم • وقفوا جميعهم • ورأو رجال زين ملثمين ولكنهم عرفوهم جميعا فردا فردا وكان خطاب وأعوانه يعلمون تمام العلم أن كدوانى يعرفهم فما راعهم هذا ولا مر بخاطر أحدهم أن يفكر فى هذا الأمر •

ودخل الرجال الى حظيرة كدوانى وكأن البيت خال بهم وكأنهم

ما رأوا صاحب انبيت ولا زوجته ولا أبناءه وبدأوا يخرجون البهـائم ولم يجد كدوانى شيئا يصنعه الا آن دعـا زوجته وأولاده أن يدخلوا أمامه الى حجرة أخرى وأقفل الباب على نفسه وآسرته فقد أصبحت حياته وحياة أسرته فى هـذه اللحظة هى كل ما يحرص عليه ولتذهب البهائم وثروته جميعا الى الجحيم •

خرج خطاب فى المقدمة يقود جاموسة وتبعه الرجال الخمسة يقود كل منهم جاموستين وما أن خرج آخرهم حتى فوجئوا بخمسة شخوص يلبسون السواد ما يبين منهم شىء يحيطون بهم ويطلقون الرصـاص حواليهم وكأنه مطر منهمر ويتولى العتـاة الخوف الراعـد وتتواثب البهائم فى أيديهم توشك أن تقتلهم ويقف بهم الذعر جامدين وكأنهم تماثيل من جمـاد •

ويواجههم صوت لا يعرفونه ••• انه صوت شملول • ومن آين لهم أن يذكروا شملول أو صوت شملول •

ـ ألقوا السـلاح •

ودون تفكير يلقى الرجال الستة سـلاحهم • ويطالعهم الصوت آمرا مرة أخرى •

ـ أعيدوا البهائم الى مكانها وليبدأ أقربكم من البيت فى ادخال ما معه ثم يتبعه الذى يليه •

وينفذون الأمر فى دقـة الحريص على حياته حتى اذا أدخـلوا البهائم يقول شملول :

ـ قولوا لحضرة العمدة انكم ستجدوننا دائما عند كل عمليـة تقومون بها ويقول خطاب فى صوت راعش :

ـ مـاذا

ـ ما سمعت يا خطاب • ابلغ العمدة ذلك • هيا اذهبوا واذا التفت أحدكم خلفه قتلناه فى لحظة ••• اذهبوا واحذروا أن يلتفت أحدكم خلفه •

وفى مثل لمح البصر يولون الفرار

ويجمع سامى ومأمون ومحمود وشملول ومعهم رشيدة وهى فى ملابس الرجال الأسلحة الملقاة ويخفيهم الليل عائدين الى المركز بالسيارة التى أعدها سامى فيما أعد حين استقر رأيه على أن يكون من أولئك الذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون •

***

تعود زين كلما أمر بعملية أن يجلس فى غرفة خاصة بالبيت لها شباك على الطريق ينتظر أن يأتى خطاب أو غيره من مجرميه الى هذه النافذة فيطرقها أربع طرقات ان كانت العملية تمت بنجاح • أو يطرقها ثلاث طرقات اذا حال دون اتمام العملية حائل •

وحين سمع زين أصوات الرصاص دهش وانتظر بالغرفة وكانت رتيبة تجلس معه فيها وقد تعودت الا تسأله عن هذه الطرقات منذ أول مرة سمعتها فيها وسألت :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم • من هذا الذى يطرق فى مثل هذه الساعة فأجابها زين فى حسم قاطع وبصوته الذى عرفته حين ينقلب زوجها من انسان أنيس الى شيطان مريد •

ـ لا شأن لك •

وكانت فى ليلتها تلك تدرك بحسها وبطول المعاشرة أنه ينتظر ذلك الطرق المبهم • وحين سمعت أصوات الرصاص تأكدت أن حدسها صادق •

ولم يطل بها الانتظار فسرعان ما طرق النافذة ذلك الطارق ...
ورأت زوجها يتسمع فى اهتمـــام بالغ حين انتهت الطرقات الثـــلاث
ظل لحظات طوال يتسمع فلم يصل الى آذنيه الا آصوات آقدام تبرح
النافــذة .

ورأت الدم يعلو وجهه حتى أصبحت عينـــاه وكأنهمـــا جمرتان
ملتهبتان . وحين قاما الى النوم أحست به طوال الليل والفراش يقلبه
لا يقر له قرار حتى نفذت الى الحجرة خيوط الشمس الأولى فـــاذا
زوجها منتصب على قدميه ودون آن يتناول افطاره كان قد ترك البيت
وقصد الى مجلسه فى الدوار .

وما أن استقرت به الجلسة حتى وافاه خطاب وروى عليه ما حدث
وقبل أن يتم الحديث يصعد الدرجات القلائل كدوانى خائفا يتكفى
ودون تحية يصيح .

ــ البهائم معى فى الخارج يا حضرة العمدة .

وينظر اليه زين مليا ... ماذا يمكن أن يحدث لو أنه آخذ هذه
البهائم ان المجرم حين يحيط به التهديد يصبح أشـــد الناس خوفـــا
وهلعا . كيف أضع هذه البهائم فى بيتى . ان قوما صنعوا ما صـــنع
هؤلاء بالأمس لا يقف دونهم شىء . هيهات أن يكونوا خمسة أو عشرة
بل لابد أن وراءهم مددا عتيدا . وما أظنهم بالذين يغضبون من أجل
كدوانى ويبذلون كل هـــذا الجهد الذى بذلوه لمجرد المحـــافظة على
بهائمه فما كدوانى بالنسبة اليهم الا فرصـــة اهتبلوها ليعلنوا لى عن
وجـــودهم .

ويطرق زين ويطيل الاطراق . ثم يرفع رأسه الى كدوانى .

ــ ارجع الى بيتك وخذ بهائمك معك يا كدوانى .

ــ أنـــا لا شـــأن لى بما حـــدث يا حضرة العمدة . والله على
ما أقول شهيد .

ـ أعلم يا كدوانى •

ـ البهائم فى ستين داهية • أولادى يا حضرة العمدة •

ـ كدوانى تأكد اننى أعرف أنك لا شأن لك بما حدث وخذ منى كلمة رجل اننى لن أمسك بما يؤذيك •

ـ أطال الله عمرك يا حضرة العمدة •

ـ مع السلامة يا كدوانى •

وقام كدوانى وهم بنزول السلالم ثم توقف فجأة والتفت الى العمدة مرة أخرى •

ـ الا أترك البهائم يا حضرة العمدة •

ـ بل تأخذها معك كما أحضرتها •

ـ أمرك •

والتفت الى السلم ثم توقف واستدار ثالثة الى العمدة •

ـ واذا جاء لى فيها مشتر يا حضرة العمدة •

وأدرك العمدة أنه يساوم على الاتاوة ولكن زين لم يكن فى حالة تسمح له بالمفاوضة الآن ••• وأين سيذهب منى كدوانى ••• فليبع البهائم واذا انتهيت من هذه البلوى التى ظهرت لى على آخر الزمن فان يدى تستطيع أن تعتصر منه عشرة آلاف لا خمسة ••• قال زين فى حسم :

ـ اذا أردت أن تبيع البهائم فبعها يا كدوانى •

ـ و •••

ـ وحين أزيد المبلغ سأقول لك ••• أبق الثمن كله عندك الآن •

ــ أمرك يا حضرة العمدة • وأين سيذهب المبلغ انه عندى تحت أمرك • أحضره عندما تشاء • أمرك يا حضرة العمدة •

وانصرف كدوانى وأمر العمدة خطاب أن ينصرف هو أيضا وخلا به المكان • كيف عرفوا بالموعد الذى حددته لكدوانى • آهى صدفة أم أن لهم على عيونا راصدة • وكيف لى أن أعرف • بل لابد لى أن أعرف • وما الذى جعلهم يعيدون البهائم الى صاحبها • من هؤلاء •• ما شأنهم •

***

اندلع الخبر فى القرية فى كل نواحيها وتناقلته الألسنة والقلوب والوجوه والفرحة تشيع فى كيانهم كله •

وبدأ الناس يتساءلون ••• من هؤلاء • أنهم ليسوا لصوصا • اللصوص لا يعيدون المسروقات الى صاحبها • وهم ليسوا من الشرطة فالشرطة لا تترك المجرمين المتلبسين دون أن تقبض عليهم • وهم ليسوا غرباء فهم يعرفون اسم خطاب ويعرفون لمن يعمل • وهم ليسوا من البلد فلو كانوا من البلد ما خفى أمرهم على رجال زين • أملائكة هم أم بشر • انس هم أم هم من الجن •

ومن أهل البلد أعيان حلا لهم أن يروا العمدة فى يومهم هذا • واختلق كل منهم سببا يذهب به الى العمدة وكان زين قد استطاع فيما اتيح له من وقت خلا فيه بنفسه أن يجمع ما تمزق منها وما صدعته الحادثة وما تشتت من فكره •

وجدوا العمدة راسيا كأن شيئا لم يقع • وراح يروغ بالحديث الى شتى مسالك ومختلف سبل • لا يجرؤ أحد من زواره أن يسأله • وفيم السؤال وكيف يستطيع أحدهم أن يقيم جملة متصلة الألفاظ

تؤدى المعنى الذى يراد لها أن تؤديه وعزم زين على أمر وقطع فيه الرأى واستقر به الفكر •

***

وفى بيت سامى جلسوا جميعا ينتظرون فواز الشيمى الذى ما لبث ان جاء وقدم الى سامى مبلغا من المال هو ثمن السلاح الذى أخذوه من رجال العمدة وسأله سامى :

ـ كم

ـ خمسمائة وخمسون

ـ فيم تقترحون انفاقها

قال شملول :

ـ الأمر لك

قال سامى :

ـ اذن هى من نصيب محمود ونصيبك فقد بعتما أرضكما بأبخس الأسعار حتى تهربوا من الظلم •

وقال محمود :

ـ ألا نبقيها معك فقد نحتاج اليها فيما نحن مقبلون عليه •

وقالت رشيدة :

ـ ابقها أنت معك وان احتجنا قلنا لك

وقال شملول :

ـ ولكن •••

ويقطع سامى النقاش

ـ انتهى أمر هذه الفلوس ولننظر فيم هو آت ••• فواز

ـ نعـم

ـ تذهب الآن فورا الى البلدة • وتعرف ماذا هم صانعون

ـ فـورا

ـ لن يبيت أبى وهو لا يعلم عمن هاجموا العصابة شيئا

ـ أمـرك

ـ ونحن هنا سننتظر عودتك وقد أخذنا أهبتنا للتحرك لحظـة عودتـك

ـ أمرك ••• سلام عليكم

ـ عليكم السلام



عبد الغنى الريدى فلاح ماهر تمازجت هوايته مع حرفته. وهوايته فى الحياة أن يكون زرعه أحسن زرع فى المنطقـة . وقد اسـتطاع بجهده أن يرتفع بملكه من أربعـة أفـدنة تركهـا له أبوه الحـاج محسن الريدى الى أحد عشر فدانا . وكان زين الرفاعى يتقاضى منه مائتى جنيه عن كل فدان يشتريه كما كان يتقاضى من البائع مثلها . وقد كانت هذه الاتاوة مقررة لا مجـال فيها لمناقشة . ولم يحـاول عبد الغنى أن يماكس فيها أو يتمرد عليها .

وفى عامه هذا استطاع عبد الغنى الريدى أن يستنبت من سـتة الأفدنة التى زرعها قطنا أربعة وخمسين قنطارا . فقد أحسن خدمة الأرض حتى جعل الأرض والبذرة يخرجان أسرارهما الكامنة وأنتج الفدان تسعة قناطير .

وحين استدعاه كان يدرك تماما السبب الذى يقف وراء استدعائه وثارت به نفسه وهو فى طريقه الى دوار العمدة وجعلته يواجه ابتسامة زين التى استقبله بها مواجهة مقطبـة رافضـة تأبى حتى أن تدارى ما فى نفسه من سخط ورفض

مرحبا بزين الرجال

ـ الله يرحب بك يا حضرة العمدة

ـ أين أنت يا عبد الغنى ••• لى زمان لم أرك

ـ حضرة العمدة أنـا لا أظن انك استدعيتنى لشوق آلم بك نحـوى

ـ يا أخى الترحيب بالضيف واجب

ـ هذا اذا لم يكن الضيف قادما على رغم أنفه

ـ وهل أرغمك أحد

ـ نعم يا حضرة العمدة

ـ من ذاك •• اذكر اسمه لى وسترى أى عقاب سأنزله به

ـ اذن عاقب نفسك يا حضرة العمدة

ـ أنـا

ـ نعم أنت يا حضرة العمـدة • وليس غيرك • فأنا لم أحضر لزيارتك مختارا وانما استدعيتنى أنت وأنـا أعلم ماذا يمكن أن يحل بى اذا نكصت عن استدعائك هـذا • فأنا فى حضـورى هذا اليك لست حرا • وقـد كنت أستطيع أن أداجيك وأتغنى بالشـوق اليك الا أننى فى الحقيقة لم أعد أطيق يا حضرة العمدة •

ـ وما لك غاضبا كل هذا الغضب •

ـ من تلك الحياة المفروضة علينا فرضا بقوة السلاح يا حضرة العمـدة •

ـ فماذا يقول غيرك • ان الله يعطيك ويرضيك وأرضك تنتج أحسن محصول وأنت من أغنى أهل البلد •

ـ أعرف أن هـذا ما استدعيتنى من أجـله . ان الله سبحانه جل علاه هو العدل المطلق . وهو لا يعطى للكسول أو الخامل وأنـا يا حضرة العمدة أرضيت ربى فى عملى فأرضانى فى محصولى .

ـ أفلا تشكر الله اذن .

ـ اننى أشكره وأحمده آنـاء الليل وأطراف النهار .

ـ أو ليس من الشـكر أيضا أن تشـارك غـيرك فيما وهب الله لك .

ـ ان الله يا حضرة العمـدة غنى عن العالمين . وهو سبحانه قد حدد الزكاة وأنـا أرفعها الى ذاته العليـة كما أمر بها أن ترفع لتعين الفقير والمحتـاج وابن السبيل . وهو سبحانه حبب الينا أن نتصدق وأغرانا بأن الحسـنة التى يقدمهـا العبد منا الى أخيه يضاعفها رب الجميع عشرة أضعاف . وهذا أمر بينى وبين الله وحده لا يطلع عليـه الا هو .

ـ والذى يحميك من عدوك ويحمى مالك من السارق .

ـ أنـا يا حضرة العمـدة ليس لى أعـداء . وأنـا أستطيع . والحمد لله أن أحمى مالى من السارق .

ـ أتستطيع ؟ !

ـ باذن واحد أحد

ـ اذن فلا حديث بيننا .

ـ والله المستعان يا حضرة العمدة . انه هو وحده القاهر فوق عبـاده .

ـ اذن فلا تبك بعد ذلك يا عبد الغنى .

ــ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تمـوت .

ــ لقد فتحت على نفسك نافذة من جهنم .

ــ انها بفضلك مفتوحة على المنطقة كلها . ولكن النفس فى كثير من الأحيان تفضل الموت على الذل يا حضرة العمدة .

ــ وأين كانت هذه الشجاعة من قبل ؟

ــ قد يحتمل الانسان بعض الحين وقد يرضى بشىء من التنازل عن حقه ولكن الطاغية حين يسرف فى طغيانه يجعل الحجر يتحرك وتدب فيه الحيـاة .

ــ اذن سنلتقى يا عبد الغنى .

ــ وأنـا مستعد للقاء . والله يحق الحق ويجعل الباطل بأمره زهوقا . سلام عليكم يا حضرة العمدة .

كان هـذا الحديث بعد أن جمع عبد الغنى قطنـه ووضعه فى مخزنـه .

وقد رأى العمدة أن ينتظر حتى يحشوه فى أكياس البيع ليوقع به ما انتوى أن يصنعه .

ويوم وقعت الواقعـة بالعمدة على أيدى سـامى وصحبه كان عبد الغنى قد أوشك على الانتهاء من تعبئة القطن جميعه . كان زين ينوى أن يرسل رجاله بعد يومين ليستولوا على القطن بأكياسـه ولكنه وقد نزلت به هذه القاصمة رأى رأيـا آخر .

ــ خطـاب .

ــ أمرك يا حضرة العمدة .

ـ أنبيت ليلتنا ونحن لا ندرى من هؤلاء الذين صنعوا بنا هذا الصنيع .

ـ أمر سـعادتك .

ـ قطن عبد الغنى .

ـ نحمله الليلة ؟ !

ـ الليـلة .

ـ أمـرك .

ـ ولكن انتظر ... لابد فى هذه المرة أن نغير الطريقة التى كنا تتبعها فى السنوات المـاضية كلها .

ـ طبعا ... طبعا يا سعادة البك .

ـ اذن فاسمع .

ـ نعـم .

ـ ما سنتفق عليه الآن لا يعرفه أحد من الرجال الا وقت تنفيذ العمليـة .

ـ طبعا يا حضرة العمدة ... طبعا وهل تشك فى هذا ؟

***

قـال فواز لسامى :

ـ كما توقعت حضرتك يا سامى .

ـ طبعـا

ـ قطن عبد الغنى الريدى .

ـ وتوقعت هذا أيضا ... هل أنتم مستعدون .

وقـال شـملول :

ــ بل انتظروا لابد لنا من حديث قبل أن نقوم الى عملنا .

وقـال محمـود :

ــ قـل .

ــ اقعدوا وفكروا معى .

***

كان الذين يستعين بهم خطاب الضبع فى تنفيذ أوامر العمدة خمسة نفر اختارهم خطاب من البلاد المجاورة وكانوا جميعا لصوصا صغارا . وكان لكل لص منهم نهجه ومنحـاه وضمهم خطاب فأصبحوا جميعا أعوانا له توحد بهم الطريق .

أما سعفان أبو زغلول فهو من بلدة العسرانية وكان متخصصا فى سرقة البهـائم . ولم يكن يبيعها الا اذا عجز صاحبها أن يدفع عنها الحلوان . وقد كان هـذا الحلوان قريبا كل القرب من ثمن البهائم . ولكن المعتدى عليه لا يملك الا أن يدفع وأمره الى الله وبعض الشر أهون من بعض . وكان سعفان أيضا يعمل وسيطا فى السرقـات التى يقوم بها غيره وبين السارق والمسروق يظفر سعفان بجزء مما يتفقان عليه . طلبه خطاب فوجد فى العمـل معه دخلا ثابتا . فرحب بذلك خاصة أن خطاب سمح له أن يمارس سرقاته خارج التمرة فى الأيـام التى لا يعملون فيها .

أما ادريس السلامونى فكان قاطع طريق . يسقط على فريسته فى حالك الظـلام ويجرده من كل ما معه ثم يقيده ويتركه ملقى فى مكانه . وكانت وسيلته الى ذلك بندقية صدئة الا أنها بالنسبة للاعزل سلاح فتـاك .

وكان فهيم سمهان من قرية الترابية وصنعته قاتل محترف يقصد

اليه كل صاحب ثأر أن يقتل لحسابه من وقع عليه الاختيار • ويقصد اليه أيضا كل من يريد أن يزيح من طريقه عائقا بشريا •

أما عمران القناوى فكان سمسارا فى الأسواق وكان هزيلا فى سرقاته • فقد كان ينتهز فرصـــة غفـــلة من صاحب خروف أو معزة أو حتى أوزة • وقد مرن أيضا على نشـــل الجيوب • وهو ما يزال يســـعى سعيه هـــذا فى الأســـواق بجانب عمله الضخم فى عصـــابة زين الرفـــاعى •

خامس الجماعة شهيدى عبد المعين وهو من أصدقاء خطاب نشأ كلاهما فى رحاب زين ومرنا فى باحته على كل ما كان يكلفهما به من أعمـــال •

كان خطاب وشهيدى وادريس هم فقط الذين نزلوا من سيارة النقل أمام دار عبد الغنى وشهروا أسلحتهم على الرجال الذين كانوا يعبئون الأكيـــاس القليلة الباقيـــة من قطن عبد الغنى فى غرفـــة بيت عبد الغنى وكانوا هم أيضا ثلاثة رجال • وأصدر خطاب أمره •

ــ اتركوا هذا واخرجوا الى القطن الملقى أمام البيت وضعوه فى السيارة •

وأطاع الرجال العزل وخرجوا الى القطن الذى كان مكدسا أمام البيت وهموا أن يحملوا أول كيس فاذا بسامى يخرج من ورائه ويأمر خطاب وصاحبيه أن يلقوا ســـلاحهم وأردف أمره بضغطة على الزناد قذفت الى الهواء عدة طلقات وألقى خطاب سلاحه وهو يصيح سعفان :

ولكن سامى يقول له فى ثبات :

ــ سعفان وفهيم وعمران مقيودون جميعا • هذه هى أسلحتهم •

ــ وتخاذل خطاب وهو يلقى سلاحه وتبعه شهيدى وادريس •

وقـــال ســـامى :

ـ فك أصحابك • تجدهم خلف البيت واركبوا السـيارة الى العمدة واخبروه أنه سيجدنا دائما حيث يرسلكم •

ـ هيا ••• اسرعوا •

ويصدع خطاب بالأمر ويركبون السيارة وينصرفون •

ولا يعرف عبد الغنى أو أحد من رجاله سامى أو أحدا ممن معه •

وحين يحاول أن يتعرف عليهم يقول له سامى :

ـ ستعرف حين ينبغى أن تعرف • ادخل الآن الى دارك وأكمل عملك ولا تخش شيئا وتوكل على الله •

***

وسار سامى وصحبه عائدين طريقهم • وكان سامى يعلم أن عيون العصابة تسير وراءهم حيث يسيرون •

تحرى سـامى أن يطيل طريقه ويتلوى بهم حتى بلغ النهـر • وفوجىء رجال زين بسامى ورفاقه يختفون فى جرف النهر واسـتبد بخطاب وعصابته الذهول • وأمرهم خطاب أن ينتظروا فتريثوا بعض الحين ثم تسارعوا الى النهر فوجدوا سامى قد صنع من بعض حبـال شبيه جسر مما يصنعه رجال الجيش عند عبورهم للعوائق المـائية • تقدم خطاب وأشار الى أصحابه أن يتبعوه وسار خطـاب على الجسر وخطا عليه بضـع خطوات • وفى أثره تقاطر الرجال الخمسة • وحين أصبحوا جميعهم فى منتصف الجسر سمعوا صوتا حاسما يقول :

ـ الآن •••

فاذا بالجسر تتقطع أطرافه واذا جميعهم فى المـاء •••

***

حين سمع العمدة الطرقات الثلاث عرف أن السرقة فشلت مرة أخرى وركبه هم قاتل ولكن الطارق لم يكتف بالطرق •
بل صـاح :

ـ حضرة العمدة •

وتصامم زين ولكن النداء الح فنظر العمدة الى زوجتـه فرأى وجهها قد كسـته الجهامة • وتبين من قسماتهـا أنها تعرف كل شيء واستطاعت هي أن ترى في عينيه نوعا من التساؤل وصمتت فازدادت حيرته وراح يقلب نظره بينها وبين الصوت الآتي له من الطارق •

لأول مرة رأته رتيبة ضعيفا حائرا لا يدري ماذا يصنع • انسان اذن هو بكل ضعف الانسانية وهوانه • وليس هو ربـا ولا هو الها ها هو ذا متخاذل أمامها وهي سيدة بلا حول لها ولا قوة الا شرف الدخائل وطهر السرائر ووضـوح النفس لا تخاف شـيئا يتخفى في كيانها البشري •

وحين الح الطارق المنـادي قالت هي في صوت آمر قوي بالحق الذي أحست أنها تتجسده :

ـ انظر فيم يريدك •

وكسجين تحطم عنه القيد قال بصوت يشرخه الرعب :

ـ انتظر • أنـا قادم اليك •

وتوقف الطارق عن الطرق وعن النداء وقصـد زين الى بـاب البيت وخرج الى سواد الليل •



عينان حمراوان ، وبنيان تصــدع ، ووجه مكروب ، وشــارب متهدل ، وعمامة منداحة على الرأس ، وخوف ووجل واستخذاء ورعب وانزواء . هكذا كان العمدة وهو جالس فى صــدر قاعته بدواره . وحيدا كان ليس حوله من أهــل القرية أحد . تقتله الوحشــة . من حجرته كما تقتله الوحشة من داخله .

من هؤلاء . أمن الجن هم أم من البشر . أم قد أرسل الله اليه ملائكة شــدادا ينتقمون لكل من أصابهم فى حياتهم وفى أمنهم وفى أموالهم .

أتكون هكذا نهايته وهو الذى عتا ما عتا فى البشر .

ألم يكن الموت أرحب يتوارى فى طواياه من هــذا الخزى . وكيف يكون مقامه فى قريته من بعد اليوم .

الناس جميعا يرونه مسربلا بالخزى والعار .

لقد كانت الجموع فى طريقها الى المسجد لصلاة الفجر ولا حديث لها الا الهوان الذى أحاط به .

ولم يعد فى الربوع من لم يعرف ما حل بالطاغية من وبال •

فما بعجيب اذن أن يستقبل صباحه وحيدا تحيط به الوحشة من كل جانب وتفرى صرخات الرعب كيانه جميعا •

ومن بعيد تتواتر اليه أصوات جموع ما تزال تتعالى وتقترب حتى تصبح ضجيجا عاليا مشتدا ثم ينفتح باب القاعة على مصراعيه واذا بالحجرة المترامية الأطراف تصبح مليئة بالناس • وعلى رأسهم اثنان يحملان السلاح حمل من لا ينتوى أن يستعمله • وقبل أن يفيق العمدة زين الرفاعى يجد السلاح جميعا ملقى أمامه على الأرض • ويرفع رأسه الى من رمى بالسلاح ويرى ••• ويل له من الأيام ••• أى انسان الا هذين ••• أى مخلوق من المخلوقات ••• من البشر أو الجن أرحم من أن يرى هذين اللذين يراهما • ويغمض عينيه ويطيل الاغماض ثم يفتحهما ••• كونا أى اثنين آخرين ولا تكونا من أرى • ولكن الحقيقة لا تحتمل الشك • انهما هما وليس غيرهما ••• سامى ومأمون ••• واقفان هما كجبلين أقامهما القدر فى وجهه ••• ان قلت ان سامى ليس ابنى ماذا أنا قائل عن مأمون ابن دمى ••• أيكون الحق أرفع شأنا من صلة الدم ••• وسامى نفسه انه لا يعرف لنفسه أبا غيرى • بل انى نسيت من حقيقة مولده الا أنه ابنى تلقفته وهو رضيع وأرضعته من أصبحت فيما بعد زوجى وأم أخيه وأم ابنى • ما هذا الذى يصنعان بى •

وطال الصمت • والابنان ينتظران الأب أن يقول أو يسأل وهو فى غمرة الذهول الصاحى لا ينطق والناس جميعا الذين ملأوا الحجرة وما خارجها من بناء وطرق كأن على رؤوسهم الطير •

كان الصمت الذى طال أعظم من كل كلام يمكن أن يقال • ما كان صمتا ذاك بل كان حوارا عجيبا دار بينه وبين ولديه ثم بينه وبين كل فرد من هذه الجموع •

فكلهم أصابه منه ويل وويل • من لم يصبه بالفعل والعمل أصابه بالرعب الرادع وبالخوف يسرى من جوبهم مسرى الدماء فما يجرؤ واحد منهم أن يرفع رأسا أو ينطق باحتجاج أو يعالن بتمرد •

وحين طـال الحوار الصامت وجد زين نفسـه يقول فى حروف متعتعة راعشة :

ـ أنتمـا •

ويقول سـامى :

ـ نعم ••• نحن •

وباللسان المتصلب يقول زين :

ـ أنتما من دون الناس جميعا •

ويقول سـامى :

ـ كان لابد أن نكون نحن من دون الناس جميعا •

ـ ألم أكن أصنع ما صنعت من أجلكما •

ويقول سـامى :

ـ لقد كان ما صنعت وبالا على الناس أجمعين ولكنه كان علينا أنـا وأخى كارثة لا مثيل لها •

ـ ان يقدم الناس لكما الاحترام كارثة •

ويقول سـامى :

ـ ليس الاحترام فيما يقـدمه النـاس من كلمـات وحركات وانما الاحترام هو الحب فى داخل القلوب وقد جعلت الناس جميعا لا تحمل لنا الا البغض والكراهية والاحتقار • وكان دعاؤهم فى كل صلاة أن يخلصهم الله منك ومنا جميعا • فانك مهما تحـاول أن تمحق

حرية الانسان فانه على تمام حريته اذا ناجى ربه • وان دعاء مظلوم برتفع الى السماء لا يعادله شيء من أطايب الأرض جميعا •

ــ ألم أكن أجمع المــال لكما ؟ !

ويقول ســامى :

ــ لا يا أبت ••• لقد كان أيسر المــال يكفينا وكان الحــلال من مالك حسبنا ليكون سترا وعيشــة راضــية ولكنك كنت تفعل ما تفعل لأنك يلذ لك أن تقهر الناس وتكسر كرامة الانسان فيهم وهم البشر الذين جعلهم الله سادة مخلوقاته فجعلتهم أنت عبيد ســلاحك وطغيانك وجبروتك •

وفى هوان اليائس ينظر زين الى ابن دمه يستجدى منه الرحمة •

ــ هذا قولك يا مأمون •

ــ هو قولى يا أبت ولا قول لى غيره •

ــ هل أنت واثق يابنى •

ــ كره الله ما تفعل يا أبى •

ــ أهكذا علمك أخوك •

ــ بل هكذا علمنى ربى ورب أخى •

وأطرق زين ثم قال وهو فى اطراقه وانحنائه :

ــ وماذا أنتما فاعلان !

ويقول ســامى :

ــ ترد الى كل صاحب حق حقه •

ويقول زيــن :

ــ لقد اختلط الحق بالباطل ولم أعد أدرى أى الأنصبة لى وأيها لغــيرى •

ويقول سامى فى بساطة :

ــ فمالك جميعا خالطه الحرام فهو جميعه للناس •

وفى مرارة قاتلة يقول زين :

ــ وأنـا وأمك كيف نعيش •

فيقول مأمون :

ــ هذا واجبنا نحن •

وينظر زين الى سامى الذى يقول :

ــ اننا نحن المسـئولان عنك وعن أمنا وليس ما اغتصبت من حقوق الناس •

وهوم الصمت مرة أخرى • فيه من الناس تنظر وارتقاب وهو فى رأس زين ضجيج وفكر يتزاحم •

رفجأة قال زين فى حسم :

ــ سـامى •

ــ نعم يا أبى

ــ وأنت يا مأمون •

ــ نعم يا أبى •

ــ أما أنـا فلن أبقى بعد اليوم فى هذه القرية •

وساد الصمت لحظات ثم قال :

ــ لتكن أنت العمدة يا سامى •

فقـال سـامى :

ـ ليس من حقـك أن تعين خليفتـك فانك لا تملك الا أمـر نفسـك .

ـ أترفض .

ـ نعم أرفض .

ـ فمن يكون العمدة .

ـ هذا من حق الناس أن يقولوه .

ـ وان اختاروك .

ـ استعفيهم .

وتعالت أصوات .

ـ نعم ... نعم ... نريدك أنت .

فاذا سامى يصيح فيهم :

ـ اصمتوا ... ما هـذا الذى تقولون ... لمـاذا تختـارون ابن الظلم والقتل والرعب والجبروت أن يكون رئيسا عليكم وأبوه هو من عانيتم منه السنين الطوال . هيهات والله لن أقبل مبايعتـكم هذه . فأنتم الآن فى لحظـة أنـا فيها أبهركم بدفعى الظلم عنكم . وما أردت بها الا وجه الله . دعونى وقـد أديت أنـا وأخى رسالتنا نمضى سبيلنا واختاروا أنتم من بينكم من ترضون عنه . فاذا ظلم واحد منكم ... واحدا فقط أهون ظلم فاجمعوا رأيكم وغيروه فانكم ان سكتم عن ظلم هين ما يلبث الظلم الغليظ أن يحيط بكم .

ويصمت القوم ويبدو الاقتناع والرضا على وجوههم ثم يلتفت سامى الى أبيه .

ـ أبى ... قلت انك تريد أن تترك البلد .

ـ نعم انى تاركها .

ــ فلا شأن لك من بعد بمنصب العمدة فيها ••• فهل لك مــال تعيش به حيث تذهب •

ــ نعــم •

ويلتفت سامى الى الجموع •

ــ اتتركون له هذا المــال •

ويصيح الجميع •

ــ نعــم •

ويقول سامى لأبيــه :

ــ اذن فهو لك •

ويقول الأب :

ــ زوجتى •

وتخرج رتيبة من حجرة مجاورة •

ــ أنــا مع ولدى •

وينظر اليها زين طويلا ثم يقول :

ــ لم أكن انتظر الا هذا • فما أحسب أنك تزوجتنى الا لترعى سامى الذى رضع قطرته الأولى من صدرك

وترتسم لمحــة سريعة من الدهشة على وجه رتيبة ••• أيكون قد علم ••• ولكن ما البأس • الآن لا يهمنى أن يعلم أو لا يعلم •

ويقوم زين عن كرسيه وهو يقول :

ــ سأركب السيارة الى المركز ثم تعود اليكم •

ويقول مأمون :

ــ ألا تريد شيئا يا أبى •

وينظر اليه زين طويلا ثم يقول :

ـ لقد وجدت فى سامى أبـا ••• فأحبه كما لم تحببنى •

ويقول ســامى :

ـ بل اننا فعلنا ما فعلنا لأننى ومأمون نحبك أكثر من حبنا لأى انسان فى العالم •

ويبتسم زين وهو يقول :

ـ أحب هذا الذى تصنعان ؟ !

ـ ما صنعنا الا أن جعلناك قريبا الى الله وكنت عنه بعيدا كل البعد •

ويطرق زين طويلا ثم يقول :

ـ نعم ••• أحسبك صادقا ••• لقد كنت دائمـا صادقا ••• وداعا اذن •

ويقول ســامى :

ـ بل سنلتقى •

ـ لن تعرف مكانى •

ويقول مأمون :

ـ سنلتقى يا أبى •

ويقول زيــن :

ـ لنترك الزمن يفعل ما يشاء ••• كونا سلاما كما كنتما دائما •

ويقول ســامى :

ـ لا نستطيع الا أن نكون سلاما ٠

ويقوم زين عن كرسيه ويمشى فتنشق الجموع عن طريق له يسير فيه وئيدا حتى اذا بلغ الباب الخارجى وجد السيارة تنتظره فيركبها وحين تسير السيارة تكون الأصوات كلها هائمة فى صمت من ملكوت الحرية المعطرة والقلوب كلها خاشعة للحى القيوم ٠

***

((تمت بحمد الله))

رقم الايداع ٢٩٨٤/٨٧

الترقيم الدولى ٨ ـ ١٣١٥ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

